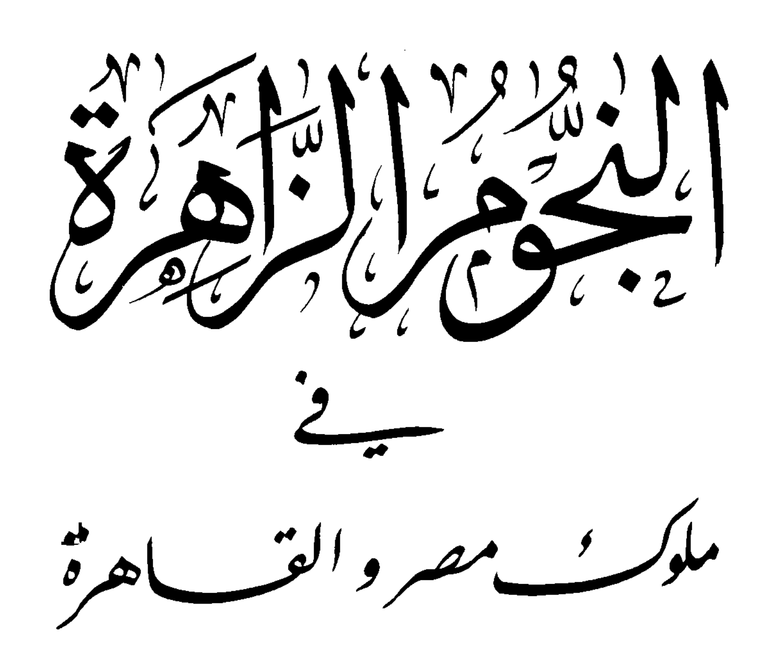


تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء التاسع

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ذِكْر عَوْد الملك الناصر محمد[١] بن قلاوون إلى مُلْك مصر ثالث مرّة

وقد تقدّم ذكرُ نزوله عن المُلك وتوجُّهه إلى الكَرَك وخَلْع نفسه وما وقع له بالكرك من مجيء نُوغاي ورُفقته، ومكاتباته إلى نوّاب الشام وخروجه من الكرك إلى الشام، طالباً مُلكَ مصر إلى أن دخل إلى دِمَشْق؛ كلُّ ذلك ذكرناه مفصّلاً في ترجمة الملك المظفر بِيبرس الجَاشْنَكِير. ونسوق الآن ذِكْرَ دخوله إلى مصر فنقول:

لمّا كانت الثانيةُ من نهار الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة، وهي الساعة التي خَلَع الملك المظفرُ بِيبَرْس نفسه فيها من مُلك مصر بديار مصر، خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من دِمشْق يريد الديار المصرية، فانظُر إلى هذا الاتفاق العجيب، وإقبال سعد الناصر وإدبار سعد المظفّر! وسار الملك الناصر يريد الديار المصريّة وصحبتُه نوّاب البلاد الشاميّة بتمامهم وكمالهم والعساكر الشامية وخواصه ومماليكه.

وأمّا أمر الديار المصرية فإنّ الملك المظفّر بِيبَرس لمّا خَلَع نفسه وخرج من مصر إلى الإِطْفِيحيّة جلَس الأمير سلّار بقاعة النيابة من قلعة الجبل وجمع مَنْ بَقِيَ من الأمراء واهتمّ بحفظ القلعة، وأخرج المحابيس الذين كانوا فيها من حواشي

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ١/٣/٧٩٣ و٢/١/٧٢؛ وخطط المقريزي: ٢/٢٣٩؛ وخطط علي مبارك: ١/٨٨ ـ ٩٨؛ وبدائع الزهور: ١/١/٤٣١؛ والجوهر الثمين: ٢/١٤٥ـ١٧٢؛ وتاريخ ابن الفرات: ٨/١٧٢؛ وفوات الوفيات: ٤/٣٥؛ وشذرات الذهب: ٦/١٣٤؛ والدرر الكامنة: ٤/١٦١؛ والرد الفاخر في سيرة الملك الناصر (وهو الجزء التاسع من كنز الدرر) للدواداري.. وغيرها من كتب التاريخ الإسلامي العام وكتب التراجم.

الملك الناصر محمد وغيرهم، ورَكِب ونادَى في الناس: «ادعوا لسلطانكم الملك الناصر»، وكتَب إلى الملك الناصر بنزول المظفّر عن المُلك وفراره إلى إطْفيح، وسَيّر بذلك أَصْلم الدَّوَادار ومعه النِّمجاه[١] ـ وكان قد توجّه قبل ذلك من القاهرة الأمير بِيبَرْس المنصوريّ الدّوادار، والأمير بهادُر آص في رسالة المظفّر بِيبَرْس أنّه قد ترك السلطنة وأنّه سأل: إمّا الكَرَكَ وإمّا حماةَ وإما صِهْيَوْنَ. واتّفق يومَ وصولهما إلى غَزّة قدومُ الملك الناصر أيضاً إليها، وقدومُ الأمير سيف الدين شاطِي[٢] السِّلاح دار في طائفة من الأمراء المصريّين إليها أيضاً. ثم قَدِمت العربان وقَدم الأميرُ مهَنّا [بن عيسى]بجماعة كثيرة من آل فضل، فَركب السلطان إلى لقائه. ثم قَدِم الأمير بُرُلْغي الأشرفيّ مُقَدّم عساكر المظفّر بيبرس وزَوْجُ ابنته، والأمير آقوش الأشرفيّ نائب الكَرَك، فسُرّ الملك الناصر بقدومهما، فإنّهما كانا عَضُدَي المظفّر. قال الأمير بِيبَرْس الدّوادار المقدّم ذكُره في تاريخه[٣] ـ رحمه الله ـ :

«وأما نحن فإنّا تقدّمنا على البريد فوصلْنا إلى السلطان يوم نزوله على غَزّة، فمثَلْنا بين يديه وأعدْنا المشافهة عليه، وطالَعْناه بنزول الرُّكن عن السلطنة والتماسه مكاناً من بعض الأمكنة، فاستبشر لحَقْن دماء المسلمين وخمود الفتنة؛ واتّفق في ذلك النهار ورود الأميـر سيف الدين بُرُلْغي والأمير عزّ الدين البغداديّ ومَنْ معهما من الأمراء والمقدَّمين، واجتمعنا جميعاً بالدِّهليز المنصور، وقد شَمِلَنا الابتهاج، وزال عنّا الانزعاج؛ وأفاض السلطان على الأمراء التشاريف الجليلة على طبقـاتهم،

---

(١) النمجاه: ويقال أيضاً: نمجا، ونمجه، ونمشا، ونمشاه، ونمشه. وهي عبارة عن خنجر مقوّس شبه السيف القصير. وأصل اللفظ فارسي: نيمجه، بالجيم المشربة؛ وهو مركب من «نيم» بمعنى نصف و«جه» وهي علامة تصغير. ويكون المعنى الحرْفي: النُّصَيف. وهذا اللفظ في الفارسية اسم لنوع من السيوف ولبندقية قصيرة، واستعمله العرب بمعنى السيف فقط. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١٩١، وصبح الأعشى ٤/٢٤) والظاهر من النصوص التاريخية أن النمجاه كانت من آلات السلطان الشخصية أو نائب السلطنة، وكانت تسمى النمجاه السلطانية. (انظر صبح الأعشى: ٤/٢٥، ٦٥ ـ طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) في السلوك: «ساطي» بالسين المهملة.

(٣) هو كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة.

والحوائصَ[١] الذهب الثمينة لِصِلاتهم، فلم يترك أميراً إلاّ وصله، ولا مقدَّماً حتى شرّفه بالخِلَع وجمَّله. وجَدَّدْنا استعطاف السلطان، فيما سأله الركن[٢] من الأمان، وكلٌّ من الأمراء الحاضرين بين يديه يتلطّف في سؤاله، ويتضرّع في مقاله؛ حتّى أجاب، وعُدْنا بالجواب. ورحَل السلطان على الأثر قاصداً الديار المصرية؛ فوصلْنا إلى القلعة يومَ الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان، واجتمعنا بالأمير سيف الدين سلاّر، ووجدنا الجَاشْنَكِير قد تجاوز موضع المِيعاد، وأخذ في الإصعاد، وحَمَله الإجفال على الإبعاد، ولم يَدَعه الرعُب يستقرّ به قَرار، ولا تلقته معه أرضٌ ولا دار؛ فاقتضى الحاُل أن أرسلْنا إليه الكُتُب الشريفة الواردة على أيدينا، وعدتُ أنا وسيف الدين بهادُر آص إلى الخِدْمة السلطانية، فوجدْنا الدِّهليز على منزلة السعيدية[٣]». اِنتهى كلام بِيبَرْس الدوادار باختصار.

قلتُ: ولمّا تكاملت العساكر بغَزّة سار الملك الناصر يريد الديار المصريّة، فوافاه أصْلم دوادار سَلاّر بالنِّمجاه، ثم وصَل رَسْلان[٤] الدّوادار فسّر السلطان بنزوله. وسار حتى نزل بركة الحُجّاج في سلخ شهر رمضان، وقد جهّز إليه الأميرُ سَلاّر الطُّلْب السلطاني والأمراء والعساكر، ثم خرج الأمير سَلاّر إلى لقائه. وصلّى السلطان صلاة العيد بالدِّهليز[٥] ببركة الحاج في يوم الأربعاء مستهلّ شوال، وخَرج الناس إلى لقاء السلطان الملك الناصر. وأنشد الشعراء مدائحهم بين يديه؛ فمن ذلك ما أنشده الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن موسى الداعي[٦] أبياتاً منها:
[الكامل]

---

(١) الحوائص: جمع حياصة، وهي الحزام أو المنطقة، وكانت من الخلع والتشاريف. وكان ترصيع هذه الحوائص وأثمانها على قدر المهداة إليهم من الأمراء والمقدمين. ـ انظر في ذلك خطط المقريزي: ٢/٩٩ في كلامه على سوق الحوائصيين.

(٢) المراد ركن الدين بيبرس الجاشنكير.

(٣) راجع ص ٢٠٠ من الجزء الثامن، حاشية (٢).

(٤) في السلوك والدرر الكامنة: «أرسلان».

(٥) الدهليز: هو الخيمة السلطانية. ـ راجع فهارس المصطلحات.

(٦) في السلوك: «الراعي».

المُلْك عاد إلى حِماه كما بدا ومحمدٌ بالنصر سَرَّ محمدا
وإيابُه كالسيف عاد لغِمدِه ومَعادُه كالوَرد عاوده النَّدى
الحقُّ مُرْتَجَعٌ إلى أربابه من كفّ غاصبه وإن طال المدى

ومنها:

يا وارثَ المُلْكِ العقِيم تَهَنَّهُ واعلم بأنك لم تَسُد فيه سُدَى
عن خير أسلافٍ ورِثْتَ سريرَه فوجدتَ مَنْصِبَه السَّرِيّ مُمَهَّدَا
يا ناصراً من خير منصورٍ أتى كمهند خلَفَ الغَداةَ مهنَّدا
آنستَ مُلْكاً كان قبلك مُوحِشاً وجمعتَ شَمْلاً كان منه مُبَدَّدَا

ومنها:

فالناس أجمعُ قد رَضُوك مليكَهم وتضرّعوا ألا تزال مخلَّدا
وتباركوا بسناء غرّتك التي وجدوا على أنوار بهجتها هُدَى
الله أعطاك الذي لم يُعطه مَلِكاً سواك برَغْم آناف العِدَا
لا زلتَ منصورَ اللّواءِ مؤيّد الـ ـعَزَماتِ ما هتَفَ الحَمَامُ وغرَّدَا

ثم قدّم الأميرُ سَلّار سِماطاً جليلاً بلغت النفقةُ عليه اثني عشر ألف درهم؛ وجلس عليه السلطان والأمراء والأكابر والعساكر. فلما انقضى [السماط] عَزَم السلطان على المَبِيت هناك والركوب بُكرة النهار يوم الخميس، فبلغه أن الأمير بُرُلْغِي والأمير آقوش نائب الكرك قد اتّفقا مع البُرْجية على الهجوم عليه وقتله، فبعث السلطان إلى الأمراء عرّفهم بما بلَغه وأَمَرهم بالركوب، فركَبوا ورَكِبت المماليك ودُقت الكُوسات. وسار [الناصر] وقت الظهر من يوم الأربعاء، وقد احتفّت به مماليكه كي لا يصلَ إليه أحد من الأمراء حتى وصل إلى القلعة؛ وخرج الناس بأجمعهم إلى مشاهدته. فلما وصل بين العَرُوسَتَيْن[1] ترجّل سلّار عن فرسه، وترجّل سائر الأمراء ومشَوْا بين يديه إلى باب السِّرّ من القلعة، وقد وقَف جماعة من الأمراء

(١) أطلق هذا الاسم على خط من الأخطاط الواقعة في طريق الواصل إلى قلعة الجبل من القاهرة في العصور الوسطى، وكان به مقابر لبعض الأولياء. (السلوك: ٢/١/٧٣، حاشية: ١) وحدد محمد رمزي بك مكانه اليوم بالموضع الذي توجد به دار المحفوظات المصرية (الدفترخانة المصرية).

بمماليكهم وعليهم السّلاح، حتى عبرَ السلطانُ إلى القلعة ثم أمر السلطان الأمراءَ بالانصراف إلى منازلهم، وعيّن جماعة من الأمراء الذين يَثِق بهم أن يستمرُّوا على ظهور خيولهم حول القلعة طول الليل فباتوا على ذلك.

وأصبحوا من الغد وقد جلَس السلطان الملك الناصر على كرسيّ المُلك وهو يوم الخميس ثاني شوّال. وحضَر الخليفةُ أبو الربيع سليمان والقُضاة والأمراء وسائرُ أهل الدولة للهناء، فقرأ الشيخ شمس الدين محمد بن عليّ بن موسى الداعي[١]: ﴿قُلِ اللّهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية[٢]. وأنشد بعضُ الشعراء هذه الأبيات: [الطويل]

تهنَّأتِ الدنيا بمقدِمِه الذي أضاءت له الآفاقُ شَرْقاً ومَغْربا
وأمّا سريرُ المُلك فاهتزَّ رِفْعَةً ليبلغَ في التشريف قَصْداً ومَطْلَبا
وتاق إلى أن يعلُوَ المَلكُ فوقه كما قد حَوَى من قبله الأَخَ والأبا

وكان ذلك بحضرة الأمراء والنوّاب والعساكر؛ ثم حَلَّف السلطان الجميع على طبقاتهم ومراتبهم الكبيرَ منهم والصغير.

ولمّا تقدّم الخليفة ليسلِّم على السلطان نظَر إليه وقال له: «كيف تحضُر وتُسلِّم على خارجِي؟ هل كنتُ أنا خارجِيًّا؟ وبِيبَرْس من سُلالة بني العباس؟» فتغيّر وجهُ الخليفة ولم يَنْطِق.

قلت: والخليفة هذا، كان الملك الناصر هو الذي ولّاه الخلافة بعد موت أبيه الحاكم بأمر الله.

ثم التفتَ السلطان إلى القاضي علاء الدين عليّ بن عبد الظاهر المُوَقِّع، وكان هو الذي كتب عهد المظفَّر بِيبَرْس عن الخليفة، وقال له: «يا أسودَ الوجه»، فقال ابن عبد الظاهر من غير توقّف: «يا خَوَنْد، أبلقُ خيرٌ من أسود». فقال

(١) في السلوك: «الراعي».
(٢) آل عمران، الآية ٢٦.

السلطان: «ويلك! حتّى لا تترك رَنْكه(١) أيضاً!» يعني أنّ ابن عبد الظاهر كان مّمن يَنْتَمِي إلى سَلاّر، وكان رَنْك سَلاّر أبيضَ وأسودَ. ثم التفتَ السلطان إلى قاضي القُضاة بدر الدين [محمد] بن جَمَاعة وقال له: «يا قاضي، كنتَ تُفْتِي المسلمين بقتالي؟» فقال: معاذَ الله أن تكون الفَتْوَى كذلك، وإنّما الفتوى على مقتضى كلام المُسْتَفْتِي.» ثم حضَر الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن المُرَحِّل وقبّل يد السلطان، فقال له السلطان: «كنتَ تقول في قصيدتك:

ما للصبِيِّ وما للملك يكفُله

فحلَف ابن المُرَحِّل بالله ما قال هذا، «وإنّما الأعداءُ أرادوا إتلافي فزادوا في قصيدتي هذا البيت، والعفوُ من شِيَم الملوك» فعفا عنه. وكان ابن المُرَحِّل قد مدَح المظفّر بِيَبْرس بقصيدة عرَّض فيها بذكر الملك الناصر محمد، من جملتها: [البسيط]

ما للصّبِيِّ وما للملك يَكْفُلُه ... شأنُ الصبِيِّ بغير المُلك مألوفُ

ثم استأذن شمس الدين محمد بن عدلان للدخول على السلطان، فقال السلطان للدّوادار، قل له: «أنت أفتيتَ أنّه خارجيٌّ وقتاله جائز، ما لك عنده دخول؛ ولكن عرِّفه هو وابن المُرَحِّل [أنه] يَكفيهما ما قال الشّارِمْسَاحيُّ في حقِّهما». وكان من خَبَر ذلك أنّ الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشّارِمْسَاحيّ الماجن مدَح السلطان الملك الناصر بقصيدة يهجو فيها المظفّر بِيبَرْس ويُعَرِّض لصحبته ابن المُرَحِّل وابن عدلان، منها: [البسيط]

وَلّى المظفَّرُ لمّا فاته الظَّفَرُ ... وناصرُ الحق وافَى وهو منتصِر
وقد طَوَى الله من بين الوَرَى فِتَناً ... كادت على عُصبة الإسلام تَنْتَشِرُ
فقل لبِيبَرْس إنّ الدهر ألبسهُ ... أثوابَ عاريةٍ في طولها قِصَرُ
لمّا تَوَلّىَ تولّى الخيرُ عن أُمم ... لم يَحْمَدُوا أمرهم فيها ولا شَكَرُوا

(١) الرَّنك: لفظ فارسي بمعنى اللون والصبغة، وهو في الاصطلاح التاريخي بمعنى الشعار والبنديرة. (تأصيل الدخيل: ١١٥).

وكيف تمشي به الأحوالُ في زمنٍ   لا النِّيلُ وافى ولا وافاهمُ مطَرُ
ومن يقوم ابنُ عَدْلانٍ بنُصْرتِه   وابنُ المُرَحِّل قل لي كيف ينتصر

وكان المَطَر لم يَقَع في تلك السنة بأرض مصر وقصَّر النيل، وشَرِقت البلاد وارتفع السعر. واتّفق أيضاً يوم جلوس السلطان الملك الناصر أنّ الأمراء لمّا اجتمعوا قبل خروج السلطان إليهم بالإيوان، أشار الأفرم نائب الشام لمُنْشِدٍ يقال له مسعود أحضره معه من دِمَشق، فقام مسعود وأنشد أبياتاً لبعض عوام القاهرة، قالها عند توجّه الملك الناصر من الديار المصرية إلى الكَرَك: منها: [الطويل]

أحِبَّةَ قلبي إنّني لوحيدُ   أُريد لقاكم والمَزار بعيدُ
كفى حَزَناً أنِّي مقيمٌ ببلدةٍ   ومَنْ شَفَّ قلبي بالفراق فريدُ
أجول بطَرْفي في الديار فلا أرَى   وجوه أحبَّائي الذين أُريدُ

فتواجد الأفرم وبَكى وحَسَر عن رأسه [ووضَع][1] الكَلْفَتَاة على الأرض، فأنكر الأمراء ذلك، وتناول الأميرُ قَراسنقر الكَلْفَتَاة ووَضَعها بيده على رأس الأفرم، ثم خرج السلطان فقام الجميع، وصرخ الجاويشيةُ[2] فقبّل الأمراء الأرض وجَرى ما ذكرناه، وانقضت الخدْمة، ودخل السلطان إلى الحريم.

ثم بعد الخِدمة قَدّم الأمير سَلّار النائب عِدة من المماليك والخيول والجمال وتعابي[3] القماش ما قيمته مائتا ألف درهم، فَقبِل السلطان شيئاً ورَدّ الباقي. وسأل سلّارُ الإعفاءَ من الإمرة والنيابة وأن يُنْعَمَ عليه بالشُّوبَك فأُجيب إلى ذلك، بعد أن حلَف أنّه متى طُلِب حضَر؛ وخلَع السلطان عليه، وخرَج سَلّار من مصر عصر يوم الجمعة ثالث شوّال مسافراً إلى الشُّوبَك، فكانت مدّةُ نيابة سَلّار على مصر إحدى

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الجاويشية: جمع جاويش، ويقال أيضاً شاويش. وكان الجاويشية في نظام دولة المماليك بمصر أربعة جنود من الحلقة وظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب في مواكبه للنداء وتنبيه المارة. (صبح الأعشى: ٤/٤٧، ٤٨، ٢٣٩) وكلمة جاويش من التركية «جاووش»، وهي مشتقة من المقطع التركي «جاو» الذي يدل على معنى الصياح والنداء. (انظر تأصيل الدخيل: ٥٩ ــ ٦٤).

(٣) أي قطع من القماش.

عشرة سنة. وكانت الخِلْعة التي خلَعها السلطان عليه بالعَزْل عن النيابة أعظم من خِلعة الولاية؛ وأعطاه حِياصَةً من الذهب مُرصَّعة، وتوجّه معه الأميرُ نظام الدين آدم مُسَفِّراً له، واستمرّ الأمير عليّ بن سلّار بالقاهرة، وأعطاه السلطان إمْرة عشرة بمصر.

ثم في خامس شوّال قَدِم رسول المظفّر بيبرس يطلب الأمان فأمّنه السلطان. وفيه خلع السلطان على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريّ باستقراره في نيابة دِمَشْق، عِوَضاً عن الأمير آقوش الأفرم بحُكْم عزله. وخلَع على الأمير سيف الدين قَبْجَق المنصوريّ بنيابة حلب عِوضاً عن قرا سنقر. وخلَع على أَسَنْدَمُرْكُرْجي بنيابة حماة عوضاً عن قَبْجَق، وخلَع على الحاج بهادُر الحلبِيّ بنيابة طرابُلُس عِوَضاً عن أسندمر كُرْجِي. وخلعَ على قُطْلُوبك المنصوريّ بنيابة صَفَد عوضاً عن بَكْتُمَر الجُوكُنْدَار. واستقرّ [سُنْقُر][1] الكماليّ حاجب الحجّاب بديار مصر على عادته، وَقَرالاجين أمير مجلس على عادته. وبيبرس الدوادار على عادته، وأُضِيف إليه نيابة دار العدل ونَظَر الأحباس[2]. وخلَع على الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام كان بنيابة صَرْخَد على خُبْز مائة فارس. وأنعم السلطان على نوغاي القَبْجَاقِيّ بإقطاع الأمير قُطْلُوبك المنصوريّ، وهو إمْرة مائة وتقدمةُ ألف بدِمَشْق. ونُوغَاي هذا هو صاحب الواقعة مع المظفّر والخارج من مصر إلى الكَرَك. إنتهى.

ثم رسم السلطان لشهاب الدين بن عبادة بتجهيز الخِلَع والتشاريف لسائر أمراء الشام ومصر فُجهّزت، وخلَع عليهم كلِّهم في يوم الاثنين سادس شوّال، ورَكبوا بالخِلَع والتشاريف فكان لركوبهم يومٌ عظيم.

وفي يوم الأحد ثاني عشر شوّال استقرّ فخر الدين عمر بن الخليليّ في الوزارة عِوضاً عن ضياء الدين النشائِيّ.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) نظر الأحباس: وصاحبها يسمى ناظر الأحباس. وهي وظيفة عالية المقدار تعادل وزارة الأوقاف في عصرنا الحالي، وموضوعها أن صاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس والأراضي المفردة لذلك. (انظر صبح الأعشى: ٤/ ٣٨).

ثم رسَم السلطان للنوّاب بالسفر؛ فأوّل من سافر الأميرُ قَبْجَق نائب حلب، وخرجَت معه تجريدةٌ من العساكر المصريّة خوفاً من طارق يطرُق البلاد. والذي تجرّد مع قَبْجَق من أمراء مصر هم: الأمير جُبَا أخو سَلّار، وطُرُنْطَاي البغداديّ، وعلاء الدين أَيْدُغْدِي، وبهادُر الحمَوِيّ، وبَلَبان الدِّمَشْقيّ، وسابق الدين بوُزنا الساقي، وركن الدين بِيبَرْس الشجاعِيّ، وكُورِي السلاح دار، وأقطوان الأشرفيّ، وبهادُر الجُوكندار، وبَلَبان الشمسيّ، وأَيْدُغْدِي الزَّرّاق، وكُهُرْدَاش الزّرّاق، وبَكْتمُر أُستادار، وأَيْدَمُرْ الإسماعيليّ، وأَقْطاي الجَمَدار، وجماعة من أمراء العشرات. فلمّا وصلوا إلى حلب رَسَم بإقامة جماعة منهم بالبلاد الشاميّة، عِدَّتُهم ستة من أمراء الطبلخاناه، وعادت البقية.

وفي يوم الخميس سادس عشر شوّال حضَر الأمراء للخدمة على العادة، وقد قرّر السلطان مع مماليكه القبضَ على عِدة من الأمراء، وأنّ كل عشرة يَقْبِضون أميراً ممّن عيّنَهم، بحيث يكون العشرة عند دخول الأمير مُحْتَفَّةً به، فإذا رُفِع السِّماط واستدعى السلطانُ أميرَ جاندار قَبض كلُّ جماعة على مَنْ عُيِّن لهم. فلمّا حضرَ الأمراء في الخِدْمة أحاط بهم المماليك ففهموا القصدَ وجلسوا على السِّماط، فلم يتناول أحدٌ منهم لُقْمَةً؛ وعندما نهَضوا أشار السلطان إلى أمير جاندار، فتقدّم إليه وقبَض المماليك على الأمراء المعيَّنين، وعدّتُهم اثنان وعشرون أميراً، فلم يتحرّك أحد منهم، فبُهِت الجميع ولم يُفْلِت منهم سوى جَرَكْتَمُر بن بهادُر رأس نوبة؛ فإنّه لما فَهِم القصد وضع يَده على أنفه كأنّه رُعِفَ وخرَج من غير أن يشعُر به أحد؛ واختفى عند الأمير قَراسنقر، وكان زوجَ أخته، فشفَع [فيه] قراسنقر فقَبِل السلطان شفاعته.

وكان الأمراء المقبوض عليهم: الأمير باكير[1] وأَيْبك البغداديّ وقينغار[2] التَّقَوِيّ وقَجْماس وصارُوجا وبِيبَرْس، وبَيْدَمروتينوا، ومَنْكُوبرس، وإِشقْتَمُر،

(١) في السلوك: «تناكر».

(٢) في السلوك: «بلبان التقوي».

والسِّيواسيّ و[سُنْقر] الكماليّ الحاجب، والحاجّ بِيليك [المظَّفريّ](١)، والغُتْمِي، وإكبار، وحسن الرّداديّ، وبَلَاط وتَمُربُغا، وقَيْرَان، ونُوغَاي الحَمَويّ وهو غيرُ نوغاي القَبْجَاقِيّ صاحب الواقعة(٢)، وجماعة أخر تتمّة الاثنين وعشرين أميراً.

وفي ثالث عشرين شوّال استقرّ الأمير [سيف الدين](٣) بَكْتَمُر الجُوكُنْدار المنصوريّ في نيابة السلطنة بديار مصر عِوضاً عن سَلّار. وفيه أَمَّر السلطان اثنين وثلاثين أميراً من مماليكه، منهم: تَنْكِز الحُساميّ الذي ولي نيابة الشام بعد ذلك، وطُغاي، وكُسْتَاي، وقجلِيس، وخاصّ تُرك، وطط قرا(٤)، وأقتمر، وأَيْدَمُر(٥) الشَّيْخيّ، وأَيْدَمُر الساقي، وبِيَبْرس أمير آخور، وطاجار [الماردِيني الناصري](٦) وخِضْر بن نُوكاي، وبهادُر قَبْجَق، والحاج أَرُقْطَاي(٧)، وأخوه أَيْتَمش المحمّدي، وأَرْغون الدَّوَادَار الذي صار بعد ذلك نائب السلطنة بمصر، وسُنْقُر المَرْزُوقي، وبَلَبان الجاشَنْكِير، وأَسَنْبُغا [بن عبد الله المحموديّ الأمير سيف الدين](٨)، وَبَيْبُغا المَكيّ(٩)، وأمير عليّ بن قُطْلُوبك، ونُورُوز أخو جَنْكَلي، وأُلْجَاي الحُسامي، وطَيْبُغا حاجّي، ومُغْلَطاي العِزيّ صِهْر نوُغاي، وقُرْمُشِي الزيني، وبَكْتَمُر قَبْجَق، وتينوا الصالحيّ، ومُغْلَطاي البَهَائِي، وسُنْقُر السِّلاح دار، ومَنْكَلي بُغَا، ورَكبوا الجميع بالخِلَع والشرابيش من المنصوريّة ببين القصرين(١٠)وشقُّوا القاهرة، وقد أُوقدت الحوانيتُ كلُّها إلى الرُّمَيلة [وسوق الخيل](٨) وصُفّت المغاني وأرباب الملاهي في عِدّة

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الواقعة المشار إليها هنا هي أن نوغاي القبجاقي اتفق مع جماعة من المماليك على قتل بيبرس فلم يظفر بذلك، فعزم على الالتحاق بالملك الناصر بالكرك.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) في السلوك: «خلط قرا».

(٥) في السلوك: «أركتمر».

(٦) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٧) في السلوك: «رقطاي».

(٨) زيادة عن المنهل الصافي.

(٩) في السلوك: «الملكي».

(١٠) هو شارع المعز لدين الله اليوم.

أماكن، ونُثِرت عليهم الدراهم فكان يوماً مشهوداً. وكان المذكورون منهم أمراء طبلخاناه وعشراوات.

وفيه قبَض السلطان على بُرُلْغي الأشرفي وجماعة أخَر. ثمّ بعد أيام أيضاً قبَض السلطان على الأمير عِز الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ الأسْتَادار، والأمير [بدر الدين][1] بَكْتُوت الفَتّاح أمير جانْدَار بعدما حضرا من عند الملك المظفّر بِيبَرْس وخلَع عليهما، وذلك بعد الفَتْك بالمظفّر بِيبَرْس حسب ما ذكرناه في ترجمة المظفّر بِيبَرْس، وسكتنا عنه هنا لطول قصّته، ولِقصَر مدّة حكايته، فإنّه بالأمس ذُكِر فليس لتَكراره محلّ، ومن أراد ذلك فلينظُر في ترجمة المظفّر بِيبَرْس. اِنتهى.

وفيه سفَّر الأمراءَ المقبوض عليهم إلى حبس الإسكندريّة، وكتَب بالإفراج عن المعتقلين بها، وهم: آقوش المنصوريّ قاتل الشجاعيّ، والشيخ علي التَّتارِيّ، ومَنْكَلِي التَّتاري، وشاورشِي [بن قنغر][2] وهو الذي كان أثار فِتنة الشجاعيّ، وكَتْبُغا، وغازِي وموسى أخوا حمَدْان بن صُلْغَاي، فلمّا حضروا خلَع عليهم وأنعم عليهم بإمريات في الشام. ثم أحضَر شيخَ الإسلام تَقِيّ الدين أحمد بن تَيْميّة من سجن الإسكندرية وبالغ في إكرامه، وكان حبَسه المظفّر لأمرٍ وقع بينه وبين علماء دِمشْق ذكرناه في غير هذا الكتاب، وهو بسبب الاعتقاد وما يُرْمَى به أوباشُ الحنابلة[3].

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرين صفر سنة عشر وسبعمائة عزَل السلطان قاضيَ القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي عن قضاء الديار المصرية بقاضي القُضاة جمال الدين أبي داود سليمان بن مجد الدين أبي حفص عمر الزرعيّ، وعزل قاضيَ القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم السَّرُوجِيّ الحنفيّ، فأقام بعد عزله ستة أيام ومات.

ثم كتَب السلطان الملك الناصر بالقبض على الأمراء الذين كان أطلقهم من

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) راجع الجزء الثامن، ص ١٧٨، حاشية (٢).

حبس الإسكندرية وأنعم عليهم بإمريات بالبلاد الشاميّة خوفاً من شرِّهم. ثم استقر السلطان بالأمير بكَتَمُر الحسامي حاجب دِمشْق في نيابة غَزّة عِوضاً عن بَلَبان البَدْريّ. ثم قبَض السلطان على قطقطو، والشيخ عليّ وضروط، مماليك سَلّار، وأمـر عِوضَهم جماعةً من مماليكه وحواشيه، منهم: بَيْبُغَا الأشرفِيّ، وجفتاي، وطَيْبُغا الشمسيّ، وأَيْدَمُر الدوادار، وبهادُر النقيب.

وفيها حضَر ملك العرب حُسام الدين مُهَنّا أمير آل فضل فأكرمه السلطان وخلَع عليه؛ وسأل مُهَنّا السلطان في أشياء وأجابه، منها: ولاية حمَاة للملك المؤيّد إسماعيل ابن الملك الأفضل [عليّ][1] الأيوُّبـيّ، فأجابه إلى ذلك ووعده بها بعد أَسَنْدَمُرْ كُرْجِي؛ ومنها الشفاعة في أَيْدَمُر الشَّيخِيّ فعفا عنه وأخرجه إلى قُوص؛ ومنها الشفاعةُ في الأمير بُرُلْغِي الأشرفيّ ــ وكان في الأصل مملوكه قد كَسَبه مُهَنّا هذا من التتار ثم أهداه إلى الملك المنصور قلاوون، فوَرِثه منه ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ــ فعدَّدَ السلطان الملك الناصر ذنـوبه، فمـا زال به مُهَنّا حتى خفَّف عنه، وأَذِن للناس في الدخول عليه، ووعده بالإفراج عنه بعد شهر، فَرضِي بذلك وعاد إلى بلاده وهو كثير الشكر والثناء على الملك الناصر.

ولما فَرَغ السلطان الملك الناصر من أمر المظفّر بِيبَرْس وأصحابه ولم يَبق عنده ممّن يخشاه إلّا سَلّار، ندبَ إليه السلطان الأميرَ ناصر الدين محمد ابن أمير سلاح بَكْتَاش الفخريّ وكَتَبَ على يده كتاباً بحضوره إلى مصر؛ فاعتذر سَلّار عن الحضور إلى الديار المصرية بوَجَـع في فؤاده، وأنّه يحضرُ إذا زال عنه. فتخيّل السلطان من تأخُّره وخاف أن يتوجّه إلى التتار؛ فكتَب إلـى قَراسُنْقُـر نائب الشام وإلى أَسَنْدَمُر نائب حَماة بأَخْذ الطُّرُق على سَلّار لئلّا يتوجّه إلى التتار. ثم بعث الملك الناصر بالأميرين: بِيبَرْس الدوادار وسَنْجَر الجاولي إلى الأمير سلّار، وأكّد عليهما [في] إحضاره، وأن يَضْمنا له عن السلطان أنه يريد إقامته عنده يستشيره في أمور المملكة؛ فقَدِما على سَلّار وبلّغاه عن السلطان ما قال، فوعدهما أنه يحضُر، وكتبَ الجواب بذلك؛ فلما رجعا اشتد قَلَقُ السلطان وكَثُر خيالُه منه.

---

(١) زيادة عن السلوك.

وأمّا سَلّار فإنه تحيّر في أمره واستشار أصحابه فاختلفوا عليه؛ فمنهم من أشار بتوجُّهه إلى السلطان، ومنهم من أشار بتوجُّهه إلى قُطْر من الأقطار، إمّا إلى التتار أو إلى اليمن أو إلى بَرْقة. فعوَّل على المسير إلى اليمن؛ ثم رجع عن ذلك وأجمع على الحضور إلى السلطان، وخرج من الشُّوبَك وعنده ممّن سافر معه [من مصر][(١)] أربعمائة وستون فارساً، فسار إلى القاهرة؛ فعندما قَدِم على الملك الناصر قبَض عليه وحبَسه بالبُرْج من قلعة الجبل، وذلك في سلخ شهر ربيع الأوّل[(٢)] سنة عشر وسبعمائة. ثم ضيّق السلطان على الأمير بُرُلْغِي بعد رواح الأمير مُهَنّا، وأخرج حريمَه من عنده، ومَنَع ألاّ يدخُل إليه أحدٌ بأكل ولا شرب حتى أَشْفَى على الموت ويَبِسَت أعضاؤه وخَرِس لسانُه من شدّة الجوع، ومات ليلة الأربعاء ثاني شهر رجب.

وأمّا أمرُ سلاّر فإنه لما حضَر بين يدي الملك الناصر عاتبه عِتاباً كثيراً وطلَب منه الأموال، وأَمَر الأميرَ سَنْجَر الجاولي أن ينزل معه ويتسلّم منه ما يُعْطيه من الأموال؛ فنزل معه إلى داره، ففَتح سلاّر سَرَباً تحت الأرض، فأخرج منه سبائك ذهب وفِضّة وجُرُب من [الأدِيم][(٣)] الطائِفِيّ، في كل جِراب عشرة آلاف دينار، فحملوا من ذلك السَّرَب أكثرَ من [حِمل][(٣)] خمسين بغلاً من الذهب والفِضة؛ ثم طلع سلاّر إلى الطارِمة[(٤)] التي كان يَحْكُمُ عليها فحفروا تحتها، فأخرجوا سبعاً وعشرين خابيةً مملوءةً ذهباً، ثم أَخْرَج من الجواهر شيئاً كثيراً، منها: حجرُ بَهْرَمان[(٥)] زِنَتُه أربعون مثقالاً، وأَخْرَج ألفي حِياصَة ذهب مُجَوْهرة بالفصوص، وألفي قِلادةٍ من الذهب، كلّ قَلادة تُساوي مائةَ دينار، وألفي كَلْفَتاة زَرْكش، وشيئاً كثيراً

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) في السلوك: «ربيع الآخر».
(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن عقد الجمان.
(٤) الطارمة: بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان. وهي لفظة فارسية الأصل، وجمعها طارمات. (انظر خطط المقريزي: ١/٣٥ و٢/٤٤٤).
(٥) البهرمان: نوع من الياقوت الأحمر، لونه كلون العصفر الشديد الحمرة الذي لا يشوب حمرته شائبة. وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها. (انظر صبح الأعشى: ٢/١٠١).

يأتي ذكره أيضاً بعد أن نذكر وفاته؛ ومنها: أنهم وجدوا له لُجماً مفضَّضةً فنَكَتُوا الفِضّة عن السيور ووزنوها، فجاء وزنُها عشرة قناطير بالشامي. ثم إنّ السلطان طلَبه وأمَرَ أن يُبْنَى عليه أربعُ حِيطان في مجلسه، وأمَر ألاّ يُطْعَم ولا يُسْقَى؛ وقيل: إنه لما قَبَض عليه وحبَسه بقلعة الجبل أحضر إليه طعاماً فأبَى سلّار أن يأكل وأظهر الغضب، فطُولِع السلطان بذلك، فأمر بألاّ يُرسل إليه طعامٌ بعد هذا؛ فبَقِي سبعةَ أيام لا يُطعَم ولا يُسقَى وهو يستغيث [من] الجوع، فأرسل إليه السلطان ثلاثة أطباقٍ مُغطّاة بسُفَر الطعام، فلما أحضروها بين يديه فرِح فرحاً عظيماً وظنّ أنّ فيها أطعمةً يأكل منها، فكشفوها فإذا في طبقٍ ذهبٌ، وفي الآخر فِضّة، وفي الآخر لؤلؤ وجواهر؛ فعَلِم سلّار أنه ما أرسل إليه هذه الأطباق إلا ليُقابِله على ما كان فعَله معه، فقال سلّار: الحمد لله الذي جعلني من أهل المقابلة في الدنيا! وبَقِي على هذه الحالة اثني عشر يوماً ومات، فأعلموا الملك الناصر بموته فجاؤوا إليه، فوجدوه قد أكل ساق خُفِّه، وقد أخذ السَّرْمُوجَة[1] وحطَّها في فِيه وقد عضَّ عليها بأسنانه وهو ميِّت؛ وقيل: إنهم دخلوا عليه قبل موته وقالوا: السلطان قد عفا عنك، فقام من الفَرَح ومَشَى خطواتٍ ثم خرّ ميّتاً، وذلك في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة عشر وسبعمائة؛ وقيل: في العشرين من جُمادى الأولى من السنة المذكورة. فأخذ الأميرُ عَلَم الدين سَنْجَر الجاولي بإذن السلطان وتولّى غسلَه وتجهيزَه، ودَفَنه بتربته التي أنشأها بجانب مدرسته على الكَبْش خارج القاهرة بالقُرب من جامع ابن طولون، لصداقة كانت بين الجاولي وسلّار قديماً وحديثاً. وكان سلّار أسمرَ اللون أَسِيلَ الخَدِّ لطيفَ القَدِّ صغير اللّحية تركِيّ الجنس؛ وكان أصله من مماليك الملك الصالح عليّ بن قلاوون الذي مات في حياة والده قلاوون؛ وكان سلّار أميراً جليلاً شجاعاً مِقداماً عاقلاً سَيُوساً، وفيه كرمٌ وحشمةٌ ورياسة؛ وكانت داره ببين القصرين بالقاهرة. وقيل: إنّ سلار لما حج المرّة الثانية فرّق في أهل الحرمين أموالاً كثيرة وغِلالاً وثياباً تخرج عن حدّ الوصف، حتى إنه لم يدَع بالحرمين فقيراً، وبعد هذا مات، وأكبر شهواته رغيف خُبز؛ وكان في شونته يوم مات

---

(١) السرموجة والسرموزة: ضرب من الخفاف، فارسية معربة. ومعناها رأس الخف. (معجم متن اللغة).

من الغلال ما يزيد على أربعمائة ألف إردب. وكان سلّار ظريفاً لبِّيساً كبير الأمراء في عصره؛ اقترح أشياء من الملابس كثيرة مثلَ السَّلّارِي[١] وغيره، ولم يُعرف لُبْس السَّلّارِيّ قبله؛ وكان شَهِد وقعة شَقْحَب[٢] مع الملك الناصر وأَبْلَى في ذلك اليوم بلاءً حسناً وثخنت جِراحاتُه، وله اليدُ البيضاءُ في قتال التتار. وتولّى نيابة السلطنة بديار مصر، فاستقلّ فيها بتدبير الدولة الناصرية نحو عشر سنين. ومن جملة صدقاته أنه بعث إلى مكة في سنة اثنتين وسبعمائة في البحر المالح عشرة آلاف إردب قمح ففرّقت في أهل مكة، وكذا فعل بالمدينة. وكان فارساً؛ كان إذا لَعِب بالكُرة لا يُرَى في ثيابه عَرَق، وكذا في لعب الرمح مع الإتقان فيهما.

وأمّا ما خلّفه من الأموال فقد ذكرنا منه شيئاً ونذكر منه أيضاً ما نقله بعض المؤرِّخين. قال الجَزرِيّ: وُجِد لسلّار بعد موته ثمانمائة ألف ألف دينار، وذلك غير الجوهر والحُلِيّ والخيل والسلاح. قال الحافظ أبو عبد الله الذّهبيّ: هذا كالمستحيل، وحَسِبَ زنةَ الدينار وجُمَلَه بالقنطار فقال: يكون ذلك حِمْلَ خمسة آلاف بَغْل، وما سَمِعناه عن أحد من كبار السلاطين أنه مَلَك هذا القدر، ولا سيما ذلك خارج عن الجوهر وغيره. انتهى كلام الذهبيّ.

قلت: وهو معذور في الجَزرِيّ، فإنه جازف وأمعن.

وقال ابن دُقماق في تاريخه[٣]: وكان يدخل إلى سلّار في كل يوم من أُجرة أملاكه ألفُ دينار. وحَكَى الشيخ محمد بن شاكر الكُتْبيّ[٤] فيما رآه بخط الإمام

---

(١) ذكر المقريزي في خططه: ٩٩/٢ أن مما استجدّه الأمير سلار في عز أيامه القباء السلاري، وهو قباء بلا أكمام يلبس تحت الفرجية، وكان معروفاً قبل عهده باسم بغلطاق.

(٢) راجع ص ١٢٦ ــ ١٢٧ من الجزء الثامن.

(٣) هو كتاب «الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين» لابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيدمر (دقماق) العملائي المتوفى سنة ٨٠٩هـ. ــ انظر الدرر الكامنة: ٣٩٤/٣ ومقدمة التحقيق لكتابه المشار إليه بقلم محمد كمال الدين عز الدين علي.

(٤) هو صاحب كتاب فوات الوفيات. وقد توفي ابن شاكر الكتبي سنة ٧٦٤هـ. وأبو المحاسن يتابع النقل هنا عن ابن دقماق.

العالم العلّامة عَلَم الدين البِرْزَاليّ[١]، قال: رَفَع[٢] إليّ المولى جمالُ الدين بن الفُوَيْرة[٣] ورقةً فيها قَبْضُ[٤] أموال سلّار وقت الحَوْطة عليه في أيام متفرّقة، أوّلُها يوم الأحد: ياقوت أحمر وبَهْرَمَان[٥] رطلان. بَلَخْش[٦] رطلان ونصف. زُمُرُّد رَيْحانِيّ وذُبابِيّ[٧] تسعة عشر رطلاً. صناديق ضمنُها فصوص ستة[٨]. ما بين زُمُرُّد وعَيْن الهِرّ[٩] ثلاثمائة قطعة كبار. لؤلؤ مدوّر من مِثقال إلى درهم ألف ومائة وخمسون حبَّة. ذهب عَيْن مائتا ألف دينار وأربعة وأربعون ألف دينار. ودراهم أربعمائة ألف وأحد وسبعون ألف درهم.

---

(١) هو علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف البرزالي، مؤرخ الشام وعالمها. توفي سنة ٧٣٩هـ. (الدرر الكامنة: ٣/٢٣٧، والبداية والنهاية: ١٤/١٩٦).

(٢) في الجوهر الثمين والفوات: «دفع».

(٣) هو يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد. توفي سنة ٧٤٢هـ (الدرر الكامنة: ٤/٤٢٧.

(٤) في الجوهر الثمين: «فيها بعض أموال سلار» وفي الفوات: «... ورقة بتفصيل بعض أموال سلار».

(٥) لعلّ الواو زائدة، لأن البهرمان هو ذاته الياقوت الأحمر ـ راجع ص ١٥، حاشية (٥).

(٦) البلخش: ويسمى اللعل، وهو من الأحجار الكريمة، نسبة إلى بلخشان من بلاد الترك. وهو على ثلاثة أنواع: أحمر ـ ويسمى معقرب ـ وأخضر زبرجدي، وأصفر. وأجوده الأحمر. (صبح الأعشى: ٢/١٠٣).

(٧) الزمرد الذبابي: هو الشديد الخضرة، ولا يشوب خضرته شيء آخر من الألوان. وسمي ذبابياً لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي ـ والزمرد الريحاني هو الذي يكون مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الريحان. (صبح الأعشى: ٢/١٠٨).

(٨) في الجوهر الثمين: «صناديق ضمنها فصوص ستة فصوص». وفي الفوات: «صناديق ستة ضمنها جواهر وفصوص ألماس وغيره».

(٩) عين الهرّ: هو في معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرة به أقعدته عن الياقوتية، وهو مما تخرجه الرياح والسيول كما تخرج الياقوت، والغالب على لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة، إلا أنه يرى في باطنه نكتة تميل إلى الزرقة على قدر ناظر الهر الحامل للنور المتحرك في فص مقلته. وأجوده ما اشتد بياض أبيضه وشفيفه وكثرت مائية النكتة التي فيه وخفت حركتها وظهر نورها وإشراقها. (صبح الأعشى: ٢/١١٤).

يوم الاثنين: فصوص مختلفة رطلان[١]. ذهب عَيْن خمسةوخمسون ألف دينار، دراهم ألف ألف درهم[٢]. مصاغ وعُقود ذهب مِصْريّ أربـع قناطير. فِضِّيّات طاسات وأطباق وطشوت ستّ قناطير[٣].

يوم الثلاثاء: ذهب عَيْن خمسة وأربعون ألف دينار، دراهم ثلاثمائة ألف درهم وثلاثون ألف درهم[٤]. قطزيّات[٥] وأهلّه وطلعات صناجق فضّة ثلاثة قناطير.

يوم الأربعاء: ذهب عَيْن ألف ألف دينار، دراهم ثلاثمائة[٦] ألف درهم. أَقْبِيَة بَفْرو قَاقُم[٧] ثلاثمائة قَبَاء. أقبِيَة حرير عَمَل الـدار[٨] ملوّنة [بفَـرْو][٩] سِنْجاب أربعمائة قَبَاء، سُرُوج ذهب مائة سرج. ووُجِد له عند صِهْره أمير موسى ثمانية صناديق لم يُعلم ما فيها، حملت الى الدور السلطانية وحُمِل أيضاً من عند سلّار إلى الخزانة تفاصيل طَرْد وحش[١٠]، وعَمَل الدار ألفُ تفصيلة. ووُجِد له خام[١١]

---

(١) كذا أيضاً في الجوهر الثمين. وفي الفوات: «رطلان ونصف».

(٢) كذا أيضاً في الجوهر الثمين. وفي الفوات: «ذهب مائة ألف وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم وخمسون ألف».

(٣) في الفوات: «وفضيات أواني وطاسات وهواوين وأطباق وغير ذلك ستة قناطير».

(٤) نفسه: «ثمانية آلاف ألف درهم».

(٥) في بعض نسخ الجوهر الثمين: «طقزيات» وفي الفوات: «براجم وأهلة».

(٦) في الفوات: «ثمانمائة ألف درهم».

(٧) القاقم ــ والققم أيضاً ــ حيوان بريّ يشبه الفأرة، إلا أنه أطول منها، وموطنه حسبما تذكر المعاجم الأوروبية بلاد الشمال، واسمه بالانكليزية Ermine وبالفرنسية Hermine؛ وله فروة تكون ناصعة البياض في الشتاء، ولذا يكثر صيده في ذلك الفصل لفروته التي تستعمل للزينة عند الأغنياء، كسلاطين المماليك وأمرائهم وأشباههم من الأثرياء في مصر في العصور الوسطى، وهو مما تزين به ملابس النبلاء في البلاط الإنكليزي. (السلوك: ٢/١/٩٨ ــ حاشية).

(٨) المراد دار الطراز التي شملت عدة مصانع لنسج الملابس السلطانية بتنيس ودمياط والإسكندرية ودمشق، أو دار الديباج التي كانت بالقاهرة (انظر خطط المقريزي: ٢/٢٢٧ وصبح الأعشى: ٣/٤٧٢، ٤٩٠).

(٩) زيادة عن بدائع الزهور.

(١٠) تفاصيل طرد وحش: أي قطع من القماش الحريري المزين بصور الصيد والطرد. (ملحق دوزي).

(١١) كذا أيضاً في السلوك والجوهر الثمين وبدائع الزهور. والمراد بالخام الخيام.

السَّفَر ستّ عشرة نَوْبة كاملة. وَوَصل [له مما كان أخذه صحبته لما توجّه إلى](١) الشُّوبَك ذهب مصريّ خمسون(٢) ألف دينار، ودراهم أربعمائة ألف درهم وسبعون ألف درهم، وخلَع ملوّنة ثلاثمائة خِلْعة وخَرْكاه(٣) كسوتها أطلس أحمر معدِنيّ مبطّن بأزرق مَرْوَزِيّ [وسِتْر](٤) بابها زَرْكَش(٥). ووُجِد له خيلٌ ثلاثمائة فرس، ومائةٌ وعشرون قِطار بِغال، ومائةٌ وعشرون قِطار جمال. هذا خارج عمّا وُجِد له من الأغنام والأبقار والجواميس والأملاك والمماليك والجَوَاري والعَبيد. ودَلَّ مملوكُه على مكانٍ مبنيّ في داره فوجدوا حائطين مبنيين بينهما أكياسٌ ما عُلِم عِدَّتُها، وفُتِح مكانٌ آخر فيه فَسْقيّة ملآنة ذهباً منسبكاً بغير أكياس(٦).

قلت: وممّا زاد سلّار من العظمة أنّه لمّا ولي النيابة في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، وصار إليه وإلى بِيَبرْس الجَاشْنَكِير تدبيرُ المملكة، حَضَر إلى الديار المصرية الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا الذي كان سُلطان الديار المصرية وعُزِل بحُسام الدين لاجين، ثم استقر نائبَ حَمَاة، فقدِم كَتْبُغَا إلى القاهرة وقبّل الأرض بين يدي الملك الناصِر محمد بن قلاوون، ثمّ خرَج من عنده

(١) زيادة عن بدائع الزهور. وعبارة الأصل هنا: «ووصل معه من الشوبك»

(٢) في بدائع الزهور: «من الذهب العين مائة ألف دينار، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم» وفي الفوات: «خمسون ألف دينار وخمسمائة ألف درهم».

(٣) الخركاه: بيت من الخشب على هيئة مخصوصة يغشى بالجوخ ونحوه. وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. (صبح الأعشى: ٢/١٣٨).

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) الزركش: هو الحرير المنسوج بالفضة.

(٦) نقل ابن إياس عن بعض المؤرخين أن الأمير سلار إنما جمع هذه الأموال والتحف من بيت المال، وذلك عندما توجه الملك الناصر إلى الكرك، فإن مفاتيح بيت المال كانت بيد سلار. (بدائع الزهور: ١/١/٤٣٨). وإلى جانب ذلك فقد كان الأمير سلار يحمي اللصوص والفتاك والشطار والحرافيش والقوادين ويكون منهم عصابة مسلحة يستقوي بها على السلطان؛ وكان يملك عدداً من البيوت والحانات يؤجرها للفحشاء ويسميها بيوت كراء، وهو لا يكتفي بما يحصل عليه من أجرة بل يأخذ النصف مما تربحه هذه البيوت. وهكذا فقد كانت كل بيوت الفساد والحانات في القاهرة تدخل في تجارة سلار. (عبد الرحمن الشرقاوي: الفقيه ابن تيمية، ص ٩٧).

وأتى سلّار هذا لِيُسَلِّم عليه، فوجَد سلّار راكباً وهو يَسير في حوش داره، فنَزَل كَتْبُغَا عن فَرَسه وسلّم على سلّار، وسلّار على فرسه لم يَنْزِل عنه، وتحادَثا حتى انتهى كلامُ كَتْبُغَا، وعاد إلى حيث نزل بالقاهرة؛ فهذا شيءٌ لم يُسْمَع بمثله! اِنتهى.

وبعد موت سلّار قَدِم على السلطان البريدُ بموت الأمير قَبْجَق المنصوريّ نائب حَلَب؛ وكان الملك الناصر عَزَل أَسَنْدَمُر كُرْجِي عن نيابة حَمَاة وولّى نيابة حَمَاة للملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل، فسار إليه المؤيّد من دِمَشْق فمنعه أَسَنْدَمُر، فأقام المؤيّد بين حماة ومصر ينتظر مرسوم السلطان، فاتّفق موتُ قَبْجَق نائب حلب، فسار أَسَنْدَمُر من حَمَاة إلى حلب وكَتَب يسأل السلطان في نيابة حلب، فأعطاها له، وأسرّ ذلك في نفسه، لكونه أخذ نِيَابَتها باليد.

ثم عَزَل السلطان بَكْتَمُر الحسامي الحاجب عن نيابة غَـزّة وأحضره إلى القاهرة، وولّى عِوضَه على نيابة غَزّة الأميرَ قُطْلُقْتَمُر؛ وخلَـع على بَكْتَمُر الحاجب بالوزارة بالديار المصرية عِوَضاً عن فخر الدين [عمر][1] بن الخليليّ.

ثم قَدِم البريدُ بعد مدة ــ لكن في السنة ــ بموت الأمير الحاج بهادُر الحلبـيّ نائب طرابُلُس، فكتبَ السلطان بَنْقل الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من نيابة صَرْخَد إلى نيابة طرابُلُس عِوضاً عن الحاج بهادُر المذكور، فسار إليها؛ وفَرِح بموت الحاج بهادُر فرحاً عظيماً، فإنّه كان يخافه ويَخْشى شَرَّه.

ثم التفت السلطان بعد موت قَبْجَق والحاج بهادُر المذكور إلى أَسَنْـدَمُر كُرْجِي، وأخرج تجريدة من الديار المصرية، وفيها من الأمراء كَرَاي المنصوريّ وهو مقدّم العسكر، وسُنْقُر الكماليّ حاجب الحجّـاب، وأَيْبَك الـرُّومِيّ وبَيْنَجار وكُجْكُن وبهادُر آص في عدّة من مُضافيهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات ومُقَدَّمِي الْحَلْقة، وأظهر أنّهم توجهوا لَغزو سِيس؛ وكتبَ لأَسَنْدَمُرْ كرجِي بتجهيز آلات الحِصار على العادة، والاهتمام في هذا الأمر حتى يصِل إليه العسكر من مصر. وكتبَ الملك الناصر إلى المؤيّد عِماد الدين إسماعيل صاحب حَمَاة بالمسير مـع

(١) زيادة عن السلوك.

العسكر المصريّ. ثم خرج الأمير كَرَاي من القاهرة بالعساكر في مستهلّ ذي القعدة سنة عشر وسبعمائة [وأسرَّ إليه السلطان ما يعتمده في أمر كرجي][١].

وبعد خروج هذا العسكر من مصر توحَّش خاطرُ الأمير بَكْتَمُر الجُوكُنْدَار نائب السلطنة من الملك الناصر وخاف على نفسه، واتّفق مع الأمير بَتْخاص المنصوريّ على إقامة الأمير مظفّر الدين موسى ابن الملك الصالح عليّ بن قلاوون في السلطنة، والاستعانة بالمماليك المظفّريّة، وبعَث إليهم في ذلك فوافقوه. ثم شرَع النائب بَكْتَمُر الجُوكُندار في استمالة الأمراء ومواعدة المماليك المظفّريّة الذين بخدمة الأمراء، على أنّ كل طائفة تقبِض على الأمير الذي هي في خدمته في يوم عيَّنه لهم، ثم يسوق الجميعَ إلى قُبّة النَّصْر خارج القاهرة، ويكون الأمير موسى المذكور قد سبقهم هناك. فدبّروا ذلك حتّى انتظم الأمر ولم يبقَ إلاّ وقوعُه، فنَمّ عليهم إلى الملك الناصر بيبرْسُ الجَمَدار أحد المماليك المظفّريّة. وهو ممّن اتّفق معهم بَكْتَمُر الجوكندار، أراد بذَلك أن يتّخذ يداً عند السلطان الملك الناصر بهذا الخبر، فعرّف خُشْدَاشه قَرَاتَمُر الخاصَّكِي بما عزَم عليه فوافقه. وكان بَكْتَمُر الجوكُندار قد سيّر يُعَرِّف الأمير كَرَاي المنصوريّ بذلك، لأنّه كان خُشْدَاشَه، وأرسل كذلك إلى قُطْلُوبك المنصوريّ نائب صَفَد ثم إلى قُطْلُقْتَمُر نائب غَزّة؛ فأمّا قُطْلُوبَك وقُطْلُقْتَمُر فوافقاه، وأمّا كَرَاي فأرسل نهاه وحذّره من ذلك، فلم يَلْتفِت بَكْتَمُر، وتَمّ على ما هو عليه. فلمّا بلغ السلطانَ هذا الخبرُ وكان في اللّيل لم يَتمهَّل، وطلب الأمير موسى إلى عنده وكان يسكن بالقاهرة، فلما نَزَل إليه الطلب هرب. ثم استدعى [السلطان] الأميرَ بَكْتَمُر الجوكُندار النائب، وبعَث أيضاً في طلب بَتْخَاص، وكانوا إذ ذاك يسكنون بالقلعة؛ فلما دخَل إليه بَكْتَمُر أجلسه وأخذ يُحادثه حتى أتاه المماليك بالأمير بَتْخاص؛ فلما رآه بَكْتَمُر عَلِم أنه قد هَلَك، فقُيِّد بَتْخاص وسُجِن، وأقام السلطان ينتظر الأمير موسى، فعاد إليه الجاولي ونائبُ الكَرَك وأخبراه بفِراره، فاشتدّ غضبُه عليهما. وما طلَع النهار حتّى أحضر السلطان الأمراءَ وعرَّفهم بما قد وقَع، ولم يذكر اسم بكتمر النائب. وألزم السلطانُ الأميرَ كُشْدُغْدِي[٢] البهادُرِيّ

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) في السلوك: «كشتغدي».

والي القاهرة بالنداء على الأمير موسى، ومَن أحضره من الجُند فله إمْرَتُه، وإن كان من العامّة فله ألفُ دينار. فنزل [كشدغدي] ومعه الأمير فخر الدين إياز شادّ الدواوين وأيْدُغْدِي شُقَيْر [وسودي وعدة من المماليك][١]، وألزم السلطانُ سائرَ الأمراء بالإقامة بالقاعة الأشرفيّة من القلعة حتى يظهر خبرُ الأمير موسى. ثم قَبَض السلطان على حواشي الأمير موسى وجماعته وعاقبَ كثيراً منهم. فلم يزل الأمرُ على ذلك من ليلة الأربعاء إلى يوم الجمعة، [ثم][١] قُبض على الأمير موسى المذكور من بيت أُسْتَادَار الفَارِقَانِيّ من حارة الوزيريّة بالقاهرة، وحُمِل إلى القلعة فسُجِن بها. ونزل الأمراء إلى دورهم، وخُلِّيَ عن الأمير بَكْتَمُر النائب أيضاً ونزل إلى داره، ورسَم السلطان بتسمير[٢] أُسْتَادار الفارِقانِيّ، ثم عفا عنه وسار إلى داره.

وتَتبّـع السلطانُ المماليك المظفّريّة، وفيهم بِيبَرْس [الجَمَدَار] الذي نَمّ عليهم وعُمِلوا في الحديد، وأُنْزِلوا ليُسَمَّروا تحت القلعة، وقد حضَر نساؤهم وأولادهم؛ وجاء الناس من كلّ موضـع وكَثُرَ البكاء والصُّراخُ عليهم ـ رحمةً لهم ـ والسلطان ينظُر، فأخذَتْه الرحمةُ عليهم فعفا عنهم، فتُرِكوا ولم يُقْتَل أحدٌ منهم، فكَثُر الدعاء للسلطان والثناءُ عليه.

وأمّا أمرُ أَسَنْدَمُرْ كُرْجِي فإنّ الأمير كَرَاي لما وصَل بالعساكر المصرية إلى حِمْص وأقام بها على ما قرّره السلطانُ معه وصَل إليه الأمير مَنْكُوتَمُر الطبَّاخي، وكان السلطان كتبَ معه ملطّفات[٣] إلى أمراء حلب بقَبْض نائبها أَسَنْدَمُرْ كُرْجِي في

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) كان هذا النوع من العقوبة شائعاً في مصر زمن المماليك وفي غيرها من بلاد الشرق أيضاً؛ وطريقته أن يعرّى المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل، وهذا هو التسمير. وربما طيف بالمحكوم عليه في شوارع القاهرة وهو على هذه الحال، وهذا هو التشهير. ثم يأتي السيّاف فيضرب المحكوم عليه ضربة بقوة تحت السرّة تقسم الجسم نصفين من وسطه، وهذا هو التوسيط. (السلوك: ١/٢/٤٠٤، حاشية).

(٣) في السلوك: «مطلقات». والمطلقات والملطفات نوعان من الرسائل: فالأولى يرسلها السلطان إلى نوابه وعماله، وقد تكون في سرّ يكتم ولا يراد إظهاره، فتصدر والحالة هذه مختومة. أما الثانية، وهي الملطفات، فكانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التغرير والتأمين تمهيداً لما يزمعه لهم السلطان من عقوبة. (انظر صبح الأعشى: ٧/٢١٨ ـ ٢٣١ و٣/١٣١).

الباطن، وكتب في الظاهر لكَرَاي وأَسَنْدَمُر كُرْجِي بما أراده من عمل المصالح؛ فقضَى كَرَاي شغله من حِمْص وركِب وتهيّأ من حِمْص، وجَدّ في السير جريدةً حتى وصَل إلى حَلَب في يوم ونصف، فوقف بمَنْ معه تحت قلعة حَلَب عند ثُلُث الليل الآخر، وصاح: «يا لعلي»، وهي الإشارة التي رتَّبها [السلطان][1] بينه وبين نائب قلعة حلب. فنزَل نائب القلعة عند ذلك بجميع رجالها وقد استعدُّوا للحرب؛ وزحَف الأمير كَرَاي على دار النيابة، ولَحِق به أمراءُ حلب وعسكرُها؛ فسلَّم الأمير أَسَنْدَمُرْ كُرْجِي نفسَه بغير قتال، فأُخِذ وقُيِّد وسُجِن بقلعتها وأُحِيط على موجوده. وسار مَنْكُوتَمُر الطبّاخي على البريد بذلك إلى السلطان. ثم حُمِل أَسَنْدَمُرْ كُرْجِي إلى السلطان صحبة الأمير بَيْنَجار وأَيْبَك الرُّومِيّ؛ فخاف عند ذلك الأمير قَرا سُنْقُر نائب الشام على نفسه، وسأل أن يَنتقِل من نيابة دِمَشْق إلى نيابة حلب ليبعُدَ عن الشرّ، فأُجِيب إلى ذلك، وكُتِب بتقليده وجُهِّز إليه في آخر ذي الحجة من سنة عشر وسبعمائة على يد الأمير أرْغُون الدَّوادار الناصريّ، وأَسَرَّ له السلطان بالقَبْض عليه إن أمكنه ذلك. وقَدِم أَسَنْدَمُرْ كُرْجِي إلى القاهرة واعْتُقِل بالقلعة، وبعَث يسأل السلطان عن ذنبه فأعاد جوابه: «ما لك ذنب، إلا أنك قلتَ لي لما ودَّعْتُك عند سفرك: أُوصيك يا خَوَنْد: لا تُبْقِ في دولتك كَبْشاً كبيراً، وأنشِيءْ مماليكَك! ولم يبقَ عندي كبشٌ كبير غيرك». ثمّ قَبض السلطان على طُوغان نائب البِيرة، وحُمِل إلى السلطان فحُبِس أياماً ثم أطلقه وولّاه شَدّ الدواوين [بدِمَشْق][1].

وفي مستهلّ سنة إحدى عشرة وسبعمائة وصل الأمير أرْغُون الدَّوادار إلى الشام [لتسفير قراسنقر المنصوري منها إلى نيابة حلب][2] فاحترسَ منه الأمير قَرَاسُنْقُر على نفسه، وبعث إليه عِدّةً من مماليكه يَتَلَقَّوْنه ويمنعون أحداً ممن جاء معه أن ينفرد مخافة أن يكون معه ملطّفات إلى أمراء دِمشق. ثم رَكِب قَرَاسُنْقُر إليه ولَقِيه بمَيْدَان الحَصَى خارج دِمَشْق، وأنزله عنده بدار السعادة[3] ووكَّل بخدمته من ثِقَاته جماعةً.

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن عقد الجمان.

(٣) دار السعادة: اسم يطلق على دار الحكومة التي يقيم فيها الوالي أو الحاكم لإدارة شؤون الولاية أو المقاطعة.

فلما كان من الغد أخرج له أرْغُون تقليدَه فقبَّله وقَبَّل الأرض على العادة؛ وأخذ في التجهيز، ولم يَدَعْ قَرَاسُنْقُر أرْغُون أن ينفرِد عنه، بحيث إنه أراد زيارة أماكن بدِمَشْق فركِبَ معه قَرَاسُنْقُر بنفسه، حتى قضى أرْغُون أرَبَه وعاد، وتَمّ كذلك إلى أن سافر. فلما أراد قَرَاسُنْقُر السفر بعثَ إلى الأمراء ألا يركب أحدٌ منهم لوَدَاعه، وألا يخرجُ من بيته، واستعدّ وقدّم أثقاله أوّلاً في الليل؛ فلما أصبح رَكِب يوم الرابع من المحرّم بمماليكه، وعِدّتُهم ستمائة فارس، أرْغُون الدوادار بجانبه وبَهَادُر آص في جماعة قليلة، وسار معه أرْغُون حتى أوصله إلى حلب. ثم عاد [أرغون إلى دمشق][1] وقلّد الأمير كَرَاي المنصوريّ نيابة الشام عِوَضاً عن قَرَاسُنْقُر؛ وأنعم كَرَاي على أرْغُون الدّوادار بألف دينار سوى الخيل والخِلَع وغير ذلك.

ثم إنّ الملك الناصر عَزَل الأمير بَكْتَمُر الحسامي عن الوزارة[2] وولاه حُجوبيّة الحُجّاب بالديار المصرية عِوَضاً عن سُنْقُر الكماليّ.

ولا زال السلطان يتربّص في أمر بَكْتَمُر الجوُكُنْدار النائب حتى قَبض عليه بحيلة دبّرها عليه في يوم الجمعة سابع عشر جُمادى الأولى من سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وقَبض معه على عِدّة من الأمراء، منهم: صِهْرُ الجوُكُندار ألِكْتَمُر الجَمَدار، وأيْدُغْدي العثماني، ومَنْكُوتَمُر الطبّاخي، وبدر الدين بُكْمُش الساقي وأيدَمُر الشَّمسي وأيدمر الشيخي، وسُجِنوا الجميع إلاّ الطباخي فإنه قُتِل[3] من وقته.

والحيلة التي دبّرها السلطان على قبض بَكْتَمُر الجوُكُنْدار أنه نزل السلطان إلى المَطْعَم[4] وبَكْتَمُر بإزائه، فخرج السلطان من البُرْج ومال إلى بَكْتَمُر وقال:

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) واستقرّ مكانه في الوزارة أمين الدين عبد الله بن الغنّام ناظر الدواوين (السلوك).

(٣) أمر السلطان بقتل هذا الأمير لوقته بسبب إقراره بالمشاركة في مؤامرة بكتمر لخلع السلطان، وتفوهه بكلام قويّ في حق السلطان. (السلوك: ١٠٣/١/٢، حاشية عن كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل).

(٤) المقصود بالمطعم هنا هو مطعم الطيور المخصصة للصيد. وكان السلاطين ينزلون إليه، وتطلق البازدارية طيوراً أعدوها لذلك ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها؛ وكان هذا نوعاً من أنواع التسلية والرياضة السلطانية.

«يا عمّي، ما بَقِي في قلبي من أحد إلاّ فلان وفلان» وذكر له أميرين، فقال له بَكْتَمُر: «يا خَوَنْد، ما تطلعُ من المَطْعَم إلا وتجدُني قد أمسكتُهما» ــ وكان ذلك يوم الثلاثاء ــ فقال له السلطان: «لا، يا عمي إلا دَعْهما إلى يوم الجمعة؛ تُمْسِكهما في الصلاة» فقال له: «السمعَ والطاعةَ». ثم إنّ السلطان جهّز لبَكْتَمُر تشريفاً هائلاً ومركوباً معظّماً؛ فلما كان يومُ الجمعة قال له في الصلاة: «والله يا عمي ما لي وجه أراهما! وأستَحِي منهما، ولكن أمسكهما إذا دخلتُ أنا إلى الدار، وتوجّهْ بهما إلى المكان الفلاني تجد هناك مَنْكَلي بُغَا وقَجْماس فسلّمهما إليهما، ورُحْ أنت»؛ فأمسكهما بَكْتَمُر الجُوكُنْدار وتوجّه بهما إلى المكان المذكور له، فوجد الأميرين: قَجْماس ومَنْكَلي بُغا هناك؛ فقاما إليه وقالا له: «عليك السمع والطاعة لمولانا السلطان» وأخذا سيفَه، فقال لهما: «يا خُشْداشيتي ما هو هكذا الساعة كما فارقت السلطان، وقال لي: أمْسِك هؤلاء» فقالا: «ما القصد إلا أنت»، فأمسكاه وأطلقا الأميرين؛ وكان ذلك آخر العهد ببَكْتَمُر الجُوكُندار كما يأتي ذكرُه. اِنتهى.

ثم أرسل السلطان استدعَى الأميرَ بِيبَرْس الدَّوَادار المنصوريّ المؤرِّخ وولّاه نيابة السلطنة بديار مصر عِوضاً عن بَكْتَمُر الجُوكُندار. ثم أرسل السلطان قبضَ أيضاً على الأمير كَرَاي المنصوريّ نائب الشام بدار السعادة في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الأولى، وحُمل مُقَيَّداً إلى الكَرَك فحُبِس بها؛ وسبب القَبْض عليه كونه كان خُشْدَاشَ بَكْتَمُر الجُوكُندار ورفيقَه. ثم قبضَ السلطان على الأمير قُطْلُوبَك نائب صَفَد بها، وكان أيضاً ممن وافق بَكْتَمُر على الوثوب مع الأمير موسى حسب ما تقدّم ذكرُهُ. ثم خلعَ السلطان على الأمير آقوش الأشرفي نائب الكَرَك باستقراره في نيابة دِمَشْق عِوضاً عن كرَاي المنصوريّ، واستقر بالأمير بهادُر آص في نيابة صَفَد عِوضاً عن قُطْلُوبَك. ثم نقل السلطانُ بَكْتَمُر الجوكُنْدار النائب وأَسَنْدَمُرْ كُرْجِي من سجن الإسكندرية إلى سجن الكَرَك فبقي بسجن الكرك جماعةٌ من أكابر الأمراء مثل: بَكْتَمُر الجُوكُنْدار وكَرَاي المنصوريّ وأَسَنْدَمُرْ كُرْجِي وقُطْلُوبَك المنصوريّ نائب صَفَد وبِيبَرْس العَلائي في آخرين. ثم عَزَل السلطان مملوكه أَيْتَمُش المحمَّدي عن نيابة

الكَرَك، واستقرّ في نيابتها بَيْبُغَا الأشرفيّ؛ وكان السلطان قد استناب أَيْتَمُش هذا على الكَرَك لما خرج منها [إلى دِمَشْق](١).

وأما قَرَاسُنْقُر فإنه أخذ في التدبير لنفسه خوفاً من القبض عليه كما قُبِض على غيره، واصطنع العُرْبانَ وهاداهم، وصَحِب سليمان بن مُهَنَّا وآخاه، وأنعم عليه وعلى أخيه موسى حتى صار الجميع من أنصاره. وقَدِم عليه الأمير مُهَنّا إلى حلب وأقام عنده أياماً وأفْضَى إليه قَرَاسُنْقُر بسرِّه، وأوقفه على كتاب السلطان بالقبض على مُهَنّا، وأنه لم يُوافق على ذلك. ثم بعث قَرَاسُنْقُر يسأل السلطان في الإذن له في الحجّ، فجهّز قَرَاسُنْقُر حاله، وخَرج من حلب في نصف شوّال ومعه أربعمائة مملوك، واستناب بحلب الأميرَ قَرَطَاي وترك عنده عِدّةً من مماليكه لحفظ حواصله؛ فكتبَ السلطان لقَرَطَاي بالاحتراس، وألاّ يُمَكِّن قَرَاسُنْقُر من حَلَب إذا عاد، ويحتج عليه بإحضار مرسوم السلطان بتمكينه من ذلك. ثم كتبَ إلى نائب غَزّة ونائب الشام ونائب الكَرَك وإلى بَني عُقْبة(٢) بأخذ الطريق على قَرَاسُنْقُر، فقَدِم البريد أنّه سَلَكَ البَرِّيَّةَ إلى صَرْخَد وإلى زَيْزَاء، ثم كَثُر خوفُه من السلطان فعاد من غير الطريق التي سلكها، ففات أهلَ الكرك القَبْضُ عليه فكتبوا بالخبر إلى السلطان فشقّ عليه؛ ثم وصل قَرَاسُنْقُر إلى ظاهر حلب فبلَغه ما كتبَ السلطان إلى قَرَطَاي، فعظُم خوفُه، وكتبَ إلى مُهَنّا فكتب مُهَنّا إلى قَرَطَاي أن يُخرِج حواصل قَرَاسُنْقُر وإلاّ هجمَ مدينة حلب وأخذ مالَه قَهْراً؛ فخاف قَرَطَاي من ذلك، وجهّز كتابَه إلى السلطان في طيّ كتابه، وبعثَ بشيء من حواصل قراسنقر إلى السلطان مع ابن قَرَاسنقر الأمير عِز الدين فرَجَ، فأنعم عليه الملك الناصر بإمْرة عشرة، وأقام بالقاهرة مع أخيه أمير علي بن قَرَاسنقر. ثم إن سليمان بن مُهَنّا قَدِم على قَرَاسنقر، فأخذه ومضى وأنزله في بيت

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) قال ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) في مسالك الأبصار: ١/١١١ «وعقبة من جذام، وديارهم من الشوبك إلى حِسْمَى إلى تبوك إلى تيماء إلى بَرْد ورؤاف إلى الحديدا وهو شرقي الحِجْر. وآخر أمرائهم كان شطّيّ بن عبيّة، وكان سلطاننا الملك الناصر قد أقبل عليه إقبالاً أحلّه فوق السماكين، وألحقه بأمراء آل فضل وآل مرا، وأقطعه الإقطاعات الجليلة، وألبسه التشريف الكبير، وأجزل له الحباء، وعمّر له ولأهله البيت والخباء».

أُمِّه[١] فاستجار قَرَاسُنْقُر بها فأجارتْه، ثم أتاه مُهَنّا وقام له بما يَليق به. ثم بعث مُهَنّا يُعَرِّف السلطان بما وقَع لقَراسنقر وأنه استجار بأمّ سليمان فأجارتْه، وطلب من السلطان العفو عنه؛ فأجاب السلطان سؤالَه، وبعث إليه أن يُخَيِّر قَرَاسُنْقُر في بلد من البلاد حتى يُوَلِّيه إياها؛ فلما سافر قاصد مُهَنّا، وهو ابن مهنا لكنه غير سليمان، جهّز السلطان تجريدةً هائلةً فيها عِدَّةٌ كثيرة من الأمراء وغيرهم إلى جهة مُهَنّا، فاستعدّ مُهَنّا. وكتبَ قَرَاسُنْقُر إلى الأفرم نائب طرابُلُس يستدعيه إليه، فأجابه ووعَده بالحضور إليه. ثم بعث قَرَاسُنْقُر ومُهَنّا إلى السلطان وخدعاه، وطلبَ قراسنقر صرخد، فانخدع السلطان وكتب له تقليداً بصَرْخَد، وتوجّه إليه بالتقليد أيتُمُش المحمَّدي، فقبّل قَرَاسُنْقُر الأرض، واحتج حتّى يصل إليه ماله بحلب ثم يتوجّه إلى صَرْخَد؛ فقدمت أموال قراسنقر من حلب، فما هو إلا أن وصَل إليه مالُه، وإذا بالأفرم قد قَدِم عليه من الغد ومعه خمسة أمراء من أمراء طبلخاناه وستّ عشراوات في جماعة من التُّرْكُمان فُسر قَرَاسُنْقُر بهم، ثـم استدعوا أيْتَمُش وعدّدوا عليه مَنْ قتله السلطان من الأمراء، وأنهم خافوا على أنفسهم وعزموا على الدخول في بلاد التتار؛ وركبوا بأجمعهم، وعاد أيْتَمُش إلى الأمراء المجرّدين بحِمْص وعرّفهم الخبر، فرجعوا عائدين إلى مصر بغير طائل. وقَدِم الخبر على السلطان بخروج قَرَاسُنْقُر والأفرم إلى بلاد التَّتار في أوّل سنة اثنتي عشرة وسبعمائة؛ وقيل إنّ الأفرم لما خرج هو وقَرَاسُنْقُر إلى بلاد التتار بَكَى الأفرم، وأنشد: [الطويل]

سَيَذْكُرني قـومي إذا جَدّ جِـدُّهم وفي الليلة الـظلماء يُفْتَقَـدُ البَـدْرُ

فقال لـه قَرَاسُنْقُـر: «اِمْشِ بلا فُشَار[٢]! تبكي عليهم ولا يبكون عليك!» فقال الأفرم: «والله ما بـي إلا فراق ابني موسى» فقال قَرَاسُنْقُر: أيّ بغاية[٣] بصَقْتَ في

(١) قال العمري (المرجـع السابق): «ثم إن مهنّا وفى لقراسنقر لما توجّه إليه، حتى أن زوجة مهنّا عائشة بنت عسّاف بالغت في خدمة قراسنقر، وكانت تقول لمهنّا: «يا مهنّا! ذكر الدهر لا تدعه!» وكذلك محمد بن عيسى بن علي، إلا فضل بن عيسى ــ أخو مهنّا ــ فما كان رأيه إلا التقرّب بإمساك قراسنقر والجماعة إلى السلطان. فكانت عائشة تقول: تعساً لأم ولدت الفضل بعد مهنّا وعيسى.»

(٢) الفُشار: الهذيان والكذب. وهو لفظ عامي ليس من كلام العرب. ولعله سرياني. (معجم متن اللغة).

(٣) المراد: البغيّ.

رَحمِها جاء منه موسى وإبراهيم، وعدّد أسماء كثيرة، وتوجّها. اِنتهى. ثم إن السلطان أفرج عن الأمير أَيْدَمُر الخَطِيري وأنعم عليه بخُبْز الأمير علم الدين سَنجَر الجاولي.

وفي أوّل سنة اثنتي عشرة وسبعمائة كَمُلَت عمارة الجامع الجديد[1] الناصريّ بمصر القديمة على النيل ووَقف عليه عِدّة أوقاف كثيرة.

وأما قَراَسنقر والأفرم فإنهما سارا بمَنْ معهما إلى بلاد التّتار، فخرج خَرْبَنْدَا مَلِكُ التّتار وتلقّاهم وترجّل لهم وترجّلوا له، وبالغ في إكرامهم، وسار بهم إلى مخيَّمه وأجلسهم معه على التَّخْت؛ وضَرَب لكلٍّ منهم خَرْكاه ورَتَّبَ لهم الرواتب السنيّة؛ ثم استدعاهم بعد يومين واختلَى بقَراَسنقر فحسَّن له قَراَسنقر عُبورَ الشام وضَمِن له تسليم البلاد بغير قتال. ثم اختلَى بالأفرم فحسَّن له أيضاً أخذَ الشام، إلاّ أنه خَيَّله من قوّة السلطان وكَثْرة عساكره. ثم إن خَرْبَنْدَا أقطع قَراَسُنْقُر مَرَاغَة وأَقطع الأفرمَ هَمَذان، واستمرُّوا هناك إلى ما يأتي ذكرُه إن شاء الله تعالى[2].

ولمّا حضَر مَنْ تجرّد من الأمراء إلى الديار المصرية حضر معهم الأمير جمال الدين آقوش نائب الكَرَك الذي ولي نيابةَ الشام بعد كَرَاي المنصوريّ، فقبَض السلطان عليه وعلى الأمير بِيبَرْس الدّوادار نائب السلطان صاحب التاريخ، وعلى

---

(١) الجامع الجديد الناصري: عمره القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون. وكان الشروع فيه يوم التاسع من المحرم سنة ٧١١هـ وانتهت عمارته في ثامن صفر سنة ٧١٢هـ. (خطط المقريزي: ٢/٢٠٤) وفي السلوك: ٢/١/١١٤ تفصيل ما رتّبه السلطان لهذا الجامع.

(٢) يذكر مؤرخ بلاط أولجايتو (خربندا) أبو القاسم قاشاني أن الذين لجؤوا إلى أولجايتو كانوا ثلاثة: قراسنقر ومعه اثنان، وكان وصولهم إلى بلاط الخان في الثاني من ربيع الأول سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م. وقد حصل الأمراء اللاجئون على مراغة وهمذان ونهاوند. (مقدمة مسالك الأبصار: ٢٤، حاشية). وذكر ابن فضل الله العمري أن الأمير مهنا لما جهزهم إلى خربندا، بعث معهم رسالة يقول فيها: «متى حميتَ هؤلاء كنت أنا في طاعتك معهم، وأخفر الركب العراقي» وبعث معهم من جهته لخربندا ومن حوله خيولاً مسوّمة؛ فقوبلوا بالإكرام والرعاية، وخلع خربندا على سليمان وأطلق له أموالاً جمة. وجهزت لمهنا خلع وإنعامات ويرالغ -[وفي صبح الأعشى: برالغ بالباء الموحدة أي مرسوم]- بالبصرة له ولأهله، ومعها الحلّة والكوفة وسائر البلاد الفراتية. (مسالك الأبصار: ١/١٢٣).

سُنْقُر الكماليّ، ولاجين الجَاشْنَكِير وبَيْنَجـار وأُلْـدُكُز الأشرفيّ، ومغُلْطَاي المسعوديّ وسُجِنوا بالقلعة في شهر ربيـع الأوّل سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وذلك لميلهم إلى قَراسُنْقُر والأفرم. ثم خلـع السلطان على تَنْكِز الحسامي الناصري بنيابة دِمشْق دفعة واحدة عِوَضاً عن آقوش نائب الكرك؛ وتَنْكِز هذا هو أوّل من رقّاه من مماليكه إلى الرُّتب السنيّة. ثم استقرّ بسُودِي الجَمْدار في نيابة حلب، واستقرّ تَمُر الساقي المنصوريّ في نيابة طرابُلُس.

ثم إنّ السلطان عزلَ مُهَنّا بأخيه فَضْل ورسَم بأنّ مُهَنّا لا يُقِيم بالبلاد[1]. ثم قَبض السلطان على الأمير بِيبَرْس المجنون وبِيبَرْس العَلَمِيّ وسنجر البَرْواني وطُوغان المنصوريّ وبِيبَرْس التاجي، وقُيِّدوا وحُمِلوا من دِمَشْق إلى الكَرَك في سادس ربيـع الآخر من السنة. ثم أَمَّر السلطان في يوم واحد ستةً وأربعين أميراً؛ منهم طبلخاناه تسعة وعشرون، وعشروات سبعة عشر، وشقُّوا القاهرة بالشرابيش والخِلَـع. ثم في يوم الاثنين أوّل جُمَادَى الأولى خلَـع السلطان على مملوكه أَرْغُون الدَّوَادار بنيابة السلطنة بالديار المصريّة عِوضاً عن بِيبَرْس الدَّوادار بحُكْم القَبْض عليه. ثم خَلَـع السلطان على بَلَبَان طُرْنا أمير جانْدَار بنيابة صَفَد عِوضاً عن بهادُر آص، وأن يرجِـع بهادُر آص إلى دِمَشْق أميراً على عادته أوّلاً. ثم رَكِب السلطان إلى الصيد ببر الجيزة وأَمَّر جماعةً من مماليكه، وهم: طُقْتَمر الدِّمَشْقي، وقُطْلوبُغا الفخريّ المعروف بالفول المقشَّر، وطَشْتَمر البَدْرِيّ المعروف بحمّص أخضر.

ثم ورد على السلطان الخبر بحركة خَرْبَنْدَا مَلِك التتار، فكتَب السلطان إلى

---

(١) على أثر ذلك ذهب مهنا إلى خربندا، فأكرمه غاية الإكرام. قال العمري: وامتدت الأيام والليالي في المراوغة من مهنا وهو يعد السلطان أنه يحضر إليه«ويمنيه»، ويسوّف به من وقت إلى وقت، والبريد يروح ويجيء والرسل تتردّد. ثم كان أولاده وإخوته يتناوبون الحضور إلى السلطان وهو ينعم عليهم، وهم يمنّونه حضوره (أي مهنا) ويعدونه بقدومه، ومهنّا لا يزداد إلا حذراً، والسلطان لا يزداد إلا طمعاً. وإذا حضرت للمسلمين نصيحة أو مصلحة كان مهنّا ينبّه عليها ويشير بها، وكان السلطان يقبل نصحه ويعرف ديانته. ثم لما كانت سنة ٧٣٤هـ توجه مهنا بنفسه إلى السلطان ودخل إلى مصر، فأكرمه غاية الإكرام، وأنعم عليه إنعامات كثيرة، وعاد منها راجعاً إلى بلاده. ولم يزل إلى أن توفي في ذي القعدة سنة ٧٣٥هـ بقرب سلمية. (مسالك: ١/١٢٣ ـ ١٢٤).

الشام بتجهيز الإقامات، وعرَض السلطان العساكر وأنفق فيهم الأموال، وابتدأ بالعرض في خامس عشر شهر ربيع الآخر، وكمل في أوّل جُمادَى الأولى؛ فكان يَعرِض في كلّ يوم أميرين من مقدّمي الألوف، وكان يتولّى العَرْض هو بنفسه، ويخرج الأميران بمَنْ أُضيف إليهما من الأمراء ومقدَّمي الحلقة والأجناد، ويرحلون شيئاً بعد شيء من أوّل شهر رمضان إلى ثامن عشرينه حتى لم يبقَ بمصر أحدٌ من العسكر.

ثم خرج السلطان في ثاني شوّال ونزل مسجد التِّبْن[١] خارج القاهرة ورحَل منه في يوم الثلاثاء ثالث من شوّال، ورَتّب بالقلعة نائب الغَيْبة الأمير [سيف الدين][٢] أيْتَمُش المحمَّدي الناصري. فلمّا كان ثامن شوّال قَدِم البريدُ برحيل التتار ليلة سادس عشرين رمضان من الرَّحْبَة وعَوْدهم إلى بلادهم بعد ما أقاموا عليها من أوّل شهر رمضان. فلمّا بلغ السلطانَ ذلك فرّق العساكر في قَاقُون وعَسْقَلان وعزَم [السلطان][٢] على الحج ودخَل دِمَشْق في تاسع عشر شوّال، وخرج منها في ثاني ذي القعدة إلى الكَرَك، و[كان قد][٢] أقام بدِمشق أَرْغُون النائب [للنفقة على العساكر وغير ذلك من الأعمال، وكلف][٢]الوزير أمينُ المُلك ابن الغَنّام بَجْمَع المال [اللازم][٢]. وتوجّه السلطان من الكَرَك إلى الحجاز في أربعين أميراً، فحّج وعاد إلى دِمَشق في يوم الثلاثاء حادي عشر المحرّم سنة ثلاث عشرة وسبعمائة؛ وكان لدخوله دِمَشْق يومٌ مشهود؛ وعَبَر دِمَشْق على ناقة وعليه بُشْت[٣] من ملابس العرب بلثام وبيده حَرْبةٌ؛ فأقام بدِمَشْق خمسة عشر يوماً وعاد إلى مصر، فدخلها يوم ثاني عشر صفر.

ثم عَمِل السلطان في هذه السنة (أعني سنه ثلاث عشرة وسبعمائة) الرَّوْك بدِمَشْق، وندَب إليه الأميرَ علم الدين سَنْجَر الجاولي نائب غَزّة[٤].

(١) في السلوك: «مسجد تبر».
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) البشت: العباءة من الصوف بلونه الطبيعي. (ملحق دوزي).
(٤) انظر تفصيل هذا الروك الشامي في السلوك: ١٢٧/١/٢.

ثم إنّ السلطان تجهّز إلى بلاد الصعيد ونزل من قلعة الجبل في ثاني عشرين شهر رجب من السنة ونَزل تحت الأهرام بالجيزة، وأظهر أنّه يريد الصيد، والقصدُ السفر للصعيد وأخذُ العُرْبان لكثرة فسادهم[١]. وبعث عِدَّة من الأمراء حتّى أمسكوا طريق السُّوَيْس وطريق الواحات فَضَبط البرَّين على العُرْبان؛ ثم رحَل من منزلة الأهرام إلى جهة الصعيد وفعَل بالعُرْبان أفعالاً عظيمة من القتل والأسْر، ثم عاد إلى الديار المصريّة فدخلَها في يوم السبت عاشر شهر رمضان. وكان ممّن قَبض عليه السلطان مِقْدَاد بن شَمَّاس، وكان قد عظُم مالُه، حتَّى كان عِدَّةُ جواريه أربعمائة جارية، وعدَّةُ أولاده ثمانين.

وكان السلطان قد ابتدأ في أوّل هذه السنة بعمارة القَصْر الأبْلَق على الإسطبل السلطاني، ففَرَغ في سابع عشر شهر رجب. وقصد السلطان أن يُحاكي قَصْرَ الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي الذي بظاهر دِمَشق، واستدعى له صُنَّاع دِمَشق وصُنَّاع مصر حتى كمل؛ وأنشأ بجانبه جنينة، وقد ذهبت تلك الجنينة كما ذهب غيرُها من المحاسن.

ثمّ إنّ السلطان رَسَم بهدْم مناظر الُّلوق بالمَيْدان الظاهري، وعَمِله بستاناً وأحضر إليه سائر أصناف الزراعات، واستدعى خَوَلَة الشام والمُطعِّمين فباشروه حتّى صار من أعظم البساتين، وعرف أهلُ جزيرة الفِيل من ذلك اليوم [صناعة][٢] التطعيم للشجر [واغتنوا بها][٢].

ثم في سنة أربع عشرة وسبعمائة كتب السلطان لنائب [حلب و][٣] حَمَاة وحِمْص وطرابُلسُ وصَفَد بأن أحداً منهم لا يُكاتِب السلطان، وإنّما يُكاتِب الأمير تَنْكِز نائب الشام، ويكون تَنْكز هو المُكاتِب للسلطان في أمرهم فشقّ ذلك على النُّوَّاب، وأخذ الأميرُ [سيف الدين][٣] بَلَبان طُرْنا نائب صَفَد يُنْكِر ذلك؛ فكاتب فيه تَنْكِز [السلطان][٣] حتّى عُزِل، واستقرّ عِوَضه الأمير بَلَبان البَدْرِي؛ وحُمِل بلبان طُرْنا مقيَّداً إلى مصر[وسجن بالقلعة][٣].

(١) ذلك أنهم كثر قطعهم الطريق، وكسروا الخراج. (السلوك).
(٢) زيادة عن السلوك. (٣) زيادة عن السلوك.

ثمّ إن السلطان اهتم بعمارة الجسور بأرض مصر وتُرَعِها، وندب الأميرَ عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيرِيّ إلى الشرقية[١]، والأمير علاء الدين أَيْدُغْدِي شُقَيْر إلى البَهْنَساوِيّة[٢] والأمير حُسين بن جَنْدَر إلى أسيوط[٢] ومنفلوط[٢]، والأمير سيف الدين آقول الحاجب إلى الغربية[٢]، والأمير سيف الدين قُلِّي أمير سلاح إلى الطّحَاوِيّة[٣] وبلاد الأُشْمُونين[٣]، والأمير جَنْكَلِي بن البابا إلى القليوبية[٣]، والأمير بهادُر المعزّي إلى إخميم[٣]، والأمير بهاء الدين أَصْلَم إلى قُوص[٣].

ثم إنّ السلطان قَبَض على الأمير أَيْدُغْدِي شُقَيْر وعلى الأمير بَكْتَمُر الحُسَامي الحاجب صاحب الدار خارج باب النصر في أوّل شهر ربيع الأوّل سنة خمس عشرةَ وسَبْعَمائة، فقُتِل أيدغدي شُقَيْر من يومه لأنه اتُّهِم أنه يريد الفتك بالسلطان، وأُخِذ من بَكْتَمُر الحاجب مائةُ ألف دينار وسُجِن. ثم قَبَض السلطان على الأمير طُغاي، وعلى الأمير تَمُر الساقي نائب طرابُلُس وحُمِل إلى قلعة الجبل، وقبَض على الأمير بهادُر آص وحُمِل إلى الكرك من دِمَشق. واستقرّ الأمير كُسْتاي الناصريّ نائب طرابلس عِوضاً عن تمر الساقي. ثم أفرج السلطان عن الأمير قَجمْاس المنصوريّ أحد البُرجية من الحبس، وأخرج الأمير بدر الدين محمد بن الوزيريّ إلى دِمَشق مَنْفِياً. ثم في ثامن عشر شهر رجب أفرَج السلطان عن الأمير آقوش الأشرفيّ نائب الكَرَك، وخلَع عليه وأنعم عليه بإقطاع الأمير حُسام الدين لاجين الأسْتادار بعد موته.

وفي العشر الأخير من شعبان من سنة خمسَ عشرةَ وسَبعمائة وقع الشروع في عمل الرَّوْك[٤] بأرض مصر؛ وسبب ذلك أنّ أصحاب بِيبَرْس الجاشْنَكِير وسَلّار

---

(١) أي الإقليم الواقع في الجهة الشرقية من الوجه البحري ـ وانظر التلخيص الذي وضعه محمد رمزي بك لتاريخ التقسيمات الإدارية للبلاد المصرية في الجزء التاسع من النجوم، ص ٣٨، حاشية(٢) طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ٣٩ ـ ٤٠ (حواشي).

(٣) انظر المرجع السابق، ص ٤٠ ـ ٤١ (حواشي).

(٤) الروك لفظ جرى في مصطلح الإدارة المالية في مصر والشام في العصور الوسطى للدلالة على عملية قياس الأراضي ومسحها وتقويم العقارات وغيرها من الأملاك الثابتة ومتعلقاتها مرة كل ثلاثين سنة تقريباً، وهو المعروف في مصطلح الدواوين المصرية في العصر الحاضر باسم «فك الزمام وتعديله». وهذا اللفظ =

. . . .

= مأخوذ من الكلمة القبطية « روش» ومعناها قياس الأرض بالحبل. والمعروف حتى الآن من حوادث الروك بمصر في العصور الوسطى سبع: أولها حوالى سنة ٩٧هـ/٧١٥م على يد ابن رفاعة والي مصر في عهد سليمان بن عبد الملك الأموي؛ وثانيها سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م على يد ابن الحبحاب عامل الخراج بمصر زمن هشام بن عبد الملك؛ وثالثها حوالى سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م في أيام ابن المدبر عامل الخراج بمصر في خلافة المعتز بالله العباسي؛ ورابعها الروك الأفضلي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، نسبة إلى الأفضل ابن أمير الجيوش في عهد الخليفة الآمر الفاطمي؛ وخامسها الروك الصلاحي، نسبة إلى صلاح الدين يوسف الأيوبي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م؛ وسادسها الروك الحسامي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، وقد قام على عمله السلطان حسام الدين لاجين المملوكي فنسب إليه؛ وسابعها الروك الناصري المذكور هنا.(السلوك: ٢/١/١٤٦، حاشية) وقد ترك لنا المقريزي (الخطط: ١/٨١ ـ ٨٧) وثيقة نادرة تبيّن بوضوح كيفية إدارة المسلمين بمصر لشؤون الأرض وريعها وزراعتها وجباية أموالها. وقد لخص الدكتور جمال الدين الشيّال ذلك على النحو التالي:

١ ـ أن متولي الخرّاج كان يجلس ـ في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأرض ـ في المسجد وكتاب الخراج بين يديه.

٢ ـ كان للخراج سجلات خاصة أدرجت فيها أسماء الكور ومبالغ الصفقات.

٣ ـ أن الناس كانوا يحضرون من مختلف الجهات، فتعرض الصفقات للضمان بطريق المزاد العلني.

٤ ـ أن المتقبلين كانوا يتقبلون الأرض لمدة أربع سنوات.

٥ ـ أن كل من تقبّل أرضاً كان يتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها.

٦ ـ أن المتقبل كان يحمل ما عليه في أوقات محددة على أقساط.

٧ ـ وأنه كان يحسب له (أي يخصم) من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بنسبة معينة مقدرة في ديوان الخراج.

٨ ـ وأن بعض المتقبلين كانوا يتأخرون في دفع الأقساط إما عجزاً أو تهرباً، وأن الولاة كانوا يتشددون في جمع هذه البواقي مرة ويتسامحون مرة أخرى.

٩ ـ أن الولاة كانوا يتبعون نظاماً دقيقاً مقرراً، وذلك أنهم يروكون البلاد ـ أي يمسحونها ـ كل ثلاثين سنة، ويعدلونها تعديلاً جديداً، فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من ضمان البلاد، وينقصون فيما يحتاج إلى التنقيص منها، ذلك أن هذه السياسة فطنت إلى جواز زيادة الأرض المنزرعة إذا عني الضمان بإصلاح وسائل الري وضم الأراضي البور المجاورة لأرضه، وإلى جواز نقصان هذه الأرض في بعض النواحي إذا ظهر فسادها أو بعدها عن المجاري المائية.

١٠ ـ أن عملية بيع الخراج كانت تحدث في المسجد الجامع، فإنه كان يعتبر كديوان المالية؛ وكان الديوان أولاً في مسجد عمرو بن العاص، ثم نقل إلى مسجد أحمد بن طولون، وفي عهد العزيز بالله نقل الديوان إلى قصر وزيره ابن كلس، وبعد وفاة الأخير نقل الديوان إلى القصر الخليفي.

وقد استمر هذا النظام متبعاً في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية، وروعيت القاعدة المقررة من جعل المدة بين كل روكين ثلاثين عاماً (دراسات في التاريخ الإسلامي للدكتور الشيّال: ص ٩٥ ـ ١٠٠).

والمعلومات التي أثبتها مؤرخو العرب عن كيفية مسح الأراضي في هذه المرات السبع قليلة جداً، اللهم =

وجماعة من البُرجية، كان خبزُ الواحد منهم ما بين ألف مِثقال في السنة إلى ثلاثمائة[1] مثقال، فأخذ السلطان أخبازهم، وخَشِي الفتنة، فقـرّر مـع فخر الدين

= إلا الروكين الأخيرين: الحسامي والناصري، فقد أفاض المؤرخون بعض الشيء في ذكر أخبارهما. وثمَّ كتاب خاص يتحدث عن الروك الناصري وهـو كتاب «التحفـة السنية بـأسماء البـلاد المصريـة» لابن الجيعان. (طبعته دار الكتب المصرية سنة ١٨٩٨م وأشرف على نشره وقدم له بالفرنسية P. Moritz).

ولقد كان الروك الناصري عملاً عظيماً يستحق الإعجاب والتقدير، وفي هذا المجال يقول الأمير عمر طوسون في كتابه «مالية مصر»: «وهذا الروك كان محكماً في بابه، ولم يكن فقط أكثر استيفاء من المساحات التي سبقته في العهد العربي، بل كان عملاً متقناً تفتخر به أي مصلحة من مصالح المساحة الحالية».
ولعلّ أبرز حسنات الروك الناصري ـ بالإضافة إلى ما أشار إليه عمر طوسون ـ أن هذا الروك أعاد توزيع إقطاعات الأمراء وأنقص حصصهم إضعافاً لثرواتهم ونفوذهم، فقد قاسى الناصر كثيراً من تمردهم وثوراتهم، وهم الذين أقصوه عن العرش مرتين. كما امتاز عمل الناصر في هذا الروك بالنزاهة التامة، خاصة لعدم قبوله توسّط أحد، وكما قال المقريزي: «فإن السلطان أخذ في مواربة الأمراء، فما أثنوا على أحد في مجلس العرض إلا وأعطاه السلطان مثالاً بإقطاع رديء، فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة». وبعد انتهاء هذا الروك أبطل الناصر كثيراً من المكوس الجائرة المجحفة، يذكر المقريزي منها سبعة عشر مكساً وظلامة، ويتحدث عن كل واحد منها على حدة، ومن هذا الحديث نستطيع أن نلمس مقدار الجور الذي كان يتحمله المصريون قبل هذا العهد. (الخطط: ١/٨٨ ـ ٨٩).
أما المآخذ على الروك الناصري ـ بالرغم من حسناته ـ فكانت: أنه أنقص إقطاعات أجناد الحلقة (وهم الجسم الأساس في الجيش المملوكي) لصالح المماليك السلطانية؛ وأنه أكثر من توزيع الإنعامات والهبات على المقربين منه من الأمراء والمماليك السلطانية والخدم والجواري، فقد بلغت قيمة إقطاع الأمير يشبك الناصري ما يساوي إقطاع سبعة أمراء مائة وسبعة عشر أمير طبلخاناه. كما أشار المقريزي إلى الدور الخطير الذي لعبه الأقباط في هذا الروك، فقد كان غالبية الكتاب والأدلاء منهم، لذلك فإنهم:
(أ) بدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر، ففرقوا الإقطاع الواحد في عدة جهات، فصار بعض الجبـي في الصعيد وبعضه في الشرقية وبعضه في الغربية إضعافاً للجندي وتكثيراً للكلفة، (ب) وأفردوا جوالي الذمة من الخاص، وفرقوها في البلاد التي أقطعت للأمراء والأجناد؛ فإن النصارى كانوا مجتمعين في ديوان واحد، فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك الضيعة، فاتسع مجال النصارى، وصاروا ينتقلون في القرى، ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون، فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته.
(ج) وأفردوا ما بقي من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التي تصرف للسماط، ليتناولوا ذلك، ويوردوا منه ما شاؤوا، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه في جهات تستهلك بالأكل. بالإضافة إلى خطط المقريزي، انظر الدولة المملوكية لأنطوان ضومط، ص ١٣٩ وما بعدها.

(١) في خطط المقريزي: «ما بين ألف دينار إلى ثمانمائة دينار» وفي السلوك: «ما بين ألف مثقال إلى ثمانمائة مثقال».

[محمد بن فضل الله][(١)] ناظر الجيش رَوْك البلاد، وأخرج الأمراء إلى الأعمال: فتعيّن الأمير بدر الدين جَنْكَلِي بن البابا إلى الغربية ومعه آقولُ الحاجب والكاتب مكين الدين إبراهيم بن قَرْوِينَة؛ وتعيّن للشرقية الأمير أَيْدَمُر الخَطِيري ومعه أَيْتَمُش المحمدي والكاتب أمين الدين قُرْموط؛ وتعيّن للمنُوفية والبُحَيْرة الأمير بَلَبَان الصَّرْخَدِي و[طُرُنطَاي][(٢)] القُلُنْجُقِيّ و[محمد][(٢)] بن طُرُنْطاي وبِيبَرْس الجَمَدار. وتعيّن جماعةٌ أُخَر للصعيد[(٣)]. وتوجّه كلُّ أميرٍ إلى عمله؛ فلمّا نزلوا بالبلاد استدعَى كلُّ أمير مشايخَ البلاد ودلاتها[(٤)] وقيّاسِيها وعدولَها وسِجِلّات كلّ بلد، وعَرَف متحصّلها ومقدار فُدُنِها ومبلغ عَبْرتها، وما يتحصّل منه للجنديّ من العَيْن والغَلّة والدَّجاج والإِوَزّ والخِرَاف والكَشْك والعَدَس والكَعْك. ثم قاس الأمير تلك الناحية وكتب بذلك عِدَّةَ نسخ، ولا زال يعملَ ذلك في كلّ بلد حتّى انتهى أمر عمله. وعادوا بعد خمسة وسبعين يوماً بالأوراق، فتسلّمها فخرُ الدين ناظر الجيش. ثم [طلب السلطان الفخر ناظر الجيش و][(٥)] التقيَّ [الأسعد بن أمين الملك المعروف بـ][(٥)] كاتب بُرُلغي وسائر مستوفي الدولة، ليُفْرِدوا لخاصّ السلطان بلاداً ويُضيفوا الجَوَالِي[(٦)] إلى البلاد؛ وكانت الجوالِي قبل ذلك إلى وقت الرَّوْك لها ديوانٌ مفرد يختصّ بالسلطان، فأضِيف جَوَالِي كلّ بلد إلى متحصل خراجها.

---

(١) زيادة عن المقريزي.

(٢) الزيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن عقد الجمان.

(٣) في السلوك: «وتعينّ للصعيد التّليلي والمرتيني».

(٤) أي الادلاء. وفي السلوك: «ودللاءها». والدليل: من موظفي المساحة، يعمل الفناديق والسجلات والقوانين، ويفصّل الأرض ببقاعها وأصناف مزروعاتها وقطايعها، وأسماء المزارعين، ويكتب خطه أو يكتب عنه بالتزام الدرك في ذلك. (قوانين الدواوين لابن مماتي: ٣٠٥) وفي تعريف الفناديق ــ جمع فنداق ــ يقول القلقشندي: «. . فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطاع مباشرون فيمسحون أرض تلك البلد في كل قبالة بأسماء المزارعين، ويكتب أصل ذلك في أوراق تسمى الفنداق». (صبح الأعشى: ٣/٤٥٤).

(٥) زيادة عن السلوك.

(٦) الجوالي: ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة. ــ وقد تقدّم شرحها بأوسع مما هنا. راجع الفهارس.

وأُبْطِلت جهات المُكُوس[١] التي كانت أرزاق الجند عليها.

منها ساحل الغلّة[٢]؛ وكانت هذه الجهة مُقْطَعة لأربعمائة جُنْديّ من أجناد الحَلْقه سوى الأمراء، وكان متحصّلها في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم.

قلت: وهذا القَدْر يكون الآن شيئاً كثيراً من الذهب من سعر يومنا هذا.

وكان إقطاع الجنديّ [منها] من عشرة آلاف درهم إلى ثلاثة الآف درهم، وللأمراء من أربعين ألفاً إلى عشرة الآف درهم، فاقتنى المباشرون منها أموالاً عظيمة، فإنّها كانت أعظم الجهات الديوانيّة وأجّل معاملات مصر. وكان الناس منها في أنواع من الشدائد لكثرة المغارم والعَسْف والظُّلْم، فإنّ أمرها كان يدور على نواتية[٣] المراكب والكيّالين والمُشدِّين والكُتّاب؛ وكان المقرّر على كل إردب درهمين [للسلطان][٤] ويَلْحَقُه نصف درهم آخر سوى ما كان يُنْهب. وكان له ديوانٌ في بولاق خارج المَقْس، وقبله كان له خُصٌّ يُعْرف بخُصّ الكيّالة. وكان في هذه الجهة نحو ستين رجلاً ما بين نُظّار ومستوفين وكُتّاب وثلاثين جندياً للشدّ، وكانت غلِالُ الأقاليم لا تُباع إلاّ فيه، فأزال الملك الناصر هذا الظلم جميعَه عن الرعيّة، ورَخُص سِعْرُ القمح من ذلك اليوم، وانتعش الفقير وزالت هذه الظُّلامة عن أهل مصر، بعد أن راجعتْه أقباط[٥] مصر في ذلك غير مرّة، فلم يلتفت إلى قول قائل ــ رحمه الله تعالى ــ ما كان أعلى هِمّته، وأحسن تدبيره.

---

(١) انظر خطط المقريزي: ١/٨٨ ــ ٨٩، والسلوك: ٢/١/١٥٠ وما بعدها.

(٢) حدّد محمد رمزي بك مكانه في ذلك الوقت على النيل ببولاق. ومكانه اليوم شارع ساحل الغلال ببولاق وما في امتداده شمالاً. وقد نقل ساحل الغلال من مكانه المذكور سنة ١٨٩٩م إلى مكانه الحالي على النيل باسم ساحل روض الفرج بشارع روض الفرج بالقاهرة.

(٣) النواتيّة: البحارة، جمع نُوتيّ. وعبارة المقريزي في الخطط: «ما بين نواتية تسرق، وكيالين تبخس، وشادين وكتّاب يريد كل منهم شيئاً».

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) ذكر المقريزي أن الأقباط كانوا ينالون من هذا الأمر منافع كثيرة لا تحصى.

وأبطل الملك الناصر أيضاً نصف السَّمْسَرَة الذي كان أحدثه ابن الشيْخِيّ في وزارته ـ عامله الله تعالى بعدله ـ؛ وهو أنه مَنْ باع شيئاً فإنّ دلالة كل مائة درهم درهمان، يؤخذ منها درهم للسلطان؛ فصار الدلاّلُ يَحسِب حِسابه ويُخَلِّص درهمه قبل درهم السلطان؛ فأبطل الملك الناصر ذلك أيضاً، وكان يتحصل منه جملة كثيرة، وعليها جندٌ مستقطعة.

وأبطل السلطان الملك الناصر أيضاً رسوم الولايات والمقدّمين والنُّوّاب والشُّرطِية؛ وهي أنها كانت تُجْبَى من عُرَفاء الأسواق وبيوت الفواحش، وكان عليها أيضاً جُنْدٌ مستَقْطَعة وأمراء، وكان فيها من الظلم والَعسْف وهتك الحُرَم وهَجْم البيوت وإظهار الفواحش ما لا يُوصَف؛ فأبطل ذلك كلَّه ـ سامحه الله تعالى وعفا عنه ـ.

وأبطل ما كان مقرّراً للحوائص والبِغال؛ وكان يُجْبَى من المدينة ومن الوجهين: القبليّ والبحريّ، ويُحْمَل في كلّ قِسْط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن الحِياصة ثلاثمائة درهم، وعن ثمن البغل خمسمائة درهم؛ وكان على هذه الجهة أيضاً عِدّة مُقْطَعِين، سوى ما كان يحمل إلى الخزانة، فكان فيها من الظلم بلاء عظيمٌ؛ فأبطل الملك الناصر ذلك كلَّه، رحمه الله.

وأبطل أيضاً ما كان مقرّراً على السجون؛ وهو على كل من سُجِن ولو لحظةً واحدةً مائة[1] درهم سوى ما يَغْرَمُه. وكان أيضاً على هذه الجهة عِدّةُ مُقْطَعِين، ولها ضامن يَجْبِي ذلك من سائر السجون؛ فأبطل ذلك كلَّه، رحمه الله.

وأبطل ما كان مقرّراً من طَرْح الفراريج؛ وكان لها ضُمّانٌ في سائر الأقاليم. كانت تطْرح على الناس بالنواحي الفراريج؛ وكان فيها أيضاً من الظُّلم والعَسْف وأَخْذِ الأموال من الأرامل والفقراء والأيتام ما لا يمكن شَرْحه؛ وكان عليها عِدّة مُقْطَعين ومرتّبات، ولكل إقليم ضامنٌ مقرّر، ولا يقدر أحد أن يشتري فَروجاً إلاّ من الضامن، فأبطل الناصر ذلك، ولله الحمد.

(١) في السلوك والخطط: «ستة دراهم». وعبارة المقريزي بصدد هذا المقرر أوضح مما هنا.

وأبطل ما كان مقرّراً للفُرْسان؛ وهو شيءٌ تستهديه الوُلاة والمقدمون من سائر الأقاليم، فيُجَبى من ذلك مالٌ عظيم، ويُؤخذ فيه الدرهم ثلاثة دراهم من كثرة الظلم، فأبطل الملك الناصر ذلك، رحمه الله تعالى.

وأبطل ما كان مقرراً على الأقصاب والمعاصر؛ كان يُجْبَى من مُزارعي الأقصاب وأرباب المعاصر ورجال المعصرة، فيحصُل من ذلك شيء كثير.

وأبطل ما كان يُؤخذ من رسوم الأفراح؛ كانت تُجْبَى من سائر البلاد، وهي جهة لا يُعرف لها أصل، فبَطَل ذلك ونُسِي، ولله الحمد.

وأبطل جِباية المراكب؛ كانت تُجْبَى من سائر المراكب التي في بحر النيل بتقرير معيَّن على كلّ مَرْكَب، يقال له مقرّر الحِماية. كان يُجْبَى ذلك من مسافري المراكب سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، فبَطَل ذلك أيضاً.

وأبطل ما كان يأخذه مِهْتَار[1] طشتخاناه السلطان من البَغَايا والمنكَرات والفواحش، وكانت جملةً مستكثرة[2].

وأبطل ضمان تجيب[3] بمصر وشدّ الزعماء وحقوق السودان وكشف

(١) المهتار: لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت، كمهتار الشراب خاناه، ومهتار الركاب خاناه. واللفظ مركب من «مِهْ» ـ بكسر الميم ـ فارسية بمعنى الكبير، و«تار» بمعنى أفعل التفضيل، فهي تعني الأكبر. (صبح الأعشى: ٥/٤٧٠). والطشت خاناه: معناه بيت الطشت. وكان فيها ثياب الخليفة أو السلطان المفصلة والتي لا بد لها من الغسل. وكان للطشت خاناه مهتار يشرف عليها ويعمل معه غلمان يسمون الطشت داريّة وهم الغسّالون، والرختوانيّة وهم المنظفون. وقد أطلق على جميع العمال الذين يعملون بالطشت خاناه لقب «البابا» وهو لفظ يوناني معناه أبو الآباء، وقصد بذلك تعظيمهم لأنهم يعملون على ترفيه مخدومهم ويمسكون بأيديهم ملابس السلطان الداخلية عند تنظيفها. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٣١).

(٢) وقد سمى المقريزي هذا النوع من المكس: «حقوق القيّنات».

(٣) ألحق المقريزي هذه العبارة بالمكس السابق، وعبارته: «ومنها حقوق القينات، وهي ما كان يأخذه مهتار الطشت خاناه من البغايا ويجمعه من المنكرات والفواحش من أوباش مصر وضُمّان تُجيب بمصر». والمقصود بتُجيب: خطة من خطط الفسطاط (خطط: ١/٢٩٧) تسكنها سلالة قبيلة تجيب العربية. ولعل هذا الخط كان قد تحوّل في ذلك الوقت سكناً لأهل المنكرات.

مراكب النوبة، فكان يُؤخذ عن كلّ عَبْد وجارية مبلغ مقرَّر عند نزولهم في الخانات؛ وكانت جهةً قبيحة شنيعة إلى الغاية، فأراح الله المسلمين منها على يد الملك الناصر، رحمه الله.

وأبطل أيضاً متوفّر الجراريف[1] بالأقاليم، وكان عليها عِدّةٌ كثيرة من المُقْطَعين.

وأبطل ما كان مقرّراً على المشاعلية من تنظيف أَسْرِبَة البيوت والحّمامات والمسامط وغيرها، فكان إذا امتلأ سَرَاب بيت أو مدرسة [من الأوساخ][2] لا يمكن شيلُه حتى يحضُر الضامن ويُقَرِّر أجرته بما يختار، ومتى لم يُوافقه صاحب البيت تركَه ومضى حتى يحتاجَ إليه ويبذُلَ له ما يطلُب.

وأبطل ما كان مقرّراً من الجَبْي برسم ثمن العبي[3] وثمن رِكْوة السُّوّاس.

وأبطل أيضاً وظيفتي النظر[4] والاستيفاء من سائر الأعمال؛ وكان في كل بلد ناظرٌ ومستوفٍ ومباشرون[5]، فَرَسم السلطان ألّا يُستخدم أحدٌ في إقليم لا يكون

---

(١) الجراريف: جمع جرافة، وهي آلة تستعمل لكسح ورفع الأتربة والطين في إنشاء الجسور والترع وغيرها.
وعبارة المقريزي في الخطط: «وهو ما يجبى من سائر النواحي، فيحمل ذلك مهندسو البلاد إلى بيت المال بإعانة الولاة لهم في تحصيل ذلك».

(٢) زيادة بالمعنى من المقريزي.

(٣) العبي: لفظ عامي بمعنى العباءات، جمع عباءة. وهذا المقرر لم يذكره المقريزي.

(٤) النظر: أي مهمة الناظر، وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله، فيمضي ويردّ ما يردّ. وكان الناظر هو المشرف الرسمي على الإيراد والمنصرف في الديوان ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقي والفوائض والمتأخرات (انظر نهاية الأرب للنويري: ٢٩٩/٣، وقوانين الدواوين: ٢٩٨).
أما المستوفي: فهو من كتاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك. وكان يقوم بضبط سير الأعمال اليومية بالديوان ومراقبة الموظفين، هذا فضلاً عن قيامه بتبليغ متولي الديوان بما يجب تحصيله من الموارد المالية في مواعيدها المحدّدة. (صبح الأعشى: ٤٦٦/٥، وقوانين الدواوين: ٣٠١).

(٥) المباشرون: اسم يطلق على الموظفين في الدواوين كديوان الخاص، وفي الأعمال كعمل الجيزة والبحيرة وغير ذلك. ومنهم الناظر والمستوفي والشاد، ويعينهم ناظر الخاص. (صبح الأعشى: ٤٥١/٣ ــ ٤٦٠، و ٢٩/٤).

للسلطان فيه مال، وما كان للسلطان فيه مال يكون [في كل إقليم] ناظرٌ وأمين حكم[١] لا غير، ورفـع يدَ سائر المباشرين من البلاد.

قلت: وكلّ ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليلٌ على حسن اعتقاده وغَزِير عقله وجَوْدة تدبيره وتصرُّفه، حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التي كانت من أقبـح الأمور وأشنعِها وعوّضها من جهاتٍ لا يُظْلَم فيها الرجل الواحد. ومثلُه في ذلك كمثل الرجل الشجاع الذي لا يُبالِي بالقوم، كثُروا أو قلّوا؛ فهو يَكُرُّ فيهم، فإن أوغل فيهم خلص، وإن كرّ راجعاً لا يُبالِي بمَن هو في أثره، لِمَا يعلم ما في يده من نفسه؛ فأبطل لذلك ما قَبُح وأحدث ما صلُـح من غير تكلُّف، وعدم تخوُّف، فلله دَرُّه من مَلِك عَمَّر البلاد، وعَمَر بالإحسان العِباد. وهذا بخلاف مَنْ ولي بعده من السلاطين، فإنهم لقِصَر باعهم عن إدراك المصلحة، مهما رأَوْه، ولو كان فيه هلاكُ الرعية، وعذابُ البرية، يقولون: «بهذا جرت العادة من قبلنا، فلا سبيلَ إلى تغيير ذلك ولو هَلَك العالم»، فلَعَمْرِي هل تلك العادة حدثت من الكتاب والسُّنة، أم أحدثها مَلِك مثلُهم! وما أرى هذا وأمثاله إلّا من جميل صنـع الله تعالى، كي يتميّز العالِم من الجاهل. اِنتهى.

ثم رَسَم السلطان الملك الناصر [بالمسامحة][٢] بالبواقي الديوانية والإقطاعية من سائر النواحي إلى آخر سنة أربـع عشرةَ وسبعمائة. وجَعَل الرَّوْك[٣] الهِلاليّ لاستقبال صفر سنة ستّ عشرة وسبعمائة، والرَّوك[٤] الخَراجيّ لاستقبال ثُلُث مُغَلّ سنة خمسَ عشرةَ وسبعمائة.

---

(١) كان الأمين من موظفي الديوان. وأمين الحكم يشبه النائب في عمله. (قوانين الدواوين: ٣٠٥).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «المال الهلالي» وهو الصواب. والمال الهلالي هو الذي يستأدى مشاهرة كأجر الأملاك المسقفة من الآدر والحوانيت والحمامات والأفران وغيرها. (خطط: ١/١٠٣).

(٤) صوابه: «المال الخراجي». وهو ما يؤخذ مسانهة (أي كل سنة) من الأراضي التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة، وما يؤخذ من الفلاحين هدية كالغنم والدجاج وغيره. (المصدر السابق).

وأفرد السلطان لخاصّه الجيزية[١] وأعمالها. وأخرجت الجَوَالي من الخاص وفُرِّقت في البلاد[٢]، وأُفْرِدت الجهاتُ التي بَقِيت من المَكْس كلها، وأُضِيفت إلى الوزير؛ وأُفرِدت للحاشية بلادٌ، ولجوامك المباشرين بلادٌ، ولأرباب الرواتب جهاتٌ. وارْتُجِعَتْ عِدّةُ بلاد كانت اشتُرِيت من بيت المال وحُبِست، فأُدخلت في الإقطاعات.

قلت: وشراء الإقطاعات من بيت المال شراءٌ لا يَعْبأ الله به قديماً وحديثاً؛ فإنه متى احتاج بيتُ مال المسلمين إلى بَيْع قرية من القُرَى، وإنفاقِ ثمنها في مصالح المسلمين؟! فهذا شيء لم يقَع في عصر من الأعصار، وإنما تُشْتَرى القرية من بيت المال؛ ثم إن السلطان يَهَب للشاري ثمن تلك القرية، فهذا البيع وإن جاز في الظاهر لا يستحِلُّه الوَرَع، ولا فَعَله السَّلَف، حتى إنّ الملك لا تجوز له النفقةُ من بيت المال إلّا بالمعروف، فمتى جاز له أن يَهب الألوفَ المؤلّفة من أثمان القرى لمن لا يستحِقّ أن يكون له النَّزْرُ اليسير من بيت المال؟! وهذا أمرٌ ظاهر معروف يطول الشرح في ذكره. وفي قصّة سيّدِنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ما فَرَضه لنفسه من بيت المال كفايةٌ عن الإكثار في هذا المعنى. اِنتهى.

ثم إن السلطان رَسَم بأن يُعْتَدّ في سائر البلاد بما كان يُهْديه الفلّاحين وحُسب من جملة المبالغ.

فلمّا فَرَغ من العمل في ذلك نُودِي في الناس بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال بإبطال ما أُبْطِل من جهات المَكس وغيره، وكُتِبت المراسيم بذلك إلى سائر النواحي بهذا الإحسان العظيم، فسُرَّ الناس بذلك قاطبةً سروراً عظيماً، وضجَّ العالم بالدعاء

(١) عبارة المقريزي في الخطط والسلوك: «وأفرد السلطان لخاصه الجيزية وأعمالها وبلاد هُوْ والكوم الأحمر ومنفلوط والمرج والخصوص وعدة بلاد».

(٢) أوضح النويري أن الغرض من إخراج الجوالي من الخاص وتفريقها في البلاد كان للتخفيف عن النصارى وبسبب ميل الناصر إليهم. وكان من جراء ذلك أن ضاعت الجوالي. (انظر السلوك: ١٥٣/١/٢، حاشية: ٧ عن النويري).

للسلطان بسائر الأقطار، حتى شكرَ ذلك ملوكُ الفرنـج، وهابته من حسن تدبيره. ووَقـع ذلك لملوك التتار وأرسلوا في طلب الصُّلـح حسب ما يأتي ذكره.

ثم جلس السلطان الملك الناصر بالإيوان[١] الذي أنشأه بقلعة الجبل في يوم الخميس ثاني عشرين ذي الحِجّة سنة خمسَ عشرةَ وسبعمائة لتفرقة المِثالات[٢]. وهذا الرَّوْك يُعرف بالروك الناصري المعمول به إلى يومنا هذا. وحضروا الناس ورَسَم السلطان أن يُفَرّق في كلّ يوم على أميرين من المقدَّمين بمُضافِيهما، فكان المقدَّمُ يقِف بمضافِيه، ويُسْتَدْعَى كلٌّ واحد باسمه، فإذا تقدّم المطلوب سأله السلطان، من أنت؟ ومملوك من أنت؟ حتّى لا يَخفَى عليه شيءٌ من أمره، ثم يُعطيه مِثالاً يُلائمه؛ فأظهر السلطان في هذا العَرْض عن معرفة تامَّة بأحوال رعيّته، وأمور جيـوشه وعساكره؛ وكان كِبارُ الأمراء تحضُر التَّفرِقة، فكانوا إذا أخذوا في شُكْرِ جنديٍّ عاكسهم السلطان، وأعطاه دون ما كان في أملهم له، وأراد بذلك ألاّ يَتكلَّم أحدهم في المجلس؛ فلمَّا عَلِموا بذلك أمسكوا عن الكلام والشكر، بحيث إنّه لا يتكلَّم أحدٌ منهم إلا ردّ جوابٍ له يُسْأَلُ عنه، فمشى الحال بذلك على أحسن وجه من غير غَرَض ولا عصبيّة، وأُعْطي لكلّ واحد ما يستحقّه.

قلت: وأين هذه الفِعْلَة من فِعْل المَلِك الظاهر بَرْقُوق، رحمه الله؛ وقد أظهر من قِلَّة المعرفة، وإظهار الغَرَض التامّ، حيث أنعم على قريبه الأمير قَجْمَاس بإمرة مائة وتَقْدِمة ألف بالديار المصرية، وهو إذ ذاك لا يُحسِن يتلفَّظ بالشهادتين، فكان مباشرو إقطاعه يدخلون إليه مـع أرباب وظائفه فيجدون الفقيهَ يُعَلِّمه الشهادة وقراءة الفاتحة وهو كالتَّيْس بين يدي الفقيه! فكان ذلك من جملة ذنوب الملك الظاهر

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢٠٦/٢. وعيّن محمد رمزي مكان هذا الإيوان اليوم بجامـع محمد علي باشا بقلعة القاهرة.

(٢) المثالات: جمع مثال، وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً بإعطاء أحد المماليك إقطاعاً. وكان المثال يخرج من ديوان الجيش، ويقدمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان النظر لتسجيله وحفظه، ويكتب بذلك مربعة (أي ورقة مربعة الشكل، وهذه الأوراق تسمى المربعات الجيشية) فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة. ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء فيكتب كاتب السرّ بمقتضاها منشور الإقطاع. (صبح الأعشى: ١٥٣/١٣ ــ ١٥٥).

بَرْقُوق التي عدّدُوها له عند خروج الناصريّ(١) ومَنْطاش(٢) عليه، ونَفرت القلوبُ منه حتى خُلِع وحُبِس حسب ما يأتي ذكره. ولم أُرِدْ بذلك الحطَّ على الملك الظاهر المذكور غير أنّ الشيء بالشيء يُذْكر. انتهى.

ثم فعلَ السلطان الملك الناصر ذلك مع مماليكه وعساكره، فكان يسأل المملوكَ عن اسمه واسم تاجره وعن أصله وعن قدومه إلى الديار المصرية، وكم حضر مَصَافَّ(٣)، وكم لعب بالرمح [عن](٤) سِنِّه، ومَنْ كان خَصْمَه في لعب الرُّمح، وكم أقام سنة بالطبقة(٥)؟ فإن أجابه بصدق أنصفه، وإلاّ تركه ورَسَم له بجامكيّة(٦) هيّنة حتى يصل إلى رُتبة من يُقْطَع بباب السلطان، فأعجب الناسَ هذا غايةَ العجب. وكان الملك الناصر أيضاً يُخَيِّر الشيخ المسِنّ بين الإقطاع والراتب، فيُعطيه ما يختاره، ولم يُقطع في هذا العرض العاجزُ عن الحركة، [بل كان] يرتِّب له ما يقوم به عِوضاً عن إقطاعه.

واتَّفق للسلطان أشياء في هذا العَرْض، منها: أنّه تقدّم إليه شابٌ تامّ الخِلقة في وجهه أثر يُشبِه ضَرْبَةَ السيف، فأعجبه وناوله مِثالاً بإقطاع جيِّد، وقال له: «في أيّ مصاف وقع في وجهكَ هذا السيف»؟ فقال: «يا خَوَنْد! هذا ما هو أثر سَيفٍ، وإنّما وقعتُ من سُلَّم فصار في وجهي هذا الأثر»، فتبسّم السلطان وتركه، فقال له الفخر ناظر الجيش: «ما بقِي يصلُح له هذا الخبزُ» فقال الملك الناصر: «قد صدَقني وقال الحق، وقد أَخَذ رِزْقه، فلو قال: أُصِبتُ في المصافّ الفلاني، من كان يُكَذِّبه»؟ فدعت الأمراء له، وانصرف الشابُّ بالإقطاع. ومنها: أنّه تقدّم إليه

(١) هو يلبغا بن عبد الله الناصري الأتابكي اليلبغاوي. توفي سنة ٧٩٣هـ.

(٢) هو تمربغا بن عبد الله الأفضلي المدعو منطاش توفي سنة ٧٩٥هـ.

(٣) المصاف: جمع مَصَفّ، وهو الموقف في الحرب وموضع الصفّ في القتال. والملاحظ أن المؤلف وأكثر كتاب عصره يستعملون كلمة «المصاف» للدلالة على صيغتي الجمع والإفراد في آن معاً، كما سيأتي بعد قليل.

(٤) زيادة عن المقريزي.

(٥) الطبقة: وتجمع على طباق وأطباق، وهي المدارس والثكنات العسكرية التي كان يتعلم ويتربى فيها المماليك السلطانية. وقد سبق شرحها مفصلاً؛ راجع فهرس المصطلحات.

(٦) الجامكية: الراتب.

رجل دميمُ الخَلْق وله إقطاعٌ ثقيلٌ، عَبْرَتُه[١] ثمانمائة دينار، فأعطاه مِثالاً وانصرف به، عَبْرَتُه نصف ما كان في يده، فعاد وقبّل الأرض، فسأله السلطان عن حاجته، فقال: «الله يحفظ السلطان، فإنّه غَلِط في حَقِّي، فإنّ إقطاعي كانت عَبْرَتُه ثمانمائة دينار، وهذا عَبْرَتُه أربعمائة دينار»؛ فقال السلطان: «بل الغلط كان في إقطاعك الأول، فامْضِ بما قَسَم الله لك»؛ وأشياء من هذا النوع إلى أن انتهت تفرقة المثالات في آخر المحرّم سنة ستّ عشرة وسبعمائة، فوفَّر منها نحو مائتي مِثال.

ثم أخَذ السلطان في عَرْض مماليك الطِّباق ووفَّر جوامك عِدَّة منهم، ثم أفرد جهةَ قَطْيا للعاجزين من الأجناد، وقرَّر لكلّ منهم ثلاثة آلاف [درهم][٢] في السنة. ثم إن السلطان ارتَجع ما كانت المماليك البُرْجيّة اشترته من أراضي الجِيزة وغيرها. وارتَجَع السلطان أيضاً ما كان لبِيبَرْس وسَلّار وبُرُلْغِي والجوُكُنْدار وغيرهم من الرِّزق[٣] وغيرها، وأضاف ذلك كلَّه لخاصّ السلطان، وبالغ السلطان في إقامة الحُرْمة في أيّام العَرْض، وعَرَّف الأمير أَرْغُون النائب وأكابر الأمراء أنّه مَنْ ردَّ مِثالاً أو تضرَّر أو شكا ضُرِب وحُبِس وقُطِع خُبْزُه، وأَنّ أحداً من الأمراء لا يتكلَّم مع السلطان في أمر جنديّ ولا مملوك، فلم يتجاسر أحدٌ يُخالف ما رَسَم به؛ وغُبِن في هذا الرَّوْك أكثرُ الأجناد، فإنّهم أخذوا إقطاعاً دون الإقطاع الذي كان معهم، وقصَد الأمراء التحدث في ذلك مع السلطان، فنهاهم أَرْغُون النائب عن ذلك، فقدّر الله تعالى أنّ الملك الناصر نزَل إلى بركة الحجيج لصَيْد الكُرْكِي على العادة، وجلس في البستان المنصوريّ الذي كان هناك ليستريح، فدخل بعضُ المَرَقْدارِيّة[٤] يقال له عُزَيْز، وكان من عادته [أن][٥] يَهْزِل قُدَّام السلطان ليُضْحِكه، فأخذ المَرَقْدار يَهْزِل

(١) العَبْرة: مقدار ما يؤخذ من المال عن كل إقطاع من الأرض، أو ما يتحصل عن كل قرية من عين وغلّة وصنف.

(٢) زيادة عن المقريزي.

(٣) في المقريزي: «المتاجر».

(٤) المرقدارية: جمع مرقدار، وهو الذي يتصدى لخدمة ما في المطبخ وحفظه. وسمي بذلك لكثرة تذوقه مرق الطعام عند رفع الخوان. (صبح الأعشى: ٥/ ٤٧٠).

(٥) زيادة عن السلوك.

ويَمْزَح ويتمسخر قُدَّام السلطان والأمراءُ جلوسٌ، وهناك ساقية [والسلطان ينظر إليها] فَتمادَى في الهَزْل لشُؤْم بَخْتِه إلى أن قال: «وجدتُ جنديّاً من جند الرَّوْك الناصريّ وهو راكبُ إكْدِيشاً، وخُرْجُه ومِخْلاَتُه ورُمْحُه على كَتِفه»، وأراد أن يُتِم الكلام، فاشتدّ غضبُ السلطان، فصاح في المماليك: «عَرُّوه ثِيابَه»؛ ففي الحال خُلِعت عنه الثِّياب، ورُبِط مع قواديس الساقية، وضُرِبت الأبقار حتى أسرعت في الدوَرَان، فصار عُزَيز المذكور تارةً ينْغَمِس في الماء وتارةً يظهر وهو يستغيث وقد عاين الموت، والسلطان يزداد غَضباً. ولم يَجْسُر أحدٌ من الأمراء أن يَشْفَع فيه حتّى مضى نحو ساعتين وانقطع حِسُّه؛ فتقدّم الأمير طُغَاي الناصريّ والأمير قُطْلوبُغا الفخريّ الناصريّ وقالا: «يا خَوَنْد، هذا المسكين لم يُرِد إلاّ أن يُضْحِك السلطان ويُطَيِّب خاطره، ولم يُرِدْ غير ذلك» فما زالا به حتّى أُخرج الرجل وقد أَشْفَى على الموت، ورَسَم بنفيه من الديار المصريّة، فعند ذلك حَمِد الله تعالى الأمراء على سكوتهم وتَرْكهم الشفاعةَ في تغيير مِثالات الأجناد. اِنتهى أمرُ الرَّوْك وما يتعلّق به.

وفي محرّم سنة ستّ عشرة وسبعمائة ورد الخبر على السلطان بموت خَرْبَنْدَا مَلِك التّتار وجلوس ولده بُو سعيد[1] في المُلك بعده.

ثم أفرج الملك الناصر عن الأمير بَكْتَمُر الحُسامِيّ الحاجب وخلَع عليه يوم الخميس ثالث عشر شوّال من السنة المذكورة بنيابة صَفَد، وأنعم عليه بمائتي ألف درهم. ثم نقَل السلطان في السنة أيضاً الأمير كَرَاي المنصوريّ وسُنْقُر الكماليّ الحاجب من سجن الكَرَك إلى البُرْج بقلعة الجبل فسُجِنا بها.

ثمّ بدا له زيارة القُدْس الشريف، ونزل السلطان بعد أيام في يوم الخميس رابع جُمادَى الأولى من سنة سبع عشرة وسبعمائة، [وسار] ومعه خمسون أميراً، وكريمُ الدين الكبير ناظر الخواصّ وفخر الدين ناظر الجيش، وعلاء الدين [عليّ بن

---

(١) هو بهادر بن أولجايتو (خربندا)، أبو سعيد أو بو سعيد، تاسع سلاطين المغول الإيلخانيين في فارس وآخرهم. حكم من عام ٧١٦ إلى ٧٣٦هـ (١٣١٦ ـ ١٣٣٥م). وبهادُر (بالدال المضمومة) كلمة تركية مغولية الأصل مأخوذة من «بخاتُر». والمعنى الأصلي لبهادُر هو الشجاع أو المقدام، ثم أصبحت لقباً يطلق للتشريف في بلاد المغول. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١/٤٩٠، و٧/٤٣٣، و٨/٢١٩).

أحمد بن سعيد] بن الأثير كاتب السِّرّ، بعدما فَرّق في كلّ واحد فَرَساً مُسْرَجاً وهَجِيناً، وبعضهم ثلاث هُجُن، وكتَب إلى الأمير تَنْكِز نائب الشام أن يلقاه بالإقامات[١] لزيارة القُدْس؛ فتوجّه إلى القُدْس وزاره، ثم توجّه إلى الكَرَك ودخله وأفرج عن جماعة، ثم عاد إلى الديار المصريّة فدخلها في رابع عشر جُمادَى الآخرة، فكانت غَيْبته عن مصر أربعين يوماً.

ثمّ بعد مجيء السلطان وصل إلى القاهرة الأميرُ علاء الدين مغُلْطَاي الجَمالي، والأمير بهادُر آص، والأمير بِيبَرْس الدَّوادار، وهؤلاء الذين أفرج عنهم من حَبْس الكَرَك؛ وخَلع السلطان عليهم وأنعم على بهادُر بإمرة في دِمَشْق؛ ولَزِم بِيبَرْس داره، ثم أنعم عليه بإمرةٍ وتقدمة ألف على عادته أوّلاً[٢].

ثم عزَل السلطان الأميرَ بَكْتَمُر الحُساميّ الحاجب عن نيابة صَفَد في أوّل سنة ثماني عشرةَ وسبعمائة، وقَدِم القاهرة وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر.

وفي هذه السنة تجهّز السلطان لركوب المَيْدَان[٣]، وفرّق الخيل على جميع الأمراء، واستجدّ ركوب الأوجاقية[٤] بكَوافِي زَرْكَشْ على صفة الطاسات[٥] وهم الجَفْتاوات[٦].

---

(١) الإقامات: هي الخيام وما يتبعها من أمتعة ولوازم للسفر.

(٢) وفي هذه السنة ٧١٧هـ أمر الملك الناصر بروك المملكة الطرابلسية على يد شرف الدين يعقوب ناظر حلب. ـ انظر ملاحق هذا الجزء.

(٣) هو الميدان الكبير بخط اللوق. وكان الركوب يتكرر في كل سنة، ويكتب به إلى جميع النواب الأكابر والأصاغر، وتجهز إلى أكابر النواب خيول صحبة المثال الشريف، ويرسم لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب الكرة تأسياً بالسلطان. وقد يكون ذلك في أول العام وعند وفاء النيل. (صبح الأعشى: ٣/٥٠٥ و ٨/٣٣٣) ومكان الميدان الناصري اليوم أرض القصر العالي المشهورة بجاردن سيتي في شمالي مستشفى قصر العيني بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٤) الأوجاقية (الأوشاقية): واحدها أوجاقي أو أوشاقي، وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٤).

(٥) الطاسات: جمع طاس وطاسة، وهي طاقية صغيرة تغطي قمة الرأس. (ملحق دوزي).

(٦) الجفتاوات: جمع جفتاه، وهو لفظ كان يطلق على فرسين أشهبين قريبي الشبه، برقبتين من زركش وعدة تضاهي عدة مركوب السلطان كأنها معدّان لأن يركبها السلطان، يعلوهما مملوكان من المماليك =

وفيها ابتدأ السلطان بهَدْم المطبخ وهَدْم الحوائج خاناه والطشتخاناه وجامع القلعة القديم، وأخلط الجميع وبناه الجامع[1] الناصري الذي هو بالقلعة الآن فجاء من أحسن المباني.

وتجدّد أيضاً في هذه السنة بدِمَشْق ثلاثة جوامع: جامع الأمير تَنْكِز[2] المشهور به، وجامع كَريم الدين[3]، وجامع شمس الدين[4] غبريال. ثم حجّ [بالركب المصري][5] في هذه السنة أميرُ الحاج الأمير مُغْلَطاي الجَماليّ، وقبضَ بمكة على الشريف رُمَيْثَة[6]، وفرَّ حُمَيْضَة[7]؛ وقَدِم مُغْلَطاي المذكور برُمَيْثَة مقيَّداً إلى القاهرة.

وفي سنة تسعَ عشرةَ وسبعمائة استجدّ السلطان القيام فوق الكرسيّ للأمير جمال الدين آقوش الأشرفيّ نائب الكَرَك الذي أفرج عنه السلطان في السنة الماضية، وكذلك للأمير بَكْتَمُر البوبكريّ السِّلاح دار، فكانا إذا دخلا عليه قام لهما؛

= السلطانية (أوجاقية ـ أوشاقية) قريبا الشبه أيضاً على رأس كل منهما قبعة من زركش (حرير فيه خيوط ذهب). وكانا يركبان أمام السلطان في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة وفي العيدين. (صبح الأعشى: ٢/١٣٣، ١٣٤، و٤/٨).

(١) الجامع الناصري أو جامع القلعة ـ انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٢، ٣٢٥.

(٢) هو تنكز بن عبد الله الناصري نائب الشام المتوفى سنة ٧٤١هـ. أنشأ جامعه المعروف بجامع تنكز بدمشق ظاهر باب النصر تجاه حكر السمّاق على نهر بانياس. (الدارس: ٢/٣٢٧).

(٣) جامع كريم الدين: ويعرف بالجامع الكريمي. بناه القاضي كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله وكيل الخاص السلطاني المتوفى سنة ٧٢٤هـ. وموقع هذا الجامع بالقبيبات من دمشق. (الدارس: ٢/٣٢١).

(٤) وهو جامع الملّاح، في محلّة الملّاح أو محلة القعاطلة خارج باب شرقي دمشق. أنشأه الصاحب شمس الدين غبريال بن سعد ناظر الدواوين بدمشق. (الدارس: ٢/٣٢٤).

(٥) زيادة عن السلوك.

(٦) ـ(٧) رميثة وحميضة ابنا أبي نميّ محمد بن الحسن بن علي الحسني أمير مكة. وليا إمرة مكة مشتركين ثم اختلفا فاقتتلا ونشبت بينهما الوقائع. واستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥هـ، وقبض عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٨هـ فهرب، وأمسك فسجن إلى سنة ٧٢٠هـ. وفي هذه السنة ـ أي ٧٢٠هـ ـ قتل أخوه حميضة غيلة، فاستمر الصراع بين رميثة وعطيفة إلى أن استطاع رميثة الانفراد بالأمر من سنة ٧٣٨ إلى سنة ٧٤٥هـ فنزل عن الإمارة لأولاده، وتوفي سنة ٧٤٦هـ. (انظر الأعلام: ٢/٢٨٥ و٣/٣٣ ومصادره).

وكان آقوش نائب الكَرَك يتقدَّم على البُوبَكْري عند تقبيل يد السلطان، فعتبَ الأمراء على البُوبَكْري في ذلك، فسأل البُوبكريُّ السلطانَ عن تقديم نائب الكَرَك عليه، فقال: لأنه أكبرُ منك في المنزلة، فاستغرب الأمراء ذلك وكشفوا عنه، فوجدوا نائب الكَرَك تَأمَّر في أيام الملك المنصور قلاوون [إمرة] عشرة، وجعله أُسْتادار ابنه الأشرف خليل في سنة خمس وثمانين وستمائة، ووجدوا البُوبَكْريّ تأمَّر في سنة تسعين وستمائة فسكتوا الأمراء عند ذلك، وعلموا أنّ السلطانَ يَسير على القواعد القديمة[1] وأنه أعرفُ منهم بمنازل الأمراء وغيرها.

وفيها اهتمّ السلطان لحركة السفر إلى الحجاز الشريف، وتقدّم كريم الدين الكبير ناظر الخواصّ إلى الإسكندرية لعمل الثِّياب الحرير برسم كسوة الكعبة؛ وبينا السلطان في ذلك وصلت تقدِمةُ الأمير تَنْكِز نائب الشام، وفيها الخيل والهُجُن بأكْوار[2] ذهب وسلاسل ذهب وفِضَّة وَمقاوِد حرير، وكانت عِدَّةً كثيرة يطول الشرح في ذكرها. ثم أيضاً وصلت تَقْدِمة الملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل صاحب حَماة، وهي أيضاً تشتمل على أشياء كثيرة. وتَوَلّى كريم الدين تجهيز ما يحتاج إليه السلطان من كلّ شيء حتى إنه عَمِل له عِدَّةَ قُدُور من ذهب وفِضَّة [ونُحاس][3] تُحْمَل على البَخاتيّ ويُطْبَخ فيها للسلطان؛ وأحضر الخَوَلة لعمل مَباقِل[4] ورياحين في أحواض خشب تُحْمَل على الجمال فتصير مزروعة فيها وتُسْقَى بالماء، ويُحْصَد منها ما تدعو الحاجة إليه أوّلاً بأوّل، فتهيأ من البقل والكُرّاث والكُسْبُرة والنعناع وأنواع المشمومات والرَّيْحان شيء كثير؛ ورتَّب لها الخَوَلة لتعهدها بالسقية وغيرها؛

---

(١) يشير المقريزي في السلوك إلى هذه الناحية من دقائق الخدمة السلطانية في العهد المملوكي بإضافة عبارة: «فإن العادة جرت أن يتأخر الكبير في تقبيل اليد ويتقدم الصغير قبله». والأرجح أنه يشير إلى تأخر الكبير في السنّ. أما نصّ أبي المحاسن هنا فيشير إلى تقدّم الكبير في القدر والمنزلة؛ ولعلّ هذا ما أحدثه الناصر على غير عادة، الأمر الذي أحدث استغراب الأمراء.

(٢) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل يوضع على ظهر الخيل أو الإبل.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) المباقل: جمع مبقلة، وهي هنا أنواع البقول.

وجُهِّزت الأفران وصُنَّاع الكُماج[١] والجُبْن المَقْلِي وغيره. وكُتِبت أوراق عليق السلطان والأمراء الذين معه وعِدّتهم اثنان وخمسون أميراً، لكل أمير ما بين مائة عليقة، [في كل يوم][٢] إلى خمسين عليقة إلى عشرين عليقة، وكانت جملةُ العَلِيق في مدّة سفر السلطان ذَهاباً وإياباً مائةَ ألف إرْدبّ وثلاثين ألف إرْدب [من الشعير][٢] وحَمَل تَنْكِز من دِمَشْق خمسمائة حِمل على الجمال ما بين حَلْوى وسكر[٢] وفواكه، ومائة وثمانين حمْل حبّ رُمّان وَلْوز، وما يُحتاج إليه من أصناف الطبخ. وجهّز كريم الدين الكبير من الإوزّ ألف طائر، ومن الدّجاج ثلاثة آلاف طائر، وأشياء كثيرة من ذلك.

وعيّن السلطان للإقامة بديار مصر الأمير أَرْغُون الناصريّ النائب ومعه الأمير أَيْتَمُش المحمدّيّ وغيره[٣]. ثم قَدِم الملك المؤيّد صاحب حَمَاة إلى القاهرة ليتوجّه في رِكاب السلطان إلى الحجاز. وسافر المَحْمِل على العادة في ثامن عشر شوّال مع الأمير سيف الدين طُرْجي أمير مجلس. ورَكِب السلطان من قلعة الجبل في أوّل ذي القعدة، وسار من بركة الحُجّاج في سادس ذي القعدة وصحبتُه المؤيد صاحب حماة والأمراء وقاضي القضاة بدر الدين بن جَمَاعة الشافعيّ وغالبُ أرباب الدولة. وسار حتى وصل مكَة المشرّفة بتواضُع زائدٍ بحيث إنّ السلطان قال للأمير جَنْكَلِي بن البابا: «لا زلتُ أُعَظِّم نفسي إلى أن رأيت الكعبة المشرّفة، وذكرتُ بَوْسَ

(١) الكماج: جمع كماجة، وهي كلمة فارسية الأصل، ومعناها الخبز الشديد البياض، أو على حد قول محيط المحيط: الفطير من الخبز، يعجن بغير خميرة ويخبز على الرماد. (السلوك: ٢/١/١٩٦، حاشية عن دوزي ومحيط المحيط). وشرحه صاحب متن اللغة بقوله: هو عند العامة ضرب من الخبز، وهو محرف كنانج المختزل من خشكنانج، بمعنى الخبز المطيب. أو هو من الشماخ وهو شبه القرص الغليظ من خبز الأرز والشعير.

(٢) في السلوك: «وسكردانات». والسكردان هو الوعاء المستعمل لحفظ الحلوى.

(٣) أضاف النويري في نهاية الأرب بعد هذه الكلمة عبارة هامة: «ورسم لمن تأخر من الأمراء أن يتوجهوا إلى نواحي إقطاعهم، فيكون كل منهم ببلاد إقطاعه إلى حين عود السلطان، ولا يجتمع أمير بأمير في غيبته؛ وكتب إلى النواب بالشام أن يستقر كل نائب بمقرّ مملكته، ولا يتوجه إلى صيد إلى حين عوده؛ فامتثلت أوامره». ـ وهذه العبارة تشير، فيما تشير إليه، إلى حذر السلطان من الأمراء أثناء غيبته وحرصه على اتخاذ الإجراءات التي تحول دون تآمر بعضهم.

الناس الأرض لي، فدخلتْ في قلبي مهابةٌ عظيمة ما زالت عني حتى سجدتُ لله تعالى». وكان السلطان لما دخل مكة حَسَّنَ له قاضي القضاة بدر الدين بن جَمَاعة أن يطوف بالبيت راكباً كما فَعَل النبيّ ﷺ فقال له الملك الناصر: ومن أنا حتى أتشبه بالنبي ﷺ والله لا طفتُ إلا كما يطوفُ الناس». ومَنع الحُجَّابَ من مَنْع الناس أن يطوفوا معه، وصاروا يُزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم في مدّة طَوَافه، وفي تقبيله الحجرَ الأسود.

قلتُ: وهذه حجّةُ الملك الناصر الثانية. ولما كان الملك الناصر بمكّة بلغه أن جماعة من المُغْل ممّن حجّ في هذه السنة قد اختفى خوفاً منه، فأحضرهم السلطان وأنعم عليهم وبالغ في إكرامهم. وغَسَل السلطان الكعبة بيده، وصار يأخذ أُزُرَ إحرام الحُجَّاج ويَغْسِلها لهم في داخل البيت بنفسه، ثم يدفعها لهم، وكثُر الدعاء له. وأبطل سائرَ المكُوس من الحرمين الشريفين، وعَوّض أميرَي مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام، وأحسن إلى أهل الحرمين، وأكثر من الصدقات.

وفي هذه السنة مهّد السلطان ما كان في عَقَبة أَيْلَة من الصخور، ووسَّع طريقها، حتى أمكن سلوكُها بغير مَشَقَّة؛ وأنفق على ذلك جُمَلاً مستكثرة.

واتفق لكريم الدين الكبير ناظر الخاصة أمْر غريب بمكة فيه موعظة، وهو أنّ السلطان بالغ في تواضعه في هذه الحِجّة للغاية، فلما أُخرِجت الكسوة لتُعْمَل على البيت صَعِد كريم الدين المذكور إلى أعلى الكعبة بعد ما صلّى بجوفها، ثم جلس على العتبة ينظر في الخيّاطين، فأنكر الناس استعلاءَه على الطائفين، فبعَث الله عليه وهو جالس نُعاساً سقطَ منه على رأسه من عُلْو البيت، فلولم يتداركوه مَنْ تحته لهَلَك. وصرَخ الناس في الطواف صَرْخةً عظيمة تعجُّباً من ظهور قدرة الله تعالى في إذلال المتكبرين! وانقطع ظُفر كَريم الدين، وعلِم بذنبه فتصدّق بمال جزيل.

وفي هذه السَّفْرة أيضاً أجرى السلطان الماء لخُلَيْص[1]، وكان انقطع من مدّة سنين. ولَقِي السلطانُ في هذه السَّفْرة جميعَ العُرْبان وملوكها من بني مَهْدِيّ وأمرائها

(١) خليص: حصن بين مكة والمدينة. (معجم البلدان).

وشطيّ [بن عُبَيَّة][١] وأخاه عَسَّافاً وأولاده وأشراف مكة من الأمراء وغيرهم، وأشرافَ المدينة ويَنْبُـع وغيرهم، وعَرَب خُلَيْص وبني لأم وعُرْبان حَوْرَان وأولاد مُهَنَّا: موسى وسليمان وفَيَّاضاً وأحمد وغيرهم، ولم يتفق اجتماعهم عند ملك غيره؛ وأنعم عليهم بإقطاعات وصِلَات، وتدلَّلُوا على السلطان، حتى إنّ موسى بن مُهَنّا كان له ولدٌ صغير فقام في بعض الأيام ومدّ يدَه إلى لْحِيَة السلطان وقال له: «يا أبا عليّ بحياة هذه اللّحية» ومَسَك منها شَعَرات «إلاّ ما أعطيتَني الضَّيْعَة الفلانية إنعاماً عليّ»، فَصَرخ فيه فخرُ الدين ناظر الجيش وقال له: «شِلْ يدَكَ! قطع الله يدك! تمُدُّ يدَك إلى السلطان»؟ فتبسّم له السلطان وقال: «هذه عادةُ العرب، إذا قصدوا كبيراً في شيء فيكون عظمته عندهم مسك لحِيته، يريدون[٢] أنهم قد استجاروا بذلك الشيء فهو سُنَّةٌ عندهم»؛ فغَضِب الفخر ناظر الجيش وقام وهو يقول: «إنّ هؤلاء مناحيس وسُنَّتُهم أنحس».

ثم عاد السلطان بعد أن قَضى مناسكه إلى جهة الديار المصرية في يوم السبت ثاني عشر المحرّم سنة عشرين وسبعمائة بعد أن خَرَج الأمراء إلى لقائه ببركة الحُجّاج؛ وركِب السلطان بعد انقضاء السِّماط في موكبٍ عظيم، وقد خرج الناس لرؤيته وسار حتى طلَـع القلعة، فكان يوماً مشهوداً، وزُيِّنت القاهرة ومصر زينةً عظيمة لقدومه، وكثُرت التهاني وأرباب الملاهي من الطبول والزمور.

وجلَس السلطان على تخت المُلك وخلَـع على الأمراء وألبس كريم الدين الكبير أطلسين، ولم يتَّفق ذلك لمتعِّمم قبله. ثم خلَـع السلطان على الملك المؤيد إسماعيل صاحب حَمَاة وأركبـه بشعار السلطنـة من المدرسـة المنصوريـة ببين القصرين، وحَمَل وراءَه الأمير قِجْلِيس السِّلاح دار السِّلاح، وحَمَل الأمير أُلْجاي

---

(١) زيادة عن مسالك الأبصار: قسم خاص بقبائل العرب في القرنين السابـع والثامن الهجريين، بتحقيق دوروتيا كرافولسكي. وفيه شرح لأحوال أعلام القبائل والأمراء الواردة في النص هنا. ــ وانظر أيضاً نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي وصبح الأعشى، الجزء الرابع.

(٢) عبارة الأصل: «يريد أنه استجار بذلك المسّ». وما أثبتناه عبارة السلوك.

الدّوادار الدواةَ، ورَكِب معه الأمير بِيبَرْس الأحمدي أمير جاندار والأمير طَيْبَرْس[١]، وسار بالغاشية[٢] والعصائب وسائر دَسْت السلطنة، وهم بالخِلَع معه، إلى أن طلَع إلى القلعة، فكان عِدّةُ تشاريف من سار معه مائةً وثلاثين تشريفاً: فيها ثلاثة عشر أطلس، والبقية كَنْجِي[٣] وعَمَل الدار وطَرد وحش، وقبّل الأرض وجلس على ميمنة السلطان ولقَّبه السلطان بالملك المؤيّد، وسافر من يومه بعد ما جهّزه السلطان بسائر ما يحتاج إليه. ثم أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء المحبوسين، وعدّتُهم أزيد من عشرة نفر. ثم ندبَ السلطان الأميرَ بيبرس الأحمدي الحاجب وطائفةً من الأجناد إلى مكة ليُقيم بها بدل الأمير آق سُنْقُر شادّ العمائر خوفاً من هجوم الشريف حُمَيْضة[٤] على مكّة.

وفي هذه السنة أبطل السلطان مَكْس المِلْح بالقاهرة وأعمالها، فأُبِيع الإرْدَبّ الملح بثلاثة دراهم بعد ما كان بعشرة دراهم [فإنه كتب إلى العمال ألا يمنع أحد من شيل الملح من الملاحات، وأبيحت لكل أحد، فبادر الناس إليها وجلبوا الملح][٥].

ثمّ أَذِن السلطان للأمير أَرْغُون النائب في الحجّ فحجّ، وعاد في سنة إحدى وعشرين بعد أن مَشَى من مكّة إلى عَرَفات على قدميه تواضعاً.

ثم أخرج السلطان الأميرَ شرف الدين حُسين بن جَنْدَر إلى الشام على إقطاع

---

(١) في السلوك: «أمير جاندار وأمير طبر» وأمير جاندار: وظيفته أن يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر. ــ وإمرة طبر: أن يكون صاحبها حاملاً الطبر (الفأس) في المواكب ويحكم على من دونه من الطبردارية. (انظر صبح الأعشى: ٤/ ٢٠ ــ ٢٣، طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) الغاشية: (سبق التعريف بها. راجع فهرس المصطلحات). والعصائب: هي الرايات العظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه. (صبح الأعشى: ٤/ ٨).

(٣) الكنجي: نسيج من الحرير والقطن، يُنسب إلى مدينة كنجة من إقليم أران. ــ والمراد بعمل الدار أي دار الطراز، وقد سبق التعريف بها وبالطرد وحش، فانظر فهارس المصطلحات.

(٤) وكان السلطان قد أفرج عن أخيه الأمير رميثة فيمن أفرج عنهم من الأمراء المحبوسين المشار إليهم قبل هذا. وقد ذكر منهم المقريزي في السلوك خمسة عشر أميراً. (السلوك: ٢/ ١/ ٢٠٢).

(٥) زيادة عن السلوك.

الأمير جُوبان ونقل جوبان على إمرةٍ بديار مصر. وسبب نفي الأمير حُسين أنّه لمّا أنشأ جامعه المعروف بجامع أمير حسين بجوار داره على الخليج في البرّ الغربيّ بحكر جَوْهر النُّوبي، ثم عَمّر القنطرة وأراد أن يفتح في سور القاهرة خوخة[١] تنتهي إلى حارة الوزيريّة، فأذِن له السلطان في فتحها، فخَرَق باباً كبيراً وعَمِل عليه رَنْكَه[٢]، فسعَى به علمُ الدين سَنْجَر الخيّاط متولّي القاهرة، وعظّم الأمر على السلطان في فتح هذا الباب المذكور، فرَسَم بنفيه في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة المذكورة.

وفيها وقع الحريق بالقاهرة [ومصر][٣] فابتدأ من يوم السبت خامس عشر جُمادَى الأولى وتواتر إلى سَلْخه. وكان مما احترق فيه الرَّبْعُ الذي بالشَّوَّايين[٤] من أوقاف البِيمَارِسْتان المنصوريّ واجتهد الأمراء في طَفْيه، فوقع الحريق في حارة الدَّيْلَم قَريباً من دار كريم الدين الكبير، ودَخل اللّيل واشتدَّ هبوبُ الرياح فسَرَت النار في عِدّة أماكن؛ وبعث كريم الدين ابنه عبد الله للسلطان فعرّفه، فبَعث السلطان لإطفائه عِدّةً كثيرة من الأمراء والمماليك خوفاً على الحواصل[٥] السلطانية، فتعاظم الأمر وعجز آق سنقر شاد العمائر، والنار تعمل طول نهار الأحد، وخرَج النساء مسبيات وبات الناس على ذلك؛ وأصبحوا يوم الاثنين والنار تَلُفُّ ما تمرّ به، والهَدْم واقعٌ في الدور المجاورة للحريق. وخرج أمرُ الحريق عن القُدْرة البشريّة، وخرجت ريحٌ عاصفة ألقت النخيل وغرّقت المراكب ونَشَرَت النار، فما شكّ الناس [في] أنّ القيامة

---

(١) الخوخة: باب صغير في بوابة كبرى لسور أو حصن أو فندق. وكانت العادة في العصور الوسطى في مصر وغيرها أن يجعل هذا الباب الصغير للاستعمال اليومي، فلا تكون حاجة إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الضرورة. والملاحظ هنا أن هذا اللفظ استعمل للدلالة على باب في سور القاهرة من غير أن يكون من أصل بوابة كبيرة. ـ وانظر عن هذه الخوخة: خطط المقريزي: ٢/٤٦.

(٢) الرنك: هو الشعار الخاص بكل أمير. ـ راجع فهارس المصطلحات.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) انظر سوق الشوايين في خطط المقريزي: ٢/١٠٠.

(٥) كانت الحواصل السلطانية ثمانية وهي:
الشراب خاناه، والفراش خاناه، والسلاح خاناه، والركاب خاناه، والحوائج خاناه، والمطبخ، والطبلخاناه. (انظر صبح الأعشى: ٤/٩ ـ ١٣).

قد قامت؛ وعظُم شَرَرُ النِّيران وصارت تُسْقِط الأماكن البعيدة، فخرج الناس وتعلّقوا بالمَوادن(١) وآجتمعوا في الجوامع والزوايا وضجُّوا بالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى. وصَعِد السلطان إلى أعلى القَصْر فهاله ما شاهده. وأصبح الناس في يوم الثلاثاء في أسوإ حال، فنَزل أَرْغُون النائب بسائر الأمراء وجميع مَنْ في القلعة، وجَمَع أهلَ القاهرة ونَقَل الماء على جمال الأمراء، ثم لَحِقه الأمير بَكْتَمُر الساقي بالجمال السلطانية، ومنعت أبواب القاهرة أن(٢) يخُرج منها سقَّاء، ونُقِلت المياه من المدارس والحمّامات والآبار، وجُمِعت سائر البنّائين والنجّارين فهُدِمت الدور من أسفلها، والنار تَحْرِق في سقوفها. وعَمِل الأمراء الألوف، وعِدَّتُهم أربعة وعشرون أميراً، بأنفسهم في طَفْي الحريق ومعهم مُضافوهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات؛ وتناولوا الماء بالقِرَب من السقّائين بحيث صار من باب زَوِيلة إلى حارة الروم بَحْراً، فكان يوماً لم يُرَأشنعُ منه، بحيث إنه لم يبقَ أحدٌ إلا وهو في شُغْل؛ ووقف الأمير أَرْغُون النائب وبَكْتَمُر الساقي حتى نُقِلت الحواصل(٣) السلطانية من بيت كريم الدين ناظر الخاص إلى بيت ولده عَلَم الدين عبد الله بدرب الرصاصي، وهُدِم لأجل نَقْل الحواصل سبع(٤) عشرة داراً، وخَمَدت النار وعاد الأمراء.

فوقَع الصِّياحُ في ليلة الأربعاء بحريق آخر وقع برَبْع الملك الظاهر بِيبَرْس خارج باب زويلة وبقَيْساريّة الفقراء، وهبّت الرياح مع ذلك. فرَكِبت الحُجّاب والوالي فعَمِلوا في طَفْيها عملاً إلى بعد ظهر يوم الأربعاء، وهدموا دوراً كثيرة؛ فما كاد أن تَفْرُغ الأمراء من إطفاء رَبْع الملك الظاهر، حتى وقعت النار في بيت الأمير سلّار بخُطّ بين القصرين، وإذا بالنار آبتدأت من أصل البَادهَنْج(٥) وكان

(١) المراد المآذن.

(٢) في الأصل: «ألا». والتصحيح عن السلوك.

(٣) المقصود بالحواصل السلطانية هنا الحوائج خاناه.

(٤) في السلوك: «ستة عشر داراً».

(٥) في السلوك: «من أعلا البادهنج» والبادهنج: من الفارسية (باذ) و(آهنج) أي ساحب الهواء أو مدخله. والمراد به هنا نافذة أو فتحة للتهوية. وصوابه أن يقال: باذاهنج. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ص ٣٥). ويستعمل اللفظ بمعنى الفتحة في كم الجبّة. (صبح الأعشى: ٤/٤٣).

آرتفاعه من الأرض زيادة على مائة ذراع بذراع العمل[١]، ورأوا فيه نِفطاً قد عُمِل فيه فَتِيلة كَبيرة؛ فما زالوا بالنار حتى أُطْفِئَتْ من غير أن يكون لها أثر كبير. فنُودِي أن يُعمل بجانب كلّ حانوت بالقاهرة ومصر زيرٌ أو دَنٌّ كبير ملآن ماء.

ثم في ليلة الخميس وقَع الحريق بحارة الروم وبموضع آخر خارج القاهرة، وتمادى الحال على ذلك لا يخلو وقوعُ الحريق بالقاهرة ومصر؛ فشاع بين الناس أنّ الحريق من جهة النصارى لَمَّا أنكاهم هَدْم الكنائس[٢].

ثم وقَع الحريق في عِدّة مساجد وجوامع ودور، إلى أن كان ليلة الجمعة حادي عشرينه قُبِض على راهبين خرجَا من المدرسة الكَهارِيّة[٣] بالقاهرة وقد أَرْمَيا النار بها، فأُحْضِروا إلى الأمير عَلَم الدين سَنْجَر [الخازن][٤] والي القاهرة وشَمَّ منهما رائحةَ الكِبْريت والزَّيْت؛ فأحضرهما من الغد إلى السلطان فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا. فلما نَزَل [الأمير علم الدين] بهما وجَد العامة قد قبَضت على نَصْرانيّ، وهو خارجٌ والأثر في يديه من جامع الظاهر بالحُسَيْنِيّة ومعه كَعْكَة خِرَق وبها نِفْط وقِطران، وقد وضَعها بجانب المِنْبر، فلما فاح الدُّخَانُ أنكروا ووجدوا النَّصْرانيّ

---

(١) ذراع العمل: قال القلقشندي: وقد اصطلحوا على قياس أرض البنيان من الدور وغيرها بذراع يعرف بذراع العمل، طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل، ولعله الذراع الذي كان يقاس به أرض السواد بالعراق. . وهو الذراع الزيادي لوقوع تقديره بأمر زياد ابن أبيه. ولم يزل ذلك حتى صارت الخلافة لبني العباس فاتخذوا ذراعاً أطول منه سمي بالهاشمي. (صبح الأعشى: ٥١٣/٣ ـ ط.ع). وجاء في معجم متن اللغة أن الذراع في المساحة عند العرب ثلاث: الشرعية وهي ذراع اليد، وتقدر بأربع وعشرين إصبعاً أي ٤٨ عشيراً «سنتيماً» والحديد السوداء، وهي ٢٧ إصبعاً أي ٥٤ عشيراً؛ والهاشمية وهي ٣٢ إصبعاً أي ٦٤ عشيراً.

(٢) أورد المقريزي في خططه (٥١٢/٢ ـ ٥١٧) وفي السلوك (٢١٥/١/٢ ـ ٢٢٠) أخبار هذه الكنائس وما تبعها من أخبار الحرائق الكبرى. وذكر أن الذي هدم من الكنائس في ساعة واحدة بلغ ستين كنيسة في الإسكندرية ودمياط والقاهرة ومصر وبلاد الصعيد. والواضح من وقوع هدم الكنائس في وقت واحد بالمدن المختلفة في الوجهين القبلي والبحري أن الأمر كان مبيتاً ومدبراً. غير أن المراجع التي بين أيدينا لا تخبر بشيء عن سبب تلك الحركة الواسعة.

(٣) عرفت هذه المدرسة بالكهارية نسبة إلى درب الكهارية الذي أنشئت فيه. والذي أنشأها هو الملك السعيد محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٧هـ. (انظر خطط المقريزي: ٤١/٢).

(٤) زيادة عن السلوك.

وهو خارج والأثُر في يديه كما ذُكِر فعَوقِب قبل صاحبيه. فآعترف أنّ جماعة من النصارَى قد آجتمعوا وعَمِلوا النِّفط وفرّقوه على جماعة ليدوروا به على المواضع. ثم عاقب [الأمير علم الدين] الراهبين فآعترفا بأنهما من دير[١] البَغْل، وأنهما اللذان أحرقا سائر الأماكن نكايةً للمسلمين بسبب هَدْم الكنائس، وكان أَمْرُهم أنهم عَمِلوا النِّفط وحشَوْه في فتائل وعَمِلوها في سِهام ورمَوْا بها، فكانت الفَتيلة إذا خرَجت من السهم تَقع على مسافة مائة ذراع أو أكثر. فأمر السلطان كريمَ الدين الكبير بطلب البَتْرك[٢] فطلبه وبالَغ في إكرامه على عادة القِبْطِية، وأعلمه كريمُ الدين بما وقع فبَكى، وقال: «هؤلاء سفهاء، قد عَمِلوا كما فَعَل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان؛ والحُكْمُ للسلطان»؛ ثم رِكَب بغلةً وتوجّه إلى حال سبيله، فكادت الناس أن تقتله، لولا حِماية المماليك له. ثم رَكِب كريم الدين من الغد إلى القلعة، فصاحت عليه العوامّ وأسمعتْه ما يَكْرَه. فلما طلَع كريم الدين عرَّف السلطان بمقالة البَتْرَك وآعتنى به، وكان النصارى أقرّوا على أربعة عشر راهباً بَدْير البَغْل، فقُبِض عليهم وعُمِلت حَفِيرة كبيرةٌ بشارع الصليبة وأُحْرِق فيها أربعة منهم في يوم الجمعة. وآشتدّت العامّة عند ذلك على النصارى، وأهانوهم وسلبوهم ثيابَهم وألقَوهم عن الدوابّ إلى الأرض.

ورَكِب السلطان إلى المَيْدان في يوم السبت وقد آجتمع عالم عظيم، وصاحوا: «نصر الله الإسلامَ، انصر دِينَ محمد بن عبد الله». فلما آستقرّ السلطان بالمَيْدَان أحضر والي القاهرة نَصْرانيين قد قَبَض عليهما فأحرِقا خارج المَيْدَان. وخرج كريمُ الدين من الميدان وعليه التشريف، فصاحت به العامّة: «كم تُحامِي للنصارى!» وسبّوه ورَمَوْه بالحجارة، فعاد إلى الميدان فشق ذلك على السلطان، وآستشار السلطان الأمراء في أمر العامّة، فأشار عليه الأمير جمال الدين آقوش نائب الكَرَك بعَزْل الكُتَّاب النصارى، فإنّ الناس قد أبغضوهم، فلم يُرْضِه ذلك وتقدّم [السلطان] إلى أُلْماس الحاجب أن يَخْرُج في أربعة أمراء ويضَع السيف في العامّة

(١) موضع هذا الدير بأعلى جبل المقطم شرقي طرا وحلوان. واسمه الأصلي دير القصير. (خطط: ٢/٥٠٢ ــ ٥٠٣).

(٢) أي بطرك الأقباط. وهو وقت ذاك حنا التاسع (١٣٢١ ــ ١٣٢٧م/٧٢١ ــ ٧٢٨هـ).

حتى ينتهي إلى باب زَويلة، ويمرّ كذلك إلى باب النصر ولا يرفع السيفَ عن أحد؛ وأمَر والي القاهرة أن يتوجه إلى باب اللُّوق وباب البحر ويَقْبِض على من وجده من العامّة ويحمله إلى القلعة، وعيّن لذلك أيضاً عِدّة مماليك فخرجوا من المَيْدان فبادر كريم الدين وسأل السلطان العفوَ فقَبِل شفاعته، ورَسَم بالقبض على العامّة من غير قتلهم وكان الخبرُ بلغ العامّةَ ففرّت العامّة حتى الغِلمان وصار الأميرُ لا يجد مَنْ يُرَكِّبه؛ وآنتشر ذلك فغُلِّقت الأسواق بالقاهرة فكانت ساعة لم يمرّ بالناس أبشع منها، وهي من هَفَوات الملك الناصر. ومرّ الوالي بباب اللُّوق وبولاق وباب البحر وقَبَض على كثير من الكَلاَبِزِيّة(١) وأراذل العامّة بحيث إنه صار كلُّ من رآه أخَذه وجَفَل الناس من الخوف وعَدّوا في المراكب إلى بَرّ الجيزة. فلمّا عاد السلطان إلى القلعة لم يَجِد أحداً في طريقه، وأحضَر إليه الوالي مَنْ قبَض عليه، وهم نحو المائتين فرسَم السلطان بجماعة منهم للصَّلْب، وأفرد جماعةً للشنق، وجماعةً للتوسيط، وجماعة لقَطْع الأيدي، فصاحوا: «يا خَوَنْد، ما يَحِلُّ لك! ما نحنُ الغرماء» [وتباكوا](٢). فَرَقَّ لهم بَكْتَمُر الساقي وقام ومعه الأمراء، وما زالوا به حتى أمر بصَلْب جماعةٍ منهم على الخَشَب من باب زَوِيلة إلى قلعة الجبل، وأن يُعَلَّقوا بأيديهم، ففُعِل بهم ذلك وأصبحوا يوم الأحد صفّاً واحداً من باب زَويلة إلى تحت القلعة، فتوجَّع لهم الناس وكان منهم كثير من بَيَاض(٣) الناس ولم تُفتح القاهرة وخاف كريم الدين على نفسه ولم يسلُك من باب زَوِيلة، وطلع القلعة من خارج السُّور، وإذا بالسلطان قد قَدّم الكَلابِزِية وأخذ في قَطْع أيديهم؛ فكَشَف كريمُ الدين رأسه وقبّل الأرض وباسَ رِجْلَ السلطان وسأل السلطان العفو عن هؤلاء، فأجابه بمساعدة الأمير بَكْتَمُر، وأمَر بهم فقُيِّدوا وأخرجوا للعمل في الحفر بالجيزة ومات ممن قُطِع [يدُه](٤) رَجُلان، وأمَرَ بحطِّ من عُلِّق على الخشب.

(١) في السلوك: «الكلابزة». وهو جمع كلابزي، وهو الشخص الذي يركب بكلاب الصيد عند سلطان أو أمير. والمقصود به هنا الغوغاء من العامة.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) المقصود ببياض الناس كرماؤهم وأنقياؤهم.

(٤) زيادة عن السلوك.

وفي الحال وقَع الصوت بحريق أماكن بجوار جامع أحمد بن طُولُون، وبوقُوع الحريق في القلعة، وفي بيت بِيبَرْس الأحْمديّ بحارة بهاء الدين قَرَاقُوش، وبفُنْدق طُرُنْطاي خارج باب البحر، فَدهِش السلطان وكان هذا الفُنْدُق برَسْم تُجَّار الزَّيت [الوارد من الشام][(١)] فعمَّت النارُ كلّ ما فيه، حتى العُمُد الرُّخام وكانت ستة عشر عموداً، طولُ كلّ عمود ست أذرع بالعمل، ودَوْرُه نحو ذراعين فصارت كلّها جيراً؛ وتَلِف فيه لتاجر واحِد ما قيمتُه تسعون ألف درهم؛ وقُبِض فيه على ثلاثة نَصارى ومعهم فتائل النِّفط آعترفوا أنهم فعلوا ذلك.

فلمّا كان يوم السبت تاسع عشرين جُمادى الأولى المذكور رَكِب السلطان إلى المَيْدان فوجَد نحو العشرين ألفاً من العامّة في طريقه قد صَبَغُوا خِرَقاً بالأزرق والأصفر، وعَمِلوا في الأزرق صُلباناً بيضاء ورفعوها على الجَرِيد، وصاحوا عليه صَيْحَةً واحدة: «لا دِينَ إلاّ دين الإسلام! نصر الله دِينَ محمد بن عبد الله! يا مَلِك الناصر، يا سُلطانَ الإسلام، أُنصرنا على أهل الكفر، ولا تنصُر النصارى». فَخَشَع السلطان والأمراءُ وتوجه إلى المَيدان وقد آشتغل سره ورَكِبت العامة أسوار الميدان ورفعوا الخِرَق الزُّرق وهم يَصِيحون: «لا دينَ إلا دين الإسلام». فخاف السلطان الفتنةَ ورجع إلى مُداراتهم، وتقدّم إلى الحاجب أن يخرج فيُنادِي: «مَنْ وجد نَصْرانياً فدَمُه ومالُه حلال»، فلما سَمِعوا النِّداء صرخوا صوتاً واحداً: «نصرك الله» فآرتجَّت الأرض.

ثم نُودِي عَقِيبَ ذلك [بالقاهرة ومصر][(٢)]: «مَنْ وجد نَصْرانياً بعمامة بيضاء حَلَّ دَمُه» وكُتِب مرسوم[(٣)] بلبْس النصارى العمائم الزُّرق، وألاّ يركبوا فَرساً ولا بغلاً ولا يدخلوا الحمّام إلا بجَرَس في أعناقهم، ولا يتزيّوا بِزيّ المسلمين، هم ونساؤهم وأولادُهم ورُسِم للأمراء بإخراج النصارى من دواوينهم ودواوين السلطان، وكُتب بذلك إلى سائر الأعمال. وغُلِّقت الكنائس والأَدْيِرة، وتجرّأت العامّة على النصارى حيث وجدوهم ضربوهم وعَرَّوْهم؛ فلم يتجاسر نصرانيٌّ أن يخرج من بيته، [ولم

(١) زيادة عن الخطط.
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) انظر نصّ المرسوم السلطاني بهذا الشأن في ملاحق هذا الجزء.

يُتحدث في أمر اليهود][١] فكان النصرانيّ إذا عَنّ له أمرٌ يتزيّا بزيّ اليهود فيلبَس عِمامةً صفراء يَكْتريها من يهوديّ ليخرُج في حاجته. وآتفق أنّ بعض كتّاب النصارى حضَر إلى يهوديّ له عليه مبلغٌ كبير ليأخذ منه شيئاً، فأمسكه اليهوديُّ وصاح: «أنا بالله وبالمسلمين»، فخاف النصراني وقال له: «أبرأتُ ذِمَّتك» وكتب له خطه بالبراءة وفرّ. وآحتاج عِدَّةٌ من النصارى إلى إظهارهم الإسلام، فأسلم السنيُّ [آبن ست بهجة][١] الكاتب وغيره؛ وآعترف بعضُهم على راهب دير الخَنْدَق[٢] أنه كان يُنفِق المال في عمل النِّفط للحريق ومعه أربعة، فأخِذوا وسُمِّروا. وآنبسطت عند ذلك ألسنةُ الأمراء في كريم الدين أكرم الصغير[٣]، وحصلت مفاوضة بين الأمير قُطْلُوبُغَا الفخريّ وبين بَكْتَمُر الساقي بسبب كريم الدين [الكبير][٤]، لأن بَكْتَمُر كان يعتني به وبالدواوين، وكان الفخريّ يَضَع [منه][٤] ومنهم.

قلت: ولأجل هذا راح كريم الدين [الكبير] من الدنيا على أقبح وجه! وأخرب الله دياره بعد ذلك بقليل.

وآستمرّ الفخريّ على رتبته بعد سنين عديدة. قال: وصار مع كلٍّ من الأميرين جماعة وبلَغ السلطان ذلك، وأنّ الأمراء تترقّب وقوع فِتنة وصار السلطان إذا رَكِب إلى الميدان لا يَرَى في طريقه أحداً من العامّة لكثرة خوفهم أن يبطش السلطان بهم فلم يُعجبه ذلك؛ ونادَى بخروج الناس للفُرْجة على المَيْدان ولهم الأمان والاطمئنان، فخرجوا على عادتهم. ثم [لما كانت ليلة الأحد ثاني عشريه][٤] وقَع الحريق بالقاهرة[٥] وآشتدّ أمرُه إلى أن طُفِيء.

وسافر كريم الدين الكبير إلى الإسكندرية وشدّد على النصارى في لُبْسِهم

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) حدد المقريزي موضع هذا الدير بأنه كان ظاهر القاهرة من بحريها، وأن القائد جوهر الصقلي هو الذي عمره عوضاً عن دير هدمه داخل القاهرة. (خطط: ٥٠٧/٢).

(٣) هو ابن أخت كريم الدين أكرم الكبير ناظر خاص السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتقدم ذكره وكان كريم الدين الصغير هذا ناظر الدولة.

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) في السلوك: «بالقلعة».

وركوبهم حتى يتقرّب بذلك إلى خواطر العامّة[١]. ثم تنكّرت المماليك السلطانية على كريم الدين الكبير لتأخُّر جوامكهم شهرين؛ وتجمّعوا يوم الخميس ثامن عشرين صفر قبل الظهر ووقفوا بباب القصر. وكان السلطان في الحريم، فلمّا بلَغه ذلك خَشي منهم، وبعث إليهم بَكْتَمُر الساقي فلم يلتفتوا إليه؛ فخرج السلطان إليهم وقد صاروا نحو ألف وخمسمائة، فعندما رآهم السلطان سبّهم وأهانهم وأخذَ العصا من مقدم المماليك وضرَب بها رؤوسهم وأكتافهم، وصاح فيهم: «اِطلعوا مكانكم» فعادوا بأجمعهم إلى الطِّباق، وعُدَّت سلامةُ السلطان في هذه الواقعة من العجائب[٢]، فإنّه خرج إليهم في جماعة يسيرة من الخُدَّام، وهم غَوْغاء لا رأسَ لهم ولا عقلَ ومعهم السِّلاح. اِنتهى.

ثمّ أمَرَ السلطان للنائب بعَرْضهم (أعني المماليك) فعَرَضهم في يوم السبت آخر صفر، وأخرج منهم مائةً وثمانين إلى البلاد الشاميّة فرّقهم على الأمراء؛ وأخرج بعد ذلك جماعةً منهم من الطِّباق إلى خرائب[٣] التتار بقلعة الجبل، وضرَب بعضَهم بالمقارع ــ هو وغلامه لكونه شرِب الخمر ــ ضرباً مُبَرِّحاً مات منه المملوك بعد يومين.

قلت: لا شُلَّت يداه، هذا وأبيك العمل! ثم أنقص السلطان جوامك مَنْ بَقِي

---

(١) انظر تفاصيل أخرى في السلوك: ٢/١/٢٢٨.

(٢) ذكر النويري في نهاية الأرب أن السلطان عالج هذه الفتنة بأن طلب من الثائرين أن يختاروا من أعيانهم من يعبر إليه ويشكو ضررهم، ويشافهوه بحالهم، فامتنعوا من ذلك، وكانوا في جمع كثير. فخرج السلطان إلى الرحبة وسمع شكواهم ولطف بهم، وقابل جهلهم بحلمه وسياسته، ووعدهم إزالة ضررهم، وأنه يتولى ذلك بنفسه، وصرفهم إلى أماكنهم فانصرفوا إليها. وكشف عمن حملهم على الجرأة من المماليك أرباب الإقطاعات، فرسم بإخراجهم من القلعة وإسكانهم المدينة. (السلوك: ٢/١/٢٢٩، حاشية عن النويري).

(٣) صوابه «خرائب تَتَر». ذكر المقريزي أن تتر اسم لمملوك من مماليك أسد الدين شيركوه الأيوبي، وكان هذا المملوك قد استولى على حمام بخط دار الوزارة الكبرى مدة الدولة الفاطمية، فعرفت الحمام والخط أيضاً باسمه. ثم خربت الحمام وصار مكانها داراً عرفت باسم دار الأمير الشيخ علي، وبقي الخط معروفاً بخط خرائب تتر، غير أن العامة تقول: خرائب التتر بالتعريف، وهو خطأ. (انظر الخطط: ١/٣٣٨؛ و٢/٨٠، ٥١٣).

من مماليك الطِّباق، ثم أخرج جماعة من خُدَّام الطِّباق الطواشيّة (أعني مقدَّمي الطِّبَاق) وقطع جوامِكَهم وأنزلهم من القلعة لكونهم فرّطوا في تربية المماليك.

ثم غَيَّر السلطان موضع دار العدل التي أنشأها الملك الظاهر بِيبَرْس وهدمها وجعلها موضع الطبلخاناه الآن، وذلك في شهر رمضان سنة آثنتين وعشرين وسبعمائة. ولمّا هُدِم الموضع المذكور وُجِد في أساسه أربعةُ قبور، فنُبِشت فوُجِد بها رِمم أناس طِوالٍ عِراضٍ وأحدها مغطّاة بمُلاءة دَبِيقِيّ مُلَوَّنة، إذا مُسَّ منها شيء تطاير لطول مُكثه، وعليهم عُدّة القتال وبهم جِراحات، وفي وجه أحدهم ضربةُ سيف بين عينيه عليها قطن، فعندما رُفِع القطن نَبَع الدَّمُ من تحته وشُوهِد الجُرْحُ كأنّه جديد، فنُقِلوا إلى بين العَرُوسَتَين وجُعِل عليهم مسجدٌ.

وفي شعبان زوّج الملكُ الناصر آبنَته للأمير أبي بكر بن أَرْغُون النائب الناصريّ، وتَوَلّى العقدَ قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحَرِيريّ الحنفيّ على أربعة آلاف دينار.

ثم قَدِم الملك المؤيَّد صاحب حَمَاة على السلطان بالديار المصريّة وتوجّه في خدمة الملك الناصر إلى قُوص بالوجه القبليّ للصيد. وعاد السلطان من قُوص إلى جهة القاهرة في أوّل محرّم سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة الموافق لرابع عشر طوبة، ونزل بالجيزة، وخلَع على الملك المؤيَّد خِلعة السفر. ثم آستدعى السلطان الحريم السلطانيّ إلى بَرّ الجيزة، فطُرِد سائرُ الناس من الطُّرُقات، وغُلِّقت الحوانيت، ونزلت خَوَنْد طُغَاي زوجةُ السلطان وأمُّ ولده آنوك، والأمير أَيْدُغْمُش الأمير آخور كبير ماشٍ يقُود عِنَان فَرَسها بِيده وحولها سائر الخُدَّام مشاة منذ رَكِبت من القلعة إلى أن وصلت إلى النيل فعَدَّتْ في الحَرَّاقَة[1]. ثم آستدعَى السلطان الأمير بَكْتَمُر الساقي وغيرَه من الأمراء الخاصّكيّة وحريمهم وأقام السلطان بالجيزة أيامًا إلى أن عاد إلى القلعة في خامس عشره، وقد توعك كريم الدين الكبير.

ثم قَدِم الحاجُّ في سادس عشرين المحرّم.

(١) الحرّاقة: نوع من السفن الحربية الخفيفة.

ثم عُوفِي كريم الدين فخَلع السلطان عليه خِلْعة أطلس بطَرْز زَرْكَشْ وكَلْفَتاة زَرْكَشْ وحِياصة ذهب فاستعظم الناس ذلك؛ وبالَغ السلطان في الإنعام على [الأمراء] الحكماء. ثم بعد أيام قبَض السلطان على كريم الدين المذكور في يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر ـ وهو كريم الدين عبد الكريم آبن المعلّم هِبة الله بن السَّدِيد ناظر الخواصّ ووكيل السلطان وعظيم دولته ـ وأُحِيط بداره وصُودِر فوُجِد له شيءٌ كثير جداً؛ ولا زال في المصادرة إلى أن أُفْرِج عنه في يوم الأربعاء رابع عشرين جُمادَى الآخرة، وألزمه السلطان بإقامته بتربته بالقرافة. ثم إنّ السلطان أخرجه إلى الشوبك ثم نقَله إلى القُدْس ثم طلب إلى مصر وجُهِّز إلى أُسْوان، وبعد قليل أصبح مشنوقاً بعمامته (يعني أنه شَنَق نفسه)، وليس الأمر كذلك؛ وقيل إنه لما أحسّ بقتله صلّى ركعتين وقال: «هاتوا عشنا سُعداء ومتْنا شُهداء»، وكان الناس يقولون: «ما عَمِل أحدٌ مع أحد ما عَمِله الملك الناصر مع كريم الدين: أعطاه الدنيا والآخرة»، ومعنى هذا أنّه كان حَكَّمه في الدولة، ثم قتله، والمقتول ظُلماً في الجنة. وأصل كريم الدين هذا كان من كَتَبة النصارَى ثم أسلم كَهْلاً في أيّام بِيبَرْس الجاَشْنَكِير، وكان كاتبَه؛ وكان الجاشْنَكِير لا يَصْرِف على الملك الناصر إلّا بقَلَم كريم الدين، وكان الناصر إذ ذاك تحت حجر الجاَشْنَكِير؛ ولمّا قُتِل بِيبَرْس الجاَشْنَكِير آختفى كريم الدين هذا مدّة ثم طلَع مع الأمير طغاي [الكبير] فأوقفه طُغَاي ثم دخَل إلى السلطان وهو يضحك، وقال له: «إن حضَر كريم الدين أيش تُعطيني؟» ففَرِح السلطان وقال: «أعندك هو؟ أَحْضِره»، فخرج وأحضَره وقال له: «مهما قال لك قل له: السمعَ والطاعةَ، ودَعْنِي أدبِّر أمرك»، فلمّا مَثَا بين يدي السلطان قال له بعد أن آستشاط غضباً: «أُخرج وآحْمِل ألفَ ألف دينار»، فقال: «نعم»، وأراد الخروج، فقال له السلطان: «لا ، كثير، اِحْمِل خمسمائة ألف دينار» فقال له كما قال أوّلاً؛ ولا زال السلطان يُنْقِصُه من نفسه إلى أن ألزمه بمائة ألف دينار؛ فلمّا خرج على أن يحمل ذلك، قال له طُغَاي المذكور: «لا تصقع ذَقْنك وتُحْضِر الجميع الآن، ولكن هاتِ منها عشرة الآف دينار» ففَعل ذلك، ودخلَ بها إلى السلطان وصار يأتيه بالنقدة[1] من ثلاثة الآف دينار إلى ما دونها؛ ولما بقِي عليه

(١) أي الدفعة الواحدة من النقود.

بعضها أخذ طُغَاي والقاضي فخر الدين ناظر الجيش في إصلاح أمره؛ ولا زال بالسلطان حتّى أنعم عليه بما بَقِي، وآستخدمه ناظرَ الخاص؛ وهو أوّل من باشر هذه الوظيفة بتجمُّل ولم تكن تعرف أولاً؛ ثم تقدّم عند السلطان حتى صار أعزّ الناس عليه؛ وحجّ مع خَوَنْد طُغَاي زوجة السلطان بتجمُّل زائد، ذكرناه في ترجمته في المنهل الصافي؛ وكان يخدُم كلَّ أحد من الأمراء الكِبار المشايخ والخاصَّكيّة وأرباب الوظائف والجَمَدَارية الصِّغار وكلّ أحد حتى الأوجاقيّة؛ وكان يركَب في خدمته سبعون مملوكاً بكنابيش[1] عمل الدار وطَرْز ذهب، والأمراء تركب في خدمته. ومن جملة ما ناله من السعادة والوجاهة عند الملك الناصر أنّه مرّة طلبه السلطان إلى الدور، فدخل عليه وبقِيت خازندارةُ خَوَنْد طُغَاي تروحُ إليه وتجيء مرّات فيما تطلبه خَوَنْد طُغَاي من كريم الدين هذا، وطال الأمر، فقال السلطان [له]: «يا قاضي أيش حاجة لهذا التطويل، بنتك ما تختبىء منك! اُدخل إليها أبصـر ما تريده آفعله لها»، فقام كريم الدين دخل إليها، وقال لها السلطان: «أبوكِ هنا أبصري له ما يأكل»؛ فأخرجتْ له طعاماً، وقام السلطان إلى كَرْمة في الدار وقطَع منها عِنَباً وأحضره بيده وهو ينفُخه من الغُبار، وقال: «يا قاضي كُلْ من عِنَب دارنا». وهذا شيء لم يقـع لأحد غيره مثله مـع الملك الناصر وأشياء كثيرة من ذلك. وكان حسنَ الإسلام كَريم النَّفْس؛ قيل إنه كان في كلّ قليل يُحاسب صَيْرفيه فيجد في الوصولات وصولات زُور. ثم بعد حين وقَع بالمزوِّر فقال له: «ما حملَك على هذا؟» فقال: «الحاجة»، فأطلقه، وقال [له]: «كلما آحتجتَ إلى شيء اُكتب به خَطّك على عادتك على هذا الصَّيْرفي، ولكن آرْفُق، فإنّ علينا كُلَفاً كثيرة». وكان إذا قال: نعم، كانت نعم، وإذا قال: لا ، فهي لا . ولما قبض السلطان عليه خلَـع على الأمير آقوش نائب الكرك باستقراره في نظر البِيمارِسْتان المنصوريّ عِوضاً عن كريم الدين المذكور. فوجد آقوش حاصِلَه أربعمائة ألف درهم.

---

(١) الكنابيش: جمع كنبوش، وهو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس. وهو المعنى المراد هنا. والكنبوش أيضاً هو اللثام الذي يستعمله أهل بلاد المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم اتقاءً لبرودة هواء الصباح ورطوبته. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٨٩).

ثم أَمَرَ السلطان فنُودي في يوم الأربعاء سادس المحرّم سنة خمس وعشرين وسبعمائة على الفُلُوس أن يَتَعامل الناس بها بالرِّطل، على أنّ كل رطل منها بدرهمين؛ ورَسَم بضرب فلوس زنةُ الفَلْس منها درهم [وثُمُن][1]، فضرب منها نحو مائتي ألف درهم فُرقت على الناس[2].

ثم رَسَم السلطان بأن يُكْتَب له كل يوم أوراقٌ بالحاصل من تعلُّقات السلطنة والمصروف منها في كل يوم، فصارت تُعْرَض عليه كل يوم ويُباشر ذلك بنفسه فتوفَّر مالٌ كثير وشقَّ ذلك على الدواوين.

ثم سافر السلطان إلى الوجه القبلي للصيد وعاد في ثالث عشر المحرّم سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

وفي هذه السنة قَدِم على الملك الناصر رُسُل صاحب اليَمَن، ورُسُل صاحب اسطنبول، ورُسُل الأَشْكُرِي[3]، ورُسُل متملِّك سِيس، ورُسُل القان بوسعيد، ورسل صاحب مارِدِين، ورسل آبن قرَمان، ورسل متملّك النوبة، وكلهم يبذلون الطاعة. وسأل رُسُلُ صاحب اليمن المَلَك المجاهد إنجادَه بعسكر من مصر، وأكثَر من ترغيب السلطان في المال الذي باليمن، فرَسَم السلطان بتجهيز العسكر إلى اليمن صحبة الأمير بِيبَرْس الحاجب ومعه من أمراء الطبلخاناه خمسة، وهم: آقُول الحاجب، وقَجْماس الجُوكنْدَار، وبَلَبان الصَّرْخَدِيّ، وبَكْتَمُر العلائي الأسْتادار، وأُلْجاي الناصريّ الساقيّ؛ ومن العشرات: عِز الدين أَيْدَمُر الكَوُنْدُكِيّ وشمس الدين إبراهيم التُّرْكُمانِيّ؛ وأربعه من مُقَدَّمِي الحَلْقة، وهؤلاء العسكر لهم مقدّمة أخرى كالجاليش عليها الأمير سيف الدين طَيْنَال الحاجب، ومعه خمسة من أمراء الطَبلخاناه وهم:

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «فرّقت على الصيارف» وفيه شرح لسبب هذا الإجراء.

(٣) علق الدكتور محمد مصطفى زيادة على هذه العبارة في حاشية السلوك: ٢/١/٢٥٩ بقوله: «هذه العبارة توجب الالتفات، فإن صاحب إسطنبول والأشكري شخص واحد، وهو إمبراطور الدولة البيزنطية أندرونيق الثاني باليولوج. على أنه كان بالدولة البيزنطية تلك السنة حرب بين الامبراطور وحفيده أندرونيق الثالث باليولوج؛ والغالب أن كلاً منهما بعث إلى السلطان الناصر محمد يطلب مودّته، أو أنهما أرسلا إليه ليستخدم نفوذه في مصلحتهما عند عثمان ملك الدولة العثمانية النامية.

الأمير ططر الناصري وعلاء الدين عليّ بن طُغْرِيل الإيغانيّ وجَرِبَاش أميرُ عَلَم، وأيبك الكُوندكي وكَوْكاي طاز، وأربعة من مقدَّمي الحَلْقة؛ ومن العشرات بَلَبَان الدَّواداري وطُرُنْطاي الإسماعيليّ والي باب القلعة؛ ومن مماليك السلطان ثلاثمائة فارس؛ ومن أجناد الحَلْقة تتمّة الألف فارس؛ وفُرّقَت فيهم أوراقُ السَّفَر، وكُتِب بحضور العُرْبان من الشرقيّة والغربية لأجل الجمال.

ثم خرَج السلطان إلى سِرْيَاقوس[1] على العادة في كل سنة، وقَبض على الأمير بَكْتَمُر الحاجب بها، وعلى أمير آخر في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأوّل. ثم قَدِم على السلطان الأمير تَنْكِز الناصريّ نائب الشام وأقام إلى عاشره وعاد إلى الشام.

ثم أنفق السلطان على الأمراء المتوجِّهين إلى اليَمَن فقط، فحُمِل إلى بِيبَرْس ألف دينار وإلى طَيْنَال ثمانمائة دينار، ولكل أمير طبلخاناه عشرة آلاف درهم، ولكل من العشرات مبلغ ألفي درهم، ولمقدَّمي الحَلْقة ألف درهم. وحضر العُرْبان. وباعوا الأجناد موجودَهم وآكْتَرَوْا الجمال، فآنحّط سعر الدينار من خمسة وعشرين درهماً إلى عشرين درهماً من كثرة ما باعوا من الحُلَل والمصاغ. ثم بَرَزُوا من القاهرة إلى بركة الحاج في يرم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين، وسافروا من البِرْكة في يوم الخميس ثاني عشره.

ثم خرَج السلطان إلى سِرْياقوس ومعه عِدَّة من المهندسين، وعيّن موضعاً على نحو فرسخ من ناحية سِرْياقوس ليُبْنَى فيه خانقاه، فيها مائةُ خَلْوة لمائة صُوفِي، وبجانبها جامع تُقام فيه الخُطبة، ومكان برَسْم ضيافة الواردين وحَمّام ومطبخ؛ ونَدَب آق سنقر شادّ العمائر لجمع الصُّنّاع. ورتَّب أيضاً قصور سِرْياقوس برسم الأمراء والخاصّكيّة، وعاد فوقع الاهتمام في العمل حتى كملت في أربعين يوماً.

(١) سرياقوس: من القرى القديمة في مصر. وهي اليوم من قرى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية. (محمد رمزي).

ثم آقتضى رأي السلطان حَفْر خليج[١] خارج القاهرة ينتهي إلى سرياقوس، ويُرَتَّب عليه السواقي والزراعات وتَسير فيه المراكب في أيّام النيل بالغلال وغيرها إلى القُصور بِسرْياقوس.

قلت: وقد أدركتُ أنا بواقي هذه القصور التي كانت بسِرْياقوس، وخُرِّبت في دولة الملك الأشرف بَرْسباي في حدود سنة ثلاثين وثمانمائة؛ وأخذ الأمير سودون ابن عبد الرحمن أنقاضها وبَنَى بها جامعه[٢] الذي بخانقاه سِرْياقوس، فكان ذلك سبباً لمحو آثارها، وكانت من محاسن الدنيا. اِنتهى.

ثمّ إن الملك الناصر فوّض عمل الخليج إلى الأمير أَرْغُون النائب. فنزل أَرْغُون بالمهندسين إلى النيل إلى أن وقع الاختيار على موضع بموردة[٣] البلاط من أراضي بُستان الخشّاب، ويَقع الحفر في الميدان الظاهريّ الذي جعله الملك الناصر هذا بستاناً من سُنَيّات وغَرِم عليه أموالاً جَمّة، ثم يمرُّ الخليج المذكور على بركة[٤] قُرْموط إلى باب البحر[٥] ثم إلى أرض الطبّالة[٦] ويَرْمِي في الخليج الكبير. وكتَبَ إلى وُلاة الأعمال بإحضار الرجال للحفر، وعيّن لكلّ واحد من الأمراء أقصاباً يَحْفِرها؛ وابتدىء بالحفر من أول جُمادى الأولى من سنة خمس وعشرين إلى أن تمّ في سَلْخ جُمادَى الآخرة من السنة. وأُخْرِب فيه أملاكٌ كثيرة، وأُخِذت قطعة من بستان الأمير أَرْغُون النائب، وأعطى السلطانُ ثَمَن ما خُرِّب من الأملاك لأربابها، والتزم فخر الدين ناظر الجيش بعمارة قنطرة برأس الخليج عند فَمِه.

قلت: وهي القنطرة المعروفة بقنطرة[٧] الفخر. والتزم قُدَيْدار[٨] والي القاهرة

(١) هو الخليج الناصري ــ انظر خطط المقريزي: ٢/١٤٥.
(٢) هو جامع سودون، أو المدرسة العبد الرحمانية. لا يزال موجوداً وتقام به الشعائر الدينية ببلدة الخانكة بمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية بمصر. (محمد رمزي).
(٣) وتعرف أيضاً بموردة الجبس. (انظر الخطط: ٢/١٤٥،١٤٨).
(٤) انظر خطط المقريزي: ٢/١٦٤.
(٥) هو أحد أبواب القاهرة القديمة، وهو المعروف اليوم بباب الحديد.
(٦) سبق الكلام عليها. راجع الفهارس.
(٧) الخطط: ٢/١٤٨.
(٨) في السلوك: «قدادار».

بعمارة قنطرة[١] تُجَاه البستان الذي كان ميداناً للظاهر بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ، وأنّ قُدَيْدَار أيضاً يُتِمُّ قناطر الإوَزّ[٢] وقناطر الأَميريّة فعَمِل ذلك كلّه. فلمّا كان أيّام النيل جرَتْ السفن فيه، وعُمِّرت عليه السواقي، وأُنشِئت بجانبه البساتين والأملاك.

ثم توجّه السلطان في يوم الاثنين سادس جُمادَى الآخرة إلى خانقاته التي أنشأها بسِرْياقوس، وخرجت القُضاة والمشايخ والصوفيّة إليها وعُمِل لهم سِماطٌ عظيم في يوم الخميس تاسعه بالخانقاه المذكورة. واستقرّ الشيخ مجد الدين أبو حامد موسى بن محمود الأقْصرائِي الّذي كان شيخ خانقاه كريم الدين الكبير بالقرافة في مشيخة هذه الخانقاه، ورتَّب عنده مائةَ صوفيّ[٣]، ورَسَم للشيخ مجد الدين المذكور بِخلْعة وأن يُلَقَّب بشيخ الشيوخ.

وأمّا العسكر الذي توجَّه إلى اليَمن فإن السلطان كتب إلى أمراء الحجاز بالقيام في خدمة العسكر، وتقدَّم كافور الشِّبْلي[٤] خادم الملك المجاهد الذي قَدِم في الرُّسلية إلى زَبِيد[٥] ليُعلِم أستاذه الملك المجاهد بقدوم العَسكر، وكَتَب لأهل حَلْي[٦] بني يعقوب الأمان وأن يجلبوُا البضائع للعسكر. ورحَلَ العسكر في خامس جمادى الآخرة من مكّة، فوصَل إلى حَلْي بني يعقوب في اثني عشر يوماً بعد عشرين مَرْحلةً، فتلقّاهم أهلُها ودُهشوا لرؤية العساكر وقد طُلِّبَتْ[٧] ولَبِست السِّلاح، وهمُّوا بالفِرَار. فنُودِي فيهم بالأمان، وألاّ يَتَعَرَّض أحدٌ من العسكر لشيء إلاّ بثمنه، فأطمأنُّوا وحَملوا إلى كلٍّ من بِيبَرْس وطَيْنَال من مقدَّمي العسكر مائةَ رأس من الغنم

(١) قنطره قدادار (خطط: ١٤٨/٢).

(٢) قناطر الإوز وقناطر الأميرية. (خطط: ١٤٨/٢).

(٣) انظر خطط المقريزي: ٤٢٢/٢ ــ ٤٢٣. وقد تبسط المقريزي في ذكر ما رتّبه الناصر لهذه الخانقاه.

(٤) في السلوك: «الشبيلي».

(٥) زبيد: من أهم مدن تهامة باليمن. خطها مؤسس أسرة بني زياد التي حكمت ما بين ٨١٨ ــ ١٠٠٠م وجعلها عاصمة لملكه؛ كما كانت عاصمة في عهد أوائل بني أيوب باليمن. تقع على مسافة ٢٥ كلم من البحر الأحمر. (الموسوعة العربية الميسرة: ٩١٩).

(٦) حَلْي: مدينة من أطراف اليمن من جهة الحجاز، وتعرف بحلي ابن يعقوب. (صبح الأعشى: ١٣/٥).

(٧) أي وزّعت ونظّمت أطلاباً. والطُّلب هو الفرقة العسكرية.

وخمسمائة إرْدَبّ ذُرة، فردَّاها ولم يقبلا لأحد شيئاً. ورحَلوا بعد ثلاثة أيام في العشرين منه. فقَدِمت الأخبار على العسكر باجتماع رأي أهلِ زَبِيد على الدخول في طاعة الملك المجاهد خوفاً من العسكر، وأنّهم ثارُوا بالمتملِّك عليهم ونهبُوا أمواله ففرَّ عنهم؛ فكتبوا للمجاهد بذلك، فقَوِي ونزل من قلعة تَعِز يريد زَبِيد، فكتب أمراء [العسكر المصري](١) إليه أن يكون على أُهْبة اللِّقاء. فنزل العسكر زَبِيد، ووافاهم المجاهد بجنده، فسَخِر منهم العسكر المصريُّ(٢)، من كونهم عُرَاة وسَلاحُهم الجَرِيد والخشب، وسيوفُهم مشدودةٌ على أَذْرُعهم، ويقاد للأمير فرسٌ واحد مجلَّلٌ، وعلى رأس المجاهد عِصابةٌ ملوّنة فوق العمامة. فعندما عاين المجاهدُ العساكر [المصرية] وهي لابسةٌ آلةَ الحرب رُعِب، وَهَّم أن يترجّل فمنعه الأمير بِيبَرْس وآقُول من ذلك. ومشى العسكر صَفَّين والأمراء في الوسط حتّى قربُوا منه، فألقى المجاهد نفسه هـو ومَنْ معه إلى الأرض؛ فترجّل له الأمراء أيضاً وأركبوه وأكرموه وأركبوه في الوسط، وساروا إلى المخيم، وألبسوه تشريفاً سلطانيّاً بكَلْفَتاة زَرْكَش وحِياصة ذهب. ورَكِب والأمراء في خدمته والعساكر إلى داخل زَبِيد، ففَرِح أهلُها فرحاً شديداً، ومَد المجاهد لهم سِمَاطاً جليلاً، فامتنـع الأمراء والعساكر من أكله خوفاً من أن يكون فيه ما يُخاف عاقبتُه، واعتذروا إليه بأنّ هذا لا يكفي العساكر، ولكن في غد يُعمل السِّماط. فأحضر لهم المجاهد ما يحتاجون إليه [وتولّى طبّاخو الأمراء عمل السماط](٣). وأصبح [وقد] حضَر المجاهد وأمراؤه وقد مُدّ السِّماط بين يديهم، وأُحْضر كرسيُّ جلس عليه المجاهد، فوقف السُّقاةُ والنُّقباء والحجّاب والجَاشْنَكِيريّة على العادة، ووقَف الأمير بِيبَرْس رأس الميمنة والأمير طَيْنَال رأس الميسرة.

فلمّا فَرَغ السِّماط صاحت الجاوشية على أمراء المجاهد وأهل دولته وأحضروهم، وقُرِىء عليهم كتابُ السلطان، فباسوا بأجمعهم الأرض وقالوا: سمعاً وطاعةً؛ وكتبَ الأميرُ بِيبَرْس لممالك اليَمَن بالحضور فحضـروا. ثم كتبَ لهم

(١) زيادة عن السلوك. وأصل العبارة: «فكتب الأمراء إليه».

(٢) في السلوك: «فسخر منهم الناس».

(٣) زيادة عن السلوك.

المجاهد بغنم وذرة، واعتذر للأمراء والعساكر المصرية بعدم عمل الإقامة لهم بخراب[١] البلاد؛ فتوجّه قُصّاد العسكر لأخذ الغنم والذرة وأقامت العساكر بزَبِيد، فعادت قُصَّادهم بغير غنم ولا ذرة؛ فرحَلوا من زَبِيد في نصف رجب يُريدون تَعِزّ، فتلقّاهم المجاهد ونزلوا خارج البلد وشكَوْا ما هم فيه من قلّة الإقامات فوعَدهم بالإنجاز. ثم إنّ الأمراء كتبوا للملك الظاهر[٢] المقيم بدُمْلُوَه[٣]، وبعثوا له الشريف عُطَيْفَة أمير مكّة وعِزّ الدين الكَوْنْدُكي؛ وكتبَ إليه المجاهد أيضاً يحثّه على الطاعة.

وأقام العسكر في جهد، فأغاروا على الضِّياع وأخذوا ما قدروا عليه، فارتفع الذُّرة من ثلاثين درهماً الإردب إلى تسعين، وفقد الأكل [إلا] من الفاكهة فقط لقلّة الجالب؛ واتُّهم أن ذلك بمواطأة المجاهد خوفاً من العسكر أن تَمْلِك منه البلاد. ثم إنّ أهل جبل صَبِر[٤] قطعوا الماء عن العسكر وتخطّفوا الجمال والغِلْمان؛ وزاد أمرهم إلى أن رَكِب العسكر في أثرهم، فامتنعوا بالجبل ورمَوْا بالمقاليع على العسكر فرمَوْهم بالنُّشّاب؛ وأتاهم المجاهد فخذلَهم عن الصعود إلى الجبل، فلم يلتفِتوا إلى كلامه ونازلوا الجبل يومَهم وقُتِل من العسكر أربعة[٥] من الغِلْمان، وبات العسكر تحت الجبل. فبلغ بِيبَرْس أنّ المجاهد قرّر مع أصحابه أنّ العسكر إذا صَعِدوا الجبل يُضْرِمون النار في الوِطاق وينهبون ما فيه، فبادر بِيبَرْس، وقبضَ [على] بهاء الدين بهادُر[٦] الصَّقْري وأخذ موجوده ووسَّطه قطعتين وعلّقه على الطريق؛ ففَرِح أهلُ تَعِزّ بقتله وكان قد تغلب على زَبِيد، حتى طرده أهلها عند قدوم

(١) أي اعتذر بخراب البلاد. وذكر المقريزي أن الأمير بيبرس كان قد عنّف الملك المجاهد لعدم تجهيزه شيئاً من الإقامات للعسكر المصري.

(٢) هو عبد الله بن أيوب بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، الملك الظاهر أسد الدين صاحب اليمن. كان بينه وبين المجاهد نزاع وحروب على الملك. ثم قبض على المجاهد وقتله سنة ٧٣٣هـ. (صبح الأعشى: ٥/٣٢).

(٣) دُمْلُوَه: حصن عظيم باليمن، على مسافة ثلاثين ميلًا شرقي تعز.

(٤) هو اسم الجبل الشامخ المطل على قلعة تعز. (معجم البلدان).

(٥) في السلوك: «ثمانية».

(٦) كان هذا الأمير قد ثار على المجاهد، واجتمع حوله المماليك، فاستولى على زبيد، وتسمى بالسلطنة وتسمى بالملك الكامل.

العسكر. وعاد الشريف عُطَيْفة والكَوُنْدُكِي من دُمْلُوَه بأنّ الظاهر في طاعة السلطان. ثم طَلَب العسكرُ من المجاهد ما وَعَد به السلطان الملك الناصر فأجاب بأنه لا قدرةَ له إلّا بما في دُمْلُوَه، فأشهد عليه بِيبَرْس قضاةَ تَعِزّ بذلك[1].

وارتحل العسكر إلى حلي بني يعقوب، فقدِمها في تاسع شعبان. ورحلوا منها أوّل شهر رمضان إلى مكة فدخلوها في حادي عشره في مشقّة زائدة. وساروا من مكّة يوم عيد الفطر إلى جهة مصر، فقدِموا بركة الحُجّاج أوّل يوم من ذي القعدة.

وطَلع الأمراء إلى القلعة فخلَع السلطان عليهم في يوم السبت ثالثه. وقدّم الأمير بِيبَرْس هديّة فأَغْرَى الأميرُ طَيْنَال السلطان على الأمير بَيبَرْس بأنّه أخذ مالاً من المجاهد وغيرِه وقصّر في أخذ مملكة اليمن. فلما كان يوم الاثنين تاسع عشره رَسَم السلطان بخروج بِيبَرْس إلى نيابة غَزّة فامتنع لأنّه كان بلَغه ما قيل عنه، وأنّ السلطان قد تغيَّر عليه؛ فقبض عليه السلطان وسجنه بالبُرْج من القلعة وقبضَ على حواشيه وصادرهم وعُوقِبوا على المال فلم يظهر شيء، وسكت السلطان عن أحوال اليمن.

ثم في سنة ستّ وعشرين وسبعمائة استأذن الأميرُ أَرْغُون النائب السلطانَ في الحجّ فأذِن له؛ فحج هو وولده ناصر الدين محمد. وعادا من الحجاز إلى سِرْياقوس في يوم الأحد حادي عشر المحرّم سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فقَبض السلطان عليهما وعلى الأمير طَيْبُغَا المجدي، فأخذهم الأمير بَكْتَمُر الساقي عنده وسعَى في أمرهم حتّى أُخْرِج في يوم الاثنين ثاني عشره (يعني من الغد) الأميرُ أَرْغُون إلى نيابة حلب عِوضاً عن الأمير أَلْطُنْبُغا، وأُخْرِج معه الأميرُ أَيْتَمُش [المُحمّدي] مسفِّره، وتوجّه الأمير أُلْجَاي الدوَّادار إلى حلب لإحضار الأمير أَلْطُنْبُغا نائبها؛ وقرّر السلطان مع كلٍّ من أَيْتَمُش وأُلْجاي أن يكونا بمن معهما في دِمَشق يوم الجمعة ثالث عشرينه، ولم يعلم أحد بما توجّه فيه الآخر حتى توافيا بدِمشق في يوم الجمعة المذكور. وقد خرج الأمير تَنْكِز نائب الشام إلى مَيْدان الحصى لتَلَقّي الأمير

(١) ذكر المقريزي أن المجاهد كان قد امتنع بقلعة تعز. وذكر الخزرجي في العقود اللؤلؤية أن الملك المجاهد كتب إلى مقدمي العسكر المصري وهو بمدينة تعز يطلب إليهم الجلاء عن اليمن. (السلوك: ٢/١/٢٨٨، وحاشية: ٢ بنفس الصفحة).

أَرْغُون، فترجّل كلٌّ منهما لصاحبه وسارا إلى جامع بني أُمَيّة؛ فلمّا توسّطاه إذا بأُلْجاي ومعه الأمير أَلْطُنْبُغَا نائب حَلَب، فسلّم أَرْغون عليه بالإيماء. فلما انقضت صلاة الجمعة عَمِل لهما الأميرُ تَنْكِز سِماطاً جليلاً فحضرا السِّماط. ثم سار أَرْغُون إلى حلب فوصلها في سلخ الشهر. وسار أَلْطُنْبُغا حتى دخل مصر في مستهلّ صفر، فأكرمه السلطان وخلع عليه وأسكنه بقلعة الجبل، وأنعم عليه بإمْرة مائة وتقدِمة ألف من جملة إقطاع أَرْغُون النائب وكمل السلطان من إقطاع أَرْغُون أيضاً لطَايربغا على إقطاعه إمْرة مائة وتقدمة ألف، فزادت التقادِمُ تقْدِمةً، فصارت أمراء الألوف خمسة وعشرين مقدم ألف بالديار المصرية.

وفي مستهل جُمادى الأولى قبَض السلطان على الأمير بهاء الدين أصلم وعلى أخيه قُرْمُجي وجماعة من القَبْجاقِية؛ وسببُ ذلك أنّ أَصْلم عَرَض سلاحَ خاناته وجلَس بإسطبله وأَلْبس خيلَه ورتّبها للركوب، فوَشَى به بعضُ أعدائه [بأنه قد عزم هو وأخوه قرمجي وجماعة القبجاق أن يهجموا على السلطان ويغيروا الدولة](1) وكتب بواقعة أمره ورقةً وألقاها إلى السلطان؛ فلمّا وقف عليها السلطان تغيّر تغيُّراً زائداً وكانت عادته ألا يُكَذِّب [في الشرّ](2) خبراً، وبعث من فوره فسأل أَصْلم مع أُلْماس الحاجب عمّا كان يفعله أمس في إسطبله، فذكر أنه اشترى عِدّة أسلحة فعرَضها على خيله لينظُر ما يُناسب كلّ فرس منها فصدّق السلطان ما نُقِل عنه؛ وقبَض السلطان عليه وعلى أخيه وعلى أهل جنسه وعلى الأمير قَيْرَان صِهْر قُرْمُجي وعلى الأمير إتكان أخي آقول الحاجب، وسُفِّروا إلى الإسكندرية مع الأمير صلاح الدين طَرْخان بن بَيْسَري، وبُرُلْغِي قريب السلطان، وأُفرِد أَصلم ببرج في القلعة.

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك. وهنا إشارة لبعض أخلاق السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهي تلقي ضوءاً على كثير من حوادث التعذيب والقتل التي ارتكبها في عهده بناء على ريبة أو شك. وقد قال عنه المقريزي في الخطط: ١٤٩/٢ بأنه «كان كثير النفور من العامة شديد البغض لهم». هذا علماً أن العامة من المصريين كان لهم دور بارز في دعم موقف الملك الناصر وإعادته إلى السلطنة. وموقفه هذا من العامة يشبه موقفه الجاحد من الفقيه ابن تيمية الذي دعم الناصر أثناء غيابه في الكرك، وثار على فساد الأمراء المماليك، فكان جزاؤه في أخريات أيامه الحبس والاضطهاد على يد الناصر.

ثم قدِم الأمير حُسين بن جَنْدَر من الشام الذي كان نفاه السلطان لمّا عَمّر جامعه وفَتَح باباً من سور القاهرة، فلما مَثل بين يدي السلطان خلَع عليه خِلْعة أطلس بطَرْز زَرْكَش وكلَفْتاة زَرْكَش وحِياصة مكوبجة[1]، وأنعم عليه بإقطاع أَصْلم في يوم الاثنين ثالث جُمادى الآخرة.

وفيها عُقِد على الأمير قَوْصُون الناصريّ عَقْد ابنة السلطان الملك الناصر بقلعة الجبل، وتَوَلَّى عقد النكاح قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحَرِيريّ الحنفيّ. ثم بعد مدّة في سنة ثمانٍ وعشرين عُقِد نكاح ابنة السلطان الأخرى على الأمير طُغاي تَمُر العُمَرِيّ، وأعْفَى السلطان في هذه المرّة الأمراء من حَمْل الشموع وغيرها إلى طُغاي تَمُر كما كانوا قد فعلوا مع قَوْصُون، وأنعم السلطان على طُغاي تَمُر من خزانته عِوَضاً عن ذلك بأربعة آلاف دينار.

ثم أفرج السلطان عن الأمير عَلَم الدين سَنْجر الجاولي بعد أن اعتقل ثماني سنين وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، فكان فيها يَنْسَخُ القرآن وكُتُبَ الحديث.

وفي سنة ثمانٍ وعشرين أيضاً عَزَم السلطان على أن يَجْرِي النيل تحت قلعة الجبل ويُشَقّ له من ناحية حُلْوان؛ فبعث الصُّنَّاع صحبة شادّ العمائر إلى حُلْوان، وقاسوا منها إلى الجبل الأحمر المُطِلّ على القاهرة، وقدّروا العمل في بناء الواطي حتى يرتفع وحفر العالي ليجري الماء إلى تحت قلعة الجبل من غير نَقْل ولا كُلْفة. ثم عادوا وعرّفوا السلطان ذلك، فركِب، وقاسوا الأرض بين يديه، فكان قياس ما يُحْفَر اثنتين وأربعين ألف قصبة[2] حاكِمية لتبقى خليجاً يجري فيه ماء النيل شتاء وصيفاً بسَفْح الجبل؛ فعاد السلطان وقد أعجبه ذلك وشاوَر الأمراء فيه فلم يُعارِضه

(١) كذا أيضاً في أصول السلوك. وقد صححها محقق طبعة السلوك بلفظ «مجوهرة» نقلاً عن النويري.

(٢) القصبة الحاكمية: كانت القصبة الحاكمية أحد مقياسين مستعملين لضبط الأراضي الزراعية في مصر، وهما القصبة الحاكمية والقصبة السندفاوية. وقد عرفت الأولى، وهي الأكثر شيوعاً، بالحاكمية لأنها حررت زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي فنسبت إليه. ونسبت الثانية إلى بلدة سندفا بالقرب من مدينة المحلة الكبرى، وكانت تستعمل في بعض بلاد الوجه البحري فقط. وطول القصبة الحاكمية خمسة أذرع بالنجاري، والفدان يساوي ٤٠٠ قصبة حاكمية مربعة، أي ١٨٢ و٦٠٣٤ متراً مربعاً.
(انظر صبح الأعشى: ٤٤٢/٣ وقوانين الدواوين: ٢٧٩).

فيه أحد إلّا الفخر ناظر الجيش، فإنه قال: «بمن يَحْفِر السلطان هذا الخليج»؟ قال: «بالعسكر»، قال: «والله لو اجتمع عسكر آخر فوق العسكر السلطاني وأقام سنين ما قدروا على حَفْر هذا العمل، فإنه يحتاج إلى ثلاث خزائن من المال، ثم هل يصح أولًا! فالسلطان لا يسمع كلام كل أحد ويُتعِب الناس ويستجلب دعاءهم» ونحو ذلك من القول، فرَجَع السلطان عن عمله.

وفيها أفرج السلطان عن الشيخ تقيّ الدين أحمد بن تَيْمِيّة بشفاعة الأمير جَنْكَلِي بن البابا. وفي يوم الاثنين سابع [عشر][1] جمادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة رَسَم السلطان بردْم الجُبّ[2] الذي كان بقلعة الجبل لما بلغ السلطانَ أنه شنيع المنظر شديد الظلمة كَرِه الرائحة وأنه يمرُّ بالمحابيس فيه شدائد عظيمة، فرُدِم وعُمِّر فوقه طِباق للمماليك السلطانية. وكان هذا الجُبّ عُمِل في سنة إحدى وثمانين وستمائة في أيام الملك المنصور قلاوون. ثم في السنة المذكورة رَسَم السلطان للحاجب أن يُنادي بألّا يُباع مملوك تُرْكي لكاتب ولا عامي، ومن كان عنده مملوك فَلْيَبِعْه، ومن عُثِر عليه بعد ذلك [أن عنده مملوكاً][1] فلا يلوم إلّا نفسه.

وفيها عرَض السلطان مماليك الطِّباق وقطع منهم مائةً وخمسين، وأخرجهم من يومهم ففرِّقوا بقلاع الشام.

وفيها قَتَل الأمير تَنْكِز نائب الشام الكلاب ببلاد الشام فتجاوز عِدّتُها خمسة آلاف كلب.

ثمّ خرج السلطان إلى سِرْياقوس في سابع عشرين من ذي الحجّة على العادة في كلّ سنة، وقدِم عليه الأمير تَنْكِز نائب الشام في أوّل المحرّم سنة ثلاثين وسبعمائة وبالغ السلطان في إكرامه ورَفْع منزلته؛ وقد تكرّر قدوم تَنْكِز هذا إلى القاهرة قبل تاريخه غير مرة، ثم عاد إلى نيابته بدِمَشْق في رابع عشر المحرّم.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الجب بالقلعة: سبق الكلام عليه، راجع الفهارس. وانظر خطط المقريزي: ٢/٢١٣.

ثم في عشرين المحرّم المذكور وصل إلى القاهرة الملك المؤيّد إسماعيل صاحب حَمَاة، فبالَـغ السلطان أيضاً في إكرامه ورَفَـع منزلته وخلَـع عليه.

ثم سافر السلطان في تاسـع صفَر إلى بلاد الصعيد للصيد على عادته، ومعه المؤيّد صاحب حَمَاة، ثم عاد بعد أيام قليلة لتوعك بَدَنه من رَمَد[١] طلـع فيه، وأقام بالأهرام بالجيزة أياماً؛ ثم عاد وسافر إلى الصعيد حتى وصل إلى هُوْ[٢]، ثم عاد إلى مصر في خامس شهر ربيـع الآخر؛ وسافر في ثامنه المؤيد صاحب حَمَاة إلى محلّ ولايته بعد أن غاب مـع السلطان هذه الأيام الكثيرة.

ثم نزَل السلطان من القلعة في خامس عشرين ربيـع الآخر المذكور، وتوجه إلى نواحي قليوب يُريد الصيد، فبينما هو في الصَّيد تقنطر عن فَرَسه فانكسرت يده وغُشِي عليه ساعةً وهو مُلْقىً على الأرض؛ ثم أفاق وقد نزَل إليه الأميران: أَيْدُغْمُش أمير آخور وقَمَارِي أمير شِكَار وأركباه؛ فأقبل الأمراء بأجمعهم إلى خدمته؛ وعاد إلى قلعة الجبل في عَشيّة الأحد ثامن عشرينه، فجَمـع الأطبّاء والمُجبِّرين لمداواته فتقدم رجلٌ من المجبِّرين يُعرف بابن بو سقة[٣] وتكلّم بجَفَاء وعاميّة طِباع، وقال له: «تُريد تُفيق سريعاً؟ اسمـع مني»، فقال له السلطان: «قل ما عندك»، فقال: «لا تُخَلِّ يداويك غيري بمفردي وإلّا فَسدتْ حال يدك مثلما سَلَّمت رجلك لابن السِّيسي فأفسدها، وأنا ما أُخَلِّي شهراً يمضي حتى تركب وتلعَب بيدك الأُكْرة»، فسكت السلطان عن جوابه، وسلّم إليه يدَه فتولّى علاجه بمفرده؛ وبَطَلت الخدمة مدّة سبعة وثلاثين يوماً. وعُوفِي [السلطان] فزُيِّنت له القاهرة في يوم الأحد رابـع جُمادى الآخرة من السنة المذكورة، وتفاخر الناس في الزينة بحيث إنه لم يُعهد زينةٌ مثلُها، وأقامت سبعة أيام، هذا والأفراح عمّالة بالقلعة وسائر بيوت الأمراء مدّة الأسبوع ــ فإنّ كلّ أمير متزوّج إمّا بإحدى جَوَاري السلطان أو ببناته، وأكثرُهم أيضاً مماليكه ــ وكذلك البشائر والكُوسات تُضْرب؛ وأنعم السلطان على الأمراء وخلَـع عليهم. ثم خرَج

(١) في السلوك: «لظهور دمّل في جسده».

(٢) هُوْ: من قرى مصر بمركز نجع حمادي بمديرية قنا.

(٣) في السلوك: «ابن بو ستة».

السلطان إلى القَصْر [الأبلق] وفرّق عِدّةَ مِثالات على الأيتام وعَمِل سِماطاً جليلاً وخلـع على جميـع أرباب الوظائف. وأنعم على المُجَبِّر بعشرة آلاف درهم، ورَسَم له أن يدور على جميـع الأمراء فلم يتأخّر أحد من الأمراء عن إفاضة الخِلَـع عليه، وإعطائه المال فحصل له ما يَجِلّ وصفُه. وتوجّه الأمير آقْبُغا عبد الواحد إلى البلاد الشامية مُبَشِّراً بعافية السلطان.

وفيها اشترى الأمير قَوْصون الناصريّ دار الأمير آقوش المَوْصِليّ الحاجب المعروف بآقوش نميلة ــ ثم عُرِفت ثانياً بدار الأمير آقوش قَتّال السبـع ــ من أربابها، واشترى أيضاً ما حولها وهدَم ذلك كلَّه؛ وشَرَع في بناء جامـع[١]، فبعث السلطان إليه بشادّ[٢] العمائر والأسْرَى لنقل الحجارة ونحوها، فنجزتْ عمارته في مدّة يَسيرة، وجاء الجامـع المذكور من أحسن المباني؛ وهو خارج بابـي زَوِيلة على الشارع الأعظم[٣] بالقُرْب من بركة الفيل، وتَوَلّى عمارة منارته[٤] رجلٌ من أهل تِبْرِيز أحضره الأمير أَيْتَمُش المحمّدي معه فعَمِلها على مِنْوال مَوادِن تِبْرِيز. ولمّا كمل بناء الجامـع أقيمت الجمعة فيه في يوم الجمعة حادي عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة، وخطَب به يومئذٍ قاضي القُضاة جلال الدين محمد القَزْوِينِيّ وخَلَـع عليه الأمير قَوْصُون بعد فراغه وأركبه بَغْلةً هائلة.

وفي هذه السنة أيضاً ابتدأ علاء الدين مُغْلَطَاي [الجَمَاليّ][٥] أحد المماليك السلطانيّة في عمارة جامـع[٦] بين السُّورين من القاهرة، وسُمِّي جامـع التَّوْبة لكثرة ما كان هناك من الفساد وأقام به الخطبة.

---

(١) جامـع قوصون. (خطط المقريزي: ٣٠٧/٢).

(٢) شاد العمائر: هو الذي يتولى التفتيش على شؤون العمائر والمباني السلطانية.

(٣) الشارع الأعظم في ذاك الوقت هو الطريق الحالي الذي يتكون الآن من شارع المعز لدين الله الممتد من باب الفتوح إلى باب زويلة، ثم من شوارع قصبة رضوان والخيامية والمغربلين والسروجية والحلمية والسيوفية والركبية والخليفة والأشـرف حيث ينتهي الشارع الأعظم عند جامـع السيدة نفيسة. (محمد رمزي).

(٤) في السلوك: «منارتيه».

(٥) زيادة عن السلوك.

(٦) ذكره المقريزي باسم جامـع التوبة ــ انظر الخطط: ٣١٤/٢. وقد أوضـح الأستاذ محمد رمزي في =

السلطانُ كثيراً من الطَّوَاشِيَّة وطَرَد كثيراً منهم، وأنكر على الطواشي مقدّم المماليك وصرَفه عن التقدِمة بآقبغا هذا؛ فضبط آقبغا المذكور طِباق المماليك بالقلعة وضرب عِدَّة منهم ضرباً مُبَرِّحاً أشرف منهم جماعة على الموت، فلم يجسُر بعد ذلك أحدٌ أن يتجاوز طبقته إلى غيرها.

وفي يوم الاثنين ثالث عشرين صفَر جمع السلطان الأمراء والقُضاة والخليفة ليَعْهَدَ بالسلطنة لابنه آنوك ويركب ولده آنوك بشِعار السلطنة؛ ثم آنثنى عزمُه عن ذلك في المجلس، وأمر أن يَلْبَس آنوك شِعار الأمراء ولا يُطلق عليه آسم السلطنة، فَرِكب وعليه خِلْعةُ أطلس أحمر بَطْرز زَرْكَشْ وشُرْبُوش[1] مكلَّل مزركش، وخرَج من باب القرافة والأمراء في خدمته حتى مرّ من سوق الخيل تحت القلعة ونَزل عن فرسه وباس الأرض، وطلع من باب الإسطبل[2] إلى باب السِّرِّ وصَعِد منه إلى القلعة، ونُثِرت عليه الدنانير والدراهم. وخلعَ السلطان على الأمير أُلماس الحاجب والأمير بِيَبْرس الأحمدي؛ وكان السلطان أفرج عن بِيبَرْس المذكور قبل ذلك بمدّة من السجن، وخلَع على الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور الجميع خِلَع أطلس؛ وخلَع السلطان على جميع أرباب الوظائف ومُدَّ لهم سِماطٌ عظيمٌ وعُمِلت الأفراح الجليلة. وعظُم المهمُّ لعَقْد آنوك المذكور على بنت بَكْتَمُر الساقي، فعُقِد العقدُ بالقَصْر على صَداق مبلغه من الذهب آثنا عشر ألف دينار، المقبوض منه عشرة آلاف دينار؛ وأنعم السلطان على ولده آنوك المذكور بإقطاع الأمير مُغْلَطاي المُتَوَفَّى بالعَقَبة.

ثم في عاشر شهر ربيع الآخر من سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة المذكورة قَدِم الملك الأفضل ناصر الدين محمد آبن الملك المؤيّد إسماعيل الأَيُّوبيّ صاحب

---

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة عجمية، تلبس بدل العمامة. وكانت شارة للأمراء، فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم. وكان الشربوش يلبس عادة مع الخلع السلطانية. ويقول المقريزي: «وأما الخلع فإن السلطان كان إذا أمرّ أحداً من الأتراك ألبسه الشربوش، وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث، يجعل على الرأس بغير عمامة. وقد ألغي استعمال الشربوش بمصر زمن المماليك البرجية. (التعريف بمصطلحات الصبح: ١٩٧).

(٢) هو أحد أبواب قلعة القاهرة، وكان يعرف أيضاً بباب السلسلة أو باب الميدان.

ثم عاد السلطان الملك الناصر على ما كان عليه من أوّل سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة من التوجُّه إلى الصّيد على عادته، وقَدِم عليه موتُ الأمير أَرْغون الدَّوَادار نائب حَلَب كان وهو بالصيد، فخَلع على الأمير أَلْطُنْبُغَا الصالحيّ بنيابة حلَب عِوضَه.

ثم في يوم السبت [سابع عشر ذي الحجّة][1] رَكِب السلطان من القلعة إلى المَيْدان الذي آستجَّده، وقد كملت عمارته. وكان السلطان قد رَسَم في أوّل هذه السنة بهَدْم مناظر المَيْدان الظاهريّ الذي كان بباب اللُّوق وتجديد عمارة هذا المَيْدان الذي آستجدّه، وفَوّض ذلك للأمير ناصر الدين [محمد][2] بن المُحْسِنِي، فهدَم تلك المناظر وباع أخشابها بمائة ألف درهم وألفي درهم، واهتم في عمارة جديدة فكمل في مدّة شهرين، وجاء من أحسن ما يكون، ؛ فخلَـع السلطان عليه، وفَرّق على الأمراء الخيول المُسْرجة المُلْجمة.

وفي أوّل محرّم سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة قَدِم مُبَشر الحاجّ، وأخبر بسلامة الحاجّ وأن الأمير مُغْلَطَاي الجمالي الأستادار على خطّة[3]، فعيّن السلطان عِوَضه في الأستاداريّة الأمير آقْبُغَا عبد الواحد. ومات مُغْلَطَاي في العَقَبة، وصُبِّر وحُمِل إلى أن دفِن بمدرسته[4] قريباً من درب مُلُوخيا[5] بالقاهرة بالقُرْب من رَحْبة باب العيد[6]. ولَبِس آقْبُغا عبد الواحد الأسْتادارية في يوم الثلاثاء سادس عشرين المحرم. ثم بعد أيَام خلَـع عليه السلطان بتقدِمة المماليك السلطانية مضافاً على الأستادارية، من أجل أنّ السلطان وجَد بعض المماليك قد نزَل من القلعة إلى القاهرة وسَكر، فضرَب

= تعليقاته على النجوم (طبعة دار الكتب المصرية) أن المقريزي وقـع في خطأ عندما حدد موقـع هذا الجامـع بجوار باب البرقية. وصوابه أنه بجوار دار الأمير مغلطاي الجمالي وخانقاته القريبة من خزانة البنود.

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) المقصود أنه أشفى على الموت.

(٤) هي المدرسة الجمالية ــ انظر خطط المقريزي: ٢/ ٣٩٢.

(٥) هو المعروف اليوم. بحارة قصر الشوك.

(٦) باب العيد هو أحد أبواب القصر الكبير الشرقي الفاطمي بالقاهرة.

حَمَاة بعد وفاة أبيه الملك المؤيّد بها، وله من العُمُر نحوٌ من عشرين سنة، فأكرمه السلطان وأقبل عليه. وكان والده لما تُوُفِّي بحَمَاة أخفى أهلُه موتَه، وسارت زوجتُه أُمُّ الأفضل هذا إلى دِمشْق وترامتْ على الأمير تَنْكِز نائب الشام، وقدّمت له جَوْهراً باهراً، وسألته في إقامة ولدها الأفضل في سلطنة أبيه المؤيّد بحَمَاة. فقَبِل تَنْكِز هديَّتها، وكتب في الحال إلى الملك الناصر بوفاة الملك المؤيّد، وتضرَّع إليه في إقامة ولده الأفضل مكانه. فلمّا قَدِم البريدُ بذلك تأسَّف السلطان على الملك المؤيّد وكتَب للأمير تَنْكِز بولايته وبتجهيز الأفضل المذكور إلى مصر، فأَمَره تَنْكِز في الحال بالتوجُّه إلى مصر، فركب وسار حتى دخلها ومَثَل بين يدي السلطان. وخلَع عليه الملك الناصر في يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الآخر بسلطنة حَمَاة؛ ورَكِب الأفضل من المدرسة المنصوريّة ببين القصرين وهو بِشعار السلطنة وبين يديه الغاشية، وقد نُشِرت على رأسه العصائبُ الثلاث، منها واحد خليفتي أسود وآثنان سلطانيّان أصفران، وعليه خلعةُ أطلسين بِطرَاز ذهب، وعلى رأسه شُرْبُوش ذهب، وفي وسطه حِياصةُ ذهب بثلاث بِيكَارِيات[1]. وسار [الأفضل] في مَوْكِب جليل وطلَع إلى القلعة وقبّل الأرض بين يدي السلطان بالقصر. ثم جلس وخلع السلطان على الأمراء الذين مشَوْا بخدمته، وهم: الأمير أَلْماس الحاجب وبِيبَرْس الأحمديّ وأَيْدُغْمش أمير آخور وطُغْجِي أمير سلاح وتَمُر رأس نَوْبة، ألبس كلاًّ منهم أطلسين بِطراز ذهب. ثم خلَع على جماعة أُخَر وكان يوماً مشهوداً. ولقَّبه السلطان بالملك الأفضل، ثم جهّزه إلى بلاده.

ثم حضَر بعد ذلك تَنْكِز نائب الشام إلى القاهرة ليحضَر عُرْس آبن السلطان الأمير آنوك. وشرَع السلطان في عَمَل المُهِمّ من أوائل شعبان من سنة آثنتين وثلاثين؛ وجمع السلطان مَنْ بالقاهرة ومصر من أرباب الملاهي وآستمرّ المُهِمُّ سبعة أيام بلياليها. وآستدعَى حَريم الأمراء للمُهِمّ؛ فلمّا كانت ليلة السابع منه حضر

---

(١) البيكاريات: جمع بيكاريّة، وهي حلقة من المعدن مصفح بالذهب تعلق بالحياصة. والغالب أنها سميت بهذا الاسم لأنه كان ينقش عليها دائرة في وسطها بيكار. (ملحق دوزي) وانظر أيضاً صبح الأعشى: ٥٢/٤ حيث يوجد وصف لأنواع البيكاريات لمختلف أنواع التشاريف لمراتب الأمراء.

السلطان على باب القصر، وتقدّم الأمراءُ على قَدْر مراتبهم واحداً بعد واحد ومعهم الشموع، فكان إذا قَدَّم الواحد ما أحضره من الشمع قبّل الأرض وتأخّر، حتى آنقضت تقادِمُهم، فكان عِدَّتُها ثلاثة الآف وثلاثين شمعة، زنتها ثلاثة الآف وستون قنطاراً، فيها ما عُنِي به ونُقِش نَقْشاً بديعاً تُنُوِّع في تحسينه؛ وأحسنُها شمعُ الأمير سَنْجَر الجاولي، فإنّه آعتنى بأمره وبعث إلى عملها إلى دِمَشق فجاءت من أبدع شيء. وجلس الأمير آنوك تُجاه السلطان، فأقبل الأمراءُ جميعاً وكلُّ أمير يَحمِل بنفسه شمعة وخلْفَه مماليكُه تحمل الشمع، فيتقدمون على قَدْر رُتَبهم ويُقبِّلون الأرض واحداً بعد واحد طول ليلهم؛ حتى كان آخر الليل نهض السلطان وعَبَر حيث مجتمَع النساء، فقامت نساءُ الأمراء بأَسْرهنّ وقبَّلْن الأرض واحدةً بعد أخرى وهي تُقدِّم ما أحضرتْ من التُّحَف الفاخرة، حتى آنقضت تقادِمُهنّ جميعاً؛ فرسم السلطان برقْصِهنّ فرقَصْن عن آخرهن واحدة بعد واحدة، والمغاني تَضْرِبْن بالدُّفوف، والأموال من الذهب والفضة والشُّقَق الحرير تُلْقى على المُغنِّيات، فحصَل لهنّ ما يَجِلُّ وصفه؛ ثم زُفّت العَرُوس.

وجلس السلطان من بُكرة الغد، وخلَع على جميع الأمراء وأرباب الوظائف بأسرها، ورَسَم لكلِّ آمرأةِ أمير بتعبية قُماش على قَدْر منزلة زوجها، وخلَع على الأمير تَنْكِز نائب الشام وجهّز صحبته الخِلَع لأمراء دِمَشق. فكان هذا العُرْس من الأعراس المذكورة، ذُبِح فيه من الغنم والبقر والخيل[1] والإوَزّ والدَّجاج ما يزيد على عشرين ألفاً، وعُمِل فيه من السكر برَسْم الحَلْوَى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار، وبلغت قيمةُ ما حَمله الأمير بَكْتَمُر الساقي مع آبنته من الشورة[2] ألف ألف دينار؛ قاله جماعة من المُؤرِّخين.

ثم آستهمَّ السلطان إلى سفر الحجاز الشريف؛ وسافر الأمير أيْدَمُر الخَطِيريّ

(١) كان لحم الخيل من طعام الولائم الكبرى عند سلاطين المماليك وأمرائهم؛ ذلك أنهم حافظوا على عوائد موطن الغالبية العظمى منهم، وهو بلاد القبجاق بحوض نهر إتل (الفولغا) حيث تؤكل لحوم الخيل في الولائم والمواسم والأعياد. (السلوك: ٢/١/٢٨٨، حاشية).

(٢) الشورة: هدية العرس.

أميرُ حاج المحملْ في عشرين شوّال من السنة؛ ونزَل السلطان من القلعة في ثاني عشر شوّال وأقام بسِرْياقوس، حتّى سار منه إلى الحجاز في خامس عشرينه، بعد ما قَدَّم حُرَمَهُ صحبةَ الأمير طُغَيْتَمُر[١] في عدّة من الأمراء. وآستناب السلطان على ديار مصر الأميرَ سيف الدين أُلْماس الحاجب ورسمَ [له] أن يُقِيم بداره؛ وجعل الأمير آقُبغا عبد الواحد داخل باب القلّة[٢] من قلعة الجبل لحفظ القلعة، وجعل الأمير جمال الدين آقوش نائب الكَرَك بالقلعة وأَمَره ألّا ينزل منها حتّى يحضُر؛ وأخرج كلَّ أمير من الأمراء المقيمين إلى إقطاعه، ورَسَم لهم ألّا يعودوا منها حتى يَرجِع السلطان من الحجاز. وتوجّه مع السلطان إلى الحجاز الملك الأفضل صاحب حَمَاة، ومن الأمراء: جَنْكَلي بن البابا، والحاج آل ملك، وبِيبَرس الأحمدي، وبهادُر المُعِزِّي، وأَيْدُغْمُش أمير آخور، وبَكْتَمُر الساقي، وطُقُزْدَمُر، وسَنْجَر الجاولي، وقَوْصُون، وطَايَرْبُغا، وطُغَاي تَمُر، وبَشْتَاك، وأرنبغا، وطُغْجِي، وأحمد بن بَكْتَمُر الساقي، وجَرِكْتَمُر بن بهادر، وطَيْدَمُر الساقي، وآقْبُغا آص الجاشنَكِير، وطُوغان الساقي، وطُقْتَمُر الخازن، وسُوسُون السِّلاح دار، وتُلَك، وبَيْبُغا الشمسي، وبَيْغَرَا، وقُمَاري، وتَمُر المُوسَوِي، وأيْدَمُر أمير جاندار، وبَيْدَمُر البَدْرِي، وطُقْبُغا الناصريّ، وأَيْتَمُش الساقي، وإياز الساقي، وأُلْطُنْقُش، وأَنَس، وأَيْدَمُر دُقْماق، وطَيْبُغَا المَجْدِي، وخير بك[٣]، وقُطُز أمير آخور، وبَيْدَمُر، وأَيْنبك،، وأَيْدَمُر العُمَرِي، ويحيى بن طَايَرْبُغا، ومسعود الحاجب، ونُورُوز، وكجلِي،، وبُرُلْغِي، وبكجا، ويوسف الدَّوَادار، وقُطْلُقْتَمُر السلاح دار، وآناق[٤]، وساطُلْمُش، وبُغاتَمُر، ومحمد بن جَنْكِلي، وعلي بن أَيْدُغْمُش، وألاجا[٥]، وآق سُنْقُر، وقَرَا، وعلاء الدين عليّ بن هلال الدولة، وتمربُغا العقيلي، وقُمَارِي الحسنِي، وعليّ بن أَيْدَمُر الخطِيريّ، وطُقْتَمُر اليوسفي، وهؤلاء مقدّمون وطلبخاناه. ومن العشرات: علي بن

---

(١) في السلوك: «طقتمر».

(٢) في الأصل: «القلعة» وما أثبتناه عن السلوك. وعبارة السلوك: «وجعل الأمير آقبغا عبد الواحد داخل باب القلّة برسم حفظ الدور» ــ والمراد بالدور هنا الدور السلطانية.

(٣) في السلوك: «جاريك».

(٤) في السلوك: «نانُق».

(٥) في السلوك: «أُلْجاي».

السعيديّ، وصاروجا النقيب، وآق سُنْقُر الرومي، وإياجِي الساقي، وسنقُر الخازن، وأحمد بن كُجْكُن، وأَرْغُون العلائي، وأَرْغُون الإسماعيلي، وتكا[١]، وقَبْجَق، ومحمد بن الخَطيريّ، وأحمد بن أَيْدُغْمُش، وطَشْبُغا، وقَلِيجِي. وحجّ مع السلطان أيضاً قاضي القضاة جلال الدين القَزْوِينيّ الشافعيّ، وابن الفُرات الحنفيّ وفخر الدين النُّوَيْرِيّ المالكي، وموفق الدين الحنبليّ، وكانوا أربعتهم ينزلون في خَيْمة واحدة؛ فإذا قُدِّمت لهم فَتْوَى كتبوا عليها الأربعة؛ وقدّم السلطانُ الأميرَ أَيْتَمُشْ إلى عَقَبة أَيْلة ومعه مائةُ رجل من الحجازيِّين حتى وسَّعوا طريق العَقَبة وأزالوا وَعْرَها، ومن يومئذ سَهُل صعودُها.

ولما قرب السلطان من عَقَبة أَيْلة بلَغه اتفاقُ الأمير بكَتْمُر الساقي على الفَتْك به مع عِدّة من المماليك السلطانية، فتمارض السلطان وعزَم على الرجوع إلى مصر، ووافقه الأمراء على ذلك إلّا بَكْتَمُر الساقي، فإنّه أشار بإتمام السفر وشنَّع عَوْدَه قبل الحجّ. فعند ذلك عَزَم السلطان على السَّفر، وسيَّر ابنَه آنوك وأُمَّه خَوَنْد طُغاي إلى الكَرَك صحبةَ الأمير مَلِكْتَمُر السَّرْجَوَانِيّ نائب الكَرَك، فإنّه كان قَدِم إلى العقبة ومعه ابنا السلطان الملك الناصر: أبو بكر وأحمد اللّذان كان والدهما الناصر أرسلهما إلى الكَرَك قبل تاريخه بسنين لَيسكُنا بها. ثم مضَى السلطان إلى سَفَره وهو محتَرِز غاية التحرّز، بحيث إنّه ينتقل في اللّيل عِدّة مِرَار من مكان إلى مكان، ويُخْفِي موضع مَبِيته من غير أن يُظْهِر أحداً على ما في نفسه ممّا بلغه عن بَكْتَمُر الساقي، إلى أن وصل إلى يَنْبُع. فتلقّاه الأشرافُ من أهل المدينة، وقَدِم عليه الشريف أسد الدين رُمَيْثَةُ من مكة ومعه قُوَّاده وحريمُه فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وساروا معه إلى أن نزل على خُلَيْص فرّ منه[٢] نحوُ ثلاثين مملوكاً إلى جهة العِرَاق فلم يتكلّم السلطان. وسار حتّى قَدِم مكّة ودخلها فأنعم على الأمراء، وأنفق في جميع مَن معه من الأجناد والمماليك ذَهَباً كثيراً، وأفاض على أهل مكة بالصدقات والإنعام.

---

(١) في السلوك: «بُغا».

(٢) عبارة السلوك: «إلى أن نزل خليص في ثلاثين مملوكاً إلى جهة العراق».

فلمّا قضَى النُّسُكَ عاد يريد مصر، وعَرَّج إلى زيارة النبـيّ صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، فسار حتّى وصلها؛ فلما دخلها هبَّت بها ريـح شديدة في اللّيل ألقت الخِيَمَ كلّها؛ وتزايد آضطرابُ الناس، وآشتدَّت ظُلْمة الجوّ فكان أمراً مهولاً؛ فلمّا كان النهار سكَن الريـح، فَظفِر أمير المدينة بمَن فَرَّ من المماليك السلطانية فخلـع السلطان عليه، وأنعم عليه بجميـع ما كان مـع المماليك من مالٍ وغيره، وبعث بالمماليك إلى الكَرَك، فكان ذلك آخر العهد بهم.

ثم مَرِض الأمير بَكْتَمُر الساقي وولدُه أحمد، فمات أحمد في ليلة الثلاثاء سابـع المحرّم سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبعمائة، ومات أبوه الأمير بَكْتَمُر الساقي في ليلة الجمعة عاشر المحرّم بعد آبنه أحمد بيومين، وحُمِل بَكْتُمر إلى عُيون[1] القَصَب فدُفِن بها، وآتُّهِم السلطانُ أنّه سمّهما. و[ذلك أنه][2] كان قد عظُم أمرُ بَكْتَمُر، بحيث إنّ السلطان كان معه في هذه السَّفْرة ثلاثُة الآف ومائة عَلِيقة، ومـعَ بكْتَمُر الساقي ثلاثةُ الآف عِليقة؛ وبلغت عِدّة خيوله الخاصّة مائة طِوَالة [بمائة سايس بمائة سَطْل][3]، وكان عَلِيق خيول إسطبله دائماً ألفاً ومائة علِيقةٍ كلّ يوم، ومـع هذا لم يُقْنِعْه ذلك. وأخذ يُدَبِّر في قتل السلطان، وبلـغ السلطانَ ذلك بعد أن خرج من القاهرة فتحرّزَ على نفسه بدربة وعقل ومعرفة ودَهَاء ومَكْر، حتّى صار في أعظم حجابٍ من بَكْتَمُر وغيره. ثم أخذ هو أيضاً يدبِّر على بَكْتَمُر، وأخذ يلازمه في الليل والنهار، بحيث أنّ بَكْتَمُر عجز في الطريق أن ينظُر إلى زوجته، فإنّه كان إذا رَكِب أخذ يُسايره بجانبه ويكالِمه من غير جفاء، وإذا نزلَ جلس معه، فإن مضَى إلى خيامه أرسل السلطان في الحال خلفه، بحيث إنّه آستدعاه ــ مرّة وهو يتوضّأ ــ بواحد بعد آخر حتّى كمل عنده آثنا عشر جمدار. فلمّا ثارت الريـح بالمدينة قصَد السلطان قتل بكتمر وولده أحمد تلك الليلة. [وأعدّ لذلك جماعة][2] فهجموا على ولده أحمد فلم يتمكّنوا منه، وآعتذروا بأنّهم رَأَوْا حرامية وقد أخذوا لهم متاعاً فمرّوا في طلبهم؛ فداخل الصبـيّ منهم الفَزَع[4]. ثم زاد آحتراز السلطان على

(١) عيون القصب: منزلة في طريق الحج المصري ببلاد الحجاز، بين العقبة والمويلح.
(٢) زيادة عن السلوك.
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) عبارة المقريزي: «فداخل الصبيَّ منهم فزع كثير غشي عليه منه».

نفسه، ورَسم للأمراء أن يناموا بمماليكهم على بابه. ولمّا سار من المدينة عظُم عنده أمر بَكْتَمُر، فلمّا كان في أثناء الطريق سَقَى أحمدَ بن بَكْتَمُر ماءً بارداً في مسيره، كانت فيه منيته، ثم سَقَى بَكْتَمُر بعد موت ولده مشروباً فلحِق بآبنه. وآشتهر ذلك، حتّى إنّ زوجة بَكْتَمُر لمّا مات صاحت وقالت للسلطان بصوت سَمِعها كلّ أحد: «يا ظالم! أين تروح من الله؟ ولدي وزوجي؟ فأمّا زوجي كان مملوكك، وولدي، ايش كان بينك وبينه؟» وكرّرت ذلك مراراً فلم يجبها.

قلت: ولولا أنّ الملك الناصر سَقَى ولده أحمد قبله، وإلّا كانت حِيلة الناصر لا تتّم؛ فإنّ بكتمر أيضاً كان آحترز على نفسه وأعلم أصحابه بذلك. فلما آشتغل بمُصاب آبنه أحمد آنتهز الملك الناصر الفُرْصة وسقاه في الحال. وأيضاً لو بقي ولده ربما وثب حواشي بَكْتَمُر به على السلطان؛ وهذا الذي قلتُه على الظنّ منّي. والله أعلم. ويأتي أيضاً بعضُ ذكر بَكْتَمُر الساقي في الوَفَيات. اِنتهى.

ثم وصل إلى القاهرة مُبَشِّر الحاج في ثامن المحرّم سنة ثلاثٍ وثلاثين تُلَك المظفَّري الجَمَدار وأخبر بسلامة السلطان، فدقّت البشائر، وخُلِع عليه خلعٌ كثيرة، وآطمأنّ الناس بعد ما كان بينهم أراجيف.

ثم وصَل السلطان إلى الديار المصريّة في يوم السبت ثامن عشر المحرّم بعد ما خرَج معظُم الناس إلى لقائه، ومَدَّ شرفُ الدين النَّشْو شقاقَ الحرير والزَّرْبَفتْ[1] من بين العَرُوستَيْن إلى باب الإِسطبل، فلمّا توسّط بين الناس صاحت العوامّ: «هو إيّاه؟ ما هو إيّاه؟ بالله آكشِف لنا لِثَامَك، وأَرِنا وجهَك!» وكان قد تلثَّم، فعند ذلك حَسَر اللثامَ عن وجهه فصاحوا بأجمعهم: «الحمـد لله على السلامة»، ثمّ بالغوا في إظهار الفَرَح به والدعاء له وأمعنوا في ذلك، فسرَّ السلطان بهذا الأمر؛ ودخَل القلعة ودُقّت البشائر وعُمِلت الأفراح ثلاثة أيام. وهذه حِجَّةُ السلطان الملك الناصر الثالثة، وهي التي يُضرب بها المثل. وجلس السلطان على كرسيّ المُلك وخَلَع

(١) الزَّربفت: القماش المنسوج معظمه أوبعضه من خيوط الذهب. وهولفظ فارسي جرى في مصطلح الملابس في الدولة المملوكية، ويقابله في العربية الديباج والسندس أيضاً. (السلوك: ٣٥٦/٢/٢، حاشية).

على الأمراء قاطبةً. وكان بلغ السلطانَ أنّ أُلْماس الحاجب كان آتّفق مع بَكْتَمُر الساقي على الفَتْك بالسلطان.

قلت: وبَكْتَمُر وأُلْماس كلاهما مملوكه ومشتراه. اِنتهى.

ثم أخذ السلطان يُدَبِّر على أُلْماس حتّى قبَض عليه وعلى أخيه قَرَا في العشرين من ذي الحجّة سنة ثلاث وثلاثين، وحُمِل قَرَا من يومه إلى الإسكندرية. وسبب معرفة السلطان آتّفاق أُلماس مع بَكْتَمُر أنّ الملك الناصر لمّا مات بَكْتَمُر الساقي صُحْبته بطريق الحجاز آحتاط على موجوده، فكان من جملة الموجود جزدان[1] ففتحه السلطان فوجد فيه جَوَاباً من الأمير أُلْمَاس إلى بَكْتَمُر الساقي يقول فيه: «إنّني حافظ القاهرة والقلعة إلى أنْ يَرِدَ عليّ منك ما أعتمده»، فتحقّق السلطان أَمْرَه وقبض عليه؛ ولمّا قبضَ السلطان على أُلْماس أخَذ جميع أمواله وكان مالاً جزيلاً إلى الغاية، فإنّه كان ولي الحجوبيّة وباشرها وليس بالديار المصرية نائب سلطنة، فإن الملك الناصر لم يُوَلِّ أحداً معه بعد الأمير أرْغُون، فعظُم أمرُ أُلْماس في الحجوبيّة لذلك فصار هو في محّل النيابة، ويركبون الأمراء وينزلون في خدمته ويَجلِس في باب القلعة في منزلة النائب، والحّجابُ والأمراء وقوفٌ بين يديه. وكان أُلْماس رجلاً طُوَالاً غُتْمِياً[2] لا يفهم بالعربية، يفعل ذلك عامداً لإقامة الحُرمة، ويُظْهِر البخل ولم يكن كذلك، بل كان يفعل ذلك خوفاً من الملك الناصر، فإنّه كان يُطْلِق لمماليكه الأرباع والأملاك المثمَّنة وليس البخيل كذلك[3]. ويأتي أيضاً من ذكره شيءُ في الوَفيات.

ثم في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة قَدِم تَنْكِز إلى القاهرة وأقام بها أيّاماً ثم عاد إلى محلّ ولايته في يوم الخميس ثالث شهر رجب من سنة أربع وثلاثين وسبعمائة.

---

(١) في الأصل: «جمدان». وما أثبتناه عن خطط المقريزي. والجزدان: خريطة من الجلد ذات طبقات تحفظ فيها الأوراق. ــ وربما كان اللفظ الصحيح «الحرمدان» وهو بمعنى الجراب الذي تحمل فيه الكتب والدراهم.

(٢) الغتميّ: من لا يفصح في منطقه. الجمع أغتام. وهو الأغتم، وجمعه غُتْم.

(٣) وذكر المقريزي في السلوك: ٢/٢/٣٦٦ أسباباً أخرى عديدة لتغيرّ السلطان على الأمير ألماس.

وفي هذه السنة أفرج السلطان عن الأمير بهاء الدين أَصْلَم وعن أخيه قُرْمُجِي وعن بَكْتُوت القَرَماني، فكانت مدّة آعتقال أَصْلَم وقرمُجِي ست سنين وثمانية أشهر. ثم خلَع السلطان على الأمير آقوش الأشرفي المعروف بنائب الكرك بنيابة طرابُلُس بعد موت قَرَطاي.

قلت: وإخراجُ آقوش نائب الكرك المذكور من مصر لأمور، منها: صحبته مع أُلْماس، ومنها ثِقَلُه على السلطان، فإنّ السلطان كان يُجِلُّه ويحترمه ويقوم له كلمّا دخَل عليه لِكبر سنّه؛ ومنها معارضته للسلطان فيما يرومه؛ فأخرجه وبعث له بألف دينار، وخرج معه بَرْسْبُغَا مسفّراً له، فلمّا أوصله إلى طرابُلُس وعاد، خَلَع عليه السلطان، وآستقرّ به حاجباً صغيراً. وخَلع على الأمير مسعود [بن أوحد][1] بن الخَطِير [بدر الدين][1] وآستقرّ حاجباً كبيراً عوضاً عن أُلْماس. وورد الخبر على السلطان من بغداد بأنّ صاحبها أَمَر النصارَى بلبْس العمائم الزُّرق واليهود الصُّفْر آقتداءً[2] بالسلطان الملك الناصر بهذه السُّنّة الحسنة.

وفي يوم الأحد رابع المحرّم سنة خمس وثلاثين وسبعمائة قَبَض السلطان على الطواشي شُجاع الدين عَنْبَر السَّحَرْتِي مقدّم المماليك بسِعاية النَّشْو ناظر الخاصّ. وأنعم بإقطاعه وهي إمْرة طبلخاناه على الطواشي سُنْبُل، وآستقرّ نائب مقدّم المماليك. وخلَع على الأمير آقبغا عبد الواحد وآستقرّ مقدّم المماليك السلطانية مضافاً للأستادارِيّة عِوضاً عن عَنْبَر السَّحَرْتي كما كان أوّلاً. فلمّا تولّى آقبغا تَقْدِمَة المماليك عَرَض الطباق، وَوَضَع[3] فيهم، وضَرَب جماعة من السِّلاح داريّة والجَمَدارية لامتناعهم[4] عنه ونفاهم إلى صَفَد فأعجب السلطانَ ذلك.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) كانت بغداد في ذلك الوقت تحت سلطة الإيلخانين. وهذا يدل على تحسّن العلاقات بين السلطنة المملوكية ودولة إيلخانات فارس في ذلك العصر.

(٣) كذا! وعبارة السلوك: «عرض الطباق، وأخرج من كان من الأتباع الأويراتية في خدمة المماليك» وهي أوضح في المقام.

(٤) في السلوك: «لامتناعهم من إخراج أتباعهم».

وفي شهر رجب من سنة خمس وثلاثين أفرَج السلطان عن الأمير بِيبَرْس الحاجب، وكان له في السجن من سنة خمس وعشرين. وأفرَج أيضاً عن الأمير طُغْلُق التّتاري، وهو أحد الأمراء الأشرفيّة، وكان له في السجن ثلاث وعشرون سنة فمات بعد أسبوع من قدومه.

قلت: لعلّه مات من شدّة الفرح.

ثم أفرَج السلطان عن الأمير غانم بن أَطْلَس خان، وكان له في السجن خمس وعشرون سنة، وأفرَج عن الأمير بُرُلْغي الصغير وله في السجن ثلاث وعشرون سنة، وأفرَج عن جماعة أخر، وهم: أَيْدَمُر اليُونُسِيّ أحد أمراء البُرْجيّة المظفَّريّة، والأمير لاجين العُمَري، والأمير طَشْتَمُر أخو بتَخْاص، والأمير بِيبَرْس العَلَمِي، وكان من أكابر الأمراء البُرْجيّة من حواشي المظفّر بِيبَرْس، والأمير قُطْلُوبَك الأَوْجَاقِيّ، والشيخ علي مملوك سَلّار، والأمير تَمُر السَّاقي نائب طَرابُلُس أحد المنصوريّة، وكان قُبِض عليه سنة أربع عشرة، والجميع كان حبسهم في آبتداء سلطنة الملك الناصر الثالثة بعد سنة عشر وسبعمائة. وأنعم السلطان على تَمُر الساقي بطبلخاناه بالشام، وأنعم على بِيبَرْس الحاجب بإمرة في حلب، وأنعم على طَشْتَمُر بإمرة بدِمَشْق، وعلى أَيْدَمُر اليُونُسِيّ وبَلَاط بإمْرة في طرابُلُس.

ثم في يوم الخميس رابع شهر ربيع الأوّل أنعم السلطان على ولده أبي بكر بإمرة، ورِكب بشرْبُوش من إسطبل[١] الأمير قوصون، وسار من الرُّمَيْلة إلى باب[٢] القرافة، فطلَع إلى القلعة، والأمراءُ والخاصّكِيّة في خدمته، وعَمل لهم الأميرُ قَوْصُون مهماً عظيماً في إسطبله.

ثم إنّ السلطان قبض على الأمير جمال الدين آقوش الأشرفيّ المعروف بنائب الكرك، وهو يوم ذاك نائب طرابلس، في نصف جمادى الآخرة وحُبِس بقلعة

(١) الإسطبل هنا مجموعة من المباني كان يقيمها بعض كبار الأمراء في دولتي المماليك لأجل سكنى الأمير هو وأسرته ومماليكه وخيوله. (محمد رمزي).

(٢) باب القرافة: من أبواب القاهرة الخارجية القديمة مثل باب اللوق وباب البحر وباب الحسينية. وهذا الباب كان يخرج منه أهل القاهرة إلى جبّانة (قرافة) الإمام الشافعي والجبانات الأخرى المجاورة لها. (محمد رمزي).

صَرْخَد، ثم نُقَل منها في مستهَل شوّال إلى الإسكندرية؛ ونزل النَّشْوُ إلى بيته [بالقاهرة](١) وأخذ موجودَه وموجود حريمه وعاقب أُستاداره. وآستقرّ عِوضه في نيابة طرابُلُس الأمير طَيْنَال.

ثم آشتغل الملك الناصر بضَعْف مملوكه ومحبوبه أَلْطُنْبُغا المارِدانيّ، وتولّى تمريضه بنفسه إلى أن عُوفي، فأحبّ أَلْطُنْبُغا أن يُنشىء له جامعاً تُجاه(٢) ربع الأمير طُغْجِي خارج باب زُوَيلة، وآشترى عِدَّة دُور من أربابها بغير رضاهم(٣). فندب السلطانُ النَّشْو لعمارة الجامع المذكور، فطلب النشو أرباب الأملاك وقال لهم: الأرض للسلطان ولكم قيمةُ البناء، ولا زال بهم حتّى آبتاعها منهم بنصف ما في مكاتيبهم من الثمن، وكانوا قد أنفقوا في عمارتها بعد مشتراها جملة، فلم يعتدّ لهم النَّشْوُ منها بشيء. وأقام النشو في عمارته حتّى تَمَّ في أحسن هِنْدام، فجاء مصروفه ثلاثمائة ألف درهم ونيِّف، سوى ما أنعم به عليه السلطان من الخشب والرُّخام وغيره. وخطب به الشيخ ركن الدين [عمر بن إبراهيم](١) الجَعْبَريّ من غير أن يتناول له معلوماً.

ثمّ جلس السلطان بدار العدل فوجد به رُقْعة تتضمن الوقيعة في النّشْو وكثرة ظُلْمه وتَسَلُّط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم وتعشُّق صهره وليّ الدولة لشابّ تركيّ. وكان قبل ذلك قد ذكر الأمير قَوْصون للسلطان أن عُمَيْراً الذي كان شغف به الأمير أُلْماس قد وَلِع به أقاربُ النَّشْو وأنفقوا عليه الأموال الكثيرة، فلم يقبل السلطانُ فيه قولَ الأمراء لمعرفته لكراهتهم له؛ فلمّا قُرِئت عليه القصة قال: «أنا أعرف مَنْ كتبها»، واستدعى النَّشْو ودفعها [إليه](٤)، وأعاد له ما رماه به الأمير

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) رأى الأستاذ محمد رمزي أن تحديد موقع جامع ألطنبغا هنا خطأ. قال: والصواب أنه لم يكن أمام هذا الربع الذي كان مكانه بشارع الحلمية، بل إنه (أي الجامع) يقع في شارع التّبانة بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة خارج باب زويلة كما ذكر المقريزي. أما ربع الأمير طغجي فكان واقعاً بجوار المدرسة الطغجية التي تعرف اليوم بزاوية الشيخ عبد الله والست ملكة بشارع الحلمية.

(٣) في السلوك: «عدة دور من ملاكها برضاهم» وعبارة السلوك بعد هذا تشير إلى صحة عبارة أبي المحاسن هنا.

(٤) زيادة عن خطط المقريزي.

قَوْصُون، فحلَف النَّشْوُ على براءتهم من هذا الشاب، وإنّما هذا ومثله ممّا يفعله حواشي الأمير قَوْصُون، «وقَصْدُ قَوْصُون تغيُّر خاطر السلطان علي» وبَكَى وانصرف. فطلب السلطان قَوْصُون وأنكر عليه إصغاءه لحواشيه في حقّ النشو، فحلَف قَوْصُونُ أنّ النَّشْوَ يَكذِب في حَلِفه، ولئن قَبض السلطانُ على الشاب وعُوقِبَ لَيَصْدُقَنّ السلطانَ فيمَن يُعاشره من أقارب النَّشْو؛ فغضِب السلطان وطلب أمير مسعود الحاجب وأَمَره بطلب الشابّ وضَرْبه بالمقارع حتّى يعترف بجميع مَنْ يصحبُه وكتابة أسمائهم، وألزمه ألاّ يَكْتُم عنه شيئاً؛ فطلبه [مسعود] وأحضر المعاصير فأملى عليه الشابُّ عِدّةً كثيرةً من الأعيان، منهم ولّي الدولة؛ فخَشِي مسعود على الناس من الفضيحة، وقال للسلطان: «هذا الكذّاب ما ترك أحداً في المدينة حتّى اعترف عليه، وأنا أعتقد أنّه يَكْذِب عليهم»، وكان السلطان حَشِيم النفس يكره الفُحش، فقال لمسعود: «يا بدرَ الدين، مَنْ ذكر من الدواوين»؟ فقال: «والله يا خوَنْد ما خَلّى أحداً من خوفه حتّى ذَكَره»، فرسم السلطان بإخراج عُمَيرْ المذكور ووالده إلى غَزّة، ورسم لنائبها أن يُقْطِعَهُما خُبْزاً بها. وكان ذلك أوّل انحطاط قَدْر النَّشْو عند السلطان.

ثم اتّفق بعد ذلك أن طَيْبُغا القاسمي الناصريّ، وكان يسكن بجوار النَّشْو وله مملوك جميلُ الصورة، فاعتشر به وليّ الدولة وغيرُه من إخوة النَّشْو، فترصَّد أستاذُه طَيْبُغا، حتى هجم يوماً عليهم وهو معهم فأخذه منهم وخرج. وبلغ النَّشْوَ ذلك، فبادر بالشَّكْوَى إلى السلطان بأنّ طَيْبُغا القاسميّ يتعشَّق مملوكَه ويُتْلِف عليه ماله، وأنه «هجم وهو سكرانُ على بيتي وحريمي، وقد شَهَر سيفَه، وبالغ في السبّ». وكان السلطان يمقُت على السكر، فأمر في الحال بإخراج طَيْبُغا ومملوكه إلى الشام.

وكان السلطان مشغولاً في هذه الأيام بعمارة قناطر شِبين القَصْر على بحر[1] أبي المُنَجّا فأُنشِئت تسعُ قناطر.

(١) بحر أبي المنجّا: مكانه اليوم ترعة الشرقاوية من فمها القديم إلى شبين القناطر ثم بحر الخليلي إلى ناحية ميت بشار ثم بحر أبي الأخضر إلى نهايته بترعة الوادي. (محمد رمزي).

ثم توجّه السلطان في شهر ربيع الآخر من سنة ستّ وثلاثين وسبعمائة إلى الوجه القبلي للصّيد، ثم عاد إلى القاهرة بعد أن غاب خمسة وأربعين يوماً. كلّ ذلك وأمرُ النَّشْو في إدبار بالنسبة لما كان عليه.

ثم جلس السلطان يوماً بالمَيْدان فسقَط عليه طائرُ حمام وعلى جَناحه ورقةٌ تتضمن الوقيعة في النَّشْو وأقاربه والقَدْح في السلطان بأنه قد أخرب دولته. فغَضِب السلطان غضباً شديداً، وطلب النَّشْو وأوقفه على الورقة، وتنمّر عليه لكثرة ما شُكِي منه، فقال النَّشْو: «يا خَوَنْد، الناس معذورون! وحقِّ رأسك لقد جاءني خبرُ هذه الورقة ليلة كُتِبت. وهي فِعْلُ المعلم أبـي شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت، كتبَها في بيت الصَّفِيّ كاتب الأمير قَوْصُون، وقد اجتمع هذا وأقاربُه في التدبير عليّ»، ثم أخذ النَّشْو يُعرِّف السلطان ما كان من أمر سعيد الدولة في أيّام المظفّر بِيبَرْس الجاشنكير، وأغراه به حتّى طلبه وسلّمه إلى الوالي علاء الدين عليّ بن المَرْوَانِيّ، فعاقبه الوالي عقوبةً مؤلمة. ثم طلب السلطان الأمير قَوْصُون وعنّفه بفعل الصَّفِيّ كاتبه. ثم تتّبع النَّشْو حواشي أبـي شاكر وقبض عليهم وسلّمهم إلى الوالي وخرّب بيوتهم وحرثها بالمِحْراث. واشتدّت وطأة النَّشو على الناس واستوحش الناسُ منه قاطبةً، وصار النَّشْوُ يدافع عن نفسه بكلّ ما يمكن، والمقاديرُ تُمْهِله.

ثم بَدَا للسلطان أن ينقُل الخليفة من مناظر الكَبْش إلى قلعة الجبل، فنُقِل في ثالث عشرين ذي القعدة من سنة ستّ وثلاثين. والخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان. وسكن الخليفة بالقلعة حيث كان أبوه الحاكم نازلاً بُبْرج[1] السِّباع بعياله، ورُسم على الباب جاندار بالنَّوْبة. وسكَن ابنُ عمّه إبراهيم في بُرْج بجِواره بعياله، ورُسم عليه جاندار آخر؛ ومُنِعا عن الاجتماع بالناس، كلّ ذلك لأمرٍ قِيل[2].

---

(١) أحد أبراج قلعة القاهرة في سورها الشرقي.

(٢) شرح المقريزي ذلك الأمر بقوله: «وكان سبب ذلك أن السلطان لما نزل عن الملك سنة ٧٠٨هـ، وحصل الاجتماع على المظفر بيبرس، وقلّده المستكفي، نقمها عليه السلطان الناصر وأسرّها له. ثم لما قام السلطان لاسترجاع ملكه، جدّد المستكفي للمظفر الولاية، ونُسبت في السلطان أقوال إليه حَملت السلطان على التحامل عليه. فلما عاد السلطان إلى الملك سنة ٧٠٩هـ أعرض عن المستكفي كل الإعراض؛ ولم يزل يكدّر عليه المشارب حتى تركه في برج القلعة» ــ انظر السلوك: ٢/٢/٤١٦ ــ ٤١٧.

ثمّ إن السلطان في سابع عشر محرّم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة عَقَد عَقْدَ ابنه أبي بكر على ابنة الأمير سيف الدين طُقُزْدَمُر الحمويّ الناصري أمير مجلس بدار الأمير قَوْصون.

ثم قَدِم الأمير تَنْكِز نائب الشام ثاني شهر رجب من سبع وثلاثين المذكورة على السلطان وهو بسِرْياقوس، فخلَع عليه؛ وسافر في ثاني عشرينه إلى محلّ ولايته.

ثم في هذه السنة زاد ظُلْمُ النَّشْو[١] على التّجّار، ورَمَى على التّجّار الخشب بأضعاف ثمنه، فكثُرت الشَّكْوَى منه إلى أن توصّل بعض التجار لزوجة السلطان خَوَنْد طُغاي أمّ آنوك، وقال لها: «رَمَى عليّ النَّشْوُ خَشباً يُساوي ألفي درهم بألفي دينار»؛ فعرَّفت أمُّ آنوك السلطانَ بذلك، فأَمر السلطان بطلب التاجر وقد اشتدّ غضبُه على النَّشْو.

وبَلَغ النَّشْو الخبرُ، ففي الحال أرسل النَّشْوُ رجلًا إلى التاجر وسأله في قَرْض مبلغ من المال، فعرّفه التاجر أَمْرَ الخشب وما هو فيه من الغرامة، فقال له الرجل: «أرِني الخشب فإني محتاج إليه»، فلما رآه قال: «هذا غرضي» واشتراه منه بفائدة ألف درهم إلى شهر؛ وفَرِح التاجرُ بخَلاصه من الخشب، وأشهد عليه بذلك. وأخذ [الرجل] الخشبَ وأتى بالمُعاقدة إلى النَّشْو، فأخذها النَّشْو وطلَع إلى السلطان من فَوْره، وقال للسلطان: «يا مولانا السلطان، نزلتُ آخُذ الخشب من التاجر فوجدتُه قد باعه بفائدة ألف درهم»، فلم يُصَدِّقْه السلطان، وعَوَّق النَّشْوَ وقد امتلأ عليه غضباً؛ فطلب [السلطان] التاجر وسأله عمّا رماه عليه النَّشْوُ من الخشب، فاغترَّ التاجر بأمّ آنوك وأخذ يقول: «ظلمني النَّشْوُ وأعطاني خشباً بألفي دينار يُساوي ألفي درهم»، فقال له السلطان: «وأين الخشب»؟ فقال: «بعتُه بالدَّيْن»، فقال النَّشْوُ: «قل الصحيح، فهذه معاقدتك معه»، فلم يجد التاجر بُدّاً من الاعتراف، فَحنِق عليه السلطان وقال له: «ويلك! تقيم علينا القالة، وأنت تبيع بضاعتنا بفائدة»؛ وسلّمه

(١) هو شرف الدين عبد الوهاب النَّشو، ناظر خاص السلطان محمد بن قلاوون.

إلى النشو وأمره بضربه، وأَخَذ الألفي دينار منه مع مثلها. وعظُم عنده النَّشو وتحقَّق صدق ما يقوله، وأن الذي يَحْمِل الناسَ على التكلُّم فيه الحسد. ثم عبرَ السلطان إلى الحريم وسَّبُهنّ وعرّفهنّ بما جرى من كَذِب التاجر وصِدق النَّشْو، وقال: «مسكين النشو، ما وجدتُ أحداً يُحِبّه».

ثم أفرج السلطان عن الأمير طُرُنْطاي المحمّدي بعد ما أقام في السجن سبعاً وعشرين سنة وأُخْرِج إلى الشام.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر رمضان رَكِب النَّشْو على عادته في السَّحَر إلى الخدمة فاعترضه في طريقه عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلاميّ المعزول عن ولاية قُوص، فضربه بالسيف فأخطأ رأسَ النَشْو، وسقطت عمامتُه عن رأسه، وقد جُرح كَتِفُه وسقَط على الأرض. ونجا الفارسُ بنفسه، وفي ظنّه أن رأس النَّشْو قد طاح عن بدنه لِعظَم ضربه. وبلغ السلطانَ ذلك، فغَضِب ولم يحضُر السِّماط. وبعث إلى النَّشْو بعِدّة من الجَمَدارية والجرايحية فقُطِّبَت ذراعُه بستّ إبر وجبينُه باثنتي عشرة إبرة؛ وألزم [السلطان] والي القاهرة ومصر بإحضار غَرِيم النشو. وأغلظ السلطان على الأمراء بالكلام؛ وما زال يشتدُّ ويحتدُّ حتّى عادت القُصّادُ بسلامة النَّشْو فسكَن ما به؛ ثم بعث النَّشْوُ مع أخيه رِزْق الله إلى السلطان يُعلِمه بأنّ هذا من فِعْل الكُتّاب بموافقة لؤلؤ [شادّ الدواوين][1]؛ فطلب السلطانُ الوالي وأَمَره بمعاقبة الكُتّاب الذين هم في المصادرة مع لؤلؤ حتى يعترفوا بغَرِيم النَّشْو ـ وكان السلطان قد قَبض على لؤلؤ وكُتّابه وصادره قبل تاريخه بموافقة النَّشْو ـ فنزَل الوالي وعاقب لؤلؤاً وضربه ضرباً مُبَرِّحاً، وعاقب المُعَلِّم[2] أبا شاكر وقُرموطاً عقاباً شديداً، فلم يعترفوا بشيء. وعُوفِي النَّشْوُ، وطلَع إلى القلعة، وخلع السلطان عليه؛ ونزل من القلعة بعد أن رتّب السلطان المقدّم إبراهيم بن أبي بكر بن شداد صابر أن يَمْشي في ركابه ومعه عشرة من رجاله في ذَهابه وإيابه. ثم قبض النَّشْوُ بعد ذلك على [تاج الدين] ابن الأزرق وصادره حتّى باع أملاكه؛ وكان من جملة أملاكه مِلْكٌ بشاطىء النيل،

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «العلم».

فاشتراه منه الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ، وكان بجانبه ساقيةٌ، فهَدَم الخطيري الدار والساقية وعمرهما جامعاً بخُطّ بولاق على شاطئ النيل.

قلت: وكان أصل موضع هذا الجامع المذكور أنه لمّا أُنْشِئت العمائر ببولاق عَمّر الحاج محمد بن عِزّ الفراش بجوار الساقية المذكورة داراً على النيل، ثم انتقلت بعد موته إلى ابن الأزرق هذا فكانت تُعرف بدار الفاسقين، من كثرة اجتماع النصارَى بها على ما لا يُرْضِي الله تعالى. فلمّا صادره النَّشْو باعها فيما باعه، فاشتراها الخَطِيري بثمانية آلاف درهم؛ وهَدَمها وبَنى مكانها ومكانَ الساقيةَ جامعاً أنفق فيه أموالاً جزيلة في أساساته مخافةً من زيادة النيل؛ وأخذ أراضي حوله من بيت المال، وأنشأ عليها الحوانيتَ والرِّباع والفنادق. فلمّا تَمّ بناؤه قَوِيَ عليه ماءُ النيل فهَدَم جانباً منه، فأنشأ تجاهه زرِيبة رمى فيها ألف مَرْكَب موسوقة بالحجارة، قاله الشيخ تقيّ الدين المقريزي[1] رحمه الله وهو حجة فيما ينقُله. لكن أقول: لعله وَهِمَ في هذا وأراد أن يقول: وَسْقَ ألف مركب بالحجارة، فسَبَق قلمُه بما ذكرناه، قال: وسُمِّي هذا الجامع بجامع التوبة، وجاء في غاية الحسن. فلما أفْرج عن ابن الأزرق من المصادرة ادَّعَى أنّه كان مُكْرَهاً في بيع داره، فأعطاه الأميرُ أَيْدَمُر الخَطِيريّ ثمانية آلاف درهم أُخرى حتى استرضاه، ولا يكون جامعه بني في أرض مُكْرَهَة اِنتهى. وقد خرجنا عن المقصود ولنرجع إلى أمر الملك الناصر.

وأمّا النشو فإنّه لا زال على ابن الأزرق هذا حتّى قَبَض عليه ثانياً وعاقبه حتى مات، وذلك في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

ثمّ في سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة أنعم السلطان الملك الناصر في يوم واحد على أربعة من مماليكه بمائتي ألف دينار مصريّة، وهم: قَوْصُون، وأَلْطُنْبُغَا المارِدانيّ، ومَلِكْتَمُر الحجازيّ، وبَشْتَك.

وفي هذه السنة وُلد للسلطان ابنه صالح من بنت الأمير تَنْكِز نائب الشام؛

---

(١) الخطط: ٢/٣١٢.

فعَمِل لها السلطان بَشخَاناه[١] ودائر بيت زَرْكَش، وتَكْمِلة البَذْلة من المخدَّات والمقاعد بمائتي[٢] ألف دينار وأربعين ألف دينار؛ وعَمِل لها الفَرَح سبعة أيام.

وفي هذه السنة وقـع للملك الناصر غريبة، وهو أنّه استدعى من بلاد الصعيد بألفي رأس من الضَّأْن، واستدعى من الوجه البحريّ بمثلها لتتمّة أربعة آلاف رأس. وشرع السلطان في عَمَل حُوش[٣] برسمها وبرسم الأبقار البُلْق[٤]، فوقـعَ اختياره على موضـع بقلعة الجبل مساحته أربعة أفدنة، قد قُطعت منه الحجارة لعمارة القاعات التي بالقلعة حتّى صار غَوْراً عظيماً؛ فطلب كاتبَ الجيش ورتب على كلّ من الأمراء المقدَّمين مائة رجل ومائة دابّة لنقل التُّراب، وعلى كـلّ من أمراء الطبلخاناه بحسب حاله. وأقام الأمير آقْبُغا عبد الواحد شاداً[٥] وأن يُقيم معه من جهة كلّ أمير اسْتادارُه بعِدَّة من جنده. وألزم الأسْرَى بالعمل. ورَسَم لوالي القاهرة بتسخير العامّة. فنصب الأمير آقْبُغَا خَيْمَته على جانب الموضـع، واستدعى استاداريّة الأمراء واشتدَّ عليهم؛ فلم يَمْضِ ثلاثة أيام حتّى حضرت إليه رجال الأمراء من نواحيهم، ونزل كلُّ أُسْتادار بخَيْمته، ومعه دوابُّه ورجالُه؛ فقسمت عليهم الأرضُ قِطَعاً معيّنة لكلّ واحد منهم، فجدُّوا في العمل ليلاً ونهاراً. واستحثهم آقْبُغا المذكور بالضرب، وكان ظالماً غَشوماً، فعَسف بالرجال وكلّفهم السُّرعة في أعمالهم من غير رُخْصة[٦] ولا مكّنهم [من] الاستراحة. وكان الوقت صيفاً حارّاً فهلَكَ جماعة كثيرةٌ منهم في العمل لعَجْز قدرتهم عمّا كُلِّفوه. ومـع ذلك كلِّه والولاةُ تُسخِّر من تَظْفَرُ به من العامّة، وتسوقه إلى العمل؛ فكان أحدهم إذا عجز [و] ألقى بنفسه إلى الأرض،

(١) البشخاناه ــ والجمع بشاخين ــ لفظ فارسي معرب، ومعناه الناموسيّة أو ما يشبهها من حلية حول السرير أو الغرفة كلها. ومن معانيها أيضاً السرير، أو الغرفة التي بها ناموسية. (ملحق دوزي).

(٢) في السلوك: «بمائة ألف وأربعين ألف دينار».

(٣) الحوش بقلعة الجبل: ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٢٢٩.

(٤) الأبلق: هو ما جمع بين الأبيض والأسود من الألوان.

(٥) الشادّ: هو المفتش والمراقب على عمل من الأعمال أو جهة من الجهات.

(٦) الرخصة: التيسير والتسهيل. ومن معانيها أيضاً النوبة في الشرب أو في العمل. (معجم متن اللغة).

رَمَى أصحابُه عليه التُّراب فيموت لوقته. هذا والسلطان يحضُر كلَّ يوم حتّى ينظُرَ العمل. وكان الأمير أَلْطُنبغا المارِداني قد مَرِض وأقام أياماً بالميدان على النيل حتّى عُوفِي وطلَعَ إلى القلعة من باب القرافة؛ فاستغاث به الناس وسألوه أن يخلِّصهم من هذا العمل، فتوسّط لهم عند السلطان، حتى أعفى الناسَ من السُّخَر وأفرج عمّن قُبِض عليه منهم. فأقام العمل ستة وثلاثين يوماً إلى أن فُرِغ منه، وأجْرِيَت إليه المياه، وأُقِيمت به الأغنام المذكورة والأبقار البُلْق، وبُنِيت به بيوت للإوز وغيرها.

قلت: لعلّ هذا الموضِع يكون هو الحُوش الذي يلعب فيه السلطان بالكُرة تحت قاعة الدهيشة. والله أعلم. وعند فراغ هذا الحوش استدعى السلطان الأمراء وعَمِل لهم سِماطاً جليلاً، وخلَعَ على جماعة ممّن باشر العمل وغيرهم.

ثم أنشأ السلطان لمملوكيه: الأمير يَلْبُغَا اليَحْيَاويّ والأمير أَلْطُنْبغا المارداني لكلٍّ منهما قَصْراً[١] تُجاه حمّام الملك السعيد [بركة خان][٢] قريباً من الرُّمَيْلة تُجاه القلعة؛ وأخذ من إسطبل الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور قطعةً، ومن إصطبل الأمير قَوْصُون قطعةً، ومن إصطبل طَشْتَمُر الساقي قطعةً، ونزل السلطان بنفسه حتّى قرّر أمرَه. ورسَم السلطان للأمير قَوْصُون أن يَشترِي الأملاك الّتي حول إصطبله ويُضيفها فيه. ثمّ أمر السلطان أن يكون بابا الإصطبلين اللذين أمر بإنشائهما لِيَلْبَغا وأَلْطُنبغا تُجاه حمّام الملك السعيد. وأقام الأمير آقْبُغا عبد الواحد شادَّ عمارة القصرَيْن والإصطبلين المذكورين.

قلت: أمّا إصطبل قَوْصُون فهو البيت المُعَدّ لسكن كلّ من صار أَتابَك العساكر في زماننا هذا، الذي بابه الواحد تُجاه باب السلسلة. وأمّا بيت[٣] طَشْتَمُر الساقي حمّص أخضر، فهو البيت الذي الآن على مِلْك الأمير جَرِباش المحمّدي الأَتَابَك، الذي بابه الواحد من حدرة البقر. وبيت أَيْدُغْمُش أمير آخور لعلّه يكون بيت مَنْجَك

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/٧١ في كلامه على قصر يلبغا اليحياوي.

(٢) زيادة عن المقريزي.

(٣) ذكره المقريزي باسم دار البقر. انظر الخطط: ٢/٦٨.

اليُوسُفيّ الذي هو الآن على مِلْك تَمُربُغا الظاهريّ رأس نوبة النُّوَب[١].

وأمّا القصران والإسطبلان اللّذان عمّرهما السلطان ليَلْبُغَا اليَحْيَاوِيّ وأَلْطُنْبُغا المارِدَانيّ [فقد] أخذهما السلطان حسن، وجعل مكانهما مدرسته المعروفة بمدرسة[٢] السلطان حسن تُجاه قلعة الجبل. والله أعلم.

وفي هذه السنة (أعني سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة) عَمِل السلطان جسراً[٣] بالنيل على جسر[٤] ابن الأثير، وحفَر الخليج الكبير المعروف بخليج الخور. وسببه أنّ النيل قَوِيَ على ناحية بولاق، وهدم جامع الخَطِيريّ حتّى احتاج أَيْدَمُر الخطِيريّ لتجديده، فرسم السلطان للسكّان على شاطىء النيل بعمل زرابيّ[٥] لجميع مُلّاك الدور بالقرب من فم الخور، وألّا يُؤخَذ منهم عليها حِكْرٌ، فبنى صاحبُ كلّ دارٍ زريبةً تُجاه داره فلم يُفِد ذلك شيئاً. فكتب السلطان بإحضار مهندسي البلاد القبليّة والبحريّة؛ فلمّا تكاملوا رَكِب السلطان إلى النيل وهم معه، وكَشَف البحر؛ فاتّفق الرأيُ على أن يُحْفَر الرمل الذي بالجزيرة المعروفة بجزيرة أَرْوَى[٦] (أعني الجزيرة الوسطى) حتى يصير خليجاً يجرِي فيه الماء، ويُعمل

---

(١) رأس نوبة: لصاحب هذه الوظيفة الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم. ورأس نوبة النوب هو أعلا رؤوس النوب رتبة. ولمكانته في البلاط سمي بالأخ أو الجناب الكبير. وهو السفير بين المماليك والسلطان. (انظر صبح الأعشى: ١٨/٤، ٦٠ و٤٥٥/٥).

(٢) ذكرها المقريزي في خططه: ٣١٦/٢ باسم جامع الملك الناصر حسن. وهذا الجامع لا يزال موجوداً في القاهرة بميدان محمد علي؛ وهو أضخم مساجد مصر عمارة وأعلاها بنياناً وأكثرها فخامة وأجمعها لمحاسن العمارة. ـ انظر الوصف الدقيق لأجزاء هذا المسجد في طبعة دار الكتب المصرية من النجوم: ١٢٣/٩، حاشية (١) للأستاذ محمد رمزي.

(٣) خطط المقريزي: ١٦٧/٢.

(٤) في السلوك: «على حكر ابن الأثير».

(٥) الزرابي: جمع زربيّة وزريبة. وهي هنا ما يبتنيه أصحاب البيوت المطلة على النيل من حوائط لحماية بيوتهم من فعل الماء، ومن سلالم لتسهيل الوصول من تلك البيوت إلى النهر، كما هو متّبع في البيوت الباقية على شواطىء النيل بدمياط وسمنود ورشيد. (السلوك: ٢٥١/١/٢، حاشية: ٣).

(٦) انظر خطط المقريزي: ١٨٦/٢. وعرفت أيضاً باسم جزيرة بولاق. وتعرف اليوم باسم الجزيرة، أو الجزيرة الكبيرة، أو جزيرة الزمالك، أو جزيرة المعرض، أو جزيرة السباق. وهي اليوم من أجلّ مواقع السكنى، ويشمل القسم البحري منها المنطقة المعروفة بالزمالك. (محمد رمزي).

جسر[1] وسط النيل يكون سدّاً يتّصل بالجزيرة (يعني من الروضة) إلى الجزيرة الوسطانية؛ فإذا كانت زيادة النيل جَرَى الماء في الخليج الذي حُفِر وكان قدّامه سدٌّ عالٍ يرد الماء إليه، حتّى يتراجع النيل عن بَرّ بولاق والقاهرة إلى برّ ناحية منبابة[2]. وعاد السلطان إلى القلعة؛ وخرجت البُرُدُ من الغد إلى الأعمال بإحضار الرجال [للعمل][3] صحبة المشدّين، وطُلبت الحجارون بأجمعهم لقطع الحجارة من الجبل، [وكانت تلك الحجارة][3] تُحْمَل إلى الساحل وتُمْلأ بها المراكب وتُغَرَّق وهي ملآنة بالحجارة حيث يعمل [الجسر][3]. فلم يمضِ عشرة أيام حتى قَدِمت الرجال من النواحي وتَسَلَّمهم آقْبُغَا عبد الأحد والأمير بَرْسبُغَا الحاجب. ورسم السلطان لوالي القاهرة ولوالي مصر بتسخير العامّة للعمل، فَرِكبا وقَبَضا على عِدّة كثيرة منهم، وزادوا في ذلك حتى صارت الناس تُؤخذ من المساجد والجوامع والأسواق، فتسترَّ الناس ببيوتهم خوفاً من السُخْرة. ووقع الاجتهاد في العمل، واشتدّ الاستحثاث [فيه] حتى إن الرجل كان يَخُرُّ إلى الأرض وهو يعمل لعجزه عن الحركة، فتردُم رفقتُه عليه الرمل فيموت من ساعته. واتّفق هذا لخلائق كثيرة، وآقْبُغَا عبد الواحد راكبٌ في حَرّاقة يستعجل المراكب المشحونة بالحجارة، والسلطانُ يَنْزِل إليهم في كلّ قليل ويُباشرهم ويُغْلظ على آقبغا ويُحرِّضه على السُّرعة واستنهاض العمال حتى كمل في مدّة شهر[4] بعد أن غُرِّق فيه اثنتا عشرة مركباً بالحجارة، وَسْقُ كلّ مَرْكَب ألفُ إردب. وكانت عِدّة المراكب التي أشْحِنت بالحجارة المقطوعة من الجبل ــ ورُمِيَت في البحر حتّى صار جسراً يُمْشَى عليه ــ ثلاثاً وعشرين ألف مركب حجر، سوى ما عُمِل فيه من آلات الخشب والسُّرْيَاقات[5] والحَلْفَاء ونحو ذلك. وحُفِر الخليج بالجزيرة؛ فلمّا زاد النيل جَرَى في الخليج المذكور وتراجع الماء

(١) ذكره المقريزي باسم جسر الخليلي. (خطط: ٢/١٦٩).
(٢) المقصود بناحية منبابة بلدة إمبابة الحالية بمديرية الجيزة.
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) في السلوك: «في مدة شهرين».
(٥) السرياقات: جمع سرياقة، ومعناها هنا الحبل الغليظ. (السلوك: ٢/٢/٤٥١، حاشية).

حتّى قَوِي على بَرّ منبابة وبَرّ بولاق التَّكْرُوريّ[١]، فسُرّ السلطان والناسُ قاطبةً بذلك، فإن الناس كانوا على تَخَوُّف كبير من النيل على القاهرة. وأنفق السلطان على هذا العمل من خزانته أموالاً كثيرة. كلّ ذلك في سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة المذكورة.

فلمّا استهلّت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة حضر فيها الأمير تَنْكِز نائب الشام ورُسِم بسكناه في داره بالكافوري على عادته، وخلع عليه خِلعة الاستمرار على نيابة دِمَشْق. وبعد أيّام تكلّم تَنْكِز في يَلْبُغا نائب حلب فعزله السلطان عن نيابة حلب وأنعم عليه بنيابة غزّة. وقدّم تَنْكِز في هذه المرّة للسلطان تقدِمةً عظيمة تَجِلّ عن الوصف، فيها من صنْف الجَوْهَر فقط ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن الزَّرْكَشْ عشرون ألف دينار، ومن أواني البَلُّور وتعابي القُماش والخيل والسُّرُوج والجمال البَخَاتِي ما قيمته مائتان وعشرون ألف دينار مصريّة؛ فلمّا انقضت التَّقْدِمةُ أخذ السلطانُ تَنْكِز وأدخله إلى الدور السلطانية حتى رأى ابنته زوجةَ السلطان، فقامت إليه وقبّلت يدَه؛ ثم أخرج السلطان إليه جميع بناته وأَمَرهنّ بتقبيل يد تَنْكِز المذكور وهو يقول لهنّ واحدة بعد واحدة: «بوسي يد عمّك»، ثم عَيَّن منهنّ بنتين لولدي الأمير تَنْكِز، فقبّل تَنْكِز الأرض وخرَج من الدور، والسلطان يُحادثه.

وأَمَر السلطان بالاهتمام إلى سفر الصعيد للصَّيْد على عادته وتَنْكِز صحبته؛ وكان من إكرامه له في هذه السَّفْرة ما لا عهدَ من مَلِك مثله. فلمّا عاد السلطان من الصعيد أمر النَّشْوَ بتجهيز كُلْفَة عقد ابني تنكز على ابنتيه، وكُلْفة سفر تَنْكِز إلى الشام، فجهّز النَّشْوُ ذلك كلَّه؛ وعُقِد لابني تَنْكِز على آبنتي السلطان في بيت الأمير

(١) بولاق التكروري: من قرى الجيزة القديمة؛ كانت تعرف بمنية بولاق، ثم عرفت ببولاق التكروري بعد أن نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري زمن العزيز بالله الفاطمي. (خطط المقريزي: ٢/٣٢٦) وهي تعرف اليوم ببولاق الدكرور. (محمد رمزي) والتكروري: نسبة إلى التكرور، وهي التسمية التي أطلقها العرب على جميع بلاد السودان التي دخلها الإسلام، وهي الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى حدود وادي النيل. وأصبحت كلمة تكروري في نظرهم مرادفة لكلمة سوداني؛ وقد تبعهم في هذا المؤرخون السودانيون الذين كتبوا بالعربية. وهذا التعميم لا يتفق مع الواقع، لأن تكرور تدل بوجه التحديد على الموطن الحقيقي للتكلور Tuculors أي فوتا السنغالية. (دائرة المعارف الإسلامية: ١٠/١١ ـ ١٢).

قَوْصُون، لكون قوصون أيضاً متزوّجاً بإحدى بنات السلطان، بحضرة القضاة والأمراء. ثمّ ولدَتْ بنت الأمير تَنْكِز من السلطان بنتاً فسجَد شكراً لله بحضرة السلطان، وقال: «يا خَوَنْد، كنتُ أتمنى أن يكون المولود بنتاً. فإنها لو وضعت ذَكَراً كنتُ أخشى من تمام السعادة؛ فإنّ السلطان قد تصدّق عليّ بما غمرني به من السعادة فخشِيتُ من كمالها».

ثم جَهّز السلطان الأمير تَنْكز وأنعم عليه من الخيل والتعابي القُماش ما قيمته مائة وعشرون(١) ألف دينار. وأقام تَنْكِز في هذه المرّة بالقاهرة مدّة شهرين. فلما وادع(٢) السلطان سأله إعفاء الأمير كُجْكُن من الخِدمة وأشياء غير ذلك فأجابه إلى جميع ما سأله. وكتب له تقليداً بتفويض الحكم في جميع الممالك الشامية بأَسْرها، وأن جميع نوّابها تُكاتبه بأحوالها، وأن تكون مكاتبته: «أعزّ الله أنصار المَقرّ الشريف»، بعد ما كانت: «أعزّ الله أنصار الجناب» وأن يُزاد في ألقابه: «الزاهديّ العابِديّ العالميّ كافل الإسلام أتابك الجيوش». وأنعم السلطان على مُغَنِّية قَدِمت معه من دِمَشق من جملة مغانيه بعشرة آلاف درهم؛ وحَصَل لها من الدُّور ثلاث بَذْلات زَرْكَش، وثلاثون تعبية قماش، وأربع بَذْلات مَقَانِع(٣)، وخمسمائة دينار. ثم كان آخر ما قال السلطان لتَنْكِز: «إيش بَقِي لك حاجة؟ [أو] بقِي في نفسك شيء أَقْضِيه لك قبل سفرك»؟ فقبّل الأرضَ وقال: «والله يا خوند، ما بَقِي في نفسي شيءٌ أطلبه إلّا أن أموت في أيّامك»، فقال السلطان: «لا، إن شاء الله تعيش أنت وأكون أنا فِدَاءك، أو أكون بعدك بقليل»، فقبّل الأرض وآنصرف، وقد حَسَده سائر الأمراء، [وكَثُر حديثُهم](٤) فيما حصل له من الإكرام الزائد. فآتّفق ما قال السلطان، فإنّه لم يُقِم بعد موت تنكز إلّا مدّة قليلة.

---

(١) في السلوك: «مائة وخمسون ألف دينار».

(٢) كذا أيضاً في السلوك. والمراد: ودّعه.

(٣) المقانع: جمع مقنع ـ ويقال مقنعة أيضاً ـ وهي ما تغطي به المرأة رأسها، وتكون أضيق من القناع. والقناع: منديل يضعه الرجال والنساء فوق الرأس أو هو النصيف الذي تضعه النساء فوق وجوههن. (السلوك: ٢/٢/٤٣٣، حاشية).

(٤) زيادة عن السلوك.

وأمّا أمُر النَّشْو فإنّه لم يزل على الظلم والعَسْف في الرعيّة والأقدارُ تساعده إلى أن قَبَض عليه السلطان الملك الناصر في يوم الاثنين ثاني صفر سنة أربعين وسبعمائة، وعلى أخيه شَرَف الدين[١] رزق الله، وعلى [أخيه][٢] المُخْلِص وعلى مُقَدّم الخاصّ ورفيقه[٣]. وسبب ذلك أنّه زاد في الظلم حتى قلّ الجالب إلى مصر، وذهب أكثر أموال التجّار لطرح الأصناف عليهم بأغلى الأثمان، وطلب السلطانُ الزيادة، فخاف [النَّشْو] العجزَ، فرجع عن ظلم العامّ إلى الخاصّ، ورتَّب مع أصحابه ذلك. وكانت عادتُه في كلّ ليلة أن يجمع إخوته وصِهْرَه ومن يثق به للنظر فيما يُحْدِثُه من المظالم، فيقترح كلٌّ منهم ما يقترحه من المظالم ثم يتفرقون. فرتّبوا في ليلة من الليالي أوراقاً تشتمل على فصول يتحصّل منها ألف ألف دينار عَيْناً وقرأها على السلطان: منها التَّقَاوِي[٤] السلطانية المخلّدة بالنواحي من الدولة الظاهريّة بِيبَرْس والمنصوريّة قلاوون في إقطاعات الأمراء والأجناد، وجملتها مائة ألف إردب وستون ألف إردب سوى ما في بلاد السلطان من التقاوي، ومنها الرِّزَق الأحباسية الموقوفة على المساجد والجوامع والزوايا وغير ذلك، وهي مائة ألف فدان وثلاثون ألف فدان. وقرّر [النَّشْو] مع السلطان أن يأخذ التقاوي المذكورة، وأن يُلْزِم كلّ متولي إقليم بآستخراجها وحمْلها، وأن يُقيم شادّاً يختاره لكشف الرِّزَق الأحباسية، فما كان منها على موضع عامر [بذكر الله][٢] يُعطيه نصف ما يحصل ويأخذ من مُزارعيه في النصف الآخر عن كلّ فدان مائة درهم.

قلت: ولم يصحّ ذلك للنَّشو، وصحّ مع أستادار زماننا هذا زَين الدين يحيى الأشقر قريب آبن أبي الفرج لمّا كان ناظرَ المفرد[٥] في أُسْتادارية قِرْطُوغان؛

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. وفي الدرر الكامنة: «مجد الدين».

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) عبارة السلوك: «.. وعلى أخيه المخلص، ورفيقه مجد الدين، وعلى صهره وليّ الدولة».

(٤) التَّقاوي: عامية مصرية؛ وهي ما يُعزل من الحبوب لأجل البذر. (المعجم الوسيط ومعجم متن اللغة) والمقصود بعبارة «التقاوي المخلدة» تلك المحفوظة لأغراض الزراعة، أو لعلها تلك التي ختم عليها بخاتم التخليد السلطاني لحفظها للزرع المقبل.

(٥) أي ناظر ديوان المفرد؛ وهو الديوان الذي يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة، وإيراده من البلاد المفردة له. (انظر صبح الأعشى: ٣/٤٥٧).

فإنّه أحدث هذه المظلمة في دولة الملك الظاهر(١)، ودامت في صحيفته إلى يوم القيامة، فأقول: كم ترك الأول للآخر. انتهى.

قال: ويُلْزِم المزارع بَخَراج ثلاث سنين، وما كان من الرِّزَق على موضع خراب، أو على أهل الأرياف من الفقهاء والخطباء ونحوهم أخذوا(٢)، وآستخرج من مزارعيه خراج ثلاث سنين. ومّما أحدثه أيضاً أرض [جزيرة] الرَّوضة تجاه مدينة مصر، فإنها بيد أولاد(٣) الملوك، فيستأجرها منهم الدواوين ويُنشئون بها سواقي الأقصاب وغيرها. ومنها ما باعه أولاد الملوك بأبخس الأثمان. وقَرَّر [النَّشْو] مع السلطان أخذ أراضي الرّوضة للخاصّ. ومنها أربابُ الرواتب السلطانية، فإنّ أكثرهم عَبِيد الدواوين، ونساؤهم وغِلْمانهم يكتبونها باسم زيد وعمرو؛ وذكر [النَّشْو للسلطان] أشياء كثيرة من هذه المقولة إلى أن تعرض للأمير آقبغا عبد الواحد ولأمواله وحواصله، وحسَّن للسلطان القَبْض عليه، وشَرَع في عمل ما قاله. فعظُم ذلك على الناس، وترامَوْا على خواصّ السلطان من الأمراء وغيرهم، فكلّموا السلطان في ذلك وعرّفوه قُبْح سيرة النَّشْو، وما قصده إلا خراب مملكة السلطان ثم رميت للسلطان عدة أوراق في حق النشو فيها مكتوب: [السريع]

أمعنتَ في الظلم وأكثرتَه ... وزدتَ يا نَشْوُ على العالم

تُرَى مَنِ الظالمُ فيكم لنا ... فلعنةُ الله على الظالِم

وأبيات أُخَر. وكان السلطان أرسل قُرمجي إلى تَنْكِز لكشف أخبار النَّشو بالبلاد الشامية، فعاد بمكاتبات تَنْكِز بالحطّ عليه، وذَكَر قُبْحَ سيرته وظلمه وعَسْفه. وكان النشو قد حصل له قُولَنج آنقطع منه أياماً. ثم طلع إلى القلعة وأثرُ المرض في وجهه، وقَرّر مع السلطان إيقاعَ الحَوطة على آقبغا عبد الواحد من الغد، وكان ذلك في أوّل يوم من صَفَر. وتقرّر الحال على أنه يَجْلِس النّشْو على باب الخِزانة، فإذا خَرَج الأمير بَشْتَك من الخِدْمة جَلس معه، ثم يتوجَّهان إلى بيت آقبغا ويَقْبضان عليه. فلما عاد النَّشْو إلى داره عبَرَ الحَمَّام ليلة الاثنين ومعه [شمس الدين

(١) المقصود الملك الظاهر جقمق العلائي الذي تولى السلطنة من ٨٤٢هـ إلى ٨٥٧هـ.

(٢) أي أخذت تلك الرزق الموقوفة أو المحبوسة.

(٣) لعل المراد بهم أولاد السلاطين السابقين، أو أولاد ملوك الأيوبيين.

محمد][1] بن الأكفانيّ، وقد قال له آبن الأكفاني بأنّ عليه[2] في هذا الشهر قَطْعاً عظيماً؛ فأمر النَّشْو بعضَ عَبيده السودان أن يَحْلِق رأسه ويَجْرَحه بحيث يَسيل الدّم على جسده ليكون ذلك حَظّه من القَطْع، ففُعِل به ذلك، وتباشروا بما دَفَع الله عنه من السوء. ثمّ خرج النَّشْو من الحَمَّام، وكان الأمير يَلْبُغا اليَحْياوِيّ أحدُ خواصّ السلطان ومماليكه قد تَوَعَّك جسدُه توعُّكاً صعباً، فقَلِق السلطان عليه وأقام عنده لكثرة شَغَفه به، فقال له يَلْبُغا فيما قال: «يا خَوَنْد، قد عظُم إحسانُك لي وَوَجَب نُصْحُك عليّ، والمصلحةُ القبض على النَّشْو، وإلّا دَخَل عليك الدخيل، فإنّه ما عندك أحد من مماليكك إلّا وهو يترقَّب غَفْلَةً منك؛ وقد عرَّفتُك ونصحتك قبل أن أموت» وَبَكى. وَبكى السلطان لبكائه؛ وقام السلطان وهو لا يعقل لكثرة ما داخله من الوَهْم لِثقَته بمحبّة يَلْبُغا له، وطَلَب بَشْتَك في الحال وعرَّفه أنّ الناس قد كَرِهوا هذا النشو، وأنه عَزَم على الإيقاع به؛ فخاف بَشْتَك أن يكون ذلك آمتحاناً من السلطان، ثم وجد عزْمَه قويّاً في القبض عليه؛ فآقتضى الحال إحضار الأمير قَوْصُون أيضاً، فحضر وقَوّي عزمَ السلطان على ذلك، وما زالا به حتى قَرّر معهما أخذَه والقَبض عليه. وأصبح النشو وفي ذهنه أنّ القطع الذي تخوّف منه قد زال عنه بما دبّره آبن الأكفاني من إسالة دَمِه. ثم عَلَّق عليه عِدَّةً من العُقود والطِّلَّسْمَات والحُرُوز؛ ورَكِب إلى القلعة وجلَس بين يدي السلطان على عادته، وأخذ معه في الكلام على القبض على آقبغا عبد الواحد، [فأمره السلطان أن يجلس على باب خزانة القصر حتى يخرج إليه الأمير بَشْتَك، ثم يمضيا لإيقاع الحوطة على موجود آقبغا عبد الواحد][3] ثم نهض النَّشْوُ وتوجَّه إلى باب الخِزانة، وجلَس عليها ينتظر مُواعدةَ بَشْتَك. فعندما قام النَّشْوُ طَلَب السلطان المُقَدَّمَ آبن صابر[4]، وأَسَرّ إليه أن يَقِف بجماعته على باب القلعة وعلى باب القرافة، ولا يَدَعوا أحداً من حواشي النَّشْو وجماعته وأقاربه وإخوته

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «بأن على النَّشو».

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) هو المقدّم إبراهيم بن أبي بكر بن شداد بن صابر. تولى تقدمة الدولة أيام الملك الناصر، وتمكن جداً بحيث صار يتحدث مع السلطان بغير واسطة. مات تحت العقوبة سنة ٧٤٢هـ.

أن ينزلوا، ويقبضوا عليهم الجميع. وأمر السلطانُ بَشْتَك وبَرْسْبُغا الحاجب أن يَمْضِيَا إلى النَّشْو ويَقْبِضا عليه وعلى أقاربه. فخرج بَشْتَك وجلس بباب الخزانة، وطلب النَّشْو من داخلها؛ فظَنَّ النشو أنه جاء لميعاده مع السلطان حتّى يحتاطا على موجود آقبغا؛ فساعة ما وَقَع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه فأخذوه إلى بيته بالقلعة، وبعث إلى بيت الأمير مَلِكْتَمُر الحِجازيّ فقبَض على أخيه رِزْق الله، ثم أخَذَ أخاه المُخْلِص وسائر أقاربه. وطار الخبرُ في القاهرة ومصر، فخرج الناس كلُّهم كأنّهم جرادٌ مُنْتَشِر. ورَكب الأمير آقبغا عبد الواحد والأمير طَيْبُغا المَجْدِي والأمير بَيْغَرَا والأمير بَرْسْبُغا لإيقاع الحَوْطة على بيوت النَّشْو وأقاربه وحواشيه، ومعهم عَدُوُّه جمال الكُفاة كاتب الأمير بَشْتَك وشهود الخِزانة. وأخذَ السلطانُ يقول للأمراء: «كم تقولون النَّشْو يَنْهَب مال الناس! الساعة ننظر المال الذي عنده»! وكان السلطان يظنّ أنّه يُؤدِّيه الأمانة، وأنّه لا مال له. فَندِم الأمراء على تحسينهم مَسْك النَّشْو خوفاً من ألّا يظهر له مال، لا سيما قَوْصُون وبَشْتَك من أجل أنّهما كانا بالغا في الحطّ عليه، فكثُر قلقُهما ولم يأكلا طعاماً نهارَهما، وبَعَثا في الكَشْف على الخبر. فلما أوقع الأمراءُ الحَوْطَة على دُور الممسوكين بلغهم أنّ حريم النَّشْو في بُستانٍ في جزيرة الفِيل، فساروا إليه وهجموا عليه فوجدوا ستين جاريةً وأُمَّ النَّشْو وآمرأتَه وإخوتَه وولديه وسائرَ أهله، وعندهم مائتا قنطار عنب وقَنْد[1] كثير ومعاصِر وهم في عَصْر العنب. فختموا على الدّور والحواصل، ولم يتهيّأ لهم نَقْلُ شيء [منها]. هذا وقد غُلِّقت الأسواق بمصر والقاهرة، وآجتمع الناس بالرُّمَيْلة تحت القلعة ومعهم النساء والأطفال وقد أشعلوا الشموع ورفعوا على رؤوسهم المصاحف ونشروا الأعلام وهم يصيحون استبشاراً وفرحاً بقَبْض النَّشْو، والأمراء تُشِير إليهم أن يُكثِروا مّما هم فيه؛ وآستمرُّوا ليلة الثلاثاء على ذلك؛ فلمّا أصبحوا وقَع الصوت من داخل القلعة بأنّ رِزْق الله أخا النَّشْو قد قَتَل نفسَه؛ وهو أنّه لما قَبَض عليه قَوْصُون وكّلَ به أمير شِكارِه، فسجَنَه ببعض الخزائن؛ فلمّا طلَع الفجر قام الأميرُ شِكار إلى صلاة الصبح فقام رزْق الله وأخَذَ من حِياصته سكيناً ووضعها في نَحْره حتّى نَفَذَت منه وقَطَعَتْ ورائده[2]،

(١) القند: عسل قصب السكر إذا جمد. فارسي معرب: كند. (صبح الأعشى: ٤٧٢/٣).

(٢) أي أوردته.

فلم يَشْعُر أميرُ شِكار إلاَّ وهو يشخّر وقد تَلِف؛ فصاح [أمير شكار] حتّى بلغ [صياحُه] قَوْصُون، فآنزعج لذلك وضَرَب أميرَ شِكاره ضرباً مُبَرِّحاً إلى أن عَلِم السلطان الخبر، فلم يَكْتَرِث به.

وفي يوم الاثنين المذكور أفرج السلطانُ عن الصاحب شمس الدين موسى ابن التاج إسحاق وأخيه، ونزلا من القلعة إلى الجامع الجديد [الناصري] بمصر. وكان شمس الدين هذا قد وَشَى به النّشْو حتّى قبض عليه السلطان، وأجرى عليه العقوبة أشهراً إلى أن أشِيعَ موتُه غير مرّة؛ وقد ذكرنا أمرَ عقوبة شمس الدين هذا وما وقع له في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، فإنّ في سيرته عجائب فليُنظر هناك. قال الشيخ كمال الدين جعفر الأُدْفُوِيّ في يوم الاثنين هذا، وفي معنى مَسْك النَّشْوِ وغيره هذه الأبيات: [الخفيف]

إنّ يومَ الاثنين يومٌ سعيدُ   فيه لا شَكَّ للبرية عِيدُ
أخذ الله فيه فِرْعون مصر[1]   وغَدَا النِّيل في رُباه يزيدُ

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي في معنى مَسْك النَّشْو والإفراج عن شمس الدين موسى وزيادة النيل هذه الأبيات: [الطويل]

لقد ظهرتْ في يوم الاثنين آيةٌ   أزالت بنُعماها عن العالَم البُوسَا
تزايدَ بحرُ النيل فيه وأُغرِقتْ   به آلُ فرعونٍ وفيه نجا موسى

وفي المعنى يقول أيضاً القاضي علاء الدين علي [بن يحيى] بن فضل الله كاتب السِّرّ: [البسيط]

في يوم الاثنين ثاني الشهر من صفرٍ   نادى البشيرُ إلى أنْ أسمعَ الفَلَكا
يا أهلَ مصر نجا موسى ونِيلُكُمو   طغى وفرعونُ وهو النَّشْوُ قد هَلَكا

ثم في يوم الثلاثاء نُودِي بالقاهرة ومصر: «بيعوا وآشتروا وآحْمَدُوا الله تعالى على خَلاصِكم من النَّشو». ثم أُخرِجَ رِزْق الله أخو النَّشْو ميّتاً في تابوت آمرأة حتى

(١) في السلوك: «جهراً».

دُفِن في مقابر النصارى خوفاً عليه من العامة أن تحرقه. ثم دَخَل الأميرُ بَشْتَك على السلطان وآستعفَى من تسليم النشو خشيةً مّما جَرَى على أخيه؛ فأمر السلطان أن يهدِّده على إخراج المال، ثم يُسلِّمه لابن صابر؛ فأوقفه بَشْتَك وأهانه، فآلتزمَ إن أُفرِج عنه جَمَع للسلطان من أقاربه خِزانةَ مال. ثم تَسَلَّمه آبنُ صابر فأخذه ليَمْضي به إلى قاعة الصاحب[1]، فتكاثرت العامة لرَجْمِه حتى طردهم نقيبُ الجيش؛ وأخرجه والجنزير في عنقه حتى أدخله قاعةَ الصاحب، والعامةُ تحمِل عليه حَمْلَةً بعد حملة والنقباء تطرُدُهم.

ثم طلب السلطانُ في اليوم المذكور جمال الكُفاة إبراهيم كاتب الأمير بَشْتَك وخَلَع عليه وآستَقَرّ في وظيفة نظر الخاصّ عِوَضاً عن شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المعروف بالنَّشْو بعد تمنُّعه. ورَسَم له أن ينزل للحَوْطة على النشو وأقاربه، ومعه الأميرُ آقبغا عبد الواحد وبَرْسْبُغَا الحاجب وشهود الخزانة. فنَزَل بتشريفه، وركب بغلةَ النَّشْو حتى أخْرَجَ حواصلَه، وقد أغْلَقَ الناس الأسواق وتجّمعوا ومعهم الطبولُ والشموعُ وأنواعُ الملاهي وأربابُ الخيال[2]، بحيث لم يبقَ حانوتٌ بالقاهرة مفتوحٌ نهارهم كلّه. ثم ساروا مع الأمراء على حالهم إلى تحت القلعة وصاحوا صيحة واحدة، حتى آنزعج السلطان وأمر الأميرَ أيْدُغْمُش بطَرْدهم. ودخلوا الأمراء على السلطان بما وجدوه للنشو، وهو من العين خمسة عشر ألف دينار مصرية. وألفان وخمسمائة حبة لؤلؤ، قيمة كلّ حَبّة ما بين ألفي درهم إلى ألف درهم.

---

(١) قاعة الصاحب: هي دار الوزارة التي يكون بها مقر الوزير، ومقرها القلعة. وكانت بجوار الدواوين التي يشرف عليها الوزير. (صبح الأعشى: ٣/٣٧٠، وحسن المحاضرة: ٢/١٢٦).

(٢) أرباب الخيال: أي أرباب خيال الظل، وكانوا يسمون أيضاً المخايلين. وكانت من الألعاب الشائعة في ذلك العصر. وخيال الظل نوع من التمثيليات يكون بإلقاء خيالات على ستار يشاهده المتفرجون، فيجدون فيه تسلية ووسيلة للترفيه. وكان خيال الظل في الشرق أسبق من المسرح. وهو يعتبر نوعاً من تمثيليات العرائس التي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول المعروف بالماريونيت Marionettes وهي عرائس تمثل أشخاصاً وحيوانات تحركها الأيدي من أعلى بحيث لا يرى المحرك. والنوع الثاني عرائس تطل على المتفرج بينما الشخص الذي يحركها يكون مختفياً من أسفل. والنوع الثالث هو خيال الظل حيث تظهر فقط أشباح العرائس وتحركاتهم من وراء ستار. (انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٧٦٩، والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك لسعيد عاشور: ص ١٠٥ ــ ١٠٦).

وسبعون فَصّ بَلَخْش قيمة كلّ فصّ [ما بين] خمسة آلاف درهم إلى ألفي درهم. وقطعة[١] زُمُرُّد فاخر زِنتُها رِطل. ونيّف وستون حَبْلاً من لؤلؤ كِبار، زنة ذلك أربعمائة مثقال. ومائة وسبعون خاتَمَ ذَهب وفِضّة بفصوص مثمنّة. وكَفّ مَـرْيم مُرصّـع بجوهر. وصليب ذهب مرصّـع. وعِدّة قطـع زَرْكَش؛ سوى حواصل لم تُفتح. فخَجِل السلطان لمّا رأى ذلك، وقال للأمراء: «لعَنَ الله الأقبـاطَ ومَن يَأمنهُم أو يُصدِّقهم»! وذلك أنّ النّشْو كان يُظْهِر له الفاقة، بحيث إنّه كان يقترض الخمسين درهماً والثلاثين درهماً حتى يُنْفِقها. وبعث في بعض اللّيالي إلى جمال الدين إبراهيم بن المغربـي رئيس الأطباء يطلب منه مائة درهم، ويذكر له أنه طَرَقَه ضَيْفٌ ولم يَجِد له ما يُعشّيه به؛ وقصد بذلك أن يكون له شاهدٌ عند السلطان بما يَدَّعيه من الفقر. فلما كان في بعض الأيام شكا النَّشْوُ الفاقة للسلطان وآبنُ المغربـيّ حاضر، فذكر للسلطان أنه آقترض منه في ليلة كذا مائةَ درهم، فَمَشَى ذلك على السلطان وتقرر في ذهنه أنّه فقير لا مال له. اِنتهى.

وآستمر الأمراءُ تنزل كلّ يومٍ لإخراج حواصل النَّشْو، فوجدوا في بعض الأيام من الصِّينيّ والبَلُّور والتُّحَف السنيّة شيئاً كثيراً.

وفي يوم الخميس [خامسه][٢] زُيِّنت القاهرة ومصر بسبب قَبْض النشو زينةً هائلةً دامت سبعة أيام، وعُمِلت أفراح كثيرة. وعَمِلت العامّة فيه عِـدّة أزجال وبَلَالِيق[٣]، وأظهروا من الفَرَح واللَّهو والخيال[٤] ما يَجِلّ وصفُه. ووُجِدت مآكلُ كثيرة في حواصل النَّشْو، منها: نحو مائتي مَطَر[٥] [مملوءة] مُلوحة وثمانين مطر جُبْن وأحمال كثيرة من سُوَاقة[٦] الشام. ووُجد له أربعمائة بَذْلة قُماش جديدة وثمانون

(١) في السلوك: «وقطعتان زمرّد فاخر زنتهما رطل ونيف».
(٢) أي خامس صفر. والزيادة عن السلوك.
(٣) البلاليق: جمع بليق، وهو الأغنية الشعبية، وتكون عادة هزلية الألفاظ والمعاني. (ملحق دوزي).
(٤) راجع ص ١٠٥، حاشية (٢).
(٥) المطر: مكيال للسوائل عامة، وهو لفظ يوناني الأصل، ويقابله في اللاتينية لفظ metreta وسعته نصف قنطار بالليثي على التحرير؛ والرطل الليثي مائتا درهم. ــ والملوحة: تسمية مصرية لنوع من السمك المملّح. (السلوك: ٢/٢/٤٨٢ و٢/١/٢٤٤).
(٦) لعل المراد بذلك: البضائـع المشتراة (المسوّقة) من بلاد الشام وأسواقها.

بَذْلة قُماش مستعمل. ووُجِد له ستّون بَغْلَطَاق[١] نسائي مُزَرْكش ومناديل زَرْكَش عِدّة كثيرة. ووُجِد له صناديق كثيرة فيها قُماش سَكَنْدَرِيّ مّما عُمِل برسم الحُرّة[٢] جهة ملك المغرب قد آختلسه النَّشْو، وكثير من قُماش الأمراء الذين ماتوا والذين قُبِض عليهم. ووُجِد له مملوك تُرْكيّ قد خَصَاه هو وآثنين معه ماتا، وخَصَى أيضاً أربعة عَبِيد فماتوا؛ فطلب السلطان الذي خصاهم وضَربَه بالمقارع وجُرِّس[٣]. وتُتُبِّعت أصحابهُ وضَرَب منهم جماعة. ثم وُجِد بعد ذلك بمدّة لإخوة النشو ذخائرُ نفيسة، منها لِصهره ولِيّ الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فصّ بَلَخْش. وستٌّ وثلاثون مُرْسَلَة[٤] مكلّلة بالجوهر. وإحدى عشرة عَنْبرينة[٥] مكلّلة بلؤلؤ كِبار. وعشرون طِراز زَرْكَش، وغير ذلك ما بين لؤلؤ منظوم وزُمُرُّد وكوافي زَرْكَش، قُوّموا بأربعة وعشرين ألف دينار. وضُرِب المُخْلِص أخو النَّشْو ومُفْلِح عبده بالمقارع، فأظهر المُخْلِص الإسلام.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شهر ربيع الأوّل وُجدت ورقةٌ بين فَرْش السلطان فيها: «المملوك بَيْرَم ناصح السلطان يُقَبِّل الأرض ويُنْهي: إنَّني أكلتُ رزقك، وأنت قِوامُ المسلمين، ويجب على كلّ أحد نُصْحُك، وإنّ بَشْتَك وآقبغا عبد الواحد آتّفقا على قتلك مع جماعة من المماليك فآحْتَرس على نفسك». وكان بَشْتَك في ذلك اليوم قد توجَّه بكرة النهار إلى جهة الصعيد، فطلب السلطان الأميرَ

---

(١) البغلطاق: لفظ فارسي معناه القباء بلا أكمام، أو بأكمام قصيرة جداً، يلبس تحت الفرجيّة. وكان يصنع من القطن البعلبكي الأبيض، أو من السنجاب، أو من الحرير اللامع. وكثيراً ما يزيّن بجواهر ثمينة. (السلوك: ١/٢/٥٨٤، حاشية).

(٢) هي الحرّة بنت السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس. وكانت قدمت إلى مصر سنة ٧٣٨هـ تريد الحج. (السلوك: ٢/٢/٤٤٧) والجهة: هي الزوجة.

(٣) لعلّ المراد: شُهِّر به. والعامة في بلاد الشام تقول: التجريس، والتجريص بمعنى التشهير بالشخص وإظهار معايبه للناس.

(٤) المرسلة: أجزاء العقد من الجوهر الثمين تتدلى على الصدر (عن حاشية طبعة دار الكتب من النجوم). وفي السلوك: «مِرْمَلة»، وهي ظرف يوضع به الرمل الذي كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتابة. (صبح الأعشى: ٢/٤٧٨).

(٥) في السلوك: «عنبرية». والعنبرينة: نوع من الحليّ المعنبر تلبسه النساء حول الرقبة. (النجوم: السابق).

قَوْصون والأمير آقبغا عبد الواحد وأوقفهما على الورقة، فكاد عقلُ آقبغا أن يَخْتَلِط من شِدّة الرُّعب. وأخذ الأمير قوصون يُعرِّف السلطان أن هذا فِعل مَن يُريد التشويش على السلطان وتغيير خاطره على مماليكه. فأخرج السلطان البريدَ في الحال لردّ الأمير بَشْتَك، فأدركه بإطْفِيح وقد مَدّ سماطه، فلمّا بلغه الخبرُ قام ولم يَمُدّ يده إلى شيء منه. وجَدّ في سَيْره حتى دخل على السلطان، فأوقفه السلطان على الورقة فتنصَّل مّما رُمِي به كما تنصّل آقبغا وآستسلم، وقال: «هـذه نفسي ومالي بين يـدي السلطان. وإنما حَمَل مَنْ رماني بذلك الحسدُ على قُرْبـي من السلطان، وعِظَمُ إحسانه إليّ»، ونحو هذا، حتى رَقَّ له السلطان وأمره أن يعود إلى الصيد إلى جهة قَصْده.

ثم طلَب السلطان [ناظر] ديوان الجيش، ورَسَم له أن يكتب كلَّ من آسمه بَيْرَم ويُحضره إلى آقبغا عبد الواحد. فآرتجّت القلعة والمدينة، فطلب ناظرُ الجيش المذكورين وعَرَضهم وأَخذ خطوطَهم ليقابل بها كتابة الورقة فلم يجِده. فلمّا أعيا آقبغا الظَّفَرُ بالغريم آتَّهم النَّشْو أنّها من مكايده. وآشتدّ قلقُ السلطان وكثُرُ آنزعاجه بحيث إنه لـم يستطـع أن يَقَرّ بمكان واحد؛ وطلب والي القاهرة وأمره بهَـدم ما بالقاهرة من حَوانيت صُنَّاع النُّشّاب، ويُنادِي: «مَن عَمِل نُشَّاباً شُنِق»، فآمتثل ذلك. وخَرّب جميـع مرامي النُّشَّاب، وغُلِّقت حوانيت القَوّاسين. ونزل الأميرُ بَرْسْبُغا إلى الأمراء جميعِهم، وعرَّفهم عن السلطان أنّ مَن رَمَى من مماليكم بالنُّشَاب أو حَمَل قوساً كان أستاذه عِوضاً عنه في التلاف، وألّا يركب أحد من الأمراء بسلاح ولا تَرْكَاش[١]. وبينما الناس في هذا الهول الشديد إذ دخل رجلٌ يُعْرَف بآبن الأزرق ــ كان أبوه ممن مات في عقوبة النَّشو له[٢] عند مصادرته لجمال الكفاة (وقد تقدّم ذكر آبن الأزرق في أمر بناء جامع الخَطِيري) ــ وطلَب الورَقة ليُعَرِّفهم من كتبها،

(١) التركاش: لفظ فارسي الأصل، ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضـع فيها النشـاب. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٧٦).

(٢) عبارة الأصل: «ــ كان أبوه ممن مات في عقوبة النشو لما صادره، وقد تقدم ذكر ابن الأزرق في أمر بناء جامـع الخطيري ــ على جمال الكفاة، وطلب» وما أثبتناه عبارة السلوك.

فقام جمال[1] الكُفاة إلى السلطان ومعه الرجل، فلما وقَف عليها قال: «يا خَوَنْد، هذه خَطُّ أحمد الخطائي[2]؛ وهو رجل عند وليّ الدولة صِهْر النَّشْو يلعب معه النَّرْد ويعاقره الخمر»، فطلب المذكور وحاققه الرجل محاققةً طويلة فلم يَعترِف، فعُوقب عقوبات مُؤْلمة إلى أن أقَرّ بأنّ وليّ الدولة أَمَره بكتابتها؛ فجمع بينه وبين وليّ الدولة فأنكر وليّ الدولة ذلك، وطلب أن يَرَى الورقة، فلما رآها حَلَف جَهْدَ أيمانه أنها خطّ ٱبن الأزرق الشاكي، لينال منه غَرضه، من أجل أنّ النَّشْو قتل أباه، وحاققه على ذلك. فٱقتضى الحال عقوبة ٱبن الأزرق، فٱعترف أنّها كتابته، وأنه أراد أن يأخذ بثأر أبيه من النَّشو وأهله. فعفا السلطان عن ٱبن الأزرق ورَسَم بحبس ابن الخطائي[2]. ورَسَم لبَرْسْبُغا الحاجب وٱبن صابر المقدّم أن يُعاقبا النَّشو وأهله حتى يموتوا. وأذِن السلطان للأجناد في حَمْل النُّشَّاب في السَّفر دون الحَضَر، فصارت هذه عادة إلى اليوم.

ويقال إنّ سبب عقوبة النَّشْو أنّ أمراء المَشُورة[3] تحدّثوا مع السلطان، وكان الذي ٱبتدأ بالكلام سَنْجَر الجاولي وقَبّل الأرض، وقال: «حاشى مولانا السلطان من شغل الخاطر وضِيق الصدْر»، فقال السلطان: «يا أمراء، هؤلاء مماليكي أنشأتُهم وأعطيتهم العطاء الجزيل، وقد بلغني عنهم ما لا يليق»، فقال الجاولي: «حاشى لله أنّ يبدُوَ من مماليك السلطان شيء من هذا، غير أنّ علم مولانا السلطان محيط بأنّ مُلْك الخلفاء ما زال إلاّ بسبب الكُتَّاب، وغالبُ السلاطين ما دخل عليهم الدَّخيل إلاّ من جهة الوزراء؛ ومولانا السلطان ما يحتاج في هذا إلى أن يعرِّفه أحدٌ بما جَرَى لهم، ومن المصلحة قتلُ هذا الكلب وإراحة الناس منه»، فوافقه الجميع على ذلك؛ فضُرِب المُخْلِص أخو النَّشْو في هذا اليوم بالمقارع، وكان ذلك في يوم الخميس رابع عشرين شهر ربيع الأوّل حتّى هَلَك يوم الجمعة العصر، ودُفِن

(١) في السلوك: «فقام والي القاهرة».

(٢) في السلوك: «الخطابي».

(٣) أمراء المشورة: هم ذوو السنّ من أكابر أمراء المئين. وكانوا يجلسون عن يمين وعن يسار السلطان أثناء جلوسه للمظالم في دار العدل. (مسالك الأبصار: ٢/١٠١ ــ ١٠٢).

بمقابر اليهود. ثم ماتت أُمُّهُ عَقيبه. ثم مات وليّ الدولة عامل المَتْجَر[١] تحت العقوبة ورُمِي للكلاب؛ هذا والعقوبة تتنوّع على النَّشْو حتّى هَلَك يوم الأربعاء ثاني شهر ربيع الآخر من سنة أربعين وسبعمائة فوُجِد النَّشْو بغير خِتَان. وكُتِب به محضر ودُفِن بمقابر اليهود بكفن قيمته أربعة دراهم، ووُكِّل بقبره من يحرسه مدّة أسبوع خوفاً من العامّة أن تَنْبُشَه وتُحْرِقه. وكان مدّة ولايته وجَوْره سبعَ سنين وسبعةَ أشهر. ثم أُحضِر وليُّ الدولة صهْرُ النَّشْو ــ وهذا بخلاف وليّ الدولة عامل المَتْجَر الذي تقدّم ــ وأمر السلطان بعقوبته، فدلّ على ذخائر النَّشو ما بين ذهب وأَوَانٍ؛ فطُلِبت جماعة بسبب ودائع النَّشْو، وشَمِل الضررُ غيرَ واحد. وكان موجودُ النَّشْو سوى الصندوق الذي أخذه السلطان شيئاً كثيراً جدّاً، عُمِل لبَيْعه تسعٌ وعشرون حلْقة[٢]، بلغت قيمتُه خمسةً وسبعين ألف درهم. وكان جملة ما أخذ منه سوى الصندوق نحو مائتي ألف دينار. ووُجِد لوليّ الدولة عامل المَتْجر ما قيمتُه خمسون ألف دينار. ووُجد لوليّ الدولة صِهْر النَّشو زيادة على مائتي ألف دينار. وبِيعت للنشو دُورٌ بمائتي ألف درهم. ورَكِب الأمير آقبغا عبد الواحد إلى دُور آل النَّشْو فخرّبها كلّها، حتى ساوى بها الأرض وحَرَثها بالمحاريث في طَلَب الخبايا، فلم يَجد بها من الخبايا إلا القليل. اِنتهى.

وأمّا أصل النشو هذا أنه كان هو ووالده وإخوته يَخْدُمون الأمير بَكْتَمُر الحاجب؛ فلمّا آنفصلوا من عنده أقاموا بَطّالين مدّة. ثم خَدَم النَّشْو هذا عند الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور فأقام بخدمته إلى أن جمع السلطان في بعض الأيام كُتّاب الأمراء لأمرٍ ما، فرآه السلطان وهو واقف من وراء الجماعة وهو شابٌ طويلٌ نَصْرَانيّ حُلْو الوجه، فاستدعاه وقال له: «ايش آسمك»؟ قال: «النَّشْو»، فقال: «أنا أجعلك نَشْوِي» ورتّبه مستوفياً في الجيزة. وأقبلت سعادته فيما ندبه إليه وملا عينه؛ ثم نَقَله

(١) المقصود بلفظ «المتجر» ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص. وكان يقوم بذلك موظف (عامل) من موظفي السلطان. والمتجر السلطاني، أو متجر الخاص، كان يشتري من التجار الخشب والحديد وحجارة الطواحين وغيرها، ثم إنه كان يطرح هذه البضائع في السوق بأسعار مرتفعة. (انظر السلوك: ٢/٢/٤٣٥، ٤٨٦).

(٢) المراد بالحلقة هنا البيع بالمزايدة: المزاد العلني.

إلى آستيفاء الدولة فباشر ذلك مدّة حتى آستسلمه الأمير بَكْتَمُر الساقي وسلّم إليه ديوان سيدي آنوك؛ ثم نَقَله بعد ذلك إلى نظر الخاصّ بعد موت القاضي فخر الدين ناظر الجيش، فإنّ شمس الدين موسى آبن التاج وَلِيَ الجيشَ، والنَّشْو هذا ولِيَ عوضه الخاص. اِنتهى.

وفي آخر شهر ربيع الآخر نُودِي على الذهب أن يكون صَرْفُ الدينار بخمسة وعشرين درهماً، وكان بعشرين درهماً[1].

وفي هذه السنة فرغت[2] مدرسة الأمير آقبغا عبد الواحد بجوار الجامع الأزهر، وأَبْلَى الناس في عمارتها ببلايا كثيرة، منها: أنَّ الصُّنّاع كان قَرَّر عليهم آقبغا أن يعملوا بهذه المدرسة يوماً في الاسبوع بغير أجْرة، ثم حمل إليها الأصناف من الناس ومن العمائر السلطانية، فكانت عمارتُها ما بين نَهْب وسرقة. ومع هذا فإنّه ما نزل إليها قطّ إلا وضَرَب بها أحداً زيادة على شدّة عَسْف مملوكه الذي أقامه شادّاً بها. فلمّا تمّت جَمَع بها القضاة والفقهاء ولم يُوَلَّ بها أحدٌ؛ وكان الشريف المحتسب قَدّم بها سِماطاً بنحو ستة آلاف درهم على أن يلي تدريسها فلم يتمّ له ذلك.

ثم إنّ السلطان نزل إلى خانقاه سِرْياقوس التي أنشأها في يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر ربيع الآخر من سنة أربعين وسبعمائة، وقد تَقَدَّمهُ إليها الشيخ شمس الدين محمد الأصفهاني وقِوَام الدين الكِرْمانيّ وجماعةٌ من صوفية سعيد السعداء. فوقف السلطان على باب خانقاه سعيد السعداء بفَرَسه، وخرج إليه جميعُ صوفيتّها ووقفوا بين يديه، فسألهم من يختارونه شيخاً لهم بعد وفاة الشيخ مجد الدين موسى آبن أحمد بن محمود الأقْصَرَائِيّ فلم يُعَيِّنُوا أحداً. فَوَلَّى السلطان بها الركنَ المَلَطِيّ خادمَ المجد الأقْصَرَائي المتوفَّى.

---

(١) انظر سبب هذا الإجراء في السلوك: ٤٨٨/٢/٢.

(٢) هي المدرسة الآقبغاوية. (خطط المقريزي: ٣٨٣/٢).

وآنقطع السلطان في هذه الأيام عن الخروج إلى دار العدل نحو عشرين يوماً بسبب شغل خاطره لمرض مملوكه يَلْبُغَا اليَحيَاويّ وملازمته له إلى أن تَعافَى؛ وعَمِل السلطان لعافيته سِماطاً عظيماً هائلاً بالمَيْدَان وأحضر الأمراء، ثم آستدعى بعدهم جميع صوفية الخوانق والزوايا وأهل الخير وسائر الطوائف، ومَدّ لهم الأسمطة الهائلة. وأخرج من الخزائن السلطانية نحوَ ثلاثين ألف درهم، أفرج بها عن المسجونين على دَيْن؛ وأخرج للأمير يَلْبُغَا المذكور ثلاث حُجورة[1] بمائتي ألف درهم، وحِياصة ذهب مرصَّعة بالجوهر، كلّ ذلك لعافية يَلْبُغا المذكور.

ثمّ في هذه السنة تغيَّر[2] خاطرُ السلطان على مملوكه الأمير تَنْكِز نائب الشام؛ وبلغ تَنْكِز تَغَيُّرُ خاطر السلطان عليه، فجهَّز أمواله ليحملها إلى قلعة جَعْبَر ويخرج هو إليها بعد ذلك بحُجَّة أنّه يتصيّد. فقدِم إليه الأمير طَاجَار الدّوادار قبل ذلك في يوم الأحد رابع عشر ذي الحجة وعَتَبه وبلّغه عن السلطان ما حمله من الرسالة؛ فتغيّر الأمير تَنْكِز وبدأت الوحشة بينه وبين السلطان، وعاد طَاجار إلى السلطان في يوم الجمعة تاسع عشر ذي الحِجة فأغرى السلطانَ على تَنْكِز وقال: إنه عزم على الخروج من دِمَشْق. فطلب السلطان بعد الصلاة الأميرَ بَشْتَك والأميرَ بِيبَرس الأحمدي والأميرَ جَنْكَلِي بن البابا والأميرُ أَرُقْطاي والأمير طُقُزْدَمُر في آخرين، وعرّفهم أنّ تنِكز قد خرج عن الطاعة، وأنه يبعث إليه تجريدةً مع الأمير جَنْكَلِي والأمير بَشْتَك والأمير أَرُقْطاي والأمير أرنبغا أمير جانْدار والأمير قُمارِي أمير شِكار

(١) حجورة: جمع حجر، وهي الفرس الأنثى.

(٢) ذكر المقريزي أن تغيّر السلطان على نائب الشام هو إقدام هذا الأخير على التنكيل بالنصارى على أثر عدد من الحرائق الكبيرة وقعت في دمشق. وفي نفس الوقت طلب السلطان من تنكز أن يجهّز ابنتي السلطان اللتين عقد لولدي تنكز عليهما ويرسلهما إلى أبيهما السلطان، كما أمره بحمل ما وجد من المال لديه. فأجاب تنكز بالاعتذار عن تجهيز بنات السلطان بما شغله من عمارة ما أحرق، وأن المال الذي وجد للنصارى قد جعله لعمارة الجامع، فلم يرض السلطان وتغيّر على تنكز. (انظر السلوك: ٢/٢/٤٩٥ — ٤٩٨) وسيذكر المؤلف أسباباً أخرى في آخر أخبار الأمير تنكز هذا. وأضاف المقريزي في خططه: ٢/٥٤ إلى جملة الأسباب التي حملت الناصر على القبض على تنكز أنه أشيع بدمشق أن تنكز يريد العبور إلى بلاد الططر، أي التتار. وذكر ابن حجر في الدرر الكامنة أنه كان بين غضبة السلطان على تنكز وبين إمساكه ثماني سنين.

والأمير قُماري أخو بَكْتَمُر الساقي والأمير بَرْسبغَا الحاجب؛ ومع هذه الأمراء السبعة ثلاثون أمير طبلخاناه، وعشرون أمير عشرة، وخمسون نفراً من مقدّمي الحلقة وأربعمائة من المماليك السلطانية؛ وجلَس [السلطان] وعَرَضهم. ثم جمع السلطان في يوم السبت عشرين ذي الحجّة الأمراء جميعَهم وحلّف المجرّدين والمقيمين له ولولده الأمير أبي بكر من بعده، وطُلِبت الأجناد من النواحي للحلف، فكانت بالقاهرة حركات عظيمة. وحَمَل السلطان لكلّ مقدّم ألف مبلغ ألف دينار، ولكلّ [أمير] طبلخاناه أربعمائة دينار، ولكل مقدم حَلْقة ألف درهم، ولكل مملوك خمسمائة درهم وفرساً، وقَرْقَلاً[١] وخوذةً. فآتّفق قدومُ الأمير موسى بن مُهَنّا، فقرّر معه السلطان القبضَ على الأمير تَنْكِز، وكتَب إلى العُرْبان بأخذ الطرقات من كلّ جهة على تَنْكِز. ثم بعث السلطانُ بهادُر حَلاوَة من طائفة الأوجاقيّة على البريد إلى غَزَّة وصَفَد وإلى دِمَشْق بملطّفات[٢] كثيرة. ثم أخرج موسى بن مُهَنّا لتجهيز العربان وإقامته على حِمْص؛ وآهتمّ السلطان بأمر تَنْكِز آهتماماً زائداً جداً.

قلت: على قَدْر الصعود يكون الهبوط، ما لِتلك الإحسان والعظمة والمحبة الزائدة لتَنْكِز قبل تاريخه إلا هذه الهّمة العظيمة في أَخْذه والقَبْض عليه، ولكن هذا شأن الدنيا مع المُغْرَمين بها!.

ثم إنّ الملك الناصر كَثُر قلقُه من أمر تَنْكِز وتنغّص عيشه. وخرج العسكر المعيَّن من القاهرة لقتال تنْكِز في يوم الثلاثاء ثالث عشرين ذي الحِجّة من سنة أربعين وسبعمائة. وكان حلاوة الأوجاقي قَدِم على الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نائب غَزّة بملّطف. وفيه أنّه آستقرّ في نيابة الشام عِوضاً عن تَنْكِز، وأنّ العسكر واصلٌ إليه ليسيروا به إلى دِمَشْق.

---

(١) القرقل: ويجمع على قرقلات، وهي نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد وتغشى بالديباج الأحمر والأصفر، وقد تكون مبطنة. (التعريف بمصطلحات الصبح: ٢٧٢).

(٢) كان هذا النوع من المراسلات (الملطفات) يبعث إلى الأمراء لاسترضائهم وتحريضهم على تنكز. ــ راجع فهارس المصطلحات.

قلت: وأَلْطُنْبُغا نائب غَزّة هو عَدُوُّ تَنْكِز الذي كان تَنْكِز سعى في أمره حتى عَزَله السلطان من نيابة حلب وولاه نيابة غَزّة قبل تاريخه.

ثمّ سار حلاوة الأوجاقي إلى صَفَد وإلى الشام وأوصل الملطّفات إلى أمراء دِمَشْق. ثم وصلتْ كُتُب أَلْطُنْبُغا الصالحيّ إلى أمراء دِمَشْق بولايته نيابة الشام. ثمّ رَكِب الأمير طَشْتَمُر الساقي المعروف بحمّص أخضر نائب صَفَد إلى دِمَشْق في ثمانين فارساً، وآجتمع بالأمير قُطْلُوبُغا الفخريّ وسَنْجَر البَشْمَقْدار وبِيبَرْس السِّلاح دار. وآتّفق ركوب الأمير تَنْكِز في ذلك اليوم إلى قصره فوق مَيْدان الحصى في خواصه للنزهة، وبينما هو في ذلك إذ بلغه قدوم الخيل من صَفَد، فعاد إلى دار السعادة[١] وألبس مماليكه السلاح؛ فأحاط به في الوقت أمراء دِمَشْق، ووَقَع الصوت بوصول نائب صَفَد، فخرج عسكر دِمَشْق إلى لقائه، وقد نَزَل بمسجد القَدَم. فأمر نائب صفد جماعةً من المماليك الأمراء أن يعودوا إلى تَنْكِز ويُخرجوه إليه، فدخَل عليه جماعة منهم تمُر الساقي والأمير طُرُنْطاي البَشْمَقْدَار وبِيبَرْس السلاح دار وعرّفوه مرسوم السلطان فأذْعَن لقلّة أُهْبته للركوب ــ فإنّ نائب صَفَد طَرقَه على حين غفلة بآتّفاق أمراء دِمَشْق، ولم يجتمع على تَنْكِز إلا عدّةٌ يسيرةٌ من مماليكه ــ فلذلك سَلَّم نفسه. فأخذوه وأركبوه إكْدِيشاً وساروا به إلى نائب صَفَد، وهو واقف بالعسكر على مَيْدان الحصى، فقَبَض عليه وعلى مملوكَيْه: جنغاي وطغاي وسُجِنا بقلعة دِمَشْق. وأُنْزل تَنْكِز عن فرسه على ثوب سَرْج، وقَيّده وأخذه الأمير بِيبَرْس السلاح دار وتوجّه به إلى الكسوة، فحصل لتَنْكِز إسهالٌ ورِعْدَةٌ خِيف عليه الموت؛ فأقام بالكُسْوة يوماً وليلة ثم مضى به بِيبَرْس [إلى القاهرة]. ونزَلَ طَشْتَمر حمّص أخضر نائب صَفَد بالمدرسة النَّجِيبِيّة[٢]. وتقدم بهادرُ حلاوة عندما قَبَض على تَنْكِز ليُبشِّر السلطان بمَسْك تَنْكِز، فوصَل إلى بلبيس ليلاً والعسكر نازل بها وعرّف الأمير بَشْتَك.

ثم سار حتى دخل القاهرة، وأعلم السلطان الخبرَ فسُرّ سروراً زائداً، وكتب

---

(١) كانت دار السعادة بدمشق المقرّ الرسمي لنائب الشام.

(٢) المدرسة النجيبية: كانت هذه المدرسة ملاصقة لمدرسة الشهيد نور الدين محمود وضريحه من جهة الشمال بدمشق. وقد أنشأها الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله النجيبي الصالحي. (الدارس في تاريخ المدارس).

بعَوْد العسكر من بلبيس إلى القاهرة ما خلا بَشْتَك وأَرُقْطاي وبَرْسُبُغَا الحاجب، فإنهم يتوجّهون إلى دِمَشْق للحَوْطة على مال تَنْكِز، وأن يُقيم الأمير بيغرا أمير جاندار والأمير قُمارِي أمير شِكار بالصالحية إلى أن يَقْدَم عليهما الأمير تَنْكِز. وعاد جميع العسكر إلى الديار المصرية. وسار بَشْتَك ورفيقاه إلى غَزَة فركب معهم الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ إلى نحو دِمَشْق فلقُوا الأمير تَنْكِز على حُسْبان(١) فسلّموا عليه وأكرموه.

وكان بَشْتَك لما سافر من القاهرة صحبة العسكر كان في ذلك اليوم فراغ بناء قصره(٢) الذي بناه ببين القصرين فلم يدخله برِجله، وآشتغل بما هو فيه من أمر السفر؛ فشَرع السلطان في غَيْبته في تحسين القصر المذكور. وكان سبب عمارة بَشْتَك لهذا القصر أنّ الأمير قَوْصُون لمّا أخذ قصر بَيْسَرِي وجدّده أحبّ الأمير بَشْتَك أن يعمل له قصراً تجاه قصر بَيْسَرِي ببين القصرين، فدُلّ على دار الأمير بَكْتَاش الفخري أمير سلاح، وكانت أحد قصور الخلفاء الفاطميين التي آشتراها من ذريتهم، وأنشأ بها الفخري دوراً وإسطبلات، وأبقى ما كان بها من المساجد؛ فشاوَر بَشْتَك السلطان على أخذها فرسم له بذلك، فأخذها من أولاد بَكْتاش وأرضاهم وأنعم عليهم. وأنعم السلطان عليه بأرضٍ كانت داخلها بَرْسَم الفِراشْخاناه(٣) السلطانية.

ثم أخَذ بَشْتَك دار أقطوان الساقي بجوارها، وهدَم الجميع وأنشأه قصراً مطلاً على الطريق، وآرتفاعه أربعون ذراعاً [وأساسه أربعون ذراعاً](٤) وأجرى إليه الماء ينزل إلى شَاذِرْوَان(٥) إلى بركة به. وأخْرَب في عمله أحدَ عشرَ مسجداً وأربعة معابد أدخلها فيه، فلم يُحَدِّد منها سوى مسجدٍ رَفَعَه وعَمِله معلّقاً(٦) على الشارع.

---

(١) في السلوك: «علي بيسان». وحُسبان هي بلدة البلقاء.

(٢) انظر عن قصر بشتاك خطط المقريزي: ٧٠/٢.

(٣) الفراش خاناه: خزانة الفرش، وهي التي بها الخيم والبسط والأسمطة والقناديل وما أشبه ذلك. وكان لها مهتار وعدة فراشين عملهم الكنس وفرش البسط والخدمة ومدّ الأسمطة. (صبح الأعشى: ١١/٤).

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) الشاذروان: صُفّة حول البناء متصلة به، كشاذوران الكعبة المشرفة. أوهو صُفَّة تحيط بها فارغة من البناء وهو جذرها. وبعبارة أوضح هو ما ترك من عرض الأساس خارجاً، ويسمى التأزير. (معجم متن اللغة).

(٦) أي أنه مبنيّ فوق دور أرضي، وليس على الأرض في مستوى الطريق كما جرت العادة في بناء المساجد.

وفي هذه الأيام ورَد الخبر على السلطان من بلاد الصعيد بموت الخليفة المستكفي بالله أبـي الربيع سلُيمان بقُوص في مستهلّ شعبان، وأنّه قد عَهِدَ إلى ولده أحمد بشهادة أربعين عَدْلاً؛ وأثبت قاضي قُوص ذلك، فلم يُمْضِ السلطان عَهدَه[1]؛ وطلَب إبراهيم بن محمد المستمسك بـن أحمد الحاكم بأمر الله في يوم الاثنين ثالث [عشر] شهر رمضان؛ وآجتمع القضاة بدار العدل على العادة، فعرّفهم السلطان بما أراد من إقامة إبراهيم في الخلافة وأمرهم بمبايعته، فأجابوا بعدم أهليّته، وأنّ المستكفي عَهِد إلى ولده، وآحتجُّوا بما حَكَم به قاضي قُوص؛ فكتَب السلطان بقدوم أحمد المذكور. وأقام الخُطباء بالقاهرة ومصر نحوَ أربعة أشهر لا يذكرون في خطبتهم الخليفة. فلمّا قَدِم أحمد المذكور من قُوص لم يُمْضِ السلطان عَهْدَه؛ وطلَب إبراهيم وعرَّفه قُبْحَ سيرته، فأظهر التَّوْبة منها، وآلتزم سلوك طريق الخير. فآستدْعَى السلطانُ القُضاة وعرّفهم أنه قد أقام إبراهيم في الخلافة؛ فأخذ قاضي القضاة عِز الدين بن جماعة يُعَرِّفُ السلطان عدم أهليّته، فلم يَلْتفت السلطان اليه، وقال: «إنّه قد تاب، والتائب من الذنب كمن لا ذنبَ له»؛ فبايعوه ولُقِّب بالواثق؛ وكانت العامة تُسمِّيه المستعطي، فإنه كان يستعطي من الناس ما يُنفِقه.

ثمّ وصل الأمير تَنْكِز إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء ثامن المحرّم سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وهو مُتَضَعِّف، صحبةَ الأمير بِيَبْرس السِّلاح دار، وأُنْزِل بالقلعة في مكان ضيِّق. وقصد السلطانُ ضَرْبه بالمقارع، فقام الأمير قَوْصُون في شفاعته حتّى أُجِيب إلى ذلك. ثم بعث السلطان إليه يُهَدِّده حتّى يَعترف بما له من المال ويذكُر له مَنْ كان موافقاً له من الأمراء على العِصْيان؛ فأجاب بأنّه لا مالَ له سوى ثلاثين ألف دينار وَدِيعةً عنده لأيتام بَكْتَمُر الساقي، وأنكر أن يكون خَرَج عن الطاعة. فأَمر به السلطانُ في اللّيل فأُخرِج مـع المُقَدّم ابن صابر وأمير جَانْدار في

(١) هذه إشارة واضحة إلى ما صارت إليه الخلافة العباسية في مصر في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وفي جميـع الأحوال فإن الخلافة العباسية التي انتقلت إلى مصر منذ عهد الظاهر بيبرس كانت دائماً صورية ومجرّدة من جميـع سلطاتها؛ فإن الخليفة منذ لحظة مبايعته كان يسلّم رسمياً جميـع سلطاته وصلاحياته إلى السلطان المملوكي. ولم تكن الخلافة سوى مظهر ــ وإن كان ضرورياً ــ لإضفاء الشرعية الإسلامية على الحكم المملوكي.

حَرَّاقة إلى الإسكندرية، فقتله بها المقدَّم ابن صابر في يوم الثلاثاء نصف المحرّم من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة؛ وتأتي بقيَّة أحواله.

ثم لمّا وصل الأميرُ بَشْتك إلى دِمَشْق قَبَض على الأمير صارُوجا والجيبغا العادلي وسُلِّما إلى الأمير بَرْسبُغَا فعاقبهما أشدَّ عقوبة على المال، وأوقع الحَوْطَة على موجودهما. ثم وَسَّطَ بَشْتَك جنغاي وطغاي مملوكي تَنْكِز وخواصَّه بسوق خَيْل دِمَشْق؛ وكان جنغاي المذكور يُضاهي أُستاذَه تَنْكِز في موكِبه وَبْركه؛ ثمّ أكْحَل صارُوجا وتَتَبَّعَ أموال تَنْكِز فوجد له ما يَجِلُّ وصفُه؛ وعُمِلت لبيع حواصله عدّةُ حِلَق[1]، وتَوَلَّى البيعَ فيها الأميرُ أَلْطُنْبُغَا الصالحيّ نائب دِمَشْق والأمير أَرُقْطاي وهما أعدى عدوّ لتَنْكِز. وكان تَنْكِز أميراً جليلاً محترماً مُهاباً عفيفاً عن أموال الرعيّة، حسن المباشرة والطريقة، إلاّ أنّه كان صَعْبَ المِراس ذاَ سَطْوةٍ عظيمة وحُرْمة وافرة على الأعيان من أرباب الدولة، متواضعاً للفقراء وأهل الخير؛ وأوقف عِدَّة أوقاف على وجوه البِرّ والصدقة.

وقال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ: جُلِب تَنْكِز إلى مصر وهو حَدَث فنشأ بها؛ وكان أبيضَ، إلى السُّمْرة أقرب، رَشِيق القَدّ، مليح الشعر، خفيف اللّحية، قليل الشيب، حسن الشكل، ظريفه. جَلَبه الخواجا علاء الدين السِّيوَاسِيّ فآشتراه الأمير لاجين، فلمّا قُتِل لاجين في سلطنته صار من خاصّكِيّة الملك الناصر وشَهِد معه وقعة وادي الخازندار ثم وقعة شَقْحَب.

قلت: ولهذا كان يُعرف تَنْكِز بالحُسامِيّ.

قال: وسَمِع تَنْكِز صحيحَ البخاري غيرَ مرّة من آبن الشِّحْنَة وسَمِع كتابَ [معاني] الآثار للطَّحاوِيّ، وصحيحَ مُسْلِم، وسمع من عيسى المُطَعِّم وأبي بكر بن عبد الدائم، وحدَّث، وقرأ عليه المحدثين ثُلاثّيات البخاري بالمدينة النبويّة. قال: وكان الملك الناصر أَمَّرَه إمْرَة عشرة قبل توجُّهه إلى الكَرَك؛ ثم ساق توجُّهَه مع الملك الناصر إلى الكرك وخروجه من الكَرَك إلى مصر وغيرهما إلى أنّ قال: وولاّه

(١) راجع ص١١٠، حاشية (٢).

السلطان نِيابة دمشق في سنة آثنتي عشرة وسبعمائة فأقام بدِمَشق نائباً ثمانياً وعشرين سنة؛ وهو الذي عمّر بلاد دِمَشْق ومهّد نواحيها، وأقام شعائر المساجد بها بعد التتار.

قلت: وأمّا ما ظهَر له من الأموال [فقد] وُجِد له من التُّحَف السنيّة ومن الأقمشة مائتا منديل زَرْكش، وأربعمائة حِياصة ذهب، وستمائة كَلْفتاه زَرْكش، ومائة حِياصة ذهب مرصّعة بالجوهر، وثمان وستون بقجة بذلات ثياب زركش، وألفا ثوب أطلس، ومائتا تخفيفة[1] زركش. وذهب مختوم أربعمائة ألف دينار مصرية. ووُجد له من الخيل والهُجُن والجمال البَخَاتِيّ وغيرها نحو أربعة الآف ومائتي رأس؛ وذلك غيرُ ما أخَذه الأمراء ومماليكهم، فإنهم كانوا ينهبون ما يخرج به نهباً. ووُجِد له من الثياب الصوف ومن النَّصافي[2] ما لا ينحصر. وظَفِر الأمير بَشْتك بجوهر له ثَمين آختصّ به. وحُمِلت حُرَمُه وأولاده إلى مصر صحبة الأمير بَيْغَرا، بعد ما أُخِذ لهم من الجوهر واللؤلؤ والزَّرْكش شيءٌ كثير.

وأمّا أملاكه التي أنشأها فشيء كثير. وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبك الصفديّ في تاريخه ــ وهو معاصِره ــ قال: ورد مرسومٌ شريفٌ إلى دِمَشْق بتَقْويم أملاك تَنْكِز، فعُمِل ذلك بالعدول وأرباب الخِبْرة وشهود القيمة، وحضرت بذلك محاضر إلى ديوان الإنشاء لتجهّز إلى السلطان، فنقلتُ منها ما صورتُه: «دار الذهب بمجموعها وإسطبلاتها ستمائة ألف درهم. دار الزُّمُرُّد مائتا ألف وسبعون ألف درهم. دار الزَّردكَاش [وما معها][3] مائتا ألف وعشرون ألف درهم. الدار التي بجوار جامعه بدِمَشْق مائة ألف درهم. الحَمّام التي بجوار جامعه مائة ألف درهم. خان العرصة مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم. إسطبل حِكْر السماق عشرون ألف درهم. الطبقة التي بجوار حَمّام آبن يُمن أربعة الآف وخمسمائة درهم. قَيْسارية المرحّلين مائتا

---

(١) التخفيفة: هي العمامة. فإذا أطلقت فهي العمامة الصغيرة، وإذا قيل «تخفيفة كبيرة» فهي ما يسميها العامة بالناعورة، وهي مثل التاج. ويقال أيضاً تخفيفة بقرون طويلة، وهي تاج كتاج الفرس. (الملابس المملوكية لماير ١٦).

(٢) النصافي: جمع نصفية، وهي نوع من القماش الرقيق المصنوع من الحرير والكتّان. (ملحق دوزي).

(٣) زيادة عن فوات الوفيات.

ألف وخمسون ألف درهم. الفرن والحوض بالقَنَوات من غير أرض عشرة الآف درهم. حوانيت التعديل ثمانية[١] الآف درهم. الأهْرَاء من إسطبل بَهَادُر آص عشرون[٢] ألف درهم. خان البيض وحوانيته مائة ألف وعشرة الآف درهم. حوانيت باب الفرج خمسة وأربعون ألف درهم. حَمّام القابُون عشرة[٣] الآف درهم. حَمّام العُمَرِيّ ستة الآف درهم. الدهشة[٤] والحمّام مائتا ألف وخمسون ألف درهم. بُستان العادل مائة ألف وثلاثون[٥] ألف درهم. بُستان النَّجِيبيّ والحمّام والفُرْن مائة ألف درهم وثلاثون ألف درهم. [بستان الحلبي بحَرَسْتا أربعون ألف درهم][٦]. الحدائق بها مائة ألف وخمسة وستون[٧] ألف درهم. بستان القُوصِيّ بها ستون ألف درهم. بستان الدردوزية[٨] خمسون ألف درهم. الجُنَيْنة المعروفة بالحمّام [بزبدين][٩] سبعة الآف درهم. بستان الرزاز خمسة وثمانون[١٠] ألف درهم. الجنينة وبستان غيث ثمانية[١١] آلاف درهم. المزرعة المعروفة بِتهامة بها (يعني دمشق) ستون ألف درهم. مزرعة الركن النوبيّ[١٢] والعِبْري مائة ألف درهم. الحصّة بالدفوف القبلية بكَفْرَ بَطْنا، ثلثاها ثلاثون ألف درهم. بستان السفلاطوني[١٣] خمسة وسبعون ألف درهم. الفاتكيات والرشيدي والكروم بزَمْلَكا مائة ألف درهم وثمانون ألف

(١) في الفوات: «عشرة آلاف درهم».
(٢) فوات: عشرة آلاف درهم.
(٣) فوات: عشرون ألف درهم.
(٤) فوات: الدهيشة.
(٥) فوات: وثمانون ألف.
(٦) زيادة عن فوات الوفيات.
(٧) فوات: وخمسة وأربعون ألف درهم.
(٨) فوات: بستان الدردور بزبدين.
(٩) زيادة عن الفوات.
(١٠) فوات: خمسة وثلاثون ألف درهم.
(١١) فوات: خمسة وثلاثون ألف درهم.
(١٢) فوات: مزرعة البوقي والعنبري.
(١٣) فوات: السقلاطوني، بالقاف.

درهم. مزرعة المربع[١] بقابون مائة ألف وعشرة الآف درهم. الحصّة من غِراس غيضة[٢] الأعجام عشرون ألف درهم. نصف الضيعة[٣] المعروفة بزرنية[٤] خمسة الآف درهم. غِراس قائم في جِوار دار الجالق ألفا درهم. النصف من خراج[٥] الهامة ثلاثون ألف درهم. الحوانيت التي قُبالة الحمام[٦] مائة ألف درهم. بَيْدَر تبدين[٧] ثلاثة وأربعون ألف درهم. الإسطبلات التي عند الجامع ثلاثون ألف درهم. أرض خارج باب الفرج ستة عشر ألف درهم. القصر وما معه خمسمائة ألف درهم وخمسون ألف درهم. ربع ضيعة القصرين ثمانية[٨] وعشرون ألف درهم. نصف بوّابة مائة وثمانون ألف درهم. العلانية بعيون الفارسنا[٩] ثمانون ألف درهم. حِصّة دير آبن عصرون خمسة وسبعون ألف درهم. حصّة دُويرة الكُسْوة[١٠] ألف وخمسمائة درهم. الدَّيْر الأبيض خمسون ألف درهم. العديل[١١] مائة ألف وثلاثون ألف درهم. حوانيت أيضاً داخل باب الفرج أربعون ألف درهم. التنورية آثنان وعشرون ألف درهم.

الأملاك التي له بحمص: الحَمام خمسة وعشرون ألف درهم. الحوانيت سبعة الآف درهم. السريع[١٢] ستون ألف درهم. الطاحون الراكبة على العاصي ثلاثون ألف درهم. زور قَبْجَق خمسة وعشرون ألف درهم. الخان مائة ألف درهم. الحمام الملاصقة للخان ستون ألف درهم. الحوش الملاصق له ألف وخمسمائة

(١) فوات: المرفع.
(٢) فوات: غيطة.
(٣) فوات: الغيطة.
(٤) فوات: بزرنبة.
(٥) فوات: غراس.
(٦) فوات: الجامع.
(٧) فوات: زبدين.
(٨) فوات: مائة وعشرون ألف درهم.
(٩) فوات: الفاسرتا.
(١٠) فوات: دوير اللبن.
(١١) فوات: العزيل.
(١٢) فوات: الربع.

درهم. المناخ ثلاثة الآف درهم. الحوش الملاصق للخندق[١] ثلاثة الآف درهم. حوانيت العريضة ثلاثة الآف درهم. الأراضي المحتَكرة سبعة الآف درهم.

والتي في بيروت: الخان مائة وخمسة وثلاثون ألف درهم. الحوانيت والفرن مائة وعشرون ألف درهم. المصبنة بآلاتها عشرة الآف درهم. الحمّام عشرون ألف درهم. المَسْلَخ عشرة الآف درهم. الطاحون خمسة الآف درهم. قرية زلايا خمسة وأربعون ألف درهم.

القرى التي بالبِقاع: مرج الصفا سبعون[٢] ألف درهم. التّل الأخضر مائة ألف وثمانون ألف درهم. المباركة خمسة وسبعون ألف درهم. المسعودية مائة ألف درهم. الضِّياع [الثلاث][٣] المعروفة بالجوهري أربعمائة ألف وسبعون ألف درهم. السعادة أربعمائة ألف درهم. أبروطيا ستون ألف درهم. نصف بيرود[٤] والصالحية والحوانيت أربعمائة ألف درهم. المباركة والناصرية مائة ألف درهم. رأس الماء[٥] سبعة وخمسون ألف درهم. حِصّة من خَرِبة روق آثنان وعشرون ألف درهم. رأس الماء والدلي بمزارعها خمسمائة ألف درهم. حمام صَرْخد خمسة وسبعون[٦] ألف درهم. طاحون الغور[٧] ثلاثون ألف درهم. السالمية ثلاثة[٨] الآف درهم.

الأملاك بِقَارا[٩]: الحمام خمسة وعشرون ألف درهم. الهُرْي ستمائة ألف درهم. الصالحية والطاحون والأراضي مائتا[١٠] ألف درهم وخمسة وعشرون ألف

---

(١) فوات: للفندق.
(٢) فوات: سبعمائة ألف درهم.
(٣) زيادة عن الفوات.
(٤) فوات: يبرود.
(٥) فوات: رأس الماء بيمّ الروس.
(٦) فوات: خمسون ألف درهم.
(٧) فوات: طاحون الفوار.
(٨) فوات: سبعة آلاف.
(٩) قارا: قرية كبيرة بين دمشق وحمص، وغالب أهلها نصارى. (معجم البلدان).
(١٠) فوات: مائة ألف.

درهم. راسليها[١] ومزارعها مائة وخمسة وعشرون ألف درهم. القضيبية[٢] أربعون ألف درهم. القريتان المعروفة إحداهما بالمزرعة، والأخرى بالبينسية تسعون ألف درهم؛ هذا جميعه خارج عما له من الأملاك على وجوه البر والأوقاف في صَفَد وعَجْلُون والقدس ونابلس والرملة والديار المصرية. وعمّر بصفد بيمارِستاناً مليحاً. وعمّر بالقدس رِباطاً وحمامين وقياسر. وله بجلجولية[٣] خان مليح، وله بالقاهرة دار عظيمة بالكافوري».

قلت: هي دار عبد الباسط بن خليل الآن. وحمّام وغير ذلك من الأملاك. اِنتهى كلام الشيخ صلاح الدين بآختصار.

قلت: وكان لتغيُّر السلطان الملك الناصر على تَنْكِز هذا أسباب، منها: أنه كَتَب يستأذنه في سفره إلى ناحية جَعْبَر فمنعه السلطان من ذلك لما بتلك البلاد من الغلاء، فألَحّ في الطلب، والجوابُ يرد عليه [بمنعه][٤] حتى حَنِق تَنِكز وقال: «والله لقد تغيَّر عقلُ أستاذنا وصار يسمَع من الصبيان الذين حوله. والله لو سَمِع مني لكنتُ أشرتُ عليه بأن يُقيم أحداً من أولاده في السلطنة وأقوم أنا بتدبير مُلْكه، ويبقى هو مستريحاً» فكتب بذلك جَرِكْتَمُر إلى السلطان، وكان السلطان يتخيلّ بدون هذا فأثّر هذا في نفسه. ثم آتفق أن أَرْتَنا نائب بلاد الروم بعث رسولاً إلى السلطان بكتابه، ولم يكتب معه كتاباً لتَنْكِز، فَحنِق تَنْكِز لعدم مكاتبته وردّ رسوله من دِمَشْق. فكتب أَرْتَنا يُعَّرف السلطان بذلك، وسأل ألاّ يطَّلـع تَنْكِز على ما بينه وبين السلطان، ورماه بأمور أوجبت شدّة تغير السلطان على تَنْكِز. ثم آتفق أيضاً غضبُ تنكز على جماعة من مماليكه، فضربهم وسجنهم بالكَرَك [والشُّوبَك] فكَتَب منهم جُوبان، وكان أكبرَ مماليكه، إلى الأمير قَوْصُون يتشفّـع به في الإفراج عنهم من سجن الكَرَك. فكلّم قَوْصُون السلطان في ذلك، فكتب السلطان إلى تَنْكِز يشفـع في

(١) فوات: راسليثا.

(٢) فوات: القصيبة، بالصاد المهملة.

(٣) لعلّ المراد بها قرية جلجلية شرقي أريحاء، والتي اندثرت وقام مكانها قرية جلجال. (انظر الموسوعة الفلسطينية: ٤٣/٢).

(٤) زيادة عن السلوك.

جُوبان فلم يُجِب عن أمره بشيء، فكتب إليه ثانياً وثالثاً فلم يجبه. فآشتدّ غضب السلطان حتّى قال للأمراء: «ما تقولون في هذا الرجل؟ هو يشفع عندي في قاتل أخي فقبلتُ شفاعته، وأخرجتُه من السجن وسيّرتُه إليه ــ يعني طَشْتَمُر أخا بتخاص ــ وأنا أشفع في مملوكه ما يقبل شفاعتي!» وكتَب السلطان لنائب الشُّوبَك بالإفراج عن جُوبان المذكور فأَفرج عنه. فكان هذا وما أشبهه الذي غَيّر خاطر السلطان الملك الناصر على مملوكه تَنْكِز. اِنتهى.

ثم آشتغل السلطان بموت أعزّ أولاده الأمير آنوك في يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الآخر بعد مرض طويل، ودفِن بتربة[1] الناصرية ببين القصرين، وكان لموته يومٌ مهول، نَزَل في جنازته جميعُ الأمراء، وفعلت والدته خَوَنْد طغاي خيراتٍ كثيرة، وباعت ثيابَه، وتصدَّقت بجميع ما تحصّل منها.

ثم إنّ السلطان ركِب في هذه السنة، وهي سنة إحدى وأربعين إلى بركة الحبش خارج القاهرة، وصحبته عِدّةٌ من المهندسين؛ وأمَر أن يُحفر خليجٌ من البحر إلى حائط الرصد[2]، ويُحفر في وسط الشرف المعروف بالرصد عشرُ آبار، كلُّ بئر نحو أربعين ذراعاً تُرَكَّب عليها السواقي، حتى يجري الماء من النيل إلى القناطر التي تَحمِل الماء إلى القلعة ليكثُر بها الماء. وأقام الأميرَ آقبغا عبد الواحد على هذا العمل، فشقَّ الخليج من بحري رِباط[3] الآثار، ومرُّوا به في وسط بُستان الصاحب تاج الدين آبن حِنّا المعروف بالمعشوق[4]، وهُدِمت عدّةُ بيوت كانت هناك؛ وجُعل عُمق الخليج أربع قصبات. وجُمعت عدّة من الحجّارين للعمل، وكان مُهمّاً عظيماً. ثم أمَر السلطان بتجديد جامع راشدة، فجُدِّد، وكان قد تهدّم غالبُ جُدُرِه.

(١) المراد المدرسة الناصرية.

(٢) انظر خطط المقريزي: ١/١٢٥و٢/٢٢٩.

(٣) كان موقع هذا الرباط على النيل خارج مصر القديمة بالقرب من بركة الحبش. وقد عرف باسم رباط الآثار لأن فيه قطعة خشب وحديد قيل إنها من آثار النبي عليه الصلاة والسلام، اشتراها الصاحب تاج الدين بن حنا وأودعها به. (خطط المقريزي: ٢/٤٢٩).

(٤) المعشوق: هو اسم للبستان المذكور. انظر خطط المقريزي: ٢/١٥٩.

ثم آبتدأ توعُّك السلطان ومَرِض مَرَض موته؛ فلمّا كان يوم الأربعاء سادس ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة قَوِي عليه الإسهال، ومَنَع الأمراء من الدخول عليه؛ فكانوا إذا طلعوا إلى الخدمة خرج إليهم السلام مع أمير جاندار عن السلطان فآنصرفوا، وقد كَثُر الكلام. ثم في يوم الجمعة ثامنه خفّ عن السلطان الإسهال، فجلس للخدمة؛ وطلع الأمراء إلى الخدمة ووَجْهُ السلطان متغيّر، فلما آنقضت الخِدمة نُودِي بزينة القاهرة ومصر، وجُمِعت أصحاب الملاهي بالقلعة، وجُمِع الخبزُ الذي بالأسواق، وعُمِل ألف قميص، وتُصُدِّق بذلك كلِّه مع جملة من المال. وقام الأمراء بعمل الولائم والأفراح سروراً بعافية السلطان؛ وعَمِل الأمير مَلِكْتَمُر الحجازيّ نفطاً كثيراً بسوق الخيل تحت القلعة والسلطان ينظره؛ وآجتمع [الناس](١) لرؤيته من كلّ جهة. وقَدِمت عُربان الشرقية بخيولها وقِبابها المحمولة على الجمال ولعِبوا بالرماح تحت القلعة، وخرجت الركَّابة(٢) والكَلاَبِزيّة وطائفة الحجارين والعتّالين إلى سوق الخيل للعب واللهو، وداروا [على](١) بيوت الأمراء وأخذوا الخِلَع منهم، وكذلك الطبلكية(٣) فحصل لهم شيء كثير جدّاً، بحيث جاء نصيبُ مِهتار الطبلخاناه ثمانين ألف درهم. ولما كان ليلة العيد وهي ليلة الأحد عاشر ذي الحجة، وأصبح نهار الأحد آجتمع الأمراء بالقلعة، وجلسوا ينتظرون السلطان حتى يخرج لصلاة العيد، وقد أجمع رأيُ السلطان على عدم صلاة العيد لعَوْد الإسهال عليه، فإنه كان آنتكس في الليلة المذكورة؛ فما زال به الأميرُ قَوْصون والأمير بَشْتَك حتى ركب ونزل إلى الميدان. وأَمَر قاضي القضاة عز الدين [عبد العزيز](٢) بن جماعة أن يُوجِز في خطبته؛ فعندما صَلّى السلطان، وجلَس

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الركابة أو الركابية: هذه التسمية من العصر الفاطمي، وهم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه في المواكب، وكانوا يسمون أيضاً صبيان الركاب الخاص. وعرفوا في عصر المماليك بالسلاح داريّة والطبرداريّة. وكان كبار هؤلاء الركابية يندبون في الأشغال السلطانية، وإذا دخلوا عملاً كان لهم فيه الصيت الذائع. (صبح الأعشى: ٣/٤٨٠) والكلابزية: هم الذين يركبون بكلاب الصيد عند السلطان. ويستعمل هذا اللفظ أيضاً بمعنى الغوغاء من العامة. (ملحق دوزي).

(٣) لعل المراد بهذا اللفظ «الطبّالون».

لسماع الخطبة تحرّك باطنُه، فقام وركب وطلع إلى القصر وأقام يومه به. وبينا هو في ذلك قَدم الخبر من حلب بصحَّة صُلْح الشيخ حسن[١] صاحب العراق مع أولاد صاحب الروم؛ فآنزعج السلطانُ لذلك آنزعاجاً شديداً وآضطرب مِزاجُه، فحصل له إسهال دَمَوِيّ، وأصبح يوم الاثنين وقد مُنع الناس من الاجتماع به. فأشاع الأمير قَوْصُون والأمير بَشْتَك أنّ السلطان قد أعفى أجناد الحَلْقة من التجريد إلى تِبْرِيز، ونُودِي بذلك؛ وفَرِح الناس بذلك فرحاً زائداً، إلا أنه آنتشر بين الناس أنّ السلطان قد آنتكس، فساءهم ذلك.

ثم أخذ الأمراء في إنزال حُرَمِهم وأموالهم من القلعة [حيث سكنهم][٢] إلى القاهرة، فآرتجّت القاهرة ومادت بأهلها. وآستعدّ الأمراء لا سيما قوصون وبَشْتَك، فإن كلًّا منهما آحترز من الآخر وجَمَع عليه أصحابه. وأكثروا من شراء الأزيار والدِّنان وملأوها ماء، وأخرجوا القِرَب والروَّايا والأحواض وحملوا إليهم البَقْسَماط[٣] والرقاق والدقيق والقمح والشعير خوفاً من وقوع الفتنة ومحاصرة القلعة. فكان يوماً مهولاً، ركب فيه الأوجاقية وهجموا الطواحين لأخذ الدقيق، ونهبوا الحوانيت التي تحت القلعة والتي بالصليبة[٤].

هذا وقد تنكّر ما بين قوصون وبشتك، وآختلفا حتى كادت الفتنة تقوم بينهما، وبلغ ذلك السلطان فآزداد مرضاً على مرضه، وكُثر تأوُّهه وتقلُّبه من جنب إلى جنب، وتهوّس بذكر قوصون وبشتك نهاره. ثم استدعى بهما فتناقشا بين يديه في الكلام فأُغْمي عليه، وقاما من عنده على ما هما عليه. فآجتمع يوم الاثنين ثامن

---

(١) هو الشيخ حسن بن الجلايري ـ نسبة إلى قبيلة جلاير بفارس ـ وكان قد أصبح الشخصية البارزة في بلاط أبي سعيد بعد مقتل جوبان وأولاده. ثم أصبح نائب القان أبي سعيد، وهو ابن عمته وزوج بغداد خاتون بنت جوبان. وهو الذي أسس الدولة الجلايرية بفارس بعد وفاة أبي سعيد سنة ٧٣٦هـ. (السلوك: ٢/٢/٣١٠ وحاشية: ٤ بنفس الصفحة).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) البقسماط: خبز جاف هش يتزوّد به المسافر. وفي التركية «بكسماد» وفي الفارسية «بقسمات». (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ٤٢).

(٤) في السلوك: «وسوق صليبة جامع ابن طولون» وانظر خطط المقريزي: ٢/١٠٠،١٠٨.

عشره الأمير جَنْكَلي والأمير آل ملك والأمير سَنْجَر الجاولي وبِيبَرْس الأحمدي، وهم أكابر أمراء المَشُورَة فيما يدبرونه، حتى آجتمعوا على أن يبعث كلٌّ منهم مملوكه إلى قوصون وبشتك ليأخذا لهم الإذن في الدخول على السلطان، فأخذا لهم الإذن، فدخلوا وجلسوا عند السلطان. فقال الجاولي وآل ملك للسلطان كلاماً حاصله أن يعهد بالمُلك إلى أحد أولاده فأجاب إلى ذلك؛ وطلب ولده أبا بكر وطلَب قوصون وبشتك وأصلح بينهما، ثم جعل آبنه أبا بكر سلطاناً بعده، وأوصاه بالأمراء، وأوصى الأمراء به؛ وعهد إليهم ألا يُخرِجوا آبنه أحمد من الكَرَك، وحذّرهم من إقامته سلطاناً. وجعل قوصون وبشتك وصيَّه، وإليهما تدبير أمر آبنه أبي بكر وحلّفهما. ثم حلّف الأمراء والخاصّكيّة وأكّد على ولده في الوصية بالأمراء؛ وأفرج عن الأمراء المسجونين بالشام، وهم: طَيْبُغَا حاجي والجيبغا العادلي وصاروجا، ثم قام الأمراء عن السلطان. فبات السلطان ليلة الثلاثاء وقد تخلّت [عنه] قوته؛ وأخذ في النزع يوم الأربعاء، فآشتدّ عليه كَرْبُ الموت، حتى فارق الدنيا في أوّل ليلة الخميس حادي عشرين ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وله من العمر سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام، فإنّ مولده كان في الساعة السابعة من يوم السبت سادس عشر المحرّم سنة أربع وثمانين وستمائة. وأمه [أشلون] بنت سكتاي[1] بن قرا لاجين بن جفتاي التّتارِيّ. وكان قدوم سكتاي مع أخيه قُرْمُجِي من بلاد التتار إلى مصر في سنة خمس وسبعين وستمائة. ثم حُمِل السلطان الملك الناصر ميّتاً في مَحِفّة من القلعة بعد أن رُسِم بغلق الأسواق، ونزلوا به من وراء السور إلى باب النصر، ومعه من أكابر الأمراء بَشْتَك ومَلِكْتَمُر الحجازيّ وأَيْدُغْمُش أمير آخور؛ ودخلوا به من باب النصر إلى المدرسة المنصوريّة ببين القصرين، فغُسِّل وحُنِّط وكُفِّن من البِيمارِستان المنصوريّ، وقد آجتمع الفقهاء والقُرّاء والأعيان، ودام القرّاء على قبره أيّاماً.

وأمّا مدّة سلطنته على مصر فقد تقدّم أنّه تسلطن ثلاث مِرار؛ فأوّل سلطنته كانت بعد قتل أخيه الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ثلاث وتسعين وستمائة في

(١) في السلوك: «أشلون بنت سَكْتاي بن قراجين بن جيغان».

المحرّم، وعُمره تسع سنين؛ وخُلِع بالملك العادل كَتْبُغا المنصوريّ في المحرّم سنة أربع وتسعين، فكانت سلطنته هذه المرّة دون السنة. ثم توجّه إلى الكَرَك إلى أن أُعِيد إلى السلطنة بعد قتل المنصور حُسام الدِّين لاجين في سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة، فأقام في الملك، والأمر إلى سَلّار وبِيبَرْس الجَاشْنَكِير، إلى سنة ثمانٍ وسبعمائة؛ وخلَعَ نفسه وتوجَّه إلى الكَرَك، وتسلطن بِيبَرْس الجَاشْنَكِير؛ وكانت مدتُه في هذه المرّة الثانية نحو التسع سنين. ثم خُلِع بيبَرْس وعاد الملك الناصر إلى السلطنة ثالث مرّة في شوّال سنة تسع وسبعمائة؛ وآستبدّ من يوم ذاك بالأمر من غير مُعارض إلى أن مات في التاريخ المذكور ــ وقد ذكرنا ذلك كلَّه في أصل ترجمته من هذا الكتاب مفصلاً ــ فكانت مدّة تحكُّمه في هذه المرّة الثالثة آثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوماً. وهو أطول ملوك الترك مدّةً في السلطنة، فإنّ أوّل سلطنته من سنة ثلاث وتسعين وستمائة إلى أن مات نحواً من ثمانٍ وأربعين سنة، بما فيها من أيام خلعه؛ ولم يقع ذلك لأحد من ملوك الترك بالديار المصريّة؛ فهو أطولُ الملوك زماناً وأعظمهم مهابةً وأغزرُهم عقلاً وأحسنهم سياسةً وأكثرهم دهاءً وأجودهم تدبيراً وأقواهم بطشاً وشجاعةً وأحذقهم تنفيذاً؛ مرَّت به التجارب، وقاسى الخطوب، وباشر الحروب، وتقلّب مع الدهر ألواناً؛ نشأ في الملك والسعادة، وله في ذلك الفخرُ والسِّيادة خليقاً للملك والسلطنة؛ فهو سلطان وآبن سلطان وأخو سلطان ووالد ثماني سلاطين من صلبه؛ وآلملك في ذُرّيته وأحفاده وعَقِبه ومماليكه ومماليك مماليكه إلى يومنا هذا، بل إلى أن تنقرض الدولة التركيّة؛ فهو أجلّ ملوك الترك وأعظمها بلا مدافعة، ومَنْ ولي السلطنة من بعده بالنسبة إليه كآحاد أعيان أمرائه.

وكان متجمِّلاً يَقْتَنِي من كلِّ شيء أحسنه. أكثر في سلطنته من شراء المماليك والجواري، وطلب التجّار وبذَل لهم الأموال، ووصف لهم حُليّ المماليك والجواري. وسيَّرهم إلى بلاد أُزْبك خان وبلاد الجَارَكْس[1] والروم. وكان التاجر إذا أتاه بالجلبة من المماليك بذَل له أغلى القِيَم فيهم، فكان يأخُذهم ويُحسِن تربيتهم ويُنعِم عليهم بالملابس الفاخرة والحوائص الذهب والخيول والعطايا حتى يُدْهِشهم،

(١) الجاركس: هم الجركس، وبلادهم على بحر نيطش (البحر الأسود) من الجهة الشرقية.

فأكثر التجار من جَلْب المماليك. وشاع في الأقطار إحسانُ السلطان إليهم؛ فأعطى المُغْلُ أولادهم وأقاربَهم للتجّار رغبةً في السعادة، فبلغ ثمنُ المملوك على التاجر أربعين ألف درهم، وهذا المبلغ جملة كثيرة بحساب يومنا هذا. وكان الملك الناصر يدفع للتاجر في المملوك الواحد مائة ألف درهم وما دونها.

وكان مشغوفاً أيضاً بالخيل فجُلِبت له من البلاد، لا سيّما خيول العرب آل مُهَنّا وآل فضل، فإنه كان يقدّمها على غيرها؛ ولهذا كان يُكْرِم العرب ويبذل لهم الرغائب في خيولهم؛ فكان إذا سَمِع العُرْبان بفَرَس عند بَدَويّ أخذوها منه بأغلى القيمة، وأخذوا من السلطان مِثلي ما دفعوا فيها. وكان له في كلّ طائفة من طوائف العرب عَيْنٌ يَدُلُّه على ما عندهم من الخيل من الفَرَس السابق أو الأصيل، بل ربّما ذكروا له أصْلَ بعضها لعِدّة جُدود، حتّى يأخذها بأكثر مما كان في نفس صاحبها من الثمن. فتمكّنت منه بذلك العُرْبان، ونالوا المنزلة العظيمة والسعادات الكثيرة. وكان يكره خيول بَرْقَة فلا يأخذ منها إلا ما بَلَغ الغاية في الجَوْدة، وما عدا ذلك إذا جُلِبت إليه فرّقها. وكان له معرفة تامّة بالخيل وأنسابها، ويذْكُر من أحضرها له في وقتها؛ وكان إذا آستدعى بفرس يقول لأمير آخور: «الفَرَس الفلانية التي أحضرها فلان وآشتريتُها منه بكذا وكذا». وكان إذا جاءه شيءٌ منها عَرَضها وقلّبها بنفسه، فإن أعجبتْه دفع فيها من العشرة آلاف، إلى أن آشترى «بنت الكرماء» [1] بمائتي[2] ألف درهم؛ وهذا شيءٌ لم يَقَع لأحد من قبله ولا من بعده؛ فإنّ المائتي ألف درهم كانت يوم ذاك بعشرة آلاف دينار. وأمّا ما آشتراه بمائة ألف وسبعين ألفاً وستين ألفاً وما دونها فكثير. وأقْطَعَ آلَ مُهَنّا وآلَ فضل بسبب ذلك عِدّة إقطاعات؛ فكان أحدُهم إذا أراد من السلطان شيئاً قَدِم عليه في معنى أنه يدُلُّه على فَرس عند فلان ويُعَظِّم

(١) في السلوك: ٢/١/١٤٤: «بنت الكزتا» وفي نفس المرجع: ٢/٢/٥٢٦: «بنت الكرتا» بالراء المهملة. وفي نهاية الأرب للنويري: ٣/٩٠ «بنت الكركا». وفي الجوهر الثمين لابن دقماق: ٢/١٧١: «بنت الكردي». وفي حاشية ص ٥٢٦ المذكورة أعلاه من السلوك: «لعلها بنت الكرواء، أي ذات السيقان الدقيقة». وهذه المهرة أحضرها إليه محمد بن عيسى أخو الأمير مهنّا.

(٢) في السلوك: ٢/٢/٥٢٦: «بلغ ثمنها مائة ألف درهم وضيعة بثمانين ألف درهم». وفي نفس المصدر: ٢/١/١٤٨: «بذل فيها السلطان مائتي ألف وتسعين ألف درهم، وضيعة من بلاد حماة. ويقال إنها بلغت كلفها على السلطان ستمائة ألف درهم».

أَمَره، فيكتب من فَوْره بطلب تلك الفَرَس، فيشتدّ صاحبها ويمتنع [من قَوْدها][١] ثم يقترح ما شاء، ولا يزال حتى يبلغ غرضه من السلطان في ثمن فرسه.

وهو أوّل من ٱتَّخذ من ملوك مصر ديواناً للإسطبل السلطانيّ، وعَمِل له ناظراً وشهوداً وكُتَّاباً لضبط أسماء الخيل، وأوقات ورودها وأسماء أربابها، ومبلغ أثمانها ومعرفة سُوّاسها وغير ذلك من أحوالها. وكان لا يزال يتفقّد الخيول، فإذا أُصيب منها فرس أو كَبِر سنُّه بَعَث به مع أحد الأوجاقية إلى الجِشّار[٢] بعد ما يَحْمِل عليها حِصاناً يختاره، ويأمر بضَبْط تاريخه[٣]؛ فتوالدت عنده خيول كثيرة، حتى أغنتْه عن جلب ما سواها. ومع هذا كان يرغب في الفَرَس المجلوب إليه أكثر مّما توالد عنده. فعَظُم العربُ في أيامه لجلب الخيل، وشَمِل الغنى عامّتَهم؛ وكانوا إذا دخلوا إلى مشاتيهم أو إلى مصايفهم يخرجُون بالحُلي والحُلَل والأموال الكثيرة. ولبسوا في أيامه الحرير الأطلس المعدني بالطرز الزركش والشاشات المرقومة ولبسوا الخِلَع البابليّ والإسكندريّ المُطَرّز بالذهب؛ وصاغ السلطان لنسائهم الأطواق الذهب المرصَّع، وعَمِل لهم العناتر[٤] بالأمر الذهب، والأساور المرصَّعة بالجوهر واللؤلؤ، وبعث لهنّ بالقماش السكندري، وعمل لهنّ البراقع الزَّرْكَش، ولم يكن لُبْسُهم قبل ذلك إلا الخَشِنَ من الثياب على عادة العرب. وأجلّ ما لَبِس مُهَنَّا أميرُهم أيام الملك المنصور لاجين طرد وحش، لمودّة كانت بين لاجين وبين مهنّا بن عيسى، فأنكر الأمراء ذلك على الملك المنصور لاجين، فٱعتذر لهم بتقدّم صحبته له وأياديه عنده، وأنه أراد أن يكافئه على ذلك.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الجشار: والجمع جشارات، وهي مكان رعي الماشية من خيل وغيرها. وكان للسلطان مروج خاصة برعي خيله ودوابه. وكان يقال: الاصطبلات الشريفة والجشارات السعيدة. (صبح الأعشى: ١١/١٧١).

(٣) في السلوك: «ويأمر بضبط تاريخ نزوه».

(٤) في الأصل: «العنابر». وفي طبعة دار الكتب المصرية: «العناتر». جمع عنتري، وهو صديري ينزل إلى الركب ويلبس فوق القميص واللباس. ــ وما أثبتناه عن السلوك. والشنابر: جمع شنبر، وهي كلمة فارسية معربة، ومعناها شريط من الحرير الأسود أو الأحمر القاتم عرضه شبران وطوله نحو سبعة أذرع، وتلفّه النساء على رؤوسهن فوق العصابة، بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثاني من مؤخرها (ملحق دوزي).

وكان الملك الناصر في جُشَاره ثلاثة آلاف فرس، يُعْرَض في كلّ سنة نِتاجُها عليه [فيدمغها][١] ويسلّمها للرّكّابين من العُرْبان [لرياضتها][١] ثم يُفَرِّق أكثرها على الأمراء الخاصَّكيّة، ويفرح بذلك ويقول: هذه فلانة بنت فلانة أو فلان بن فلان، عُمرها كذا، وشراء أُمّها بكذا وشراء أبيها بكذا.

وكان يَرْسُم للأمراء في كلٍّ سنة أن يُضَمِّروا[٢] الخيول، ويُرَتِّب على كل أمير من أمراء الألوف أربعة أرؤس يُضَمِّرها. ثم يَرْسُم لأمير آخور أن يُضَمِّر خيلاً من غير أن يفهم الأمراء أنّها للسلطان، بل يُشِيع أنّها له، ويُرسلها للسِّباق مع خيل الأمراء في كلّ سنة. وكان للأمير قُطْلُوبُغَا الفخريّ حِصانٌ أدهمُ، سَبَق خيل مصر كلَّها ثلاث سنين متوالية، فأرسل السلطان إلى مُهَنّا وأولاده أن يُحضِروا له الخيل للسِّباق، فأحضروا له عِدّةً وضُمِّروا، فسبقهم حِصان الفخريّ الأدهم.

ثم بعد ذلك رَكِب السلطان إلى ميدان القَبَق ظاهر القاهرة فيما بين قلعة الجبل وقُبّة النصر، وهو أماكن الترب الآن، وأرسل الخيل للسَّبق، وعِدَّتُها دائماً في كلّ سنة ما يُنِيف على مائة وخمسين فرساً. وكان مُهَنّا بعث للسلطان حجرة شَهْبَاء للسِّباق، على أنها إن سَبَقت كانت للسلطان، وإن سُبِقت رُدّت إليه، بشرط ألاّ يَرْكَبَها للسِّباق إلا بدَوِيُّها الذي قادها إلى مصر. فلمّا ركِب السلطان والأمراء على العادة ووقفوا ومعهم أولاد مُهنا [بالميدان][٣] وأُرسِلت الخيولُ مِن بركة الحاج كما جرت به العادة، ورَكِب البَدَوِيُّ حِجْرة مُهَنا الشهباء عرياً بغير سَرْج، ولبِس قميصاً ولاطئةً[٤] فوق رأسه. وأقبلت الخيول يتبع بعضُها بعضاً والشهباءُ قدَّام الجميع، وبعْدَها على القرب منها حِصانُ الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخور يُعرف بهلال؛ فلمّا وقف البَدَوِيُّ بالشهباء بين يدي السلطان، صاح بصوت ملأ الخافقين: «السعادةُ لك اليوم يا مُهَنّا، لا شقِيتَ»! وألقى بنفسه إلى الأرض من شدَّة التعب؛ فقدَّمها مُهَنّا

(١) زيادة عن السلوك. والمراد أنه كان يسمها بعلامة خاصة به، تطبع عادة بالنار.

(٢) التضمير: ترويض الخيل لتكون صالحة للسباق. فكانت الخيل تربط ويكثّر علفها وماؤها حتى تسمن، ثم يقلّل من مائها وعلفها مدة، ثم تركّض بعد ذلك حتى تهزل وتخفّ أوزانها.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) اللاطئة واللاطيّة: قلنسوة صغيرة تلطأ بالرأس، أي تكون لاصقة بها تماماً.

للسلطان، فكان هذا دَأْب الملك الناصر في كلّ سنة من هذا الشأن وغيره.

قلت: وترك الملك الناصر في جُشاره ثلاثة آلاف فرس، وترك بالإسطبلات السلطانية أربعة آلاف فرس وثمانمائة فرس، ما بين حُجورة ومهارة وفُحولة وأَكاديش؛ وترك من الهُجُن الأصائل والنِّياق نيِّفاً على خمسة آلاف سوى أتباعها. وأما الجِمال النُّقَّر والبِغال فكثير.

وكان الملك الناصر أيضاً شَغُوفاً بالصيد، فلم يَدع أرضاً تُعرف بالصيد إلّا وأقام بها صَيّادين مقيمين بالبريّة أوَان الصيـد. وجلَب طيور الجوارح من الصُّقورة والشواهين والسّناقر والبُزَاة[1]، حتى كثُرت السناقرُ في أيامه. وصار كلُّ أمير عنده منها عشرة سناقر وأقلّ وأكثر. وجعل [له] البازْدَارِيّة[2] وحُرّاسَ الطير، وما هو موجود بعضه الآن، وأقطعهم الإقطاعات الجليلة، وأجرى لهم الرواتب من اللّحم والعَلِيق والكساوي وغير ذلك. ولم يكن ذلك قبله لملك، فترك بعد موته مائة وعشرين سنقراً، ولم يُعهد بمثل هذا لمَلِك قبلِه، بل كان لوالده الملك المنصور قلاوون سنقرٌ واحد؛ وكان المنصور إذا رَكِب في المَرْكب للصيد كان بازداره أيضاً راكباً والسنقر على يده. وترك الملك الناصر من الصُّقورة والشواهين ونحوها ما لا ينحصر كثرة. وترك ثمانين جَوْقَة كلاب بكَلابزيَّتها، وكان أَخْلَى لها موضعاً بالجبل. وعُنِي أيضاً بجمـع الأغنام وأقام لها خَوَلة. وكان يبعث في كلّ سنة الأميرَ آقبغا عبد الواحد في عِدّة من المماليك لكَشْفها، فيكشف المراحات من قُوص إلى الجيزة، ويأخذ منها ما يختاره من الأغنام؛ وجرَّده مرّة إلى عَيْذاب والنُّوبة لجَلْب الأغنام. ثم عَمِل لها حوشاً بقلعة الجبل ــ وقد ذكرنا ذلك في وقته ــ وأقام لها خَوَلة نصارى من الأسْرَى.

وعُنِي أيضاً بالإوزّ وأقام لها عِدّةً من الخدّام، وجعل لها جانباً بحوش الغنم. ولما مات ترك ثلاثين ألف رأس من الغنم سوى أتباعها. فآقتدى به الأمراء وصارت

---

(١) انظر عن هذه الطيور بتفصيل في صبح الأعشى للقلقشندي: ٢/٥٧ وما بعدها.

(٢) البازدارية: جمع بازدار، وهو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدّة للصيد على يده. ــ والحوندارية: جمع حوندار، وهو الذي يتصدى لخدمة طيور الصيد ويحملها إلى موضع تعليم الجوارح. (انظر صبح الأعشى: ٥/٤٦٩ ــ ٤٧٠).

لهم الأغنام العظيمة في غالب أرض مصر. وكان كثير العناية بأرباب وظائفه وحواشيه من أمراء آخوريّة والأوجاقية وغِلْمان الإسطبل والبَازْدَارِيّة والفرّاشين والخَوَلة والطبّاخين. فكان إذا جاء أَوَانُ تفرقة الخيول على الأمراء بعث إلى الأمير بما جَرَت به عادته مما رتبه له في كلّ سنة مع أمير آخور وأوجاقي وسايس وركبدار، ويترقَّب عَوْدَهم حتى يعرف ما أنعم به ذلك الأميرُ عليهم؛ فإن شحّ الأميرُ في عطاياتهم تَنَكَّر عليه وبكَّته بين الأمراء ووبَّخه؛ وكان قرّر أن يكون الأمير آخور بينهم بقسمين ومن عَدَاه بقسم واحد. وكان أيضاً إذا بعث لأميرٍ بطيرٍ مع أمير شِكار أو واحد من البَازْدَارِيّة يحتاج الأمير أن يُلْبِسه خِلْعةً كاملة بحِياصة ذهب وكَلْفَتاه زَرْكَش، فيعود بها ويُقَبِّل الأرض بين يديه فيستدنيه ويُفَتِّش خِلْعته. وكانت عادته أن يبعث في يوم النحر أغنام الضحايا مع الأبقار والنُّوق إلى الأمراء؛ فبعث مرَّة مع بعض خَوَلة النصارى إلى الأمير يَلْبُغَا حارس طيره ثلاثةَ كِباش فأعطاه عشرة دراهم فلوساً وعاد إلى السلطان، فقال له: «وأين خِلْعتك»؟ فطرح الفلوس بين يديه وعرَّفه بقَدْرها، فغضِب وأمر بعض الخدّام أن يسير بالخُوليّ إلى عنده ويُوبِّخه ويأمره أن يُلْبِسه خِلْعة طَرْد وَحْش. وكانت حرمته ومهابته وافرةً قد تجاوزت الحدّ، حتّى إنّ الأمراء كانوا إذا وقفوا بالخدمة لا يجسُر أحدٌ منهم أن يتحدّث مع رَفيقه، ولا يلتفت نحوَه خوفاً من مراقبة السلطان لهم. وكان لا يجسُر أحد أن يجتمع مع خُشْدَاشه في نُزْهة ولا غيرها.

وكان له المواقف المشهودة، منها لمّا لَقِي غازان على فرسخ من حِمْص، وقد تقدّم ذكر ذلك. ثم كانت له الوقعة العظيمة مع التتار أيضاً بَشْقْحَب، وأعزّ الله تعالى فيها الإسلام وأهله؛ ودخلت عساكره بلاد سِيس، وقرّر على أهلها الخراج أربعمائة ألف درهم في السنة بعد ما غزاها ثلاث مرار. وغزا مَلَطْيَة[١] وأخذها وجعل عليها الخراج، ومنعوه مرّة فبعث العساكر إليها حتى أطاعوه. وأخذ مدينة آياس[٢] وخرَّب البرج الأطلس وسبعة حصون وأقطع أراضيها للأمراء والأجناد. وأخذ جزيرة أَرْواد[٣] من الفرنج. وغزا بلاد اليمن وبلاد عَانة وحَديثة في طلب مُهَنّا. وجرّد إلى

(١) ملطية: مدينة شمالي حلب بميلة إلى الشرق على نحو سبع مراحل منها.

(٢) آياس: مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر.

(٣) تقع هذه الجزيرة على مقربة من ساحل الشام مقابل مدينة طرابلس.

مكّة والمدينة العساكر لتمهيدها غير مرّة، ومَنَع أهلها من حمل السلاح بها. وعمَّر قلعة جَعْبَر بعد خرابها، وأجرى نهر حلب إلى المدينة. وخُطِب له بمَارِدِين وجبال الأكراد وحِصْن كَيْفَا وبغداد وغيرها من بلاد الشرق، وهو بكرسيّ مصر. وأتَتْه هدية ملوك الغرب والهند والصين والحبشة والتَّكْرُور[1] والروم والفرنج والتُّرك.

وكان، رحمه الله، على غاية من الحِشْمة والرياسة وسياسة الأمور، فلم يضبط عليه أحدٌ أنّه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدّة غضبه ولا في آنبساطه، مع عظيم ملكه وطول مدّته في السلطنة وكثرة حواشيه وخدمه. وكان يدعو الأمراء والأعيان وأرباب الوظائف بأحسن أسمائهم وأجلّ ألقابهم، وكان إذا غَضِب على أحد لا يُظْهِر له ذلك. وكان مع هذه الشهامة وحبّ التجمُّل مقتصداً في مَلْبَسه، يَلْبَس كثيراً البَعْلَبَكيّ والنَّصَافي المتوسط، ويعمل حياصته فضِة نحو مائة درهم بغير ذهب ولا جوهر، ويركب بسَرْج مُسَقَّط بفضة التي زنتها دون المائة درهم، وعَبَاءَةُ فرسه إمّا تَدْمُريّ أو شامِيّ، ليس فيها حرير.

وكان مُفْرِطَ الذكاء، يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم بأسمائهم، ويُعَرِّف بهم الأمراء خشداشيتهم فيتعجبون[2] الأمراء من ذلك؛ وكذلك مماليكه لا يَغيب عنه آسم واحد منهم، ولا وظيفته عنده، ولا مبلغ جامَكِيَّته، هذا مع كثرتهم. وكان أيضاً يعرف غلمانه وحاشيته على كثرة عَدَدهم، ولا يفوته معرفةُ أحد من الكُتَّاب؛

---

(١) راجع ص ٩٨ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) هذه الصيغة وأمثالها كثيرة الاستعمال في هذا الكتاب؛ كما أنها كانت كثيرة الاستعمال في كتابات العصر المملوكي، خاصة لدى المؤرخين من غير الأصل العربي أمثال ابن تغري بردي وابن إياس، والخطيب الصيرفي وغيرهم. وهي تدل على ركاكة في التركيب اللغوي لدى هؤلاء وعدم تمكنهم من اللغة العربية. ويكفي مطالعة ما كتبوه في التاريخ لنجد لغة هي أقرب إلى العامية منها إلى العربية الفصحى. في حين نجد اللغة والتركيب السليمين لدى المؤرخين ذوي الأصول العربية أمثال المقريزي والقلقشندي وغيرهما. وسوف نلاحظ ركاكة أسلوب مؤرخنا أبي المحاسن في الفصول التي أنشأ لغتها بنفسه ــ أي التي لم ينقلها عن غيره من المؤرخين السابقين ــ وذلك في الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب. هذا علماً أن مؤرخنا كان يعد من بين الفقهاء على المذهب الحنفي، مما يعني أنه لا بدَّ وأن يكون قد حصَّل ثقافة لغوية كافية من ضمن تحصيله للثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية المعروفة.

فكان إذا أراد أن يُوَلِّي أحداً مكاناً أو يرتِّبه في وظيفة آستدعى جميع الكُتَّاب بين يديه وآختار منهم واحداً أو أكثر من واحد من غير أن يراجع فيهم، ثم يقيمه فيما يريد من الوظائف. وكان إذا تغيَّر على أحد من أمرائه أو كُتَّابه أسَرَّ ذلك في نفسه، وتَروّى في ذلك مدة طويلةً وهو ينتظر له ذنباً يأخُذُه به، كما وقع له في أمر كريم الدين الكبير وأرْغُون النائب وغيرهم؛ وهو يَتَأنّى ولا يُعجِّل، حتى لا يُنْسَبَ إلى ظلم؛ فإنه كان يَعْظُم عليه أن يُذْكَر عنه أنه ظالم أو جائر، أو وقع في أيامه خرابٌ أو خلَلٌ، ويَحْرِص على حُسن القالة فيه.

وكان يستبدُّ بأمور مملكته وينفرد بالأحكام، حتى إنه أبطل نيابة السلطنة من ديار مصر ليستقِلَّ هو بأعباء الدولة وحدَه. وكان يكره أن يَقْتدِي بمن تقدّمه من الملوك، فمن أنشأه[١] من الملوك كائناً من كان، ولا يُدْخِلهم المَشُورَة حتى ولا بَكْتَمَر الساقي ولا قَوْصون ولا بَشْتَك وغيرهم، بل كان لا يقتدي إلّا بالقدماء من الأمراء.

وكان يكره شُرْب الخمر ويُعاقب عليه ويُبعد من يشربه من الأمراء عنه. وكان في الجُود والكرم والإفضال غايةً لا تُدرك خارجةً عن الحدّ؛ وَهَب في يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهباً، وأعطى في يوم واحد لأربعة من مماليكه ــ وهم الأمير أَلْطُنْبُغَا المارِدَانيّ ويَلْبُغَا اليَحْيَاوِيّ ومَلِكْتَمُر الحجازِيّ وقَوْصُون ــ مائتي ألف دينار؛ ولم يزل مستمرَّ العطاء لخاصكيته ومماليكه ما بين عشرة آلاف دينار وأكثر منها وأقلّ، ونحوها من الجوهر واللآلىء. وبذل في أثمان الخيل والمماليك ما لم يُسمع بمثله. وجَمَع من المال والجوهر والأحجار ما لم يجمعه مَلِكٌ من ملوك الدولة التركيّة قبله مع فَرْط كرمه.

قلت: كلّ ذلك لحسن تدبيره وعِظَم معرفته؛ فإنّه كان يَدْرِي مواطنَ آستجناء

---

(١) عبارة السلوك: «وكان يكره أن يقتدي بمن تقدّمه من الملوك، ولا يحتمل أن يُذكر عنده ملك». وعبارة المؤلف هنا غير مستقيمة، ونعتقد أنه قد اعتراها نقص أو سقط، كأن يقول: «وكان يكره أن يقتدي بمن تقدمه من الملوك [في استشارة مماليكهم] فمن أنشأهم من المماليك كائناً من كانوا لا يدخلهم المشورة.. إلـخ».

المال فيستجنيه منها، ويعرفُ كيف يصرِفه في محلّه وأغراضه فيصرفه. ولم يُشْهر عنه أنه وَلي قاضٍ في أيامه برشوة، ولا مُحتسِبٌ ولا والٍ، بل كان هو يبذُل لهم الأموال ويُحَرِّضهم على عمل الحق، وتعظيم الشرع الشريف، وهذا بخلاف من جاء بعده؛ فإن غالب ملوك مصر ممن مَلَك مصر بعده يقتدي بشخص من أرباب وظائفه، فيصير ذلك الرجل هو السلطانَ حقيقةً والسلطان من بعض مَنْ يتصرَّف بأوامره؛ وكلُّ ذلك لقِصَر الإدراك وعَدَم المعرفة؛ فلذلك يتركون الأموال الجليلة والأسباب التي يَحْصُلُ منها الألوف المؤلَّفة، ويلتفتون إلى هذا النَّزْر اليسير القبيح الشنيع الذي لا يَرْتَضِيه مَنْ له أدنى هِمَّة ومُرُوءة، وهو الأخذُ من قُضاة الشرع عند ولايتهم المناصب وولاة الحسْبة والشُّرطة؛ وذلك كلّه وإن تكرر في السنة فهو شيء قليلٌ جدّاً، يتعوّض من أدنى الجهات التي لا يُؤْبَهُ إليها من أعمال مصر؛ فلو وقع ذلك لكان أحسن في حقّ الرعيّة وأبرأَ لذمّة السلطان والمسلمين من ولاية قُضاة الشرع بالرشوة، وما يقع بسبب ذلك في الأنكحة والعقود والأحكام وما أشبه ذلك. إنتهى.

وكان الملك الناصر يرغب في أصناف الجوهر، فَجَلبتها إليه التُّجار من الأقطار. وشُغِف بالجواري السَّرَارِي، فحاز منهن كلّ بديعة الجمال. وجهَّز إحدى عشرة آبنة [له] بالجِهاز العظيم، فكان أولهنّ[١] جِهازاً بثمانمائة ألف دينار، [منها][٢] قيمة بَشخَاناه وداير بيت وما يتعلّق به مائة ألف دينار، وبقيّةُ ذلك ما بين جواهر ولآلىء وأواني ونحو ذلك؛ وزوّجهنّ لمماليكه مثل الأمير قَوْصون وَبُشْتَك وأَلْطُنْبُغَا الماردانيّ وطُغَاي تَمُر وعمر بن أَرْغُون النائب وغيرهم. وجهز جماعةً من سراريه وجواريه ومن تَحْسُن بخاطره، كلّ واحدة بقريب ذلك وبمثله وأكثر منه. وآستجدّ النساءُ في زمانه الطَّرْحَة، كلُّ طَرْحة بعشرة آلاف دينار، وبما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار، والفَرَجِيّات بمثل ذلك. وآستجدّ النساءُ في زمانه الخلاخيلَ الذهب، والأطواق المرصّعة بالجواهر الثمينة، والقباقيب الذهب المرصّعة، والأزُر الحرير وغير ذلك.

(١) في السلوك: «فكان أقلّهن جهازاً».
(٢) زيادة عن السلوك.

وكان الملك الناصر كثيرَ الدهاء مع ملوك الأطراف يُهاديهم ويستجلبهم إلى طاعته بالهدايا والتُّحَف، حتى يُذعِنوا له فيستعملهم في حوائجه ويأخذ بعضهم ببعض. وكان يصِل إلى قتل مَنْ يُريد قتله بالفِدَاوِيّة[1] لكثرة بذله لهم الأموال. وكان يُحِبّ العمارة، فلم يزل من حين قَدِم من الكَرك إلى أن مات مستمرَّ العمارة؛ فحُسِب تقديرُ مصروفه فجاء في كلّ يوم مدّة هذه السنين ثمانيةَ آلاف درهم، قُوِّمَ ذلك بطالة على عمل والسفر والحَضَر والعيد والجمعة. وكان يُنفِق على العمارة المائة ألف درهم، فإذا رأى منها ما لا يُعجبه هدمها كلّها وجدّدها على ما يختاره. ولم يكن مَنْ قبله من الملوك في الإنفاق على العمائر كذلك. وقد حُكِي عن والده الملك المنصور قلاوون أنه أراد أن يبني مصطبة عليها رَفْرَفٌ تَقِيه حَرّ الشمس إذا جلس عليها، فكَتَب له الشجاعيّ تقدير مصروفها أربعة الآف درهم؛ فتناول المنصور الورقة من يد الشجاعيّ ومزَّقها وقال: «أَقْعُدُ في مَقْعَد بأربعة الآف درهم! انصبوا لي صِيواناً إذا نزلتُ على المصطبة». ومع هذا كلّه خَلَّف الملك الناصر في بيت المال من الذهب والقماش أضعاف ما خلّفه المنصور قلاوون. وكانت المظالم أيامَ الملك المنصور قلاوون أكثرَ مما كانت في أيام الناصر هذا.

(١) الفداوية: هم طائفة من الإسماعيلية الشيعة المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق؛ فهم يعتقدون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل وليس إلى ابنه موسى، ثم تنقلت في بني إسماعيل. وسموا الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه. ويسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية. وكانوا في الزمن المتقدّم قد علت كلمتهم وقويت شوكتهم واستولوا على عدة من القلاع في بلاد فارس وبلاد الشام. وقد استطاع هولاكو أن يقضي على قلاعهم في إيران، كما أن صلاح الدين كان قد استطاع الحدّ من نفوذهم وسطوتهم في بلاد الشام. وبعد كسر شوكتهم ظلوا يوالون حاكم مصر كائناً من كان. يقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار: «وهم يعتقدون أن كل من حكم مصر كان مظهراً لهم، ولذلك يتولونه ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من النعيم الأكبر بزعمهم. . . ولصاحب مصر بمشايعتهم مزيّة يخافه بها عدوّه، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يقتل بعده؛ ومن بعثه إلى عدوّ له فجبن عن قتله، قتله أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه» وقال القلقشندي: وكانوا في الزمن المتقدم يسمون كبيرهم المتحدّث عليهم تارة مقدم الفداوية، وتاره شيخ الفداوية. وأما الآن فقد سموا أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين. (عن صبح الأعشى: ١/١٥٤ ــ ١٥٨، طبعة دار الكتب العلمية).

قلت: عَوْدٌ وآنعطافٌ إلى ما كُنَّا فيه من أنّ الأصل في تدبير الملك وتحصيل الأموال المعرفة والذكاءُ وجَوْدة التنفيذ. اِنتهى.

قلت: والملك المنصور قلاوون كان أسمح من الملك الظاهر بِيْبَرس البُنْدُقْدارِيّ وأقلَّ ظلماً. والحقُّ يقال ليس الظاهر والمنصور من خَيْل هذا الميدان، ولا بينهما وبين الملك الناصر هذا نسبة في أمر من الأمور. اِنتهى.

هذا على أن الملك الناصر لمّا عَمِل الرَّوْك الناصريّ أبطل مظالَم كثيرة من الضمانات والمكُوس وغيرها حسب ما ذكرناه في وقته، ومع هذا لم يُحسِن عليه مُحسِنٌ. وكان الملك الناصر واسعَ النفس على الطعام، يَعْمَل في سماطه في كلّ يوم الحَلَاوات والمآكل المفتخرة وأنواع الطير؛ وبلغ راتب سِماطه في كل يوم وراتب مماليكه من اللحم ستةً وثلاثين ألف رطل لحم في اليوم، سوى الدجاج والإوزّ والرُّمْسَان[١]والجَدْي المشوي والمِهَارة وأنواع الوحوش كالغِزْلان والأرانب وغيره.

وآستجدّ في أيامه عمائرَ كثيرة منها: حَفْر خليج[٢] الإسكندرية، حفروه في مدّة أربعين يوماً. عَمِل فيه نحو المائة ألف رجل من النواحي. وآستجدّ عليه عِدَّةَ سواقي وبساتين في أراضٍ كانت سباخاً فصارت مزارع قصب سكر وسِمْسِم وغيره. وعُمِّرت هناك الناصرية[٣]، ونُقِل إليها المِقْداد بن شمّاس وأولادُه، وعِدّةُ أولاده مائة ولد ذكر. وآستمرّ الماء في خليج الإسكندرية طول السنة، وفَرِح الناس بهذا الخليج فرحاً زائداً، وعظُمت المنافع به. وأنشأ الميدان[٤] تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغَرَس فيه النخل والأشجار، ولَعِب فيه بالكرة في كلّ يوم ثلاثاء

(١) الرمسان: جمع رميس، وهو الصغير من ولد الضأن. (ملحق دوزي).

(٢) تكلم الأستاذ محمد رمزي على عملية حفر هذا الخليج منذ أيام الظاهر بيبرس إلى اليوم. ــ انظر النجوم الزاهرة: ١٩٣/٧، حاشية (٥) و ١٧٨/٩، حاشية(١) من طبعة دار الكتب المصرية.

(٣) الناصرية: هي القرية المعروفة في العصر الحاضر باسم كفر نكلا التابعة لمركز المحمودية بمديرية البحيرة (محمد رمزي).

(٤) ذكره المقريزي باسم الميدان بالقلعة. (خطط: ٢٢٨/٢). وهو ميدان القلعة، أو الميدان الأسود، أو قره ميدان. ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين، ويقال له المنشية تحت القلعة بالقاهرة. (محمد رمزي).

مع الأمراء والخاصَّكِيّة وأولاد الملوك. وكان الملك الناصر يُجيد لَعِب الكُرة إلى الغاية بحيث إنه كان لا يُدانيه فيها أحدٌ في زمانه إلّا إن كان آبن أَرْغُون النائب. ثم عَمَّر فوق المَيْدان هذا! القصرَ الأَبْلق وأخرب البُرْج الذي كان عَمّره أخوه الأشرف خليل على الإسطبل وجَعَل مكانه القصر المذكور، وعَمَّر فوقه رفرفاً[١] وعّمر بجانبه بُرجاً نَقَل إليه المماليك. وغَيَّر باب النحاس من قلعة الجبل ووسَّع دِهْلِيزَه. وعّمر في الساحة تُجاه الإيوان طِباقاً للأمراء الخاصَّكِيّة، وغَيَّر عمارة الإيوان مَرَّتين، ثم في الثالثة أقرّه على ما هو عليه الآن، وحَمَل إليه العُمُد الكِبار من بلاد الصعيد، فجاء من أعظم المباني الملوكيّة، ورتّب خدمته بالإيوان بأنواع مَهُولة عجيبة مُزْعِجة لمن يَقْدَم من رُسُل الملوك، يطول الشرح في ذكر ترتيب ذلك. ثم رتّب خَدَم القصر ومُشِدِّيه، وما كان يُفْرَش فيه من أنواع البُسُط والستائر، وكيفية حركة أرباب الوظائف فيه.

ثم عَمّر بالقلعة أيضاً دُوراً للأمراء الذين زوَّجهم لبناته، وأجرى إليها المياه وعَمِل بها الحمّامات وزاد في باب القُلَّة من القلعة باباً ثانياً. وعَمّر جامع القلعة والقاعات[٢] السبع التي تُشرِف على المَيْدان لأجل سَرَاريه. وعَمَّر باب القرافة. وكان غالب عمائره بالحجارة خوفاً من الحريق. وعزم على أن يُغَيِّر باب المدرَّج[٣] ويَعْمل له دَرْكَاه[٤] فمات قبل ذلك. وعمَّر بالقلعة حوش الغنم وحوش البَقَر وحوش المِعْزَى فأوسع فيها نحو خمسين[٥] فداناً. وعمَّر الخانقاه بناحية سِرْياقوس ورتَّب فيها مائة صوفيّ لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحَلْوَى وسائر ما يحتاج إليه.

(١) الرفرف هو اسم القصر الذي بناه الأشرف خليل، ثم هدمه الناصر وعمر مكانه القصر الأبلق، وعمر بجانبه برجاً. (خطط المقريزي: ٢١٢/٢). وتقديرنا أن عبارة «وعمَّر فوقه رفرفاً» زائدة لا لزوم لها، وتستقيم العبارة بدون هذا التكرار الذي يشوشها.

(٢) ذكرها المقريزي باسم السبع قاعات (خطط: ٢١٢/٢) وهذه القاعات مكانها اليوم سراي الجوهرة الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية بالقلعة. (محمد رمزي).

(٣) باب المدرّج: هو أقدم الأبواب العمومية وأعظمها بقلعة الجبل.

(٤) الدركاه: لفظ فارسي معناه الساحة ــ أو الفناء أو الحوش ــ المؤدي إلى بناء كبير مثل قصر السلطان أو القلعة. والجمع دركاوات. (صبح الأعشى: ٩٤/٦).

(٥) هذه المساحة أكبر من أن تكون داخل القلعة؛ ولعل القسم الأكبر من هذه الحيشان الثلاثة كان خارج القلعة، أو أن مساحتها جميعاً خمسة أفدنة لا خمسون فداناً.

قلت: وقد صارت الخانقاه الآن مدينة عظيمة. اِنتهى.

قال[١]: وعمَّر القصور بسِرْياقوس، وعَمِل لها بُستاناً حَمَل إليه الأشجار من دِمَشْق وغيرها، فصار بها عامَّةُ فواكه الشام. وحَفَر الخليج الناصريّ خارج القاهرة حتى أوصله بسِرْياقوس، وعمَّر على هذا الخليج أيضاً عِدَّة قناطر[٢]، وصار بجانبي هذا الخليج عِدَّةُ بساتين وأملاك. وعُمِّرت به أرض الطَّبّالة بعد خرابها من أيام العادل كَتْبُغَا. وعُمِّرت جزيرة الفيل وناحية بولاق، بعد ما كانت رمالاً يَرْمِي بها المماليك النُّشَّاب، وتَلْعَب الأمراء بها الكُرَة، فصارت كلُّها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواقاً وبساتين، وبلغت البساتينُ بجزيرة الفيل في أيامه مائةً وخمسين بُستاناً بعد ما كانت نحو العشرين بُستاناً. واتّصلت العمائرُ من ناحية مُنْية[٣] الشّيرج على النيل إلى جامع الخَطِيريّ إلى حِكْر[٤] آبن الأثير وزربية[٥] قَوْصُون وإلى منشأة المِهراني[٦] إلى بركة الحَبَش، حتّى كان الإنسان يتعجّب لذلك؛ فإنه كان قبل ذلك بمدّة يسيرة تِلَالاً ورِمالاً وحَلْفاء، فصار لا يُرى قَدْرُ ذراع إلّا وفيه بناء. كلّ ذلك من محبّة السلطان للتعمير. فصار كلّ أحد في أيامه يفعَل ذلك ويتقرّب إلى خاطره بهذا الشأن، وصار لهم أيضاً غِيَّة في ذلك، كما قيل: الناس على دِين مليكهم؛ بل قيل إنه كان إذا سَمِع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شَكَره في المَلأ وأمدّه في الباطن

---

(١) المراد به المقريزي في كتابه: السلوك. والمؤلف ينقل عنه صفحات إثر صفحات دون أن يصرح باسمه.

(٢) بلغ عدد القناطر التي عمرت على الخليج الناصري المذكور خمس قناطر، ذكر المؤلف منها قنطرتين هما قنطرة الفخر وقنطرة قدادار. والقناطر الثلاث الأخرى هي: قنطرة الكتبة ـ ذكرها المقريزي في الخطط: ١٥٠/٢ ـ وقنطرة باب البحر ـ الخطط: ١٥١/٢ ـ وقنطرة الحاجب ـ خطط: ١٥١/٢ ـ (عن تعليقات محمد رمزي).

(٣) ذكرها المقريزي تحت عنوان منية الأمراء. ويقال لها المنية، ومنية الأمير، ومنية الأمراء. (خطط: ١٣٠/٢).

(٤) منسوب إلى القاضي علاء الدين بن الأثير كاتب السر الذي أنشأ داراً على النيل، وبنى الناس بجواره فعرف ذلك الخط باسم حكر ابن الأثير (خطط: ١٣١/٢).

(٥) انظر الخطط: ١٣١/٢. زربية قوصون مكانها اليوم الأرض التي عليها دار الآثار المصرية وملحقاتها. (محمد رمزي).

(٦) خطط المقريزي: ٣٤٥/١.

بالمال والآلات، وغيرها، فعُمِّرت مصرُ في أيامه وصارت أضعاف ما كانت، كما سيأتي ذكرُه من الحارات والحكورة والأماكن. فمما عُمِّر في أيامه أيضاً القطعة[١] التي فيما بين قُبَّة الإمام الشافعيّ، رضي الله عنه، إلى باب القرافة طولاً وعرضاً بعد ما كانت فضاءً لسباق خيل الأمراء والأجناد والخُدام؛ فكان يحصُل هناك أيّام السِّباق اجتماعات جليلة للتفرُّج على السِّباق إلى أن أنشأ الأميرُ بَيْبُغَا التُّركمانِيّ تربته[٢] بها، وشكَره السلطان. فأنشأ الناس فيه تُرَباً حتى صارت كما ترى.

قلت: وكذا وقع أيضاً في زماننا هذا بالساحة[٣] التي كانت تُجاه تُربة الملك الظاهر بَرْقُوق (أعني المدرسة الناصرية بالصحراء) فإنها كانت في أوائل الدولة الأشرفية بَرْسباي ساحة كبيرة يَلْعَب فيها المماليك السلطانية بالرُّمح، وهي الآن كما ترى من العمائر. وكذا وقع أيضاً بالساحة التي كانت من جامع أَيْدَمُر الخَطِيريّ على ساحل بولاق إلى بيت المَقَرّ الكمال آبن البارِزيّ؛ فإنّ الملك المؤيّد شيخ جلَس في حدود سنة عشرين وثمانمائة ببيت القاضي ناصر الدين آبن البارِزي والد كمال الدين المذكور بساحة بولاق، وساقَتِ الرمّاحة المَحْمِل قدّامه بالساحة المذكورة، وهي الآن كما هي من الأملاك. وكذلك وقع أيضاً بخانقاه سِرْياقُوس وأنّها كانت ساحة عظيمة من قُدّام خانقاه الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة إلى الفضاء، حتى عَمَّر بها الأمير سودون بن عبد الرحمن مدرسته[٤] في حدود سنة ست وعشرين وثمانمائة، فكان ما بين المدرسة العبد الرحمانية المذكورة وبين باب الخانقاه الناصرية ميدانٌ كبير. اِنتهى. وقد خرجنا عن المقصود ولنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر الملك الناصر محمد فنقول أيضاً:

وعَمَّر أيضاً في أيامه الصحراء التي ما بين قلعة الجبل وخارج باب المحروق

(١) المقصود بتلك القطعة المنطقة التي تشمل اليوم جبانات الإمام الشافعي والخريطة القديمة وعرب قريش ومقابر المماليك الواقعة جنوبي قلعة الجبل. (محمد رمزي).

(٢) نسب المؤلف إنشاء هذه التربة إلى بيبغا، في حين أن بيبغا هذا توفي سنة ٧٠٧هـ. والصحيح أن السلطان الناصر بناها له بعد وفاته. (محمد رمزي).

(٣) لا تزال هذه الساحة مشغولة بالترب، وتعرف بمقابر المماليك، ويسميها العامة مقابر الخلفاء وهذا خطأ، لأنه لا يوجد في تلك المنطقة قبر لأحد الخلفاء العباسيين ولا الفاطميين. (محمد رمزي).

(٤) سبق التعليق عليها باسم جامع سودون أو المدرسة العبد الرحمانية. ـ راجع ص ٦٧، حاشية (٢).

إلى تربة الظاهر بَرْقُوق المقدّم ذكرها. وأوّل من عَمَّر فيها الأمير قَرَاسُنْقُر تربته، وعَمَّر بها حوض السبيل يعلوه مسجد. ثم آقتدى به جماعة من الأمراء والخَوَنْدات والأعيان مثل خَوَند طُغاي، عَمَّرت بها تربتها[١] العظيمة، ومثل طَشْتَمُر حمّص أخضر الناصريّ، ومثل طَشْتَمُر طلليه[٢] الناصريّ وغيرهم. وكان هذا الموضع ساحةً عظيمة، وبه مَيْدَان القَبَق[٣] من عهد الملك الظاهر بيبرس برَسْم ركوب السلطان وعمل الموكب به برَسْم سِباق الخيل، فلما عَمَّر قَرَاسُنْقُر تربته عَمّر الناس بعده حتى صارت الصحراء مدينةً عظيمة. وعَمّر الملك الناصر أيضاً لمماليكه عِدّة قصور خارج القاهرة وبها، منها قصر الأمير طُقْتُمر الدِّمشقي بحدرة البقر، وبلغ مصروفُه ثمانمائة ألف درهم. فلمّا مات طُقْتَمُر أنعم به على الأمير طَشْتَمُر حمّص أخضر فزاد في عمارته. ومنها قصر[٤] الأمير بَكْتَمُر الساقي على بركة الفيل بالقرب من الكَبْش، فعَمِل أساسه أربعين ذراعاً وآرتفاعه أربعين ذراعاً فزاد مصروفُه على ألف ألف درهم. ومنها الكَبْش، حيث كان عمارة الملك الصالح نجم الدين أيّوب فعمِلَه الملك الناصر سبع قاعات برَسْم بناته ينزلون فيه للفُرجة على ركوب السلطان للمَيْدان الكبير. لم ينحصر ما أنفقه فيها لكثرته. ومنها إسطبل الأمير قَوْصُون بسوق الخيل تحت القلعة تُجاه باب السلسلة، وكان أصله إسطبل الأمير سَنْجَر البَشْمَقْدار وسُنْقُر الطويل. ومنها قصر بَهَادُر الجوبانِيّ بجوار زاوية البُرْهان الصائغ بالجسر الأعظم تُجاه الكَبْش. ومنها قصر قُطْلُوبُغَا الفخري، وقصر أَلْطُنْبُغَا المارِدَانيّ، وقصر يَلْبُغَا اليَحْيَاوِيّ، وهؤلاء أجلّ ما عَمَّر من القصور، وهم موضع المدرسة الناصريّة الحَسَنِيّة؛ أخذهم الملك الناصر حسن وهدَمهم وعَمَّر مكان ذلك مدرسته المشهورة به. وعَمَّر في أيامه الأمراءُ عِدَّةَ دور وقصور، منها: دار الأمير أيْدُغْمُش أمير آخور، وقَصْر بَشْتَك وغيره.

---

(١) ذكرها المقريزي باسم خانقاه أم آنوك (خطط: ٢/٤٢٥).

(٢) هو سيف الدين طشتمر بن عبد الله الناصري أحد أمراء الألوف المعروف بطلليه. وقيل له طلليه لأنه كان إذا تكلم قال في آخر كلامه: طلليه. ــ انظر حوادث سنة ٧٤٩هـ في الجزء العاشر من هذا الكتاب.

(٣) راجع الجزء السابع، ص ١٦٥، حاشية(٣).

(٤) انظر خطط المقريزي: ٢/٦٨، والخطط التوفيقية الجديدة لعلي مبارك: ٢/٣٢٨.

وكان الملك الناصر له عنايةٌ كبيرة ببلاد الجيزة، حتى إنه عَمِل على كلّ بلد جسراً وقنطرةً، وكانت قبل ذلك أكثر بلادها تَشْرَقُ لعلوّها؛ فعَمِل جسر أُمّ دينار[١]، في آرتفاع آثنتي عشرة قصبة، أقام العمل فيه مدّة شهرين، وهو الذي آقترحه فحَبَس الماءَ حتى ردَّه على تلك الأراضي، وعمَّ النفـع بها جميـعَ أهل الجيزة. ومن يومئذ قَوِي بسبب هذا الجسر الماءُ حتى حَفَر بحراً يتّصل بالجيزة[٢]. وخرج في أراضي الجيزة عِدَّةُ مواضـع وزُرِعت بعد ما كانت شاسعة، وأخذ من هذه الأراضي قَوْصُون وبَشْتَك وغيرُهما عدَّة أراض عمَّروها ووقفوها. وآستجدّ السلطان على بقية الأراضي ثلاثمائة جنديّ.

قلت: هذا وأبيك العمل! وأين هذا من فعل غيره! ينظر إلى أحسن البلاد فيأخذها ويُوقِفها فيخربـها النُّظار بعد سنين؛ فالفرق واضـح لا يحتاج إلى بيان. وهذا الذي أشرنا إليه من أن المَلِك إذا كان له معرفة حصل له أغراضه من جمـع المال من هذا الوجه وغيره، ولا يحتاج لأخذ الرشوة من الحُكّام والإفحاش في أخذ المُكوس وغيرها ومثل ذلك فكثير.

وآستجدَّت في ايام الملك الناصر عِدّةُ أراض[٣] أيضاً بالشرقية ونواحي فُوّة[٤] وغيرها أُقْطِعت للأجناد، وكانت قبل ذلك بسنين كثيرة خراباً لا يُنتفـع بها. وعَمِل أيضاً سدّ[٥] شبين القَصْر فزاد بسببه خراجُ الشرقية زيادةً كثيرة. وعَمِل جسراً[٦] خارج القاهرة حتى ردَّ النيل عن مُنْية الشِّيرج وغيرها، فعَمَّر بذلك عِدّة بساتين

---

(١) أم دينار: قرية من قرى مركز امبابة. بمديرية الجيزة بمصر، واقعة في الشمال الغربي من القناطر الخيرية. (محمد رمزي).

(٢) في السلوك: «يتصل بالحيرة».

(٣) المراد أنه استصلح أراض كثيرة بفضل الترع والقناطر والجسور التي أنشأها.

(٤) من المدن المصرية القديمة. تقع على الشاطىء الشرقي لفرع رشيد في شمال مدينة دسوق. (محمد رمزي).

(٥) ذكره المقريزي باسم جسر شبين القصر (خطط: ٢/١٧٠) وشبين القصر هي التي تعرف اليوم باسم شبين القناطر (محمد رمزي).

(٦) ذكره المقريزي باسم الجسر من بولاق إلى منية الشيرج (خطط: ٢/١٦٦).

بجزيرة الفيل، وأحكم عامّة أراضي مصر قبليّها وبحريّها بالتراع والجسور حتى أتقن أمرها. وكان يركب إليها بَرْسم الصَّيْد كلّ قليل، ويتفقّد أحوالها بنفسه، وينظر في جسورها وتراعها وقناطرها، بحيث إنه لم يَدَع في أيّامه موضعاً منها حتى عَمِل فيه ما يحتاج إليه. وكان له سعدٌ في جميع أعماله، فكان يقترح المنافع من قِبَله، بعد أن كان يُزَهِّده فيما يأمُر به حُذَّاق المهندسين، ويقول بعضهم: «يا خَوَنْد، الذين جاؤوا من قبلنا لو عَلِموا أن هذا يَصِحّ فعلوه»، فلا يَلتفت إلى قولهم، ويَفْعَل ما بدا له من مصالح البلاد، فتأتيه أغراضُه على ما يُحِبّ وزيادة؛ فزاد في أيّامه خراج مصر زيادةً هائلةً في سائر الأقاليم. وكان إذا سَمِع بشراقي بلد أو قرية من القُرَى أَهَمَّه ذلك وسأل المُقْطَعَ بها عن أحوال القرية المذكورة غيرَ مَرّة، بل كلمّا وقع بصرُه عليه؛ ولا يزال يفحص عن ذلك حتّى يَتَوصل إلى ريِّها بكل ما تصِل قدرتُه إليه. كلّ ذلك وصاحبُها لا يسأله في شيء من أمرها، فيكلِّمه بعض الأمراء في ذلك فيقول: «هذه قَرْيتي، وأنا الملزوم بها والمسؤول عنها» فكان هذا دأْبَه. وكان يَفْرَح إذا سأله بعضُ الأجناد في عمل مصلحة بلده بسبب عَمَل جسر أو تَقَاوِي أو غير ذلك، ويَنْبُلُ ذلك الرجلُ في عينه، ويفعَل له ما طَلبه من غير توقُّف ولا ملَل في إخراج المال؛ فإن كلّمه أحد في ذلك يقول: «فلِم نجمع المال في بيت مال المسلمين إلّا لهذا المعنى وغيره!» فهذه كانت عوائده. وكذلك فعَل بالبلاد الشاميّة، حتى إنّ مدينة غَزَّة هو الذي مصَّرَها وجعلها على هذه الهيئة، وكانت قبلُ كآحاد قُرَى البلاد الشاميّة، وجعل لها نائباً، وسُمِّيَ بمَلِك الأمراء، ولم تكن قبل ذلك إلّا ضَيْعة من ضِياع الرملة؛ ومثلها فكثير من قُرَى الشام وحلَب والساحل يطول الشرح في ذكر ذلك.

وأنشأ الملك الناصر بالديار المصريّة المَيْدانَ الكبير على النيل، وخَرَّب مَيْدان اللُّوق الذي كان عَمَّره الظاهر بِيَبْرس وعَمِله بُسْتاناً، وقد تقدّم ذكره. ثم أنعم السلطان بالبستان المذكور على الأمير قَوْصون، فبَنَى قوصون تُجاهَه زَرِيبتَه المعروفة بزريبة قَوْصُون بنياناً ووقَفَه، واقتدى الأمراء بقَوْصون في العمارة. ثم أخذ قَوْصُون بُستان[1] الأمير بَهادُر رأس نوبة، وحكَره للناس، ومساحتُه خمسة عشر فدّاناً، فبنوه

(١) ذكره المقريزي باسم حكر قوصون. (خطط: ٢/١١٥).

دوراً على الخليج، فعُرِف بحكر قَوْصُون. وحكر السلطان حول البِركة الناصريّة[١] أراضي البُستان فعمَّروها الناس وسكنوا فيه. ثم حكر الأمير طُقُزْدَمُر الحمويّ الناصري بستاناً[٢] بجوار الخليج، مساحته ثلاثون فداناً، وبَنَى له قنطرة[٣] عُرِفت به، وعَمِل هناك حمّاماً وحوانيت أيضاً، فصار حِكراً عظيم المساكن.

قلت: وطُقُزْ دَمُر هذا هو الذي جدَّد الخطبة بالمدرسة المُعِزِّيّة الأَيْبَكِيّة على النيل بمصر القديمة.

ثم حكر الأمير آقْبُغا عبد الواحد بستاناً[٤] بِجوَار بِرْكة قارون[٥] ظاهر القاهرة، فعمره عمارة كبيرة، وأخَذ بقيّةُ الأمراء جميعَ ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها، وحَكَرت دَادَةُ السلطان الملك الناصر الستّ حَدَق والستّ مِسْكة القَهْرمانة حِكْرَيْن عُرِفا بهما[٦]. وأنشأت كلُّ واحدة منهما في حكرها جامعاً[٧] تُقام به الجمعة، فزادت الأحكار في أيام الملك الناصر على ستين حِكْراً، وبهذا آتّصلت العمائر من باب زويلة إلى سدّ[٨] مصر، بعد ما كانت ساحة مخيفة. كلُّ ذلك لما علم الناس من حبّ السلطان للعَمْر[٩].

قلت: وعلى هذا زادت الديار المصرية في أيامه مقدار النصف. قال: وعُمرت في أيامه بالديار المصرية عِدّةُ جوامع تُقام فيها الخطب زيادةً على ثلاثين جامعاً،

---

(١) خطط: ٢/١٦٥.
(٢) ذكره المقريزي باسم حكر طقزدمر. (خطط: ٢/١١٦).
(٣) قنطرة طقزدمر. (خطط: ٢/١٤٧).
(٤) ذكره المقريزي باسم حكر آقبغا (خطط: ٢/١١٦).
(٥) في الأصل: «بجوار بركة الفيل» وما أثبتناه عن المقريزي: ٢/١١٦.
(٦) تابع أبو المحاسن هنا خطأ المقريزي حين اعتبر أن حدق ومسكة اسمان لسيدتين، في حين أنهما واحدة. وقد ناقش الأستاذ محمد رمزي هذه المسألة وأيدّ رأيه بالشواهد القاطعة. (انظر النجوم: ٩/١٩٦، حاشية: ٣، طبعة دار الكتب المصرية).
(٧) خطط المقريزي: ٢/٣١٣، ٣٢٦. مع الأخذ بالاعتبار الملاحظة في الحاشية السابقة.
(٨) المقصود قنطرة السد التي كانت على الخليج المصري فيما بين مصر والقاهرة.
(٩) أي العُمران. يقال: عَمَر الدارَ عَمْراً أي بناها.

منها: الجامع الناصريّ بقلعة الجبل، جدّده وأوسعه؛ ومنها الجامع الجديد الناصريّ أيضاً على نيل مصر؛ ومنها جامع الأمير طَيْبَرْس الناصريّ نقيب الجيش على النيل بجوار خانقاته، وقد ذهب أثر هذا الجامع المذكور من سنين؛ ثم عَمَّر طَيْبَرْس المذكور مدرسته[١] المشهورة به بجوار الجامع الأزهر. ولمّا خرِب جامعه المذكور الذي كان على النيل نَقَل الصوفيَّةَ الذين كانوا به إلى المدرسة المذكورة. اِنتهى. ومنها جامع المشهد النفيسيّ لا أعلم من بناه[٢]؛ ومنها جامع الأمير بدر الدين محمد التُّرْكُمانِيّ بالقرب من باب البحر؛ ثم جامع الأمير كَرَاي المنصوري بآخر الحسينية؛ وجامع كرِيم الدين[٣] خلف المَيْدَان؛ وجامع شرف الدين الجاكِي بسُوَيْقة[٤] الرِّيش؛ وجامع الفخر[٥] ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفيل؛ وجامعٌ[٦] آخر خلف خُصّ الكَيَّالة ببولاق؛ وجامعٌ ثالث بالروضة؛ وجامع أمير حسين بالحِكْر[٧]، وبَنَى له قنطرة على الخليج بالقرب منْه؛ وجامع[٨] الأمير قَيْدَان الروميّ بقناطر الإوزّ؛ وجامع[٩] دولة شاه مملوك العلائي بكوم الرِّيش؛ وجامع[١٠] الأمير ناصر الدين الشَّرَابِيشِيّ الحرَّانيّ بالقرافة؛ وجامع[١١] الأمير آقُوش

---

(١) ذكرها المقريزي باسم المدرسة الطيبرسية. (خطط: ٢/٣٨٣).

(٢) الظاهر من كلام المقريزي على هذا الجامع أن الملك الناصر هو الذي أمر بإنشائه. (خطط: ٢/٣٠٦).

(٣) أنشأه كريم الدين عبد الكريم بن إسحاق بن هبة الله بن السديد القبطي المعروف بكريم الدين الكبير ناظر خاص السلطان الناصر محمد بن قلاوون. ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ العبيط في شارع العبيط بخط قصر الدبارة بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٤) مكانها اليوم القسم الشرقي من سكة المناصرة الذي يتوسطه زاوية المصلية بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٥) أنشأه فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش المعروف بالفخر حوالى سنة ٧٣٠هـ. (خطط: ٢/٣١١).

(٦) وجامعٌ آخر، وجامعٌ ثالث: هما أيضاً من إنشاء الفخر ناظر الجيش المذكور في الحاشية السابقة. (انظر نفس الجزء والصفحة من خطط المقريزي).

(٧) ذكره المقريزي باسم حكر جوهر النوبي. (خطط: ٢/١١٩).

(٨) جامع قيدان. (خطط: ٢/٣١٢).

(٩) جامع كوم الريش. (خطط: ٢/٣٢٥).

(١٠) جامع الحرّاني. (خطط: ٢/٣٢٦).

(١١) ذكره المقريزي باسم جامع نائب الكرك. (خطط: ٢/٣١٢).

نائب الكَرَك بَطرَف الحسينية بالقرب من الخليج؛ وجامع[١] الأمير آق سُنْقُر شادّ العمائر قريباً من المَيْدان[٢]؛ وجامعٌ[٣] خارج باب القرافة، عمرّه جماعةٌ من العجم؛ وجامع التَّوْبَة[٤] بباب البَرْقِيّة[٥]، عَمَّره مغُلْطَاي أخو الامير أَلْمَاس؛ وجامع[٦] بنت الملك الظاهر بالجزيرة المستجدّة المعروفة بالوسطانيّة[٧]؛ وجامع[٨] الأمير أُلْمَاس الناصريّ الحاجب بالقرب من حوض[٩] آبن هنس بالشارع الأعظم خارج القاهرة؛ وجامع[١٠] الأمير قَوْصُون الناصريّ بالقرب منه أيضاً على الشارع خارج القاهرة، وله أيضاً جامع[١١] وخانقاه[١٢] خارج باب القرافة؛ وجامع

(١) خطط المقريزي: ٢/٣٠٩. وذكر محمد رمزي أنه أنشىء حوالى سنة ٧٢٥هـ، وهو لا يزال موجوداً ويُعرف باسم جامع أبو طبل.

(٢) يرجح الأستاذ محمد رمزي أن الميدان المشار إليه هنا هو ميدان المهاري. وذكره المقريزي في خططه: ٢/١١٩.

(٣) لم يذكره المقريزي في خططه. وذكره إبراهيم بن مغلطاي في تاريخ سلاطين المماليك. وقد اندثر هذا الجامع وأقيم في مكانه مقابر ضمن جبانة جلال الدين السيوطي الواقعة جنوبي القلعة بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٤) ذكره المقريزي في خططه: ٢/٣٢٦ باسم جامع البرقية، وهو الصواب. أما جامع التوبة فقد ورد ذكره في الصفحة ٧٦ من هذا الجزء. ويظهر أنه لتشابه اسم مغلطاي الفخري منشىء هذا الجامع هنا بمغلطاي الجمالي الذي أنشأ جامع التوبة التبس الأمر على المؤلف. وجامع البرقية المذكور لا يزال موجوداً ويعرف بجامع الغريب نسبة إلى الشيخ محمد الغريب المدفون بجواره. (محمد رمزي).

(٥) باب البرقية: أحد أبواب القاهرة القديمة في سورها الشرقي. أنشأه جوهر القائد سنة ٣٥٩هـ. (خطط: ١/٣٨٠) ويوجد باب آخر باسم باب البرقية في سور القاهرة الشرقي الخارجي، أنشأه صلاح الدين. وهذا الباب الأخير ذكره القلقشندي في صبح الأعشى: ٣/٣٥٤.

(٦) نسب المقريزي إنشاء هذا الجامع إلى الطواشي مثقال خادم السيدة تذكار باي خاتون بنت الملك الظاهر بيبرس. وقد سماه المقريزي جامع الجزيرة الوسطى. (خطط: ٢/٣٢٥).

(٧) الجزيرة الوسطى أو الوسطانية هي نفسها جزيرة أروى التي ورد ذكرها في الصفحة ٩٦ من هذا الجزء.

(٨) جامع ألماس. (خطط: ٢/٣٠٧).

(٩) هذا الحوض أنشأه الأمير سعد الدين مسعود بن هنس بن عبد الله أحد حجاب الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة ٦٤٧هـ. (خطط: ٢/١٣٣).

(١٠) خطط: ٢/٣٠٧.

(١١) خطط المقريزي: ٢/٣٢٥. وذكر المقريزي أنه كان داخل باب القرافة. وتبينّ للأستاذ محمد رمزي أنه كان واقعاً خارجها كما ذكر المؤلف هنا.

(١٢) خانقاه قوصون. (الخطط: ٢/٤٢٥).

الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيرِيّ بساحل بولاق؛ وجامع[١] أخي صارُوجا بشُوَن[٢] القَصَب؛ وجامع[٣] الأمير بَشْتَك الناصريّ على بركة الفيل تُجاه خانقاته[٤]؛ وجامع[٥] الأمير آل ملك بالحُسينية؛ وجامع الست حَدَق الدَّادَة فيما بين السَّد وقناطر السِّباع؛ وجامع السِّتّ مِسْكة[٦] قريباً من قنطرة آق سُنْقُر؛ وجامع الأمير أَلْطُنْبُغا المارِدَانِيّ خارج باب زِويلة؛ وجامع المظفّر[٧] بسُوَيْقِة الجُمَّيْزَة من الحسينية؛ وجامع جَوْهَر[٨] السَّحَرْتِي قريباً من باب الشعرية؛ وجامع[٩] فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة. وغير ذلك من المدارس والمساجد، وهذا كله بديار مصر[١٠].

(١) ذكره المقريزي باسم جامع صاروجا. (خطط: ٢/٣١٥).

(٢) في الأصل: «بسوق القصب». وما أثبتناه عن السلوك.

(٣) ذكره المقريزي باسم جامع بشتاك. (خطط: ٢/٣٠٩) وقال إن عمارته كملت سنة ٧٣٦هـ. وذكر الأستاذ محمد رمزي أن عمارته تمت في رجب سنة ٧٢٧هـ، ويستفاد ذلك من التاريخ المنقوش على باب المئذنة المشرف على سطح هذا المسجد.

(٤) خانقاه بشتاك. (خطط: ٢/٤١٨).

(٥) جامع آل ملك. (خطط: ٢/٣١٠).

(٦) سبق القول أن حدق ومسكة اسمان لامرأة واحدة هي دادة (مربية) السلطان الناصر محمد بن قلاوون (راجع ص١٤٤ من هذا الجزء، الحاشية(٦) . ونضيف هنا عن ابن حجر: «حدث القهرمانة الناصرية. كان الناصر جعل إليها أمور نسائه، فتحكمت في داره تحكماً عظيماً حتى صارت لا يقال لها إلا الست حدق. وحجت مرّة فضرب المثل بما فعلته من الخيرات. وكان يقال لها أيضاً الست مسكة...» (الدرر الكامنة: ٢/٧).

(٧) ذكره المقريزي باسم جامع ابن الفلك. (خطط: ٢/٣٢٦) وذكر الأستاذ محمد رمزي أنه يعرف اليوم باسم جامع البيومي بخط الحسينية بالقاهرة.

(٨) ذكره المقريزي باسم جامع الطواشي. (خطط: ٢/٣٢٥) وذكر الأستاذ محمد رمزي أن هذا الجامع إنما أنشىء بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون بسنتين، أي في سنة ٧٤٣هـ، أنشأه الطواشي جوهر السحرتي اللالا الصالحي في عهد الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، بشهادة اللوحة الرخام المثبتة بأعلى باب هذا الجامع. وهذا الجامع لا يزال موجوداً وعامراً بالشعائر الدينية باسم جامع الطواشي بشارع الطواشي بقسم باب الشعرية بالقاهرة.

(٩) جامع ابن عبد الظاهر. (خطط المقريزي: ٢/٣٢٤) وذكر المقريزي أن هذا الجامع بني سنة ٦٨٣هـ، وأول خطبة أقيمت فيه كانت في يوم الجمعة ٢٤ صفر من السنة المذكورة. وهذا يعني أن بناءه كان في عهد المنصور قلاوون والد الناصر، بخلاف ما يذكره المؤلف هنا.

(١٠) ذكر الأستاذ محمد رمزي مجموعة أخرى من المدارس والجوامع من منشآت عصر الملك الناصر في القاهرة لم يذكرها المؤلف هنا ــ انظر ملاحق هذا الكتاب.

وأما ما بُنِيَ بالبلاد الشامية في أيامه فكثيرٌ جدّاً[1]. وآخرُ ما بناه الملك الناصر السواقي التي بالرَّصد، ومات قبل أن يُكملها. وكان الملك الناصر في آخر أيامه شُغِفَ بحُبّ الجواري المولَّدات وحُمِلْنَ إليه، فزادت عِدَّتُهنّ عنده على ألف ومائتي وَصيفة.

وخلَّف من الأولاد الذكور أبا بكر ومحمداً وإبراهيم وعلياً وأحمد وكجك ويوسف وشعبان وإسماعيل ورمضان وحاجي وحسيناً وحسناً وصالحاً. وتسلطن من ولده لصُلْبه ثمانية: أبو بكر وكجك وأحمد وإسماعيل وشعبان وحاجي وحسن وصالح ثم حسن ثانياً حسب ما يأتي ذكرُ ذلك كله في محلّه إن شاء الله تعالى. وخلَّف من البنات سبعاً.

قال الشيخ صلاح الدين الصفديّ في تاريخه: وكان الملك الناصر مَلِكاً عظيماً محظوظاً مُطاعاً مَهيباً ذا بطشٍ ودهاء وحَزْم شديد وكَيْد مَدِيد، قلَّما حاول أمراً فآنخرم عليه فيه شيءٌ يُحاوِله؛ إلّا أنه كان يأخذ نفسَه فيه بالحزم البعيد والاحتياط. أَمْسك إلى أن مات مائةً وخمسين أميراً. وكان يصبِر الدهرَ الطويل على الإنسان وهو يكرهه. تحدّث مع الأمير أَرْغُون الدَّوادار في إمساك كريم الدين الكبير قبل القبض عليه بأربع سنين، وهَمَّ بإمساك تَنْكِز لَمَّا وَرَد من الحجاز في سنة ثلاث وثلاثين بعد موت بَكْتَمُر الساقي؛ ثم إنه أمهله ثماني سنين بعد ذلك. وكان ملوك البلاد الكِبار يهابونه ويُراسلونه. وكان يتردّد إليه رُسُلُ صاحب الهند وبلاد أُزْبَك خان وملوك الحبشة وملوك الغرب وملوك الفرنج وبلاد الأَشْكُرِي وصاحب اليمن. وأمّا بُو سعيد ملك التَّتار فكانت الرسلُ لا تنقطع بينهما، ويُسَمِّي كُلٌّ منهما الآخر أخاً. وكانت الكلمتان واحدة، ومراسيمُ الملك الناصر تَنْفُذ في بلاد بو سعيد، ورُسُلُه يتوجهون إليه بأطلابهم وطبلخاناتهم بأعلامهم المنشورة. وكان كلما بَعُد الإنسان من بلاده

(١) ذكر المقريزي أنه استجد بدمشق في أيام الناصر عدد من الجوامع منها: جامع كريم الدين، وجامع شمس الدين غبريال، وجامع الأفرم، وجامع تنكز، وجامع يلبغا. (السلوك: ٢/٢/٥٤٥) وفي هذه الجوامع المذكورة على التوالي انظر الدارس في تاريخ المدارس: ٢/٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٥.

وَجَدَ مهابتَه ومكانتَه في القلوب أعظم. وكان سَمْحاً جَواداً على من يُقَرِّبه، لا يَبْخَل عليه بشيء كائناً من كان. سألت القاضي شرف الدين النَّشْوَ: «أأَطْلَق يوماً ألف ألف درهم»؟ قال: «نعم [كي وفي يوم واحد أنعم على الأمير بَشْتَك بألف ألف درهمّ][1] في ثمن قرية يُبْنَى[2] التي بها قبرُ أبي هُرَيْرَة على ساحل الرملة. وأنعم على موسى بن مُهَنّا بألف ألف درهم»، وقال لي (يعني عن النَّشْو): «هذه ورقةٌ فيها ما آبتاعه من الرقيق في أيام مباشرتي»، وكان ذلك من شعبان سنة آثنتين وثلاثين إلى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، فكان جُملتُه أربعمائة ألف وسبعين ألف دينار مصرية. وكان يُنْعِم على الأمير تَنْكِز في كل سنة يتوجَّه إليه إلى مصر، وهو بالباب، ما يزيد على ألف ألف درهم. ولمَّا تزوّج الأميرُ سيف الدين قَوْصون بآبنة السلطان وعَمِل عُرْسَه حَمَل الأمراءُ إليه شيئاً كثيراً؛ فلمّا تزوَّج الأمير سيف الدين طُغَاي تَمُر بآبنته الأخرى، قال السلطان: «ما نعمل [له] عُرْساً، لأن الأمراء يقولون: هذه مصادرة». ونظر إلى طُغَايْ تَمُر وقد تغيَّر وجهُه، فقال للقاضي تاج الدين إسحاق: «يا قاضي! اعمل ورقةً بمكارمة الأمراء لقَوْصُون»، فعَمِل ورقةً وأحضرها، فقال السلطان: «كم الجملة»؟ قال: «خمسون ألف دينار»، فقال: «أَعْطِها لطُغَاي تَمُر من الخِزانة»؛ وذلك خارج عمّا دَخَل مع الزوجة من الجِهاز. وأمّا عطاؤه للعرب فأمر مشهور زائد عن الحدّ. اِنتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفديّ بآختصار. وهو أجدر بأحوال الملك الناصر، لأنه يُعاصره وفي أيامه؛ غير أننا ذكرنا من أحوال الملك الناصر ما خَفِي عن صلاح الدين المذكور نبذةً كبيرة من أقوال جماعة كثيرة من المؤرِّخين. والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن المنهل الصافي.

(٢) يُبنى: وتعرف اليوم باسم يِبْنَة. ويسميها الفرنجة إيبيلين. وهي من أكبر القرى العربية في قضاء الرملة بفلسطين، تقع في منتصف الطريق بين غزة ويافا (الموسوعة الفلسطينية: ٤/٦٢٤).

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة عشر وسبعمائة؛ على أنّه حكم في السنة الماضية من شهر شوّال إلى آخرها.

فيها (أعني سنة عشر وسبعمائة) قَبَض الملك الناصر على الأمير سَلّار وقتله في السجن حسب ما تقدّم ذكره في أصل الترجمة؛ ويأتي أيضاً ذكر وفاته في هذه السنة.

وفيها تُوُفِّيَ العلّامة قاضي القضاة شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السَّرُوجِيّ الحنفِيّ قاضي قضاة الديار المصرية في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر بالمدرسة السيوفيّة بالقاهرة. وكان بارعاً في علوم شتّى، وله آعتراضات على آبن تَيْمِيَّة في علم الكلام، وصنّف شرحاً على الهداية وسمّاه «الغاية» ولم يكمله.

وتُوفِّي الشيخ الإمام العّلامة نجم الدين أحمد بن محمد [بن عليّ بن مُرْتَفِع بن حازم بن إبراهيم بن العبّاس][١] بن الرِّفْعة الشافعي المصري. كان فقيهاً مُفْتَنّاً مفتياً؛ وكان يَلي حِسْبَة مصر القديمة. وشرح التنبيه[٢] والوسيط[٣] في الفقه في أربعين مجلداً. ومات في ثامن عشر رجب ودُفِن بالقرافة. رحمه الله.

وتُوفّي الشيخ رَضِيّ الدين أبو بكر بن محمود بن أبي بكر الرَّقِّيّ الحنفيّ المعروف بالمقصوص. مات بدِمَشْق ودُفِن بالباب[٤] الصغير. وكان فقيهاً فاضلاً عالماً بعِدّة فنون، ودرَّس وأفتى سنين كثيرة.

---

(١) زيادة عن السلوك وشذرات الذهب.

(٢) هو كفاية النبيه في شرح التنبيه، في الفقه الشافعي. (كشف الظنون: ١/٤٩١؛ وفيه أن وفاة ابن الرفعة سنة ٧١٦هـ).

(٣) هو المطلب العالي في شرح وسيط الغزالي، في الفقه الشافعي. (كشف الظنون: ٢/٢٠٠٨؛ ووفاته هنا سنة ٧١٠هـ).

(٤) المراد مقبرة الباب الصغير بدمشق تجاه باب المصلى. (الدارس: ١/٣٤).

وتوفي الشيخ الإمام العلاَّمة قُطْب الدين محمود بن مسعود [بن مُصْلِح][1] الشِّيرازِيّ، كان عالماً بالفلسفة والمنطق والأصول والحكمة، وله فيهم مصنّفات تدّل على فضله. وتولّى قضاء بلاد الروم، ولم يُباشر القضاء؛ ولكن كانت نُوَّابهُ تحكُم في البلاد. وكان معظَّماً عند ملوك التّتار [وكان] من تلامذة النَّصِير الطُّوسِيّ؛ وبه تَخَرَّج في علم الأوائل. وبنى له تربةً بتِبْرِيز، وبها دُفِن.

وتُوفّي الشيخ الأديب الشاعر شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم بن عبد العزيز العَزَازِيّ التاجر بقَيْساريّة[2] جهَارَكس بالقاهرة. مات في هذه السنة ودُفِن [بسَفح] المقطّم. وكان له النظم الرائق، وله ديوان شعر مشهور. ومن شعره في مَلِيح بَدَوِيّ: [الخفيف]

بـدويٌّ كـم حـدّثت مـقـلتـاه عـاشقاً عن مَقَـاتـل الفُـرْسانِ
بـمـحيّـاً يقـول يـا لـهـلالٍ ولحـاظٍ تـقـول يـا لِسَـنـانِ

قلت: ويُعجبني في هذا المعنى قولُ الشيخ علاء الدين الوَدَاعيّ، وهو: [مخلّع البسيط]

أقـبـلَ مـن حَـيِّـه وحَـيّـا فـأشرقتْ سـائـرُ النَّـواحي
فقلتُ يـا وجـهُ مِنْ بَنِي مَنْ؟ فقـال لي مـن بَنِـي صَبَـاحِ

قلت: والعَزَازِيّ هذا هو صاحب الموشَّحَات الظريفة المشهورة، ذكرنا منها عِدّة في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» إذ هو كتاب تراجم.

وتُوفّي الحكيم الأديب البارع شمس الدين محمد بن دانيال [بن يوسف][3] الموصلي، صاحب النُّكَت الغريبة، والنوادر العجيبة؛ وهو مصنّف «كتاب طَيْف الخيال». وكان كثير المُجُون والدُّعَابة؛ وكانت دُكّانه داخل باب الفتوح من القاهرة.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) خطط المقريزي: ٢/٨٧.

(٣) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

ومولده بالمَوْصل سنة ستّ وأربعين وستمائة. ومات في الثامن والعشرين من جُمادَى الآخرة. ومن شعره في صنعته: [السريع]

مـا عـاينتْ عَيْنَـايَ في عُـطْلَتِي أقـلَّ مـن حَـظِّي ولا بَـخْـتِي
قـد بِعتُ عَبْدِي وحِصَاني وقـد أصبحـتُ لا فــوقي ولا تـحتـي

وله في المعنى أيضاً: [السريـع]

يا سائِلي عن حِرْفَتِي في الوَرَى وضَـيْـعَـتِي فـيـهـم وإفـلاسِـي
مـا حـالُ مَـنْ دِرْهَمُ إنـفـاقـه يـأخـذه مـن أعيـن الـنـاسِ

ومن نوادره الظريفة أنّه كان يُلازِم خِدْمة الملك الأشرف خليل بن قلاوون قبل سلطنته، فأعطاه الأشرف فَرساً ليركبه؛ فلمّا كان بعد أيّام رآه الأشرفُ وهو على حِمار زَمِنٍ، فقال له: «يا حكيم، ما أعطيناك فرساً لتركبه»؟ فقال: «نعم يا خَوَنْد، بِعتُه وزدتُ عليه وآشتريتُ هذا الحِمار». فضحِك الأشرف وأعطاه غيرَه. وله في أقطـع: [مجزوء الرجز]

وأَقْـطَـعٍ قـلْتُ لـه هـل أنـتَ لِصٌّ أوحـدُ
فـقـال هـذِي صنـعـةٌ لـم يبـقَ لي فـيـهـا يَـدُ

وتُوفّي الأمير سيف الدين الحاجّ بَهادُر المنصوريّ نائب طَرَابُلُس بها؛ وفَرِح الملك الناصر بموته، فإنّه كان من كبار المنصورية.

وتُوفّي الأمير جمال الدين آقوش [المنصوري](١) المَوْصِليّ المعروف بقتّال السَّبُـع أمير عَلَم. مات بالديار المصريّة ــ وكان من أكابر أمرائها ــ في شهر رجب، ودُفِن بالقرافة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين بُرُلْغِي الأشرفيّ في ليلة الأربعاء ثاني شهر رجب قتيلاً بقلعة الجبل. قيل: إنه مُنِـع الطعامَ والشرابَ حتّى مات؛ ودُفِن بالحسينية خارج باب النصر بجِوار تربة علاء الدين الساقي الأستادار. وكان بُرُلْغِي صِهْر المظفّر

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

بِيبَرْس الجَاشْنَكِير زَوْج آبنته ومن ألزامه. وقد تقدّم ذكرُه فيما مضى في أوّل ترجمة الملك الناصر؛ وفي ترجمة بِيبَرْس أيضاً ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانياً.

وتُوفّي الأمير سيف الدين قَبْجَق المنصوريّ نائب حلب بها في جُمادَى الأولى؛ وحُمِل إلى حَمَاة، ودُفِن بتربته التي أنشأها بعد مرض طويل. وقد تقدّم ذكر قَبْجَق في عِدّة مواطن، فإنّه كانَ ولِي نيابة دِمَشْق، وخرج منها في سلطنة لاجين إلى بلاد التَّتَار، وأقدَم غازانَ إلى دِمَشْق، ثم عاد إلى طاعة الملك الناصر في سلطنته الثانية؛ ثم كان هو القائم في أمر الملك الناصر لمّا خُلِع بالجَاشْنَكِير حتى ردّه إلى مُلْكه.

وتُوفّي الأمير الكبير سَلّار المنصوريّ نائب السلطنة بديار مصر في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر. وقد تقدّم ذكره في أوّل ترجمة الناصر هذه الثالثة، وما وُجِدَ له من الأموال وغير ذلك، فلْيُنظر هناك.

وتُوفّي الأمير نُوغَاي بن عبد الله المنصوريّ القَبْجَاقِيّ المقدّم ذكره في ترجمة الملك المظفّر بِيبَرْس لمّا فارقه وتوجّه إلى الكَرَك إلى عند الملك الناصر محمد. مات بقلعة دِمَشْق محبوساً، ودُفِن بمقابر الباب الصغير، وكان من الشُّجْعان، غير أنه كان يُحِبّ الفِتَن والحروب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يُحَرّر. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثلاث أصابع. وكان الوفاء يوم النَّوْرُوز. والله أعلم.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الناصر الثالثة على مصر

وهي سنة إحدى عشرة وسبعمائة.

فيها تُوفّي الأمير بَكْتُوت الخَازِنْدار، ثم أمير شِكَار، ثم نائب السلطنة بثَغْر الإسكندريّة؛ ومات بعد عزله عنها في ثامن شهر رجب. وأصلـه من مماليك بيليك الخَازِنْدار نائب السلطنة بمصر في الدولة الظاهريّة بِيبَرْس. ثم صار أميرَ شِكار في أيام كَتْبُغَا، ثم وَلِي الإسكندريّة، وكَثُر مالُه، وآختصّ عند بِيبَرْس الجَاشْنَكِير وسَلّار. فلمّا عاد الملك الناصر إلى مُلْكه حَسّن له بَكْتُوت هذا حَفْرَ خليـج الإسكندرية ليستمرّ الماء فيها صيفاً وشتاءً، فَنَدب السلطان معه محمد بن كُنْدُغْدِي المعروف بآبن الوَزيريّ[1]، وفرض العمل على سائر الأمراء فأخرج كـلٌّ منهم أُستادَارَه ورجالَه، ورَكِب وُلاةُ الأقاليم، ووَقـع العمل فيه من شهر رجب سنة عشر وسبعمائة، وكان فيه نحو الأربعين ألف رجل تَعْمَل. وكان قياسُ العمل من فَمِ البحر إلى شَنْبَار[2] ثمانية آلاف قصبة، ومثلها إلى الإسكندرية. وكان الخليج الأصليّ من حَدّ شَنْبَار يدخُل الماء إليه، فجُعِل فمُ هذا البحر يَرْمِي إليه؛ وعُمِل عمقُه ستّ قصبات في عَرْض ثماني قصبات. فلمّا وَصَل الحفرُ إلى حدّ الخليج الأول حُفِر بمقدار الخليـج المستَجدّ وجُعِلا بحراً واحداً، وركّب عليه القناطر. ووُجِد في الخليج من الرّصاص المَبْنيّ تحت الصهاريـج شيءٌ كثيرٌ، فأنعم به على الأمير بَكْتُوت. فلما فَرَغ آبتنى الناسُ عليه سواقي وآستجدّت عليه قريةٌ عُرِفت بالناصِريّة[3]؛ فبلـغ ما أُنشىء عليه زيادة على مائة ألف فدّان ونحو ستمائة ساقية وأربعين قرية، وسارت فيه المراكب الكِبار، وآستغنى أهلُ الثغر عن جَرْي الماء في الصهاريـج. وعُمِّر عليه نحو الألف غيط، وعُمِّرت به عِدَّة بلاد، وتحوّلت الناس إلى الأراضي التي عُمِّرت وسكنوها بعدما كانت سباخاً. فلمّا فَرَغ ذلك آبتنى بَكْتُوت هذا من ماله جسراً أقام فيه ثلاثة أشهر حتّى بناه رصيفاً، وأحدث عليه نحو ثلاثين قنطرة بناها بالحجارة

---

(١) في الأصل: «ابن العزيزي». وما أثبتناه عن المقريزي في السلوك والخطط.

(٢) وتعرف اليوم باسم «أبو حمص» قاعدة مركز أبو حمص بمديرية البحيرة بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٣) وهي كفرنكلا الحالية. (محمد رمزي).

والكِلْس، وعَمِل أساسَه رَصاصاً، وأنشأ بجانبه خاناً وحانوتاً، وعَمل فيه خَفَراً وأجرى لهم الماء(١)؛ فبلغت النفقة على هذا الجسر ستين ألف دينار. وأعانه على ذلك أنّه هَدم قصراً قديماً خارج الإسكندرية وأخذ حَجَره، ووجد في أساسه سَرَباً من رَصاص مَشَوا فيه إلى قرب البحر المالح، فحصّل منه جملةً عظيمة من الرصَّاص. ثم إنه شَجَر ما بينه وبين صِهْره، فسَعَى به إلى السلطان وأغراه بأمواله؛ وكَتَبَ مُسْتَوْفي الدولة أمينُ الملك(٢) عبدُ الله بن الغَنَّام عليه أوراقاً بمبلغ أربعمائة ألف دينار، فعُزِل وطُلِب إلى القاهرة. فلمّا قُرئت عليه الأوراق قال: «قبلوا الأرض بين يدي مولانا السلطان، وعَرِّفوه عن مملوكه [أنه] إن كان راضياً عنه فكلُّ ما كُتِبَ كذبٌ، وإن كان غيرَ راضٍ فكلُّ ما كُتِبَ صحيحٌ». وكان قد وَعَك في سَفَره من الإسكندرية فمات بعد ليالٍ في ثاني عشر شهر رجب فأُخِذ له مال عظيمٌ جدّاً. وكان من أعيان الأمراء وأجلّهم وكرمائهم وشُجعانهم مع الذكاء والعقل والمُرُوءة، وله مسجد خارج باب زويلة، وله أيضاً عدة أوقاف على جهات البِرّ.

وتُوفّي الشيخ المجوِّد المُنشىء الفاضل شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الزرعِيّ المعروف بآبن الوحيد. كان حَسَن الخطّ فاضلاً مِقداماً شُجاعاً، يَعرف عِدّة علوم وأَلْسُن، وخَدَم عند جماعة من أعيان الأمراء، وكَتَبَ في الإنشاء بالقاهرة؛ ثم تعطّل بعد ذلك، ونزل صُوفيّاً بخانقاه سعيد السعداء. فلمّا كانت سنة إحدى وسبعمائة قَدِم رسلُ التّتار إلى مصر ومعهم كتابُ غازان، فلم يكن في المُوَقِّعين من يَحُلُّه فطُلِب فحلّه؛ فرتَّبه السلطان في ديوان الإنشاء إلى أن مات بالبِيمارِستان المنصوريّ يوم الثلاثاء سادس عشرين شعبان، وله ثلاث وستون سنة. ومن شعره في تفضيل الحشيش على الخمر: [الطويل]

وخضراء لا الحمراءُ تفعل فِعْلَها ... لها وَثَباتٌ في الحَشَى وثَباتُ
تأجّجُ ناراً في الحَشَى وهي جَنَّةٌ ... وتُبْدِي مَرِيرَ الطَّعْم وهي نَباتُ

(١) في السلوك: «وأجرى لهم رزقة».
(٢) في السلوك: «أمين الدين».

وتُوفّي الصاحب الوزير فخر الدين عمر آبن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسن بن الحسين الخليليّ التَّمِيميّ الدَّارِيّ بالقاهرة في يوم عيد الفطر، ودُفِن بالقرافة الصغرى. وكان مولده سنة أربعين وستمائة. وَتولّى الوزارةَ في دولة الملك السعيد آبن الظاهر بيبَرْس ثمّ بعدها غيرَ مرّة إلى أن عَزَله الملك الناصر، ومات معزولاً. وكان فاضلاً خَيِّراً ديِّناً كثير الصدقات، عفيفاً عن أموال الرعيّة. رحمه الله.

وتُوفِّي القاضي العلّامة الحافظ سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زَيْد الحَارِثيّ الحنبلِيّ. مات بالمدرسة الصالحيّة بالقاهرة ودُفِن بالقرافة. وكان من أعيان العلماء المحدِّثين. رحمه الله.

وتُوُفّي الشيخ فخر الدين إسماعيل بن نصر [الله][1] بن أحمد بن محمد بن الحسن بن عساكر الدِّمَشْقِيّ. مات بدِمَشْق ودُفِن بالباب الصغير. رَوَى عن جماعة من المشايخ، وكانت نفسه قويَّةً.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العالم الخطيب بجامع أحمد بن طولون شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله بن الجَزَرِيّ الشافعيّ. مات بالمدرسة المُعِزِّيّة بمصر في أوائل ذي الحجّة ودُفن بالقرافة. ومولده سنة سبع وثلاثين وستمائة بالجزيرة؛ وقدِم دِمَشْق وبَرَع في عِدَّة علوم، وعُرِض عليه قضاء دِمَشْق فآمتنع.

وتُوُفّي الشيخ الأديب سِرَاج الدين عمر بن مسعود الحَلَبي المعروف بالمَحّار. وكان أوّلاً صانعاً يمحر[2] الكَتّانَ، ثم آشتغل بالأدب ومهَر فيه؛ وآتّصل بخدمة الملك المنصور صاحب حَمَاة إلى أن مات بدِمَشْق في هذه السنة. وهو صاحب المَوَشَّحات المشهورة. ومن شعره: [الكامل]

لـمّـا تـألّق بـارقٌ مِـنْ ثَـغْـرِه ... جادتْ جُفوني بالسحاب المُمْطِرِ
فكأنّ عقْدَ الدَّمعِ حُلّ قلائدُ الـ ... ـعِقْيانِ منه على صِحَاحِ الجَوْهرِي

وله في مليحٍ نَجّار: [الكامل]

(١) زيادة عن شذرات الذهب والدرر الكامنة.
(٢) الذي وجدناه في معاجم اللغة: حوَّر الثوب بمعنى غسله وبيَّضه.

قالوا المَعَرَّةُ قد غدتْ من فَضْلِها يُسْعَى إلى أبوابها وتُزَارُ
وَجَبتْ زِيارتُها علينا عندما شَغَفَ القلوبَ بحُبِّها(١) النَّجّارُ

ومن مُوَشَّحاته:

ما ناحَتِ الوُرْقُ في الغُصونِ، إلّا هاجتْ على، تغريدِها لوعةَ الحَزينِ
هل ما مَضَى لي مع الحبَايبْ آيب، بعد الصدودْ
أوْ هل لأيّامنا الذَّواهبْ واهِبْ، بأنْ تعودْ
بكلّ مَصْقولةِ الترائبْ كاعبْ، هَيْفاءَ رُودْ
تَفْتَرّ عن جَوْهرٍ ثمينِ، جَلاَّ أن يُجْتَلى، يُحْمَى بقُضْبٍ من الجُفونِ
أحببتُه ناعمَ الشمائلْ مائل، في بُرْدِهِ
في أنفس العاشقين عامل عامل، من قَدِّهِ
يرنو بَطرْفٍ إلى المَقَاتِل قَاتِلْ، في غِمْدِهِ
أَسْطَى من الأسْدِ في العرينِ، فعْلاَ وأقْتَلاَ، لعاشقيه من المَنُونِ
عَلِقته كامل المعَاني عاني، قلبي به
مُبَلْبَلُ البالِ مُذْ جَفَانِي فانِي، في حُبِّه
كم بِتُّ من حيث لا يَرانِي رانِي، لقُرْبه
وبات من صُدْغِه يُريبني، نَمْلاَ يَسْعَى إلى، رُضابِه العاطِرِ المَصونِ
قاسوه بالبَدْر وهو أَحْلَى شكلا، من القَمَرْ
وراشَ هُدْبَ الجُفونِ نَبْلاَ أَبْلَى، بها البَشَرْ
وقال لي وقد تَجَلَّى جَلاَّ، بارئُ الصُّوَرْ
يَنْتَصِفُ البدرُ من جبيني، أَصْلا فقلتُ لا، قال ولا السِّحْرُ من عُيوني

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان وثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً. والله أعلم.

* * *

(١) في فوات الوفيات: «حبيبها».

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة على مصر

وهي سنة آثنتي عشرة وسبعمائة.

فيها تُوفّي قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم [بن إبراهيم][1] بن داود بن حازم الأذْرَعِيّ الحنفيّ بالقاهرة في شهر رجب؛ ومولده بأذْرِعات في سنة أربعين وستمائة. وكان إماماً بارعاً مُفْتّناً عارفاً بالفقه واللغة والعربية والأصول، وأفتَى ودرّس بالشِّبْلية التي على جسر تورا بدِمَشْق، وولي القضاء بها فباشر سنة. وقَدِم القاهرةَ فمات بها في التاريخ المذكور.

وتوفي الشيخ شرف الدين محمد بن موسى بن محمد بن خليل المَقْدِسِيّ الكاتب المنشىء في خامس عشر شعبان بالقاهرة. وكان فاضلاً أديباً شاعراً، إلّا أنّه كان كثيرَ الهِجاء. وكان يُعرف بكاتب أمير سلاح. ومن شعره: [البسيط]

اليومُ يومُ سُرورٍ لا شُرورَ به فزوِّج آبن سحابٍ بآبنةِ العِنَبِ
ما أنصفَ الكَأْسَ من أبدى القَطوبَ لها وثَغْرُها باسمٌ عن لُؤلُؤ الحَببِ

وتُوُفّي الشيخ مجد الدين أحمد بن دَيْلَم بن محمد الشَّيْبِيّ المكيّ شيخ الحجَبَة وفاتح الكعبة بمكّة ودُفن بالمَعْلاَة. ورَوَى عن آبن مَسَدِي والمُرْسِي وغيرِهما.

وتُوُفّي الملك المظفّر شهاب الدين غازي آبن الملك الناصر صلاح الدين داود آبن الملك المعَظم شرف الدين عيسى آبن الملك العادل أبي بكر [محمد] بن أيوب. مات بالقاهرة في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب. ومولدُه بالكَرَك في سنة سبع وثلاثين وستمائة.

وتُوُفّي الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازِي آبن الملك المظفَّر فخر الدين قَرا أَرْسلان آبن الملك السعيد نجم الدين غازي الأرْتُقِيّ صاحب مارِدين وآبنُ صاحبها، وبها كانت وفاته في تاسع شهر ربيع الآخر؛ ودُفِن بمدرسته تحت

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

قلعة مارِدِين، وعمرُه فوق السبعين. وكانت مدَّتُه على مارِدِين نحو العشرين سنة. وكان مَلِكاً مَهِيباً كاملَ الخِلْقة سَمِيناً بَدِيناً عارفاً مُدَبِّراً. وتولّى سلطنة ماردين من بعده ولدُه الملك العادل عليّ سبعةَ عشر يوماً ثم خُلِع وولّي أخوه صالح.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك الشَّيْخِيّ؛ كان من أعيان أمراء دِمَشْق، وبها كانت وفاته.

وتُوفّي الأمير سيف الدين مُغلطايْ البهائيّ بطَرابُلُس. كان قد رَسَم السلطانُ بالقَبْض عليه فوَصَل البريديُّ بذلك بعد موته بيوم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً. وكان الوفاء ثالث أيام النسيء.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة على مصر

وهي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

فيها تُوُفّي القاضي عماد الدين أبو الحسن علي آبن القاضي فخر الدين عبد العزيز آبن القاضي عِماد الدين عبد الرحمن بن السُّكَّرِيّ في يوم الجمعة السادس والعشرين من صفر. وكان فاضلاً فقيهاً. توجَّه رسولاً من قِبل الملك الناصر إلى غازان؛ وولي تدريس مشهد الحُسين بالقاهرة وعِدّةَ وظائف دينية، وولي خطابة جامع الحاكم.

وتوفي الأمير المُسْنِد علاء الدين أبو سعيد بِيَبْرس التُّركيّ العَدِيميّ الحنفيّ بحلب، ودُفِن بتربة آبن العَدِيم، وقد قارب التسعين سنة. وآنفرد بالرواية قَبْل موته، وقُصِد من الأقطار ورَحَل إليه مَن حَدَّث بالكثير.

وتوفي[١] صاحب مَرَّاكُش من بلاد الغرب الأميرُ سليمان بن عبد الله [بن يوسف][٢] بن يعقوب المَرِينيّ، وولي بعده عَمُّه أبو سعيد عثمان بن يعقوب وآستوسق أَمْرُه.

وتُوفّي الخان طُقْطايْ بن مَنْكُوتَمُر بن طُغان[٣] بن باطُو [بن جوجي][٤] بن جِنْكِزخان مَلِك التتار بالبلاد الشمالية بمكان يُسَمَّى كِرْنا على مسافة من مدينة صَرَاي عشرة أيام. وذَكره آبن كثير في السنة الخالية، والصحيح ما قلناه. وكانت مملكته ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وله ثلاثون سنة. وكان شَهْماً شُجاعاً مِقْداماً، وكان على دين[٥] التتار في عبادة الأصنام والكواكب، يُعظِّم الحكماء والأطباء والفلاسفة،

---

(١) ذكر صاحب الأعلام: ١٢٨/٣ وفاته سنة ٧١٠هـ.

(٢) زيادة عن الأعلام.

(٣) في الأصل: «طقطاي». وما أثبتناه عن السلوك.

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) في السلوك: «وكان يعبد الأصنام على دين البخشيّة» والبخشيّة لفظ مغولي من أصل سانسكريتي، ومعناه الكهنة البوذيون. والمقصود به هنا طائفة تدين بالرهبانية والفقر والسحر. (السلوك: ١٣٧/١/٢، والحاشية ٦ من الصفحة).

ويُعظِّم المسلمين أكثرَ من الجميع، غيرَ أنه لم يُسلِم؛ وكانت عساكره كثيرة جداً؛ يقال إنه جَرَّد مرةً من كلّ عشرة واحداً، فبلغت التجريدةُ مائة ألف وخمسين ألفاً. وكانت وفاته في شهر رمضان، ومات ولم يُخلِّف ولداً، فجلس على تخت الملك من بعده أُزْبَك خان بن طغرل[١] بن مَنْكُوتَمر بن طُغان[٢] [بن باطو] بن جِنْكِزْخَان. وكان الذي أعان أُزْبَك خان على السلطنة شخصٌ من أمرائهم من المسلمين يقال له قُطْلُقْتَمُر كان على تدبير ممالكهم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان وسبع أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وسبع أصابع. وكان الوفاء قبل النَّوْرُوز بيوم واحد.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة على مصر

وهي سنة أربع عشرة وسبعمائة.

فيها تُوُفّي الشيخ المعمّر بقيّةُ السَّلفَ محمد بن محمود بن الحسين بن الحسن المَوْصِليّ المعروف بحيّاك الله. مات بزاويته بسُوَيْقة الرّيش خارج القاهرة في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأوّل ودُفِن بالقرافة. وكان شيخاً صالحاً، بلغ عمرُه نحواً من مائة سنة وستين سنة؛ وكان حاضرَ الحِسّ جيِّد القوة؛ وكان يُقْصَدُ للزيارة للتبرّك به؛ وكان كثيرَ الذِّكْر والعِبادة وله محاضرة حسنةٌ وشِعرٌ. ومن شعره من أوّل قصيدة: [الطويل]

إذا الحُبُّ لَمْ يَشْغَلْك عن كلِّ شاغلٍ   فما ظَفِرتْ كفَّاكَ منه بطائِلِ

وتُوُفّي القاضي شرف الدين يعقوب بن مجد[٣] الدين مُظَفَّر بن شرف الدين أحمد بن مُزْهِر بحلب وهو ناظرها[٤]. كان يخدُم عند الأكابر وتنقَّل في خدم كثيرة، حتى إنّه لم تبق مملكة بالشام إلاّ باشرها.

(١) في الأصل: «طغرلجا». والتصحيح عن السلوك.

(٢) في الأصل: «طقطاي». وما أثبتناه عن السلوك.

(٣) في السلوك: «فخر الدين».

(٤) في السلوك: «ناظر حلب ودمشق».

وتُوُفّي القاضي بهاء الدين عليّ بن أبـي سَوَادَةَ الحلبِـيّ صاحب ديوان الإنشاء بحلب، وبها كانت وفاته في نصف شهر رجب. وكان من الصُّدُور الأماثل وعنده فضيلةٌ. وله نظمٌ ونثر. ومن شعره: [البسيط]

جُدْ لِي بأَيْسَرِ وصلٍ منك يا أملِي فالصبرُ قد عاد عنكم غيرَ مُحْتَمَلِ
مـا لي رُمِيتُ بـأمـرٍ لا أُطِيقُ لَـه حَمْلاً وبُدِّلتُ بعد الأَمْن بالوَجَلِ

وتُوُفّي القاضي فخر الدين سليمان بن عثمان آبن الشيخ الإمام صَفِيّ الدين أبـي القاسم محمد بن عثمان البُصْرَوِيّ الحنفيّ محُتَسِب دِمَشْق بها في ذي القعدة. وكان فاضلاً طيِّب العِشْرة.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين مَلِكْتَمُر النّاصريّ المعروف بالدَّم الأسود. كان أميرَ ستين فارساً بدِمَشْق. وكان من الظَّلَمة المُسِرفين على أنفسهم.

قلتُ: ولا بأسَ بهذا اللَّقب الذي لُقِّب به على هذه الصفات التي [هي] غير محمودة.

وتُوُفّي الأمير فخر الدين آقْجُبَا الظّاهريّ أحدُ أمراء دِمَشْق؛ وبها كانت وفاته. وكان خيّراً ديّناً. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين كُهُرْدَاش بن عبد الله الزَّرَّاق، مات أيضاً بدِمشْق. وكان بها أمير خمسين فارساً. وكان سافر مـع السلطان إلى الحجاز، فلمّا زار النبـي صلّى الله عليه وسلّم تاب عن شُرْب الخمر؛ فلمّا عاد إلى دِمَشْق شَرِبه فضربه الفالـج لوَقْته، وبَطَل نصفُه وتعّطل إلى أن مات.

وتُوفّي الأمير سيف الدين سَوْدِي بن عبد الله النّاصريّ نائب حلب. وبها كانت وفاته في نصف شهر رجب. وكان مشكورَ السِّيرة في ولايته محمودَ الطريقة. وهو ممّن أنشأه الملك الناصر محمـد من مماليكـه، وتَوَلّى حلب بعـده الأميرُ علاء الدين أَلْطُنْبُغَا الحاجب.

وتُوُفّي التاجر عِزّ الدين عبد العزيز بن منصور الكُولمي أحد تُجّار الإسكندرية

في شهر رمضان. وكان أبوه يَهُودِياً من أهل حلب يُعرف بالحَمَوِي، فأسلم وتعَلّق آبنه هذا على المَتْجَر وفَتَح الله عليه إلى أن قَدِم إلى مصر ومعه بِضاعة بأربعمائة ألف دينار.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم أربع أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً. وكان الوفاء قبل النَّوْرُوز بأربعة أيام. والله أعلم.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة خمس عشرة وسبعمائة.

فيها تُوفي الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأَرْمَنْتيّ[١] المعروف بآبن الأسعد في يوم الجمعة رابع عشرين شهر رمضان. وكان فقيهاً شافعياً وتولّى القضاء وحسُنت سيرتُه

وتُوُفّي الشيخ الإمام العّلامة جلال الدين إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل ابن برتق[٢] بن برغش بن هارون أبو طاهر القُوصِيّ الفقيه الحنفيّ. كان فقيهاً إماماً بارعاً، تصدّر بجامع أحمد بن طُولُون، وأقرأ الفقه والقراءات والعربية سنين، وآنتفع به الناسُ، وصنّف وحدّث ونَظَم ونَثَر. ومن شعره وهو في غاية الحُسن: [الوافر]

أقولُ له ودَمْعي ليس يَرْقَا ... ولي من عَبْرَتي إحدى الوسائلْ
حُرِمت الطَّيفَ منك بفَيْض[٣] دَمْعي ... فطَرْفِي فيك محرومٌ وسائلْ

وله أيضاً: [الوافر]

(١) نسبة إلى «أَرمَنْت». وهي الآن إحدى قرى مركز الأقصر بمديرية قنا بمصر. (محمد رمزي).
(٢) في السلوك: «بريق بن برعس».
(٣) في السلوك: «ففاض دمعي».

أقــولُ ومَـدْمَعِي قــد حــال بيني وبيـن أحبَّـتي يـوم العتــابِ
رَدَدْتُمْ ســائـلَ الأجفــانِ نَـهْـراً تَعَثَّـرَ وهـو يَجْـرِي في الثِّيابِ

وتوفي قاضي القُضاة تقيّ الدين أبو الفضل سليمان بن حَمْزة بن أحمد[1] بن عُمَر بن قُدَامة المَقْدِسيّ الحنبليّ بقاسِيون في عشر[2] ذي القعدة، ودُفن بتربة جَدِّه شيخ الإسلام أبي عُمر. وكان إماماً عالماً جمع بين العلم والعِبادة، وسَمِع الحديث بنفسه وحدّث بمسموعاته.

وتُوفّي الشيخ الإمام العلاّمة السيد ركن الدين حسن بن محمد بن شَرَف [الدين][3] شَاهْ الحُسَيْنِي الإسْتَرابَادِيّ. كان إماماً مصنفاً عالماً بالمعقول؛ اشتغل على النَّصِير الطُّوسِيّ وحصَّل منه علوماً كثيرة، وصار مُعِيداً في درس أصحابه؛ وقَدِم المَوْصل وولي تدريس المدرسة النُّورية، وبها صنّف غالب مصنَّفاته، مثل: شرح مختصر ابن الحاجب؛ وشرح مقدّمة ابن الحاجب في النحو وهي التي تُسمَّى بالكافية، وعَمِل عليها ثلاثة شروح: كبير ومتوسط وصغير؛ وشَرْح الحاوي في الفقه؛ وشَرْح التصريف لابن الحاجب أيضاً، وهو الذي يُسَمَّى بالشافية؛ وشَرْح المطالع في المنطق؛ وشَرْح كتاب قواعد العقائد؛ وعِدّة تصانيف أُخَر، ذكرناها في غير هذا الكتاب. وكانت وفاته بالمَوْصِل في صفر.

وتُوفّي الشيخ أَصِيل الدين الحسن ابن الإمام العَلاّمة نَصِير الدين محمد بن محمد بـن الحسن الطُّوسي البغداديّ. كان عالَي الهِمّة كبير القَدْر في دولة قازان؛ وقَدِم إلى الشام ورَجَـع معه إلى بلاده. ولما تولّى خَرْبَنْدَا المُلك ووزر تاج الدين علي شاه قرّب أصيل الدين هذا إلى خَرْبَنْدَا، حتى ولاّه نيابة السلطنة ببغداد. ثم عُزِل وصُودِر. وكان كريماً رئيساً عارفاً بعلم النجوم، لكنه لم يبلـغ فيه رتبة أبيه نَصِير الدين الطُّوسِيّ؛ على أنه كان له نظر في الأدبيات والأشعار، وصنّف كتباً كثيرة. وكان فيه خيرٌ وشرّ وعدلٌ وجَوْر. ومات ببغداد.

(١) في السلوك: «سليمان بن حمزة بن محمد بن أحمد بن قدامة».
(٢) في السلوك وشذرات الذهب: «في واحد وعشرين ذي القعدة».
(٣) زيادة عن السلوك.

وتُوُفّي الشيخ الصالح القدوة أبو الحسن عليّ آبن الشيخ الكبير عليّ الحَرِيريّ شيخ الفقراء الحريريّة. كان للناس فيه آعتقادٌ وله حرمة عند أرباب الدولة؛ وكان فيه تواضعٌ وكرم؛ وكانت وفاته ببُصْرَى من عمل دِمَشْق في السابع والعشرين من جُمادَى الأولَى، وله آثنتان وسبعون سنة.

وتُوفّي الأمير بدر الدين موسى آبن الأمير سيف الدين أبي بكر محمد الأُزْكُشِي كان من أكابر الأمراء وشُجعانهم. مات بدمشق في ثامن شعبان ودُفِن عند القُبَيْبَات، وكان شهماً شُجاعاً. ظهَر في نَوْبة غَزْو مَرْج الصُّفَّر مع التَّتار عن شجاعة عظيمة.

وتُوفّي الأمير حُسام الدين قَرَا لاجِين بن عبد الله المنصوريّ الأستادار في الثامن والعشرين من شعبان؛ وأنعم الملك الناصر بإقطاعه على الأمير آقوش الأشرفيّ نائب الكَرَك لمّا أَفْرَج عنه؛ والإقطاع إِمْرَةُ مائة وعشرين فارساً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً. والوفاء تاسع عشرين مسرى. والله أعلم.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الناصر الثالثة على مصر

وهي سنة ست عشرة وسبعمائة.

فيها حجّ بالناس من مصر الأمير بَهَادُر الإبراهيميّ، وأمير الرَّكْب الشاميّ أَرْغُون السِّلاح دار. وحجّ في هذه السنة من أعيان أمراء مصر الأمير أَرْغُون الناصريّ نائب السلطنة بديار مصر، وعِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ، وعز الدين أيدمر أمير جَانْدَار، وسيف الدين أَرِكْتَمُر السِّلاح دار، وناصر الدين محمد بن طُرُنْطاي.

وفيها تُوُفّي الشيخ الكاتب المجوِّد نجم الدين موسى بن عليّ بن محمد الحَلَبِيّ ثم الدِّمَشْقيّ المعروف بابن بُصَيْص (بضمّ الباء ثانية الحروف) شيخ الكُتّاب بدِمَشق في زمانه. وآبتدع صنائع بديعة، وكتَب في آخر عمره خَتْمةً بالذهب

عِوَضاً عن الحِبْر. وكان مولده سنة إحدى وخمسين[1] وستمائة، ومات ليلة الثلاثاء عاشر ذي القعدة. وله شِعْر على طريق الصوفيّة، من ذلك: [الطويل]

وحَقِّك لو خُيِّرتُ فيما أُرِيدُه ... من الخير في الدنيا أو الحظّ في الأخْرَى
لَمَا آخترتُ إلّا حُسْنَ نظمٍ يَرُوقُني ... معانيه أُبْدِي فيه أوصافَك الكُبْرَى

وتُوُفّي الشيخ الإمام العَلّامة صدر الدين أبو عبد الله محمد بن زَيْن الدين عمر بن مَكّي بن عبد الصمد العُثْماني الشهير بابن المُرَحِّل وبآبن الوكيل، المصريّ الأصل الشافعيّ الفقيه الأديب. كان فريدَ عصره ووحيدَ دهره، كان أُعْجوبَةً في الذَّكاء والحِفْظ. ومولده في شوّال سنة خمس وستين وستمائة بدِمْياط؛ وكان بارعاً مدرساً مُفْتَنّاً. درَّس بدِمَشْق والقاهرة وأفتى، وعمُره آثنتان وعشرون سنة، وكان يشتغل في الفقه والتفسير والأصلين والنحو، وآشتغل في آخر عمره في الطبّ، وسَمِع الحديث الكُتُبَ الستة ومسند الإمام أحمد، وصنّف «الأشباه والنظائر» قبل أن يَسْبِقه إليها أحد، وكان حَسَن الشكل، حُلْو المجالسة، وعنده كرمٌ مُفْرِط؛ وله الشِّعر الرائق الفائق في كلّ فنّ من ضروب الشِّعر. وكانت وفاته في رابع عشرين ذي الحّجة ودُفِن بالقرافة في تربة الفخر ناظر الجيش. وهو أحدُ مَنْ قام على الملك الناصر وآنضمّ على المظفَّر بِيَبْرس الجَاشْنَكِير. وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلِّه في أوائل ترجمة الملك الناصر. ومن شعره: [الكامل]

أَقْصَى مُنَايَ أن أَمُرَّ على الحمى ... ويلوحُ نَورُ رِياضِه فَيفُوحُ
حتّى أرِي سُحْبَ الحمى كيف البُكَا ... وأُعَلِّم الوَرْقَاءَ كيف تَنُوحُ

وله [دُوبيت]:

كَمْ قال: مَعَاطِفِي حَكَتْها الأَسَلُ ... والبيضُ سَرَقْنَ ما حوتْه المُقَلُ
الآن أوامِري عليهم حَكَمَتْ ... البِيضُ تُحَدُّ والقَنَا تُعْتَقَلُ

وله: [الكامل]

---

(١) في الأصل: «إحدى وعشرين وستمائة» وما أثبتناه عن الدرر الكامنة والبداية والنهاية.

عَيَّرتني بالسُّقْم طَرْفُك مُشْبِهي وكذاك خَصْرُك مثل جِسْمي ناحلا
وأراك تشمَت إذ أتيتُك سائلاً لا بُدَّ أن يأتي عِذَارُك سائلا

قلت: وله ديوان موشّحات، وأحسنهم موشحته التي عارض بها السِّرَاج المَجّار التي أوّلها:

مَا أَخْجَلَ قَدُّه غصونَ البانِ، بين الوَرَقِ إلّا سَلَبَ المَهَا مع الغِزْلانِ، سُودَ الحَدَق

وقد ذكرناها بتمامها في تاريخنا «المنهل الصافي» وقطعة جيّدة من شعره.

وتُوُفّي الشيخ الأديب البارع المفتَنّ أُعْجوبة زمانه علاء الدين عليّ بن المظفَّر بن إبراهيم [بن عُمر](١) الكِنْدِي الوَدَاعِيّ المعروف بكاتب آبن وَدَاعة الشاعر المشهور، أحد من آقتدى به الشيخ جمال الدين آبن نَباتة في مُلَح أشعاره. مولده سنة أربعين وستمائة، ومات بُبستانه في سابع شهر رجب بدِمَشْق ودُفِن بالمِزَّة. وكان فاضلاً أديباً شاعراً عَالِيَ الهمة في تحصيل العلوم. سَمِع الحديث، وكَتَب الخطّ المنسوب، ونَظَم ونَثَر، وتولى عِدَّة ولايات، وكتَب بديوان الإنشاء بدِمَشْق، وتَوَلّى مشيخة دار الحديث [النَّفِيسِيّة](٢) وجمع «التذكرة(٣) الكِنْدِيّة» تزيد على خمسين مجلداً. وله ديوان شعر في ثلاثة مجلدّات. ومن شعره: [الخفيف]

قال لِي العاذِلُ المُفَنِّدُ فيها يومَ زارتْ فَسَلَّمتْ مُخْتَالَهْ
قم بنَا نَدَّعِ النبوَّة في العِشْـ ـقِ فقد سَلَّمتْ علينا الغزالهْ

وله أيضاً: [الخفيف]

أثخنتْ عَيْنُها الجِراحَ ولا إثْـ ـمَ عليها لأنَّها نَعْسَاءُ
زاد في عشقها جنوني فقالوا ما بِهذا فقلت بي سَوْدَاءُ

(١) زيادة عن البداية والنهاية والدارس في تاريخ المدارس.
(٢) زيادة عما سبق. وكانت بدمشق قبلي المارستان الدقاقي وباب زيادة عن يمنة الخارج منه، شمالي غربي المدرسة الأمينية. (الدارس).
(٣) وهي في علوم مختلفة أكثرها أدبيات. (البداية والنهاية).

وله، وهو أحسنُ ما قيل في نوع التوجيه(١): [البسيط]

مَنْ زار بابَك لم تَبْـرَحْ جوارِحُـهُ تَرْوِي أحاديثَ ما أَوْلَيْت من مِنَنِ
فالعينُ عن قُرَّةٍ والكَفُّ عن صِلةٍ والقلبُ عن جابرٍ والسمـعُ عن حَسَنِ

وله أيضاً: [الخفيف]

قيل إن شئتَ أن تكون غنيـاً فتــزوَّج وكن من المُحْصنينـا
قلتُ مـا يقـطـع الإلــه بحـرٍّ لم يضـع بين أظهر المسلمينا

وقد ذكرنا من مقطّعاته عِدَّةً كثيرة في «المنهل الصافي»، ولولا خشية المَلَل لذكرناها هنا.

وتُوُفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله المنصوريّ المعروف بـالأَفْرم الصغير نائب الشام ببلاد مَراغة عند ملك التّتار. وقد تقدّم خروجُه مـع الأمير قَراسُنْقُر المنصوريّ من البلاد الشاميّة إلى غازان مِلِك التتار في أوائل دولة الملك الناصر الثالثة فلا حاجة في ذكرها هنا ثانياً. وكان مَلِك التتار أقطعه مَرَاغَةَ ــ وقيل هَمَذان ــ فأقام بها سنتين، ومات بالفالـج في ثالث عشر المحرّم. وكان أميراً جليلاً عارفاً مُدَبِّراً عاليَ الهِمَّة شُجاعاً مِقْداماً. تقدّم من ذكره نبذةٌ كبيرة في ترجمة المظفَّر بِيْبَرس الجاشْنَكِير. وكانت ولايته على دِمَشْق إحدى عشرة سنة متوالية إلى أن عَزَله الملك الناصر لمّا خرج من الكَرَك.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين كُسْتَاي بن عبد الله نائب طرابُلُس بها. وتَوَلَّى نيابة طرابُلُس من بعده الأميرُ قَرطاي نائب حِمْص. وولي حِمص بعد قَرطاي المذكور أُرُقْطاي الجَمَدار.

وتُوفّي الأمير سيف الدين طُقْتَمُر الدمشقيّ بالقاهرة بمرض السّل. وكان من خواصّ الملك الناصر، وأحد من أنشأه من مماليكه.

وتُوفّي الطواشي ظَهِير الدين مختار المنصوريّ المعروف بالبلبِيسيّ الخازندار

(١) التوجيه في البلاغة هو إيراد الكلام محتملًا لوجهين مختلفين.

في عاشر شعبان بدِمَشْق. وكان شهماً شجاعاً دَيِّناً. فرّق جميع أمواله قبل موته على عُتقائه ووقَفَ أملاكه على تُربته.

وتُوُفِّيت السيّدة المعمَّرة أُمّ محمد ستّ الوزراء المعروفة بالوزيرة آبنة الشيخ عمر بن أسعد بن المُنَجَّا التَّنُوخِيّة في ثامن عشر شعبان بدِمَشْق؛ ومولدها سنة أربع وعشرين وستمائة. رَوَتْ صحيح البخاريّ عن [أبي عبد الله][١] الزَّبيدِيّ، وصارت رُحْلَة زمانها؛ ورُحِل إليها من الأقطار.

وُتُوفّي مَلِك التتار خَرْبَنْدا (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وسكون النون) بن أَرْغُون بن أَبْغَا بن هولاكو بن تُولُو بن جِنْكِزخان السلطان غِياث الدين، ومن الناس من يُسَمِّيه خُدَابَنْدَا (بضم الخاء المعجمة والدال المهملة) والأصح ما قلناه. وخُدَابَنْدَا: معناه عبد الله بالفارسيّ؛ غير أن أباه لم يُسَمِّه إلاّ خَرْبَنْدَا، وهو آسم مهمَل معناه: عبد الحمار. وسبُب تسميته بذلك أنّ أباه كان مهما وُلِد له ولدٌ يموت صغيراً، فقال له بعض الأتراك: «إذا جاءك ولد سَمِّه آسماً قبيحاً يعِش» فلما وُلِد له هذا سَمّاه خَرْبَنْدا في الظاهر واسمه الأصلي أبحيتو[٢]؛ فلما كَبِر خَرْبَنْدا ومَلَك البلادَ كَرِه هذا الاسم وآستقبحه فجعله خُدابَنْدا، ومشى ذلك بمماليكه، وهَدَّد مَن قال غيَره، ولم يُفده ذلك إلا من حواشيه خاصّةً. ولما مَلَك خَرْبَنْدا أسلم وتَسَمَّى بمحمد، وآقتدى بالكتاب والسُّنة، وصار يُحِب أهل الدين والصلاح. وضَرَب على الدرهم والدينار آسم الصحابة الأربعة الخلفاء، حتى آجتمع بالسيد تاج الدين الآوِي الرافضيّ، وكان خبيثَ المذهب، فما زال بخَرْبَنْدا، حتى جعله رافضياً وكتب إلى سائر مماليكه يأمرهم بالسّب والرّفْض، ووقع له بسبب ذلك أمورٌ[٣]. قال النُّوَيْريّ: كان خَرْبَنْدَا قبل موته بسبعة أيام قد أمر بإشهار النداء ألاّ

---

(١) زيادة عن الأعلام.

(٢) الصواب: «أولجايتو».

(٣) انظر عن أسباب تسميته بخربندا وخدابندا ومعانيها، وعن إسلامه وتشيّعه، ما كتبناه في الجزء ، ص ، حاشية . ونضيف إلى ذلك قول السيّد محسن الأمين العاملي في كتابه: أعيان الشيعة، المجلّد السادس، ص ٣١٦ «. . ويعرف بخزبندا ــ بالزاي ــ ومعناه بالمغولية الثالث؛ وما في الدرر الكامنة من أنه يعرف بخدابندا أي عبد الله ليس بصواب، لأن خُدابنده بالهاء وهذا بالألف».

يُذْكَر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعَزَم على تجريد ثلاثة الآف فارس إلى المدينة النبوية لينقُل أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من مدفنهما؛ فعجَّل الله بهلاكه إلى جهنّم وبئس المصير، هو ومَن يعتقد مُعْتَقَدَه كائناً من كان. وكان موته في السابع والعشرين من شهر رمضان بمدينته التي أنشأها وسمّاها السلطانيّة[1] في أرض قُنْغُرْلَان بالقرب من قَزْوِين. وتسلطن بعده ولده بُوسعيد في الثالث عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة سبع عشرة وسبعمائة، لأنه كان في مدينة أُخرى وأُحْضِر منها وتسلطن.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة سبع عشرة وسبعمائة.

فيها تُوفّي قاضي القضاة جمال الدين أبو عبد الله محمد آبن الشيخ أبي الربيع سليمان بن سُوَيْد الزَّوَاوِيّ المالكي قاضي دِمَشْق بها، في التاسع من جُمَادى الأولى. وكان فقيهاً عالماً عاليَ الهمّة محدِّثاً بارعاً مشكورَ السِّيرة في أحكامه.

وتُوفّي القاضي الرئيس شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب بن جمال الدين فضل الله بن المُجَلِّي القُرَشِيّ العَدَوِي العُمَرِيّ، كاتب السر الشريف بدِمَشْق في

(١) صوابه: «قنقر أولنج» أو «قنقر أولنك» ومعناه لدى المغول الأرض التي بنيت عليها السلطانية. ولما أنشأ أولجايتو مدينة السلطانية، أقام فيها وزيره المؤرخ الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني ضاحية تضم ألف بيت. وكان من بين عمائرها مسجد فخم تحليه منارتان عظيمتان، وينتهي بمقصورة تشرف عليه. وكان فيها أيضاً مدرسة ومستشفى وزاوية. وقد خصصت مبالغ ضخمة لدفع رواتب المدرسين والتلاميذ والأطباء. (جامع التواريخ: المجلد الثاني، الجزء الأول، ص ١٩، ٢٠ من المقدمة التي وضعها كاترمير).

ثالث رمضان ودُفِن بسفح قاسِيون. ومولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة. وكان إماماً في كتابة الإنشاء، عارفاً بتدبير الممالك، مليح الخطّ، غزير العقل، وخَدَم عدة سلاطين؛ وكان كاملاً في فنّه، لم يكن في عصره من يُدانيه ولا يُقاربه. ومن شعره ما كتبه للشهاب محمود في صدر كتاب: [البسيط]

كتبتُ والقلب[1] يُدْنِيني إلى أَمَلٍ   من اللِّقاء ويُقْصِيني[2] عن الدارِ
والوَجْدُ[3] يُضْرِم فيما بين ذاك وذا   من [4] الجَوانِح أجزاءً من النارِ

وتُوفّي الأديبُ الفاضل شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن أبي المحاسن يعقوب بن إبراهيم بن أبي نصر الطِّيبِي الأَسَدِيّ بطرابُلُس في سادس رمضان. ومولده في سنة تسع وأربعين وستمائة. وكان كاتب الدَّرج بطرابلس، وكان فاضلاً ناظماً ناثراً. ومن شعره: [البسيط]

ما مسّني الضَّيْمُ إلّا من أَحِبَّائي   فليتني كنتُ قد صاحبتُ أعدائي
ظننتهم لي دواءَ الهَمِّ فٱنقلبوا   داءً يَزِيد بهم هَمِّي وأَدْوَائي
مَن كان يشكو من الأعداء جَفْوَتَهم   فإنّني أنا شَاكٍ من أَوِدَّائي

وتُوفّي الأمير أَرْسلان الناصريّ الدَّوَادَار في الثالث والعشرين من شهر رمضان؛ وكان هو وعلاء الدين آبن عبد الظاهر صديقين، فَمرِضا في وقت واحد بعِلَّة واحدة، وماتا في شهر واحد. وخَلَّف أَرْسلان جملةً كثيرة من المال آستكثرها الملك الناصر على مثله. وكان من جملة أمراء الطبلخاناه، وآستقرّ عوضَه دَوَادَاراً الأميرُ أُلْجَاي الدوادار الناصريّ. وفي أَرْسلان هذا عَمِل علاء الدين آبن عبد الظاهر كتابه المُسَمَّى «بمَراتِع الغِزْلان».

(١) في فوات الوفيات: «والشوق».
(٢) في الفوات: «ويثنيني».
(٣) في الفوات: «والحب».
(٤) في الفوات: «بين».

وتُوفّي الأمير سيف الدين قُلّي السِّلاح[١] دار بالقاهرة. وكان من أعيان أمراء الديار المصرية؛ وأنعم السلطان بإقطاعه ومنزلته على الأمير جَنْكَلي بن البابا.

وتُوفّي الأمير سيف الدين أَلْدكز بن عبد الله السِّلاح دار صِهْر الأمير علم الدين سَنْجَر الشُّجَاعِيّ، ومات في الحبس.

وتُوفّي الأمير سيف الدين أَلِكْتَمُر بن عبد الله صِهْر الأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدار أيضاً في الحبس حَتْفَ أنفه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً سواء. وكان نِيلاً عظيماً غَرِقت منه عدّةُ أماكن. والله أعلم.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة ثماني عشرة وسبعمائة.

فيها تُوُفّي قاضي القضاة زَيْن الدين أبو الحسن عليّ آبن الشيخ رَضِيّ الدين أبـي القاسم مخلوف بن تاج الدين ناهض المالكيّ النُّوَيْرِيّ في يوم الأربعاء ثامن عشر جُمَادَى الآخرة بمصر، ودُفِن بسفح المقطّم. ومولده في سنة عشرين وستمائة. وكان فقيهاً دَيِّناً خَيِّراً حَسن الأخلاق. وولي القضاء بديار مصر في سنة خمس وثمانين وستمائة، فكانت مدّةُ ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة تقريباً. وعُرِضت عليه الوزارة في الدولة المنصوريّة لاجين فأباها خَوْفاً من علم الدين [سَنْجَر] الشُّجاعيّ، وتولّى بعده القضاءَ نائبُهُ تقيّ الدين محمد بن أبـي بكر بن عيسى [بن بـدران[٢] الأخنائي].

(١) السلاح دار (السلحدار) هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته. ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٦، ٤٦٢).

(٢) في الأصل والسلوك: «ابن عتيق» وما أثبتناه عن الدرر الكامنة والبداية والنهاية والأعلام.

وتُوُفّي الشيخ الإمام الزاهد بقيّة السّلَف أبو بكر آبن الشيخ المُسْنِد المُعَمَّر زَيْن الدين أبي العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر المَقْدسيّ الحنبليّ. سَمِع الكثير وحدّث. وكان شيخاً كثيرَ التّلاوة والصلاة على النبِيّ ﷺ، وحدَّث في حياة والده. ومولده سنة ست وعشرين وستمائة؛ وقيل سنة خمس وعشرين. ومات ليلة الجمعة التاسع والعشرين من رمضان.

وتُوفّي الأمير علاء الدين أقطوان الساقي الظاهري في عاشر شهر رمضان بدِمَشْق، وقد جاوز الثمانين سنة. وكان رجلاً صالحاً مواظِب الجماعات، ويقوم اللّيل.

وتُوفّي الأمير عِزّ الدين طُقْطَاي الناصريّ. كان نائبَ الكَرَك فتمرَّض فعُزِل عن الكَرَك، وتوجَّه إلى دِمَشْق ليتَدَاوَى بها فمات في رابع عشر شعبان.

وتُوفّي الأمير سيف الدين منكبرس[1] نائب عَجْلُون. كان من قدماء المماليك المنصوريّة، وكان معظَّماً في الدول وله حُرمةٌ وافرة.

وتوفي الشيخ كمال الدين أحمد بن أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سُجْمان البَكْريّ الوَائِلِيّ الشَّرِيشِيّ[2] الفقيه الشافعي. مات بطريق الحجاز؛ وكان فقيهاً عالماً فاضلاً.

وتُوفّي الشيخ جمال الدين أبو بكر إبراهيم [بن حَيْدَرة بن عليّ بن عقيل][3] الفقيه الشافعي المعروف بآبن القَمّاح في سابع عشر ذي الحجّة. وكان معدوداً من فضلاء الشافعيّة.

وتوفي الشيخ المقرىء مجد الدين أبو بكر آبن الشيخ شمس الدين محمد بن

(١) في السلوك: «ركن الدين بيبرس نائب عجلون».
(٢) نسبة إلى شريش Jerez من مدن الأندلس. (الروض المعطار: ٣٤٠).
(٣) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

قاسم التُّونُسِيّ المقرىء النحويّ المالكيّ في ذي القعدة بدِمَشْق. وكان من فضلاء المالكية.

وتوفي الأمير سيف الدين، وقيل شمس الدين، سُنْقُر بن عبد الله الكَمَالي الحاجب في حبس الملك الناصر بقلعة الجبل في شهر ربيع الآخر. وكان أوّلاً مُعْتَقلاً بالكَرَك فأُحْضِر هو والأمير كَرَاي إلى القاهرة، فحُبِسَا بقلعة الجبل إلى أن مات بها. وكان من عظماء الدولة ومن أكابر الأمراء. وتَوَلّى الحجوبيّة بالديار المصريّة في عِدّة دُوَل. وكان أحد الأعيان بالديار المصريّة إلى أن قَبَض عليه الملك الناصر وحَبَسه في سلطنته الثالثة.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين بَهَادُر الشَّمْسِيّ بقلعة دِمَشْق؛ وكان أحدَ مَنْ قَبَض عليه الملك الناصر وحَبَسه. وكان مشهوراً بالشجاعة والإقدام.

وتُوفّي الأمير سيف الدين مَنْكُوتَمر الطَّبَّاخي ، والأمير سيف الدين أَرِكْتَمُر، كلاهما بالجُبّ من قلعة الجبل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان ونصف. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً. وكان الوفاء بعد النَّوْرُوز بأيّام.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة تسع عشرة وسبعمائة.

فيها تُوفّي الشيخ الصالح المُعْتَقَد أبو الفتح نصر بن سليمان بن عُمر المَنْبِجيّ الحنفيّ بزاويته بالقاهرة في جُمادى الآخرة، ودُفِن بجوار الزاوية. ومولده سنة ثمانٍ وثلاثين وستمائة؛ وكان عالماً زاهداً متقشفاً. سمع الحديث وبرعَ في الفقه والتصوّف، وأقبل عليه ملوك عصره. ذكر آبن أخيه[١] الشيخ قطب الدين قال:

(١) هو ابن أخته، حسب رواية الدرر الكامنة.

«سألني الشيخ يوماً: هل قَرُب وقتُ العصر؟ فقلتُ: لا؛ وبقِي يسألني عن ذلك ساعة فساعة وهو مسرورٌ مستبشر بوقت العصر، فلما دخَل وقت العصر مات». رحمه الله.

وتُوفّي الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أبو عبد الله الحسين بن سليمان بن فَزارة الكَفْرِي (بفتح الكاف) البُصْرَوِيّ الحنفي في ثالث عشر جُمادى الأولى ودُفِن بقاسِيون. وكان فقيهاً محدِّثاً ناب في الحكم، وحُمِدت سيرتُه، وسَمِع الكثير وبَرِع في الفقه وغيره.

وتُوفّي الأمير سيف الدين كَرَاي المنصوريّ معتَقلاً بقلعة الجبل؛ وكان من أكابر مماليك المنصور قلاوون. وولي نِيابةَ القُدْس، ثمّ ولّاه الملك الناصر محمد في سلطنته هذه الثالثة نيابةَ الشام بعد قَرَاسُنْقُر؛ ثم قبَض عليه وحبَسه بالكَرَك مدّة، ثمّ نقله إلى القاهرة وحبَسه بقلعة الجبل إلى أن مات في هذا التاريخ.

وتُوفّي الأمير سيف الدين إغزلو العادلي بدِمَشق؛ وكان من أكابر أمرائها. وكان ولي نيابةَ دِمَشق في أواخر دولة أُستاذه الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغا فعزله الملك المنصور حُسام الدين لاجين عن نيابة دِمَشق، ثم صار بعد ذلك من أمراء دمشق إلى أن مات. وكانت ولايته على نيابة دِمَشق نحواً من ثلاثة أشهر؛ وكان موصوفاً بالشجاعة والإقدام.

وتُوفّي الأمير سيف الدين قَيْرَان الشمسيّ بدِمَشق، ودُفِن بقاسِيون بتربة آبن مُصْعَب. وكان من جملة أمراء دِمَشق؛ وكان ديِّناً خيِّراً عفيفاً مع كرم وشجاعة.

وتُوفّي الأمير علاء الدين طَيْبَرْس بن عبد الله الخازِنْدارِيّ نقيب الجيوش المنصورة وأحد أمراء الطبلخاناه في العشرين من شهر ربيع الآخر، ودُفِن بقبّته التي أنشأها بمدرسته على باب جامع الأزهر. وآستقرّ عِوَضَه في نقابة الجيش الأميرُ شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المَهْمَنْدار[1]. وَطَيْبَرْس هذا هو الذي كان

(١) المهمندار: صاحب هذه الوظيفة يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم. وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما «مهمن» ــ بفتح الميمين ــ ومعناه =

أنشأ الجامع والخانقاه على النيل، وعُرف ذلك المكان بالطَّيْبَرْسِيّ؛ وقد تهدّم الجامع والخانقاه، ونَقَل صوفيَّتها إلى مدرسته التي أنشأها على باب الجامع الأزهر على يَمْنة الداخل إلى الجامع. وكان من أجلّ الأمراء وأقدمهم، وطالت أيامُه في وظيفته؛ أقام فيها أربعاً وعشرين سنة، لم يقبل لأحد هديّة، وإنما كان شأنه عمارةَ إقطاعه والزراعة؛ ومن ذلك نالته السعادةُ وعَمَّر الأملاك. وكان ديِّناً خيِّراً بخلاف آقْبُغَا عبد الواحد الذي عَمَّر مدرسته أيضاً على باب الجامع الأزهر في مقابلة طَيْبَرْس هذا.

وتُوفّي الشيخ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن منصور بن إبراهيم بن منصور بن رَشيد الربعي الحلبيّ الشافعيّ المعروف بآبن الجوهريّ. وُلِد بحلب في ثالث عشر صفر سنة آثنتين وخمسين وستمائة؛ وكان فاضلاً ديِّناً أثنى عليه الحافظ البِرْزَالِيّ في معجمه. وكانت وفاته في يوم السبت سابع عشر جُمادى الآخرة من السنة. رحمه الله.

وتُوفّي الأمير سيف الدين مَلِكْتَمُر بن عبد الله السُّلَيْماني الجَمَدَار فجأة. وكان من أعيان الأمراء وأماثلهم.

وتُوفّي القاضي فخر الدين أبو عمرو عثمان بن عليّ [بن يحيى بن هبة الله](١) الأنصاريّ الشافعيّ المعروف بآبن [بنت](١) أبـي سعد في جُمادى الآخرة من السنة.

وتُوفّي بدمشق الأمير شهاب الدين أحمد بن محمد آبن الملك الأمجد [مجد الدين](١) حسن آبن الملك الناصر داود آبن الملك المعظَّم عيسى آبن الملك العادل أبـي بكر بن أَيُّوب أحد أمراء دِمَشق في شهر رجب.

وتوفي الملك المعظّم شرف الدين عيسى آبن الملك الزاهر مجير الدين داود آبن الملك المجاهد أسد الدين شِيركُوه آبن الملك القاهر ناصر الدين محمد آبن

= الضيف؛ والثاني «دار» ومعناه الممسك. والمعنى إجمالاً: القائم على أمر الضيوف. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٩).

(١) زيادة عن السلوك.

الملك المنصور أسد الدين شِيرِكُوه الكبير ابن شادي أحد أمراء دِمشق بالقاهرة في ثاني ذي القعدة. كان قَدِمها في طلب الإمرة فأُنعِم عليه بإمرة طبلخاناه بدِمَشق، فأدركتْه المنيّة قبل عَوْده إلى وطنه.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم لم يحرَّر. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة عشرين وسبعمائة.

فيها تُوفّي قاضي القضاة كمال الدين أبو حَفْص عمر آبن قاضي القضاة عِزّ الدين أبي البركات عبد العزيز آبن الصاحب محيي الدين أبي عبد الله محمد آبن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد آبن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله آبن قاضي القضاة مجد الدين أبي غانم محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن أبي جَرَادة العقيلي الحَلَبِيّ الحنفيّ الشهير بآبن العَديم قاضي قضاة حَلَب وغيرها. كان فقيهاً عالماً مشكور السِّيرة. وكمال الدين هذا غيرُ آبن العَدِيم[١] المتقدِّم صاحب «تاريخ حلب»[٢] وغيرها من التصانيف وقد مرّ ذكره.

وتُوفّي الشيخ الإمام العلاّمة النحويّ اللغويّ شمس الدين محمد بن حسن بن سِبَاع بن أبي بكر الجُذَامِيّ المصريّ الأصل الدِّمَشقيّ المولد المعروف بآبن الصائغ. مات بدِمَشق في ثالث شعبان. ومولده سنة خمس وأربعين وستمائة بدِمَشق. كان أديباً فاضلاً في فنّ الأدب، وله النظم والنثر ومعرفة بالعَرُوض والقوافي والبديع واللّغة والنحو؛ وشرح «مقصورة آبن دُرَيْد» في مجلدين. وآختصر

(١) راجع وفيات سنة ٦٦٠هـ.
(٢) هو كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب».

«صِحاح[١] الجوهري» وجرَّده من الشواهد، وصنّف قصيدة عِدَّتُها ألفا بيت، فيها العلوم والصنائع، وله «مقامات» وأشياء كثيرة. ومن شعره من قصيدة أوّلها: [الكامل]

لي نحوَ رَبْعِكِ دائماً يا جِلَّقُ — شوقٌ أكاد به جَوًى أتمزَّقُ
وهمولُ دمعٍ من جَوًى بأضالعِي — ذا مُغْرِقٌ طَرْفي وهذا مُحرِقُ
أشتاق منكِ منازلاً لم أنْسَها — إنِّي وقلبي في ربوعِك مُوثَقُ

ومنها:

والريحُ[٢] يكتب في الجداول أسطُراً — خَطٌّ له نَسْجُ النَّسِيم مُحقِّقُ
والطيرُ يقرأ والنسيم مردِّدٌ — والغصنُ يرقُص والغدير يصفق

وتُوفّي الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن يوسف بن قاسم الكِنانيّ الشَّارِمْساحِيّ[٣] الشاعر المطبوع صاحب النوادر الظَّرِيفة المُضحكة. والعامّة يسمونه الشَّارِمْساحِيّ. وكان شاعراً مطبوعاً، غير أنه كان مُغْرًى بالهِجاء وثَلْب الأعراض، وكان يُحضِره الملكُ الناصر مجلسَه في بعض الأحيان. ومات بالقاهرة. ومن شعره من آخر قصيدة: [البسيط]

لا آخذ اللهُ عينيه فقد نَشِطت — إلى تلافي وفيها غايةُ الكَسلِ

وقد مَرّ من هجوه في آبن المُرَحِّل وآبن عَدْلَان في أوّل ترجمة الناصر في سلطنته الثالثة. وكان عارفاً بعلوم.

وتُوفّي الشيخ إسماعيل [بن سعيد][٤] الكُرْدِيّ قتيلاً على الزَّنْدَقَة في يوم الاثنين ثاني عشرين صفر. وكان عارفاً بعلوم كثيرة، حتّى إنّه كان يحفظ من التوراة

---

(١) يُظن أنه «الراموز في اللغة العربية». (الأعلام: ٦/٨٧) ـ وذكر صاحب كشف الظنون أن الراموز للسيد محمد ابن السيد حسن بن علي المتوفى سنة ٨٦٠هـ، وهو يشتمل على جميع لغات الجوهري والمغرب والفائق والنهاية. (كشف الظنون: ١/٨٣١).

(٢) رواية فوات الوفيات: ٣/٣٢٧:

والريح تكتب والجداول أسطرٌ — خطٌّ له نسخ الربيع محقّق

(٣) الشارمساحي: نسبة إلى شارمساح إحدى قرى مديرية الدقهلية بمصر.

(٤) زيادة عن السلوك.

والإنجيل؛ غير أنّه حُفِظت عنه عظائمُ في حقّ الأنبياء عليهم السلام. ومع ذلك كان يتجاهر بالمعاصي؛ فآجتمع القضاةُ بسببه غيرَ مرّة، حتى أَفْتى بعضُهم بضرب عُنُقه، فضُرِبت عُنُقه ببين القصرين.

وتُوفّي الشيخ المُعَمَّر زَيْن الدين أبو القاسم محمد بن علم الدين محمد بن الحسين بن عَتِيق بن رَشِيق الإسكندري المالكيّ بمصر في المحرّم. وكان ولي قضاء الإسكندرية مدّةً طويلة. وكان له نظم.

وتُوفّي قتيلاً سيف الدين آقْجُبَا مملوك الأمير ركن الدين بِيبَرْس التَّاجي بدِمَشق في خامس عشرين شهر ربيع الأوّل. وكان عنده فضيلة، إلاّ أنّه لم يَقْنَع بذلك، حتى آدّعى النبوّةَ وشاع عنه ذلك حتّى قُتِل.

وتُوفّي[١] السلطان الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل بن الفَرَج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر صاحب غَرْناطة والأنْدَلُس من بلاد المغرب[٢] في ذي القعدة وأُقِيم بعده آبنه أبو عبد الله محمد. وكان من أجلّ ملوك المغرب. وكان مولده سنة ثمانين[١] وستمائة. وآستولى على الأندلس ثلاث عشرة سنة، ومَلَك البلاد في حياة أبيه الفَرَج، وكان أبوه متولّياً إذ ذاك لمالقةَ؛ فلمّا أراد إسماعيل هذا الخروج لاَمَه أبوه، فقبض إسماعيل على أبيه؛ وعاش أبوه في سلطنته بعد ذلك عزيزاً مُبَجَّلاً إلى أن مات في ربيع الأوّل سنة عشرين وسبعمائة، وقد شاخ؛ ثم قُتِل آبنه صاحب الترجمة وقُتِل قاتلُه. رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً. وهبط النيل بسرعة فشَرِقت الأراضي. والله تعالى أعلم.

* * *

(١) حقّق صاحب الأعلام وفاته سنة ٧٢٥هـ ومولده سنة ٦٧٧هـ. وقد خطّأ ما جاء هنا وفي الدرر الكامنة وفي تاريخ دول الإسلام. (الأعلام: ١/٣٢١).

(٢) إن اصطلاح «بلاد المغرب» أو «الغرب» الذي يستخدمه المؤلف يعني عادة المغرب الأقصى (البلاد المراكشية) والأندلس. (انظر المؤرخ ابن تغري بردي ـ مجموعة أبحاث أعدّتها لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة: ص ١٤٥ وما بعدها).

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفّي الشيخ الإمام المقرىء عَفيف الدين عبد الله بن عبد الحقّ بن عبد الله بن عبد الأحد القُرشِيّ المخزوميّ الدَّلَاصِيّ[1] المصريّ. مات بمكة المشرّفة في رابع عشر المحرّم، ومولده في شهر رجب سنة ثلاثين وستمائة؛ وكان إماماً مقرئاً زاهداً، أقام أكثر من ستين سنةً يقرِىء القرآنُ تجاه الكعبة.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن عليّ بن عمر المازِنِيّ الأديب المعروف بالدّهان بدمَشق. وكان شاعراً مُجيداً يَعرف الأنغام والموسيقى وصناعة الدِّهان؛ وكان يعمل الشعر ويُلحِّنه موسيقى ويُغنِّي به فيكون من شعره وصناعته. ومن شعره موشّحةٌ أوّلها:

بـأبي غُـصـن بـانـةٍ حَـمَـلَا بَدْرَ دُجًى بالجمال قد كَمُلَا، أَهْيَفْ

فـريـدُ حـسـنٍ مـا مـاس أو سَـفَـرَا

إلا أغـار الـقـضـيـبَ والـقـمـرَا

يُـبـدِي لـنـا بـآبـتـسـامـه دُرَرَا

في شهـدٍ لَـذّ طـعمُـه وحَـلَا كـأنّ أنفاسَـه نسيمُ طِلَا، قَرْقَفْ

وتُوفّي الطواشي صفيّ الدين جَوْهر مقدّم المماليك السلطانية. كان رجلاً صالحاً ديِّناً خيِّراً وله حرمة وصَوْلة عظيمة على المماليك وغيرهم. ولي التَّقْدِمة في أيام المظفر بِيبَرْس الجَاشْنَكِير، فلمّا عاد الملك الناصر إلى مُلكه عزله بصواب الرُّكْني، وآستمر بطّالاً إلى أن مات.

وتوفي الشيخ حَمِيد الدين أبو الثناء محمود بن محمد بن محمود بن نصر النَّيْسابورِيّ شيخ الخانقاه الرُّكنية بِيبَرْس في تاسع عشر جُمادى الآخرة. ومولده سنة خمس وأربعين وستمائة.

(١) نسبة إلى دلَاص إحدى قرى مركز بني سويف بمديرية بني سويف بمصر. (محمد رمزي).

وتُوفّي الملك المؤيَّد هِزَبْر الدِّين داود ٱبن الملك المظفَّر يوسف بن عُمَر بن رَسُول التُّرْكمانِيّ الأصل اليمنيّ المولد والمَنْشأ والوفاة صاحب ممالك اليَمَن. تسلطن بعد أخيه في المحرّم سنة ست وتسعين وستمائة فَمَلَك نيِّفاً وعشرين سنة؛ وكان قبل سلطنته تفقّه وحَفِظ «كفايةِ المُتحفّظ»[1] ومقدّمة[2] ٱبن بابِشاذ. وبحث «التنبيه»[3] وطالع وفضل وسَمِع الحديث، وجَمَع الكتب النفيسة في سلطنته، حتى قيل إنّ خِزانة كتبه ٱشتملت على مائة ألف مجلّد. وكان مشكور السّيرة مُحِبّاً لأهل الخير. ولمّا أنشأ قصرَه بظاهر زَبِيد قال فيه الأديب تاج الدين عبد الباقي [بن عبد المجيد][4] اليمني أبياتاً، منها: [البسيط]

أَنْسَى بـإيوانِـه كِسْـرَى فـلا خَبَـرٌ ... من بعد ذلك عن كِسْرى لإيوانِ

وفي الملك المؤيد يقول أيضاً عبد الباقي المذكور، وقد ركِب المؤيَّد فِيلاً: [البسيط]

الله ولاّك يـا داودُ مـكـرمـةً ... ورتبـة مـا أتـاهـا قبـلُ سلطان
ركِبتَ فيلاً وظَل الفِيلُ ذَا رَهَج ... مستبشـراً وهو بـالسلطان فـرحـان
لـك الإلـه أذلَّ الـوحشَ أجمَعَـهُ ... هـل أنت داودُ فيـه أم سليمـانُ

وكانت وفاته في ذي الحجّة؛ وتولى بعده ٱبنـه الملك المجاهـد عليّ، وٱضطربت ممالك اليَمَن بعد موته. وتولّى عِدّةُ سلاطين يأتي ذكرُ كلِّ واحد منهم في محلّه إن شاء الله تعالى.

وتُوفّي مجد الدين أحمد بن مُعين الدين أبـي بكر الهَمَذانِيّ المالكي خطيب الفَيُّوم؛ وكان يُضربُ به المثلُ في المكارم والسؤدُد، وكان فصيحاً خطيباً بليغاً.

---

(١) كفاية المتحفّظ في اللغة للقاضي شهاب الدين محمد بن أحمد بن خليل الخويّي المتوفى سنة ٦٩٣هـ. (كشف الظنون: ٢/ ١٥٠٠).

(٢) هي مقدمة ابن بابِشاذ في النحو. وهو طاهر بن أحمد بن بابِشاذ المصري إمام عصره في النحو المتوفى سنة ٤٦٩هـ.

(٣) لعله: التنبيه في فروع الشافعية للشيـخ أبـي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ.

(٤) زيادة عما سيأتي في وفيات سنة ٧٤٣هـ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وستّ أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وخمس أصابع. وكان الوفاء ثاني أيام النسيء. والله أعلم.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة آثنتين وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفّي قاضي القضاة شمس الدين محمد آبن الشيخ أبي البركات محمد آبن الشيخ أبي العِزّ بن صالح بن أبي العِزّ بن وُهَيْب بن عطاء الأَذْرَعِيّ الحنفيّ بدِمَشق في سابع المحرّم عقيب قدومه من الحجاز. ومولده سنة ثلاث وستين[١] وستمائة. وكان إماماً فاضلاً فقيهاً بصيراً بالأحكام؛ حكم بدِمَشْق نحو عشرين سنة، وخطب بجامع[٢] الأفرم مدّة، ودرّس بالظاهرية[٣] والنَّجِيبِيّة[٤] والمُعَظَّمِيّة[٥]، وأفتى وآنتفع به غالبُ طلبة دِمشق.

وتُوفّي الشيخ الإمام العالم الزاهد الفقيه المُفْتِي الحافظ المسند المُعَمَّر بقيّةُ السَّلف رضيّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم بن الطَّبريّ المكيّ الشافعيّ إمام المقام بالحرم الشريف، أَمّ به

---

(١) في الأصل: «سنة ثلاث وثلاثين وستمائة» وما أثبتناه عن الدرر الكامنة.

(٢) جامع الأفرم غربي الصالحية بدمشق. أنشأه جمال الدين آقوش الأفرم نائب السلطنة بدمشق سنة ٧٠٦هـ. (الدارس في تاريخ المدارس: ٢/٣٣٥).

(٣) المدرسة الظاهرية الجوانية داخل بابي الفرج والفراديس بدمشق. أنشأها الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٧٦هـ. (الدارس: ١/٢٦٣).

(٤) المدرسة النجيبية أنشأها النجيبي جمال الدين آقوش الصالحي النجمي استادار الملك الصالح سنة ٦٧٧هـ. (الدارس: ١/٣٥٨).

(٥) المدرسة المعظمية: بالصالحية بسفح قاسيون. أنشأها الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل الأيوبي سنة ٦٢٠هـ. (الدارس: ١/٤٤٥).

أكثرَ من خمسين سنة. وكان فقيهاً صالحاً عابداً. ومولده بمكّة في سنة ست وثلاثين وستمائة. ومات في شهر ربيع الأوّل.

وتُوفّي الشيخ الإمام الفقيه الصوفّي علاء الدين أبو الحسن عليّ [بن الحسن](١) بن محمد الهَرَوِيّ الحنفيّ. كان فقيهاً فاضلاً وسَلَك طريقَ التصوّف، وطاف البلاد وأقام بحلب مدّةً وتصدّى للإفتاء والتدريس سنين. ومن إنشاده(٢) رحمه الله: [مجزوء الرجز]

كم حَسَراتٍ في الحَشَى ... من ولدٍ قد آنتشا
كُنّا نشاءُ رُشْدَه ... فما نشا كما نشا

وتُوفي الأديب الشاعر جمال الدين أبو الفتح محمد بن يحيى بن محمد الأمَوِيّ المصريّ الشاعر المشهور. وكانت لديه فضيلة، وكان رَحّالاً طاف البلاد، ثم رجعَ إلى العراق فمات به. ومن شعره: [البسيط]

وافى الربيعُ ولي سبعٌ أُلازِمها ... لزومَ مَرْءٍ له في الدهر تجريبُ
مِلْكٌ ومالٌ ومملوكٌ ومطربةٌ ... مع المُدام ومحبوبٌ ومركوبُ

وتُوفّي الأديب الشاعر أبو علي الحسن بن محمود بن عبد الكَبير اليَماني العَدَنِيّ. كان فاضلاً ناظماً ناثراً، وله ديوان شعر مشهور باليَمَن وغيره. ومن شعره: [البسيط]

بَرْقٌ تألّق من تِلْقاءِ كاظمةٍ ... ما بالُه خَطِفَ الأبصار في إضَمِ
قد خُطَّ منه على آفاقها خِطَطٌ ... كأنهنّ وَلُوعُ البِيض في اللِّمَمِ

وتُوفّي الشيخ حسن العَجَمي الجَوَالِيقي القَلَنْدَرِي بدمشق؛ وكان أوّلاً يسكنُ بالقاهرة، وعَمّر له بها زاوية خارج باب النصر، وهي إلى الآن تُعرف بزاوِية(٣)

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) قارن بما جاء في الجزء الخامس، ص ٣٢٣.

(٣) زاوية القلندرية. (خطط المقريزي: ٢/٤٣٢). وحدد محمد رمزي مكانها اليوم بجامع الخواص الكائن بحارة الخواص المتفرعة من شارع الحسينية بالقاهرة.

القَلَنْدَرِية، ثم سافر إلى دِمَشْق فمات بها. قال الشيخ عِماد الدين إسماعيل بن كَثِير في تاريخه: وكان قريباً من خواطر الملوك، لا سيما أهل بيت الملك المنصور قلاوون. وكان كثيراً ما يُنشد أبياتاً أوّلها: [الطويل]

سلامٌ على رَبْع به نَعِم البالُ ... وعيشٍ مضى ما فيه قِيلٌ ولا قالُ
لقد كان طِيبُ العيش فيه مجرّداً ... من الهمّ والقومُ اللوائِمُ غُفَّالُ

وتُوفّي الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر بن عبد الله الساقي المعروف بوَجْه الخشب بدِمَشْق. وكان من أعيان الأمراء، وفيه شجاعةٌ وإقدام، وهو أحد من أخرجه الملك الناصر من مصر.

وتُوفّي القاضي قطب الدين محمد بن عبد الصمد [بن عبد القادر][1] السُّنْباطِيّ الشافعي، خليفة[2] الحُكْم ووكيل بيت المال في ذي الحجّة. وكان معدوداً من الفقهاء وله وجاهة.

وتُوفِّيت المُسْنِدة المُعَمَّرة أمُّ محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شُكْر في ذي الحجّة بالقُدْس عن أربع وتسعين سنة. وكانت رُحْلَة زمانها؛ رُحِل إليها من الأقطار وصارت مُسْنِدةَ عصرها.

أمر النيل في هذه السنة

الماء القديم أربع أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً. وكان الوفاء أوّلَ أيام النسيء.

* * *

(١) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.
(٢) خليفة الحكم: هذه التسمية كانت تطلق على من يتولى القضاء. وكان يقال: خليفة الحكم العزيز. (انظر صبح الأعشى: ١٤/٣٤٦ ــ ٣٤٨).

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوّفي قاضي القضاة نجم الدين أبو العبّاس أحمد بن عِماد الدين محمد بن أمين الدين سالم آبن الحافظ االمحدِّث بهاء الدين الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صَصْرَى التَّغْلَبي(١) الدِّمَشْقّي الشافعيّ في سادس عشر شهر ربيع الأوّل بدِمَشْق، ودُفِن بتُربتهم بالقرب من الرُّكْنِيَّة: ومولِدُه سنة خمس وخمسين وستمائة. وكان إماماً عالماً بارعاً مدرِّساً مُفْتِياً كاتباً مجوِّداً. ولي عِدَّة تداريس، وباشر قضاء الشام آستقلالاً في سنة آثنتين وسبعمائة مع عِدّة تداريس. وكان له نظمٌ ونثر وخُطَبٌ. ومن شعره رحمه الله: [الكامل]

ومُهتفٍ بالوَصْلِ جاد تكرُّماً فأعاد ليلَ الهَجْرِ صُبْحاً أبلجا
ما زلتُ ألْثم ما حواه لِثامُهُ حتى أعدتُ الوَردَ فيه بَنَفْسَجا

وتُوفّي الشيخ الأديب الفاضل صلاح الدين صالح بن أحمد بن عثمان البَعْلَبَكيّ الشاعر المشهور بالقَوّاس. كان رجلاً خيراً؛ صَحِب الفقراء وسافر البلاد؛ وكان أصله من مدينة خِلَاط، وكان يدخل الزوايا ويتواجَد في سماعات الفقراء؛ وله شعر كثير، من ذلك ما قاله في ناعورة حماة: [الطويل]

ونَاعورةٍ رقّت لعظم خطيئتِي وقدلمَحَتْ شخصي من المنزل القاصِي
بكتْ رحمةً لي ثم ناحتْ لشَجْوها ويَكفيك أن الخُشْب تبكي على العاصي

وهو صاحب القصيدة ذات الأوزان التي أوّلها: [البسيط]

داءٌ ثَوَى بفؤادٍ شفَّه سَقَمُ لمِحْنتِي من دواعي الهَمِّ والكَمَدِ

(١) في الشذرات والسلوك: «التغلبي».

وتُوفّي الشيخ الأديب الفاضل العَدْل شهاب الدين محمد بن محمد بن محمود ابن مَكّي المعروف بآبن دِمِرْدَاش[١] الدِّمَشْقيّ، وبها مات ودُفِن بقاسِيون. ومولده سنة ثمانٍ وثلاثين وستمائة؛ وكان شاعراً مجيداً. وكان في شبابه جندياً، فلمّا شاخ ترك ذلك وصار شاهداً[٢]. وشعرُه سلَكَ فيه مسلَك مُجِير الدين[٣] بن تَميم، لأنه صحبه وأقام معه بحَمَاة مدّة عشرين سنة. ومن شعره: [الطويل]

أقول لِمسْواكِ الحبيبِ لكَ الهَنَا ... بَلثْم فَمٍ ما نالَه ثغرُ عاشقِ
فقال وفي أحشائه حُرَقُ الجَوَى ... مقالةَ صَبٍّ للديار مُفارِق
تذكّرت أوطاني فقلبي كما ترى ... أُعلِّله بين العُذَيبِ وبارقِ

قلت: ومثل هذا قول القائل: [الكامل]

هُنِّئتَ يا عودَ الأراك بِثَغْرِهِ ... إذ أنت في الأوطان غيرُ مُفارِق
إن كنتَ فارقتَ العُذَيْبَ وبارقاً ... ها أنتَ ما بين العُذَيبِ وبارِق

ومثله لابن قُرْنَاص[٤]: [الطويل]

سألتُك يا عُودَ الأراكة أن تَعُد ... إلى ثَغْر مَن أهوى فقبِّلْه مُشْفِقَا
ورِدْ من ثَنِيّات العُذَيْبِ مُنَيْهِلاً ... يُسَلْسِل ما بين الأبَيْرِق والنَّقَا

وقد ذكرنا مثل هذا عِدَّةَ كثيرةً في كتابنا «حِلْية الصفات في الأسماء والصناعات».

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلّامة الحافظ المؤرِّخ الأخباري الأديب كمال الدين عبد الرزّاق بن أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بآبن الفُوطِيّ صاحب

---

(١) في فوات الوفيات: «ابن تمرداش».
(٢) أي لبس زيّ الشهود العدول.
(٣) تقدمت وفاته سنة ٦٨٤هـ.
(٤) هو إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن قرناص الخزاعي الحموي المتوفى سنة ٦٧١هـ. شاعر أديب من أهل حماة. (الأعلام: ١/٦٣).

التصانيف المفيدة، من جملتها: تاريخ كبير جداً، وآخرُ دونه[١] وسمَّاه بمجمع الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب[٢] في خمسين مجلّداً. والتاريخ[٣] الكبير على الحوادث من آدم إلى خراب بغداد وغير ذلك. وله شعرٌ كثير ومجموع أدبيات سمّاه «الدُّرر الناصعة في شعر المائة السابعة»[٤]. وصنف كتاب «دُرَر الاصداف في غُرَر الأوصاف» مرتّباً على وَضْع الوجود من المبدأ إلى المَعَاد، يُكَوِّن عشرين مجلّداً. وكتاب «تلقيح[٥] الأفهام في المختلف والمؤتلف» مجدولاً وكان له يدٌ طُولَى في ترصيع التراجم، وذِهْنٌ سَيَّال وقَلمٌ سريع وخَطٌّ بديع إلى الغاية. قيل: إنّه كتَب من ذلك الخطّ الفائق الرائق أربعَ كراريس في يوم، وكتَب وهو نائمٌ على ظهره. وكان له نظرٌ في فنون الحكمة كالمنطق وغيره.

وتوفّي الملك المجاهد سيف الدين أَنَص آبن السلطان الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصوريّ؛ بعد ما كُفَّ بصرُه من سَهْم أصابه، وكانت وفاته في المحرّم.

وتُوفّي الأمير طَيْدَمُر سيف الدين الجَمَدَار أحد أعيان الأمراء.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وستَ عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وست أصابع.

* * *

(١) في البداية والنهاية: «من كتبه تاريخ في خمسة وخمسين مجلداً، وآخر في نحو عشرين».

(٢) في كشف الظنون والأعلام: «مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب».

(٣) هو كتاب «تلقيح الأفهام». (الأعلام: ٣٤٩/٣).

(٤) في الأعلام: «نظم الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة».

(٥) تقدّم في الحاشية الثالثة من هذه الصفحة أن صاحب الأعلام ذكره على أنه كتاب التاريخ الكبير. ومن كتب التاريخ الهامة المنسوبة إلى ابن الفوطي كتاب «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة». قال صاحب الأعلام: وهذا الكتاب طبع على أنه من تأليفه، ولم تصحّ نسبته إليه.

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفّي الشيخ الصالح المُعْتَقَد أَيّوبُ المسعوديّ بزاوية الشيخ أبي السعود بالقرافة، وقد قارب المائة سنة؛ وضَعُف في آخر عمره، فكان يُحْمَل إلى حضور الجمعة؛ وكان يَذْكُر أنّه رأى الشيخ أبا السعود.

وتُوفّي الشيخ الإمام العالم الزاهد الحافظ المحدث علاء الدين أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن داود بن سليمان الدِّمَشقيّ الشافعيّ الشهير بآبن العطّار. كان فقيهاً محدِّثاً، وكانوا يُسمونه مختصر النووي. ودرّس وأفتى سنين وآنتفع به الناس.

وتُوفّي الأمير شمس الدين محمد بن عيسى بن مُهَنّا أميرُ العرب وملك آل فضل؛ وكان حسن الهيئة عاقلاً حازماً عارفاً بالأمور. مات بسَلَمْيَة.

وتُوفّي الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن ظافر في جُمادَى الآخرة. وكان فقيهاً شافعياً معدوداً من أعيان الشافعيّة.

وتُوفيّ الشيخ تقيّ الدين محمد بن عبد الرحيم بن [عمر](1) البَاجُرْبَقّي(2) النحويّ الشافعيّ في شهر ربيع الآخر وآتُّهم بالزندقة في تصانيفه ووقع له بسبب ذلك أمور، وهو صاحب «الملحمة البَاجُرْبَقِيّة» وله غيرها عِدّةُ تصانيف أُخَر.

وتُوفّي الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير بدر الدين بَكْتَاش الفَخْرِيّ أمير سلاح في جُمادَى الآخرة. وكان ناصر الدين هذا من جملة مقدَّمِي الألوف بالديار المصريّة، وكان معظماً في الدولة موصوفاً من الشُّجعان.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الباجربقيّ: نسبة إلى باجربق من قرى بين النهرين. وإليه تنسب فرقة «الباجربقية» من المتصوفة. وقد نسب إليه كثير مما اعتبره رجال الدين كفراً، مثل قوله إن الأنبياء والرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله، ومثل دعوته إلى ترك الشرائع. (انظر الأعلام: ٦/٢٠٠؛ وشذرات الذهب: ٦/٦٤؛ والدرر الكامنة: ٤/١٢).

وتُوفِّي الأمير الطواشِي زَيْن الدين عَنْبَر الأكبر زِمام[١] الدور السلطانيّة في جُمادَى الأولى وكان من أعيان الخُدّام وأماثلهم.

وتُوفِّي الشيخ المُعْتَقَد الصالح محمود الحَيْدَرِي العَجَمِيّ خارج القاهرة؛ وكان من محاسن أبناء جنسه.

وتُوفِّي خطيب جامع عمرو بن العاص الشيخ نور الدين أبو الحسن عليّ بن محمد بن حسن بن عليّ القَسْطَلَّانِيّ في شهر ربيع الآخر، وكان ديِّناً خيراً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفِّي الأمير ركن الدين بِيبَرْس بن عبد الله المنصوريّ الدَّوَادَار صاحب التاريخ في ليلة الخميس خامس عشرين شهر رمضان. كان أصلُه من مماليك الملك المنصور قلاوون، أنشأه ورقَّاه إلى أن وَلَّاه نيابة الكَرَك إلى أن عَزَله الملك الأشرف خليل بالأمير آقُوش الأشرفيّ نائب الكَرَك؛ ثم صار بعد ذلك دَوَادَاراً وناظر الأحباس مدّة طويلة؛ ثم ولي نيابةَ السلطنة في أيام الملك الناصر محمد الثالثة فدام مدَّةَ؛ ثم قَبَض عليه الملك الناصر وحَبسه إلى أن مات. وقيل أطلقه بعد حبسه

(١) زمام الدور السلطانية: هو كبير الخدم، وفي العادة يكون أمير طبلخاناه. والزمام دار لقب على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدم الخصيان. وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما: «زنان» بفتح الزاي، ومعناه النساء. والثاني: «دار» ومعناه الممسك. والمعنى عامة أنه الموكل بحفظ الحريم. إلا أن العامة والخاصة قد قلبوا النونين فيه بميمين فعبروا عنه بالزمام دار ظناً أن «الدار» على معناها العربي، والزمام بمعنى القائد. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٧٢ ــ ١٧٣).

بمدّة. وكان أميراً عاقلاً فاضلاً معظماً في الدول؛ وكان إذا دخل على الملك الناصر يقوم له إجلالاً. وكان له أوقاف على وجوه البرّ، وهو صاحب المدرسة[١] الدَّوادَارِية بخط سُوَيْقة العِزي خارج القاهرة. وله تاريخ «زُبْدة الفِكْرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلداً، أعانه على تأليفه كاتبه آبن كبر النصراني. وكان يجلس عند السلطان رأس المَيْمَنة[٢] عِوضَه.

قلت: كانت قاعدة قديم، أنه مَن كان قديمَ هجرة من الأمراء يجلس فوق الجميع، ولم يكن يوم ذاك أمير كبير أتابك العساكر كما هي عادة أيامنا هذه، وإنما آستجدّت هذه الوظيفة في أيام السلطان حسن، وأوّل مَن وليها بخلعةٍ الأمير شَيْخُون، وصارت من يومئذ وظيفةً إلى يومنا هذا.

وتُوفّي أمير المدينة النبوية الشريف منصور بن جَمَّاز بن شِيحَة الحُسَيْنِيّ في حرب كان بينه وبين حُدَيْثَة آبن[٣] أخيه فقتله حُدَيْثَةُ المذكور في رابع عشرين شهر رمضان، فكانت مدّة ولايته على المدينة ثلاثاً وعشرين سنة وأيّاماً، وآستقرّ عِوضه في إمرة المدينة آبنه كُبَيْش بن منصور.

وتُوفّي الإمام العّلامة البليغ الكاتب المنشىء الأديب شهاب الدين أبو الثَّناء محمود بن سليمان[٤] بن فهد الحلبيّ ثم الدِّمَشْقِيّ الحنبليّ صاحب ديوان الإنشاء بدِمَشْق في ليلة السبت ثاني عشرين شعبان سنة خمس وعشرين وسبعمائة. ومَولِدُه سنة أربع وأربعين وستمائة، ونشأ بِدمَشْق وسَمِع الحديث وكَتَب المنسوب، ونسخَ الكثير، وتفقَّه على أبي المُنَجّا وغيره، وتأدّب بآبن مالك ولازَم مجد الدين بن

---

(١) هي المعروفة اليوم بجامع ألتي برمق بشارع الغندور المتفرع من شارع سوق السلاح الذي كان يسمى سويقة العزي بالقاهرة. (محمد رمزي).
(٢) في السلوك والدرر الكامنة: «رأس الميسرة».
(٣) في السلوك والدرر الكامنة: «ابن ابن أخيه».
(٤) في فوات الوفيات والدرر الكامنة والسلوك: «سلمان».

الظَّهير وحذَا حَذْوه وسلك طريقَه في النظم والكتابة. ووَلِيَ كتابة[1] سرِّ دِمَشْق بعد موت القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العُمري إلى أن مات. وفيه يقول الأديب البليغ أَلْطُنْبُغَا الجاولي: [البسيط]

قال النُّحاةُ بأنّ الاسمَ عندهُمُ   غيرُ المُسَمَّى وهذا القولُ مردودُ
الاسمُ عينُ المُسَمَّى والدليلُ على   ما قلتُ أنّ شهاب الدين محمود

ومن شعر شهاب الدين المذكور: [المتقارب]

رأتْني وقد نال مني النُّحولُ   وفاضتْ دموعي على الخَدِّ فَيْضا
فقالت بعيني هذا السَّقام   فقلتُ صدقْتِ وبالخَصْر أيضَا

قلت: وقد مَرّ من ذكر الشهاب محمود هذا وشعره قطعةٌ كبيرة في فتوحات الملك المنصور قلاوون وغيره.

وتُوفّي الخطيب جمال الدين محمد بن تَقّي الدين محمد بن الحسن بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن محمد القَسْطَلّانِيّ في ليلة السبت مستهلّ شهر ربيع الأوّل. كان يخطُب بجامع القلعة ويُصَلِّي بالسلطان الجمعة، وآستمرّ على ذلك سنين. وبعضُ الناس يحسَب أنّ العادة لا يخطُب ويُصَلّي بالسلطان إلّا القاضي الشافعي، وليس الأمرُ كذلك. وما آستجدّ هذا إلا الملك الظاهر برقوق في سلطنته الثانية، وإنما كانت العادة قبلَ ذلك مَن نَدَبه السلطانُ أن يخطُب ويُصَلِّي به فعَل ذلك كائناً من كان.

وتُوفّي الشيخ شرف الدين يُونُس بن أحمد بن صلاح القَلْقَشَنْدِيّ الفقيه الشافعيّ في خامس عشرين شهر ربيع الآخر. وكان عالماً فاضلاً.

---

(١) قبل هذا كان يعمل كاتباً في ديوان الإنشاء بدمشق، فأثبت جدارة مما دفع ابن السلعوس وزير الأشرف خليل إلى أن ينقله إلى ديوان الإنشاء بمصر بعد موت محيي الدين بن عبد الظاهر حيث عمل في هذا الديوان أكثر من عشرين سنة، بعدها ولي كتابة سرّ دمشق بعد موت شرف الدين العمري. (حسن التوسّل إلى صناعة الترسل: المقدمة، ص ٢٠).

وتُوفِّي الشيخ المُقْرىءَ تَقِيّ الدين محمد بن الصَّفِيّ الشهير بالتَّقِيّ الصائغ في صفر؛ كان فاضلاً مُقرئاً مجوِّداً.

وتُوفّي الأمير سيف الدين بَلَبان بن عبد الله التَّتاريّ المنصوريّ في ذي القعدة. وكان من أعيان مماليك المنصور قلاوون، وصار من أعيان أمراء الديار المصريّة.

وتَوُفِّيت الشّيخةُ حُجّاب شيخة رِباط[1] البَغداديّة في المحرّم. وكانت خَيِّرةً ديِّنة، ولها قدمٌ في الفقر والتصوّف.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان وستّ أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً. وكان الوفاء أوّل أيام النسيء. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة ستّ وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفِّي شيخ الرافضة جمال الدين الحسن بن يوسف [بن علي بن محمد][2] بن المُطَهَّر الحِلِّي المعتزليّ شارح «مختصر آبن الحاجب» في المحرّم. كان عالماً بالمعقولات، وكان رضِيَّ الخُلُق حَليماً، وله وجاهةٌ عند خَرْبَنْدَا مَلِك التّتار. وله عِدَّة مصنَّفات، غير أَنّه كان رافِضياً خبيثاً على مذهب القوم؛ ولابن تَيْمِيَّة عليه ردٌّ في أربعة مجلّدات، وكان يُسَمِّيه ابن المُنَجَّس، يعني عكس شهرته كونه كان يُعرف بآبن المُطَهَّر.

وتُوفّي الشيخ شرف الدين أبو الفتح أحمد بن عزّ الدين أبي البركات عيسى

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٧.

(٢) زيادة عن أعيان الشيعة: ٥/٣٩٦ ـ وورد اسمه في السلوك والدرر الكامنة «الحسين بن يوسف بن المطهر» وهو خطأ.

آبن مُظَفَّر بن محمد بن الياس المعروف بآبن الشِّيرجِيّ الأنصاريّ الدِّمَشْقِيّ محتسِب دِمَشْق. ومولده سنة سبع وأربعين وستمائة.

وتُوفّي الشيخ الإمام سِراج الدين عمر بن أحمد بن خِضْر بن ظافر بن طَرَّاد الخَزْرَجِيّ المصريّ الأنصاريّ الشافعيّ خطيب المدينة النبويّة. كان خطيباً فصيحاً مُفَوَّهاً دَيِّناً.

وتُوفّي الأمير بدر الدين حسن آبن الملك الأفضل [عليّ بن محمود][1] صاحب حَمَاة. كان من أهل العلم، وكان أحدَ أمراء دِمَشْق، وهو من بيت سلطنة ورياسة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثماني أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة سبع وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي السلطان أبو يحيى زكريّا بن أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن أحمد بن محمد اللِّحْيانيّ المَغْرِبِيّ مَلِك تُونس بالإسكندرية بعد أن خرج من بلاده لأمرٍ[2] أوجب ذلك، وترك مُلْكَه ونزلَ بالإسكندرية وسكنها بعد أن قَدِم القاهرة، ثم عاد إلى الإسكندرية، فمات بها.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) كان أبو يحيى من ملوك الدولة الحفصية بتونس. صار إليه الملك سنة ٦٨٠هـ، وخلع ثم توجه إلى الحجاز للحج سنة ٧٠٩هـ، وعاد إلى إفريقية والفتنة قائمة بين أبي بكر بن يحيى والناصر خالد بن يحيى فنزل بطرابلس وبايعه أهلها. وزحف إلى تونس، وكان صاحبها خالد بن يحيى مريضاً فخلع نفسه، فدخلها زكريا سنة ٧١١هـ. واستوثق له الأمر، فقطع ذكر المهدي بن تومرت من الخطبة. وراسل ابن عمه أبا بكر بن يحيى وكان في بجاية، فهادنه. وقدم أبو بكر بن يحيى إلى إفريقية ونزل في بلاد هوارة، فخافه زكريا فخرج من تونس نافضاً يده من الخلافة، ثم رحل إلى الإسكندرية. (الأعلام: ٤٦/٣).

وتُوفي الشيخ الإمام شمس الدين محمد آبن العّلامة الشهاب محمود المقدَّم ذكرُه في عاشر شوّال. وكان شمس الدين أيضاً كأبيه فاضلاً كاتباً بارعاً، وتَولَّى كتابة سِرّ دِمَشْق؛ وهو من بيت رياسة وفضل وكتابة.

وتُوفّي قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن عليّ بن صفيّ الدين أبـي القاسم بن محمد بن عثمان البُصْراوِيّ الحنفيّ قاضي قُضاة دِمَشْق في شعبان، بعد ما حَكَم بدِمَشْق عشرين سنة وحُمِدت سيرتُه؛ وكان إماماً عالماً ديِّناً عفيفاً مشكورَ السِّيرة.

وتوفي الطَّواشِي ناصر الدين الشَّمْسِيّ شيخ الخُدّام بالحَرَم النبوِيّ. وكان خيِّراً ديناً يحفظ القرآن ويُكثِر من التلاوة بصَوْت حسن.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين كوجري بن عبد الله أمير شِكار بالقاهرة في تاسع عشرين ذي الحجّة. وكان أصله من مماليك عِزّ الدين أَيْدَمُر نائب الشام في الأيام الظاهرية، وكان هو من أعيان الأمراء بمصر.

وتُوفّي الأمير شمس الدين إبراهيم آبن الأمير بدر الدين محمد بن عيسى بن التُّرْكُمانّي في ثالث جُمادَى الآخرة بداره بِجوار باب البحر. وكان فيه مَكارِم وله مُروءة وعَصَبيّة مـع حِشْمة ورياسة؛ وهو آبن صاحب جامـع التُّرْكُمانِيّ المقدَّم ذكرُه الذي بالقرب من باب البحر.

وتُوُفّي الملك الكامل ناصر الدين محمد آبن الملك السعيد فتح الدين عبد الملك آبن الملك الصالـح عِماد الدين إسماعيل آبن السلطان الملك العادل سيف الدين أبـي بكر [محمد بن نجم الدين أَيُّوب][1] بن شادِي بدِمَشْق في حادي عشرين جُمادَى الآخرة عن أربـع وسبعين سنة؛ وكان من جملة أمراء دِمَشْق، معظماً في الدُّوَل، من بيت سلطنة ورياسة.

وتُوفي الأمير سيف الدين بَلَبان بن عبد الله البَدْرِيّ نائب حِمْص في ليلة عيد الفطر. كان من أكابر الأمراء، وفيه شجاعةٌ وإقدامٌ مـع كرم وحِشْمة.

---

(١) زيادة عن السلوك.

وتُوفّي الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير الكبير أَرْغُون بن عبد الله الدّوادار الناصِريّ نائب السلطنة بالديار[١] المصرية، ثم نائب حلب في ثالث عشر شعبان. وكان ناصر الدين هذا من جملة أمراء الديار المصرية معظماً في الدولة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله المَغْرِبي الحاجب بالديار المصرية في ثامن شهر رمضان. وكان مُقَرَّباً عند الملك الناصر، ومن أعيان أمرائه.

وتُوفّي العَلّامة قاضي القُضاة ذو الفنون جمال الإسلام كمال الدين أبو المعالي محمد بن عليّ بن عبد الواحد [بن عبد الكريم][٢] الزَّمْلَكَانيّ[٣] الأنصاريّ السِّماكيّ[٤] الدِّمَشْقيّ الشافعيّ قاضي قضاة دِمَشْق بمدينة بلبيس في سادس عشر رمضان. ومولده سنة سبع وستين وستمائة في شوّال. وكان إماماً علّامة بصيراً بمذهبه وأصوله، قويّ العربية، صحيحَ الذهن، فصيحاً أديباً ناظماً ناثراً. أفتى وله نَيِّف وعشرون سنة، وصنّف وكَتَب؛ ومن مصنَّفاته رسالة في الردّ على الشيخ تقي الدين في مسألة الطلاق، ورسالة في الردّ عليه في مسألة الزيارة، وشَرَح قطعة من المِنْهاج[٥]، ونَظَم ونَثَر وتولّى قضاء دِمَشْق بعد القاضي جلال الدين القَزْوِينيّ لمّا نُقِل إلى قضاء الديار المصريّة، فتوجّه إلى مصر فمات ببلبيس. ومن شعره قصيدته التي مَدَح بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم التي أوّلها: [البسيط]

أهواكِ يا رَّبةَ الأستار أهواكِ ... وإن تَباعَدَ عن مَغْنايَ مغناك
وأُعْمِلُ العِيسَ والأشواقُ تُرْشِدُنِي ... عسى يُشاهِدُ مَعْناك مُعَنَّاكِ
تَهْوِي بها البِيدُ[٦] لا تَخْشَى الضلالَ وقد ... هَدَتْ ببرق الثنايا الغُرّ مُضْناكِ
تشوقُها نسماتُ الصبح ساريةً ... تسوقها نحو رؤياكِ بريّاكِ

(١) المعروف أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يعيّن نائباً للسلطنة بالديار المصرية بعد أرغون الدوادار. والذي في السلوك والدرر الكامنة أن ناصر الدين هذا كان نائباً بحلب فقط.
(٢) زيادة عن شذرات الذهب والدرر الكامنة.
(٣) الزملكاني: نسبة إلى زملكا من قرى دمشق.
(٤) نسبة إلى جدّ.
(٥) المراد: منهاج الطالبين وعمدة المفتين لمحيي الدين النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ.
(٦) في الأصل: «البيض». وما أثبتناه عن فوات الوفيات.

ومنها:

إنّي قصدتُكِ لا أَلْوِي على بَشَرٍ ترمي النوى بي سِراعاً نحو مَسْراكِ
وقد حططتُ رحالي في حِماك عسى تُحَطُّ أثقالُ أوزاري بلُقْياكِ
كما حططت بباب المصطفى أَمَلِي وقلت للنفس بالمأمول بُشْراكِ
محمد خير خلق الله كلِّهم وفاتحُ الخيرِ ماحِي كلِّ إشْراك

قلت: وهي أطول من ذلك وكلها على هذا المنوال، وهو نظم فقيه لا بأس به.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وعشرون أصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وخمس أصابع. والله أعلم.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفّي شيخ الإسلام تَقِيّ الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تَيْمِيَّة الحَرّانِيّ الدِّمَشْقِيّ الحنبليّ بدِمَشْق في ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة في سجنه بقلعة دِمَشْق. ومولده في يوم الاثنين عاشر ربيع الأوّل سنة إحدى وستين وستمائة. وكان سُجِن بقلعة دِمَشْق لأمورٍ[1] حكيناها في غير هذا المكان. وكان إمامَ عصره بلا مُدافعة في الفقه والحديث والأصول والنحو واللُّغة وغير ذلك. وله عِدَّة مصنَّفات مفيدة يَضِيق هذا المحلُّ عن ذكر شيء منها. أَثْنَى عليه جماعةٌ من العلماء مثل الشيخ تقّي الدين بن دَقِيق العِيد والقاضي شهاب الدين الجُوَيْنِي والقاضي شهاب الدّين ابن النّحاس. وقال القاضي كمال الدين بن الزَّمْلَكَانِيّ المقدَّم ذكره: اِجتمعتْ فيه شروطُ الاجتهاد على وجهها، ثمّ جرَتْ له مَحِنٌ في مسألة الطلاق الثلاث، وشَذَّ

(١) انظر كتاب عبد الرحمن الشرقاوي: «ابن تيمية، الفقيه المعذّب».

الرِّحالِ إلى قبور الأنبياء والصالحين، وحُبِّب للناسِ القيامُ عليه. وحُبِس مَراتٍ بالقاهرة والإسكندرية ودِمَشْق، وعُقِد له مجالسُ بالقاهرة ودِمَشْق مع أنّه حصَل له في بعضها تعظيمٌ من الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأُطْلِق وتَوَجَّه إلى دمشق وأقام بها إلى أن ورَد مرسومٌ شريف في سنة ستّ وعشرين وسبعمائة بأن يُجْعَل في قلعة دِمَشْق في قاعة، فَجُعِل في قاعة حسنة وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والكتابة. ثم بعد مدّة مُنِع من الكتابة والمطالعة وأخرجوا ما عنده من الكُتُب، ولم يتركوا عنده دواةً ولا قلماً ولا ورقةً، ثم ساق آبن الزَّمْلَكاني كلاماً طويلاً الأليقُ الإضرابُ عنه.

وتُوفّي الأمير سيف الدين جُوبانَ بن تُلَك بن ندوان[1] نائب القان بُو سعيد مَلِك التَّتار. وكان جُوبان هذا قد ثَقُل على بُو سعيد فَأَسَرَّ إلى خاله ايرنْجِي قَتْلَه فلم يمكنه ذلك، فأخذ آبنَه دمَشْقَ خجا وقَتَله، فَفَرّ جُوبان إلى هَرَاة فلم يَسْلَم وقُتِل بها[2]. وكان شجاعاً عاليَ الهمّة حسنَ الإسلام. أَجْرَى العَيْنَ إلى مكّة في جُمادَى الأولى سنة ستّ وعشرين وسبعمائة، وأنشأ مدرسةً بالمدينة النبويّة؛ ولمّا مات حُمِل إلى مكّة مع الرَّكْب العِرَاقيّ، وطِيفَ به الكعبة، ووُقِف به عَرَفَةَ وهو ميّت، ثم مُضِي به إلى المدينة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فدُفِن بالبَقِيع.

وتُوفّي أمير المدينة النبويّة الشريف كُبَيْش بن منصور بن جَمّاز الحُسَينيّ المَدَنِيّ في أوّل شعبان قتيلاً ــ وكانت ولايتُه على المدينة بعد قتل أبيه منصور في رابع عشر رمضان سنة خمس وعشرين وسبعمائة ــ قتلَه أولادُ وُدِّي[3]، وكان وُدِّي قد حُبِس بقلعة الجبل، فولي بعده إمرةَ المدينة أخوه طُفَيْل.

وتُوفّي الأمير الكبير شمس الدين قَراسُنْقُر بن عبد الله المنصوريّ بمدينة مَراغَة من عَمَل أَذْرَبِيجَان في يوم السبت سابع عشرين شوّال؛ وكان من كِبار المماليك

---

(١) في السلوك: «تداون».

(٢) ذكر المقريزي في السلوك تفاصيل وافية عن أحوال جوبان مع أبي سعيد (انظر السلوك: ٢/١/٢٩٢ ــ ٢٩٥).

(٣) هو وديّ بن جماز بن شيحة الحسيني. انتزع إمارة المدينة من ابن أخيه طفيل بن منصور بن جماز، ثم ظفر طفيل، وحبس وديّ سنة ٧٢٩هـ. ثم غضب الملك الناصر على طفيل فحبسه بمصر وولى وديّ إمارة المدينة سنة ٧٣٦هـ. (الأعلام: ٨/١١٢).

المنصوريّة وأجلّ أمرائهم؛ وقد ولي نيابةَ حَلَب والشام ثم حَلَب، وهو أحد مَنْ كان سبباً في قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وأحد مَنْ كان السبب لعَوْد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى مُلْكه في هذه المرّة الثالثة، وقد مَرَّ من ذكره في ترجمة المظفَّر بيبَرْس الجَاشْنَكِير، وفي أوّل سلطنة الملك الناصر الثالثة، وحَكَيْنا كيفية خروجه من البلاد الحلبية إلى التتار، فلا حاجةَ إلى ذكر ذلك ثانياً، وما ذكرناه هنا إلّا بسبب وفاته والتعريف به. اِنتهى.

وتُوُفّي ببغداد مُفْتِي العِراق وعالمُه الشيخ جمال الدين عبد الله بن محمد بن عليّ بن حَمّاد بن ثابت الواسِطي مدرِّس المستنصريّة[1] في ذي القعدة. ومولده في سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين جُوبان بن عبد الله المنصوريّ أحد أكابر أمراء دِمَشْق بها في العشرين من صفر سنة ثمانٍ وعشرين، وكان شجاعاً مِقْداماً.

وتُوفي الأمير سيف الدين بَكْتَمُر البُوبَكْرِيّ في سجنه بقلعة الجبل يوم الخميس النصف من شعبان. وكان من أكابر الأمراء من أصحاب بيبَرْس الجَاشْنَكِير وسَلّار، فلمّا تسلطن الملك الناصر ثالث مرّة قَبَض عليه في جملة من قَبَض عليهم وحَبَسه بقلعة الجبل إلى أن مات.

وتُوفّي الشيخ عَفِيف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المُحسن الواعظ الشهير بآبن الخَرّاط البغدادي الدَّواليبيّ الحنبليّ في هذه السنة. ومولده في سنة بضع وثلاثين وستمائة. وكان إماماً واعظاً بليغاً، ولوعظه مَوْقِعٌ في القلوب وعليه قابليَّة.

وتُوفّي الأمير جمال الدين خضْر بن نُوكَاي التتاري أخو خَوَنْد أردوكين[2]

(١) المدرسة المستنصرية: بناها المستنصر بالله العباسي، وتمّ بناؤها سنة ٦٣١هـ على دجلة فيما يلي دار الخلافة من جهة الشمال. وقد نقل إليها الكتب النفيسة، وكان عدد الحمالين الذين حملوا الكتب مائة وستين حمالاً. قال ابن واصل: ما بني على وجه الأرض أحسن منها، ولا أكثر منها وقوفاً. (انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٤٦١؛ وفي التراث العربي لمصطفى جواد، ص ٣٤، ٥٥).

(٢) هي خوند أردوكين بنت نوكاي (نوكيه) المغولية. تزوجها الأشرف خليل وتوفي عنها. ثم تزوجها أخوه السلطان الناصر. وتوفيت سنة ٧٢٤هـ.

الأشرفية المتوفية في سنة أربع وعشرين. وكان خِضْر هذا من أعيان أمراء الديار المصرية، وله حُرْمةٌ وثَرْوةٌ وحَشَم.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وتسع أصابع.

* * *

سنة عشرين من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

فيها تُوفّي الأمير غَرْس الدين خليل بن الإربلِيّ أحد أمراء العشرات بديار مصر في سادس صفر؛ وأَنْعم السلطانُ بإمرته على إياجي الساقي. وكان خليل المذكور شجاعاً فاضلاً وجيهاً في الدولة.

وتوفي الأمير سعد الدين سعيد آبن الأمير الكبير حُسام الدين حُسَين في ثامن عشر المحرم وأُنْعِم بإمرته على تكا[١] الناصريّ.

وتُوفّي الشيخ الإمام الفقيه جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الوَاسِطيّ الأشْمُومِيّ[٢] الشافعيّ المعروف بالوَجيزي لكثرة قراءته «كتاب الوَجيز»[٣] في الفقه في ثامن عشر المحرّم. وكان فقيهاً عالماً معدوداً من فقهاء الشافعية، وتَوَلّى قضاء قليوب والجيزة.

وتُوفّي الأمير الكبير شرف الدين حسين بن أبي بكر بن أسعد[٤] بن جَنْدَر بَاك الروميّ في سادس المحرّم. وكان قَدِم صحبة أبيه إلى الديار المصرية في سنة

(١) في السلوك: «تكلان».
(٢) في السلوك: «الأشموني» وكلاهما صحيح.
(٣) كتاب الوجيز في فقه الشافعية، ألفه الإمام أبو حامد الغزالي.
(٤) في السلوك: «إسماعيل».

خمس وسبعين وستمائة في أيام الملك الظاهر بِيبَرْس البُنْدُقْدارِيّ في جملة من قَدِم من أهل الروم. وكان أبوه أمير جَانْدار متملّك[١] بلاد الروم معظّماً في بلاده. وكان أمير حسين هذا رأسَ مدرج[٢] لحُسام الدين لاجين لما كان نائب الشام، لأنه كان رأساً في الصيد ولَعِب الطير، فلمّا تسلطن لاجين أمَّره عشرة بمصر، ثم وقع له أمور وصار من جملة أمراء الطبلخاناه بدِمَشْق، ونادمَ الأفرَم نائب الشام إلى أن فرّ [الأفرم إلى بلاد التَّتار][٣]. وتوجّه الأمير حسين هذا إلى الملك الناصر محمد إلى الكَرَك، ثم توجه معه إلى الديار المصرية وصار مُقَرَّباً عنده. وكان يُجِيد لعب الصيد والرَّمي بالنُّشَّاب، فأنعم عليه الملك الناصر بتَقْدِمة ألف بالديار المصرية، وأفرد له زاويةً من الطيور الخاص، وجعله أميرَ شِكار رفيقاً للأمير الكوجري، وصار له حُرمة وافرة بالقاهرة. ووقع له أمور ذكرناها في ترجمته في «المنهل الصافي» مستوفاة. وطالت أيام الأمير حسين هذا في السعادة. وعمَر جامعه قريباً من بستان العِدّة والقنطرة التي على الخليج بحِكْر جوهر النُّوبيّ؛ ولمّا فَرَغ من عمارة الجامع المذكور أحضْر إليه المُشِدُّ والكاتبُ حسابَ المصروف فرمى به إلى الخليج، وقال: «أنا خرجتُ عن هذا لله تعالى، فإن خُنتما فعليكما، وإن وفَّيتما فلكما». وكان خفيفَ الرُّوح دائمَ البِشر لطيف العبارة، وكانت في عبارته عُجْمَةٌ لُكْنة؛ كان إذا قال الحكاية أو النادرة يظهر لكلامه حَلَاوة في القلب والسمع.

وتُوفّي الأمير سيف الدين بَكْتَمُر بن عبد الله الحُسامِيّ الحاجب في يوم الأربعاء حادي عشرين شهر ربيع الآخر بداره خارج باب النصر. وأنعم السلطان على ولده ناصر الدين محمد بإمْرة عشرة[٤] وسِنُّه يومئذٍ ثلاث عشرة سنة. وفَرَّق الملك الناصر إقطاعه على جماعة، فَكَمُلَ للأمير طُرْغَاي الجَاشْنَكِير تقدمة ألف، وأنعم على الأمير

(١) المقصود بذلك غياث الدين كيخسرو ملك السلاجقة الروم بآسيا الصغرى.

(٢) المقصود أمير شكار، أي المتولي أمر طيور الصيد، كما جاء في السلوك: ٣١٤/٢/٢.

(٣) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٤) ذكر القلقشندي في صبح الأعشى: ١٥/٤ أن أولاد الأمراء المتوفين كانوا يعطون إمرة خمسة فقط، وذلك رعاية لسلفهم، وليس بموجب أي حق إقطاعي.

قَوْصُون الناصريّ بمُنْية[1] زفتة. وكان أصل بَكْتَمُر هذا من جملة مماليك الأمير حُسام الدين طُرُنْطاي نائب السلطنة للملك المنصور قلاوون، وكان أُخِذ من بلاد الروم سنة خمس وسبعين[2] وستمائة فيما أُخِذ من مماليك السلطان غِياث الدين كَيْخُسْرُو متملّك بلاد الروم عندما دخل الملك الظاهرُ بِيبَرْس إلى مدينة قَيْسَرِيّة ــ وقد تقدّم ذكرُ ذلك في ترجمة الظاهر ــ فصار بَكْتَمُر هذا إلى طُرُنْطاي، وطُرُنْطاي يوم ذاك مملوكُ الأمير سيف الدين قلاوون الألْفِيّ قبل سلطنته فربَّاه وأعتقه. فلمّا قُتِل طُرُنْطاي صار بَكْتَمُر هذا للأشرف خليل، فرتَّبه في جملة الأوْجاقِيّة في الإسطبل السلطانيّ. ثم نقله [المنصور لاجين][3] وجعله أمير آخور صغيراً، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة بعد وفاة الفاخري. وما زال يترقّى حتّى ولي الوزارة، ثم الحُجوبيّة بدِمِشْق ثم نيابة غَزّة ثم نيابة صَفَد ثم حُجوبيّة الحُجّاب بديار مصر إلى أن مات. وهو صاحب المدرسة والدار[4] خارج باب النصر من القاهرة. وخَلَّف أموالاً كثيرة، وكان معروفاً بالشُّحّ وجمع المال.

قلت: وعلى هذا كان غالبُ أولاده وذريتّه ممّن أدركنا. قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ في تاريخه: «وكان له حِرْصٌ عظيم على جَمْع المال إلى الغاية، وكان له الأملاك الكثيرة في كلّ مدينة، وكان له قُدُورٌ يُطْبخ فيها الحمَّص والفول وغير ذلك من الأواني تُكْرَى، وكان بخيلاً جِدّاً. حَكَى لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس قال: «كنتُ عنده يوماً وبين يديه صغير من أولاده وهو يبكي ويتعلّق في رقبته ويبوس صدرَه، فلمّا طال ذلك من الصغير قلت له: يا خَوَنْد، ما له؟ قال: شيطان يريد قَصَبَ مَصّ. فقلت: يا خَوَنْد، إقْضِ شهوتَه. فقال: يا بخشي[5]، سَيِّر إلى السُّوق أربعَ فُلُوس هاتِ له عُوداً. فلمَّا حضر العود القَصب وجدوا الصغير قد نام ممّا تَعَنَّى وتَعِب في طلب القصب. فقال الأمير

(١) بلدة على الشاطىء الأيسر لفرع دمياط، بمديرية الغربية الحالية. وتعرف باسم زفتى.

(٢) في الأصل: «خمس وتسعين» وما أثبتناه عن السلوك.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) ذكرهما المقريزي باسم دار الحاجب ومدرسة الحاجب. (خطط: ٢/٦٤).

(٥) كان بخشي هذا خازندار بكتمر.

بَكْتَمُر: هذا قد نام، رُدُّوا العود وهاتوا الفلوس!». اِنتهى كلام الصَّفَدِيّ.

قلتُ: ولأجل هذا كانت له تلك الأملاك الكثيرة والأموال الجمَّة. وإلّا مَنْ هو بَكْتَمُر بالنسبة إلى غيره من الأتابَكِيّة ونُوّاب البلاد الشاميّة وغيرهم من عظماء الأمراء! ولكن هذا من ذاك. اِنتهى.

وتُوفّي الشيخ الإمام جلال الدين أبو بكر عبد الله بن يوسف بن إسحاق بن يوسف الأنصاريّ الدَّلَاصِيّ إمام الجامع الأزهر بالقاهرة عن بِضْع وثمانين سنة. وكان يعتقد فيه الخير، وله شُهرة بالدِّين والصلاح.

وتُوفّي قاضي قضاة دِمَشْق علاء الدين أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن يوسف القُونَوِيّ الشافعيّ في يوم السبت رابع عشر ذي القعدة. وكان عالماً مصنِّفاً بارعاً في فنون من العلوم.

وتُوفّي الأمير عزّ الدين أَيْبَك الخَطيريّ أمير آخور في العشرين من ذي القعدة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين سَاطُلْمش بن عبد الله الفَاخِريّ في ثالث ذي الحجّة، وأُنْعِم بإقطاعه على الأمير كُوجَبَا الساقيّ. وكان قديمَ هجرة في الأمراء، وله وجاهة عند السلطان وغيره.

وتوفي الأمير ناصر الدين نصر الطَّواشِي شيخ الخُدَّام بالحَرَم النبويّ، ومُقَدّم المماليك السلطانية معاً في يوم الخميس عاشر شهر رجب. وآستقرّ عِوضَه في مشيخة الخُدّام وتَقْدِمة المماليك السلطانية الطَّواشيّ عَنْبر السَّحَرتي. [ومات عِزّ الدين][1] القَيْمُريّ.

وتُوفّي الأمير علاء الدين عليّ بن الكافري والي قُوص. كان ولي عِدّة أعمال، وكان من الظَّلَمة.

وتُوفّي الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله الأَيْدَمُريّ في شهر رجب الأول.

---

(١) زيادة عن السلوك.

وتُوفّي الشيخ عِزّ الدين أبو يَعْلَى حمزة آبن المُؤيّد أبي المعالي بن المظَفَّر بن أسعد بن حمزة القَلاَنِسيّ الشافعيّ بدِمَشْق.

وتُوفّي الشيخ الإمام نجم الدين أبو عبد الله محمد بن عقيل بن أبي الحسن بن عقيل البالِسيّ الشافعيّ بمصر. كان إماماً فقيهاً مُدرِّساً مصنِّفاً، شَرَح التنبيه في الفقه.

وتُوفّي القاضي مُعِين الدين هِبَة الله آبن علم الدين مسعود بن عبد آلله بن حَشِيش، صاحب ديوان الجيش بمصر، ثم ناظر جيش دِمَشْق في جُمادَى الآخرة. كان إماماً فاضلاً نحويّاً كاتباً، وله فضائل، وتنقّل في عِدّة خِدَم.

وتُوفّي الأمير حُسام الدين لاجين بن عبد الله الصغير بقلعة الْبِيرَة[١].

وتُوفّي شرف الدين يعقوب بن عبد الكريم بن أبي المعالي الحَلَبيّ[٢] بحَمَاة. كان فاضلاً كاتباً تنقّل في عِدّة خِدَم بالبلاد الشاميّة وغيرها، وتَوَلّى كتابة السِّرّ بحلب غيرَ مرّة، وكان فيه رياسة وحشمةٌ. وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نبَاتة: [الرمل]

قالتِ العَلْيَا لمن حاوَلَها ... سَبَق الصاحبُ وآحتلَّ ذُراها
فدَعُوا كَسْبَ المعالي إنَّها ... حاجةٌ في نفس يعقوب قَضاها

وتُوفّي الأمير سيف الدين أغزلُو[٣] بن عبد الله الرُّكني منفيّاً بقُوص في ربيع الآخر؛ وكان من أعيان الأمراء أصحاب بِيبرس وسَلّار.

---

(١) البيرة: بلدة في تركيا في الجنوب منها، تقع على الفرات، قرب سميساط، من ثغور الروم. وهي ذات قلعة عامرة ولها رستاق. يطلق عليها في الحاضر اسم «بيرة جك» أي البيرة الصغيرة. وقد ولي حسام الدين لاجين المذكور نيابة البيرة، وكانت في ذلك الوقت نيابة جليلة ولنائبها مكانة كبيرة. (دائرة المعارف الإسلامية: ٥٦٧/٨؛ والمشترك: ٧٥، والتعريف بالمصطلح الشريف: ٢٣٢).

(٢) كذا في الدرر الكامنة. وفي الأصل والسلوك: «المصري» والمصادر التي ترجمت له لم تذكر أنه أتى إلى مصر.

(٣) كذا ضبطه المؤلف في المنهل الصافي: بألف مهموزة بعدها غين معجمة مكسورة وزاي ساكنة ولام مضمومة وواو ساكنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وخمس أصابع. والله أعلم.

* * *

سنة إحدى وعشرين من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة ثلاثين وسبعمائة.

فيها تُوفّي المُسْند المُعَمَّر الرُّحْلة أحمد بن أبي طالب بن أبي النِّعَم بن نِعْمة بن الحسن بن عليّ المعروف بآبن الشِّحْنة وبالحَجَّار الصالحيّ الدمشقِيّ في خامس عشرين صفر. ومولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة. ومات وهو مُسْند الدنيا وتفرّد بالرواية عن آبن الزَّبِيدِيّ وآبن اللَّتِّي مدّة سنين لا يُشاركه فيها أحد، وسَمِع الناس عليه صحيحَ البخاريّ أكثر من سبعين مرّة لعُلوّ سَنَده. وقَدِم القاهرة مرتين، وحدّث بها ورُحِل إليه من الأقطار.

وتُوفّي الأمير سيف الدين بَهادُر آص المنصوريّ أحد أمراء الألوف بدِمَشق في تاسع عشر صفر الخير، وأُنْعِم بإقطاعه على الأمير سَنْجَر البَشْمَقْدار[1]. وكان بهادُر شجاعاً مِقداماً في الحرب، وتولّى نيابة صَفَد. وكان له أربعة أولاد منهم آثنان أمراء، فكانُ يُضْرَبُ على بابه ثلاث طبلخانات. وقد تقدّم ذكره في أواخر ترجمة المظفّر بيبَرْس الجَاشْنَكِير لمّا قَدِم مملوك الملك الناصر على الأفْرم نائب الشام ونحوه.

وتُوفّي الأمير سيف الدين بَلَبان بن عبد الله الدَّوَادَاري المِهْمَنْدار بدِمَشْق في نصف جُمادَى الأولى، وكان من جملة أكابر أمراء دِمَشْق.

(١) في السلوك: «الجمقدار». والبشمقدار: هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير ــ والجمقدار: هو الذي يمشي في المواكب السلطانية عن يمين السلطان، ويحمل دبوساً له رأس ضخم مذهب. ومن واجباته أن يكون نظره متجهاً إلى السلطان من أول خروج الموكب إلى انفضاضه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٦٥، ٩١).

وتُوفّي الأمير سيف الدين قلبرس ابن الأمير سيف الدين طَيْبَرْس الوزيريّ بدِمَشْق في ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة. وكان من جملة أمراء دِمشق، وكان فيه مكارمُ وحشمة.

وتُوفّي الأمير عزّ الدين أَيْدَمُر[١] بن عبد الله أمير جَانْدار مقتولاً بمكّة المشرّفة في يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة. وسبب قتله أنه توجّه إلى الحج في هذه السنة، فقتله بعض عَبِيد أمير مكّة محمد بن عُقْبة بن إدريس بن قَتادة الحَسَنِيّ. وسببه أن بعض عبيد مكّة عبِثوا على بعض حُجّاج العراق وتخطّفوا أموالهم، فآستصرخ الناس به، وكان قد تأخّر عن الحاج مع أمير الركب لصلاة الجمعة بمكة، فنهض والخطيب على المِنْبَر، فمنعهم من الفساد ومعه ولده، فتقدّم الولد فضرب بعض عبيد مكّة فضربه العبد بحَرْبة فقتله. فلمّا رأى أبوه ذلك آشتدّ حَنَقُه وحمل ليأخذ بثأر آبنه، فرُمِي الآخرُ بحَرْبة فمات. وتفرّق الناس ورَكِب بعضُهم بعضاً ونُهبت الأسواق، وقُتِل خَلْق من الحَجاج وغيرهم وصَلّى بعض الناس والسيوفُ تَعْمَل، وقُتِل مع أَيْدَمُر مملوكُه وأميرُ عشرة يُعرف بابن التّاجي. وتراجع الأمراء المصريون إلى مكّة لطلب بعض الثأر فلم يُنْتِج أمرُهم وعادوا فارّين. ثم أمر أميرُ المصريين بالرحيل؛ وعادوا إلى القاهرة وأخبروا الملك الناصر محمد بن قلاوون، فجهَّز إلى مكة عسكراً كثيفاً وعليه عِدّةٌ من الأمراء، فتوجّهوا وأخذوا بثأر أَيْدَمُر وآبنه، وقتلوا جماعة كثيرة من العبيد وغيرهم، وأسرفوا في ذلك وخرجوا عن الحدّ إلى الغاية. وتشتّت أشراف مكة والعبيد عن أوطانهم وأُخِذت أموالُهم، وحَكَمت التركُ مكّة من تلك السنة إلى يومنا هذا، وزال منها سطوةُ أشراف مكّة الرافضة والعبيد إلى يومنا هذا[٢]. وآنقمع أهلها وآرتدعوا، وكَرِههم الملك الناصر ومقَتهم وأقصاهم، حتى إنه لمّا حجّ بعد ذلك كان إذا أتاه صاحب مكّة لا يقوم له مع تواضُع الملك الناصر للفقهاء والأشراف والصلحاء وغيرهم. وكان أَيْدَمُر

(١) في السلوك والدرر الكامنة: «أَلْدَمُر».
(٢) قارن بالسلوك: حوادث سنتي ٧٣٠و ٧٣١هـ، إذ فيه تفاصيل وافية وببعض اختلاف عما هنا.

المذكور معظَّماً عند الناصر وجيهاً في دولته، وله الأملاك الكثيرة والأموال الجزيلة، وكان خيرّاً ديِّناً صالحاً.

وتُوفّي القاضي الرئيس علاء الدين أبو الحسن عليّ ابن القاضي تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد المعروف بابن الأثير كاتب سِرّ مصر، في يوم الأربعاء خامس عشر المحرم بعد ما تعطّل وأصابه مرض الفالج مدّة سنين. وكان ذا سعادات جليلة وحُرْمة وافرة وجاهٍ عريض، يُضْرَب به المَثَلُ في الحِشْمة والرياسة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين قَدَادَار[١] بن عبد الله والي القاهرة وصاحب القنطرة[٢] على خليج الناصريّ خارج القاهرة في سادس عشر صفر. وأُنْعِم بإمرته على الأمير ماجار القَبْجَاقِيّ. وأصل قَدَادَار هذا من مماليك الأمير بُرُلْغِي الأشرفيّ المقدَّم ذكره، وترقّى إلى أن ولي كَشْف الغربيّة وولاية البحيرة من أعمال الديار المصريّة، ثم ولاية القاهرة وتمكّن منها تمكُّناً زائداً، وكان جريئاً على الدنيا، ثم صُرِف عن ولاية القاهرة بناصر الدين محمد [بن][٣] المُحْسِني، وأقام في داره إلى أن خرج للحجّ ثم عاد وهو مريض، فَلَزِم الفراش إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وتُوفّي الشيخ شمس الدين محمد [بن محمد][٤] الرُّوميّ شيخ خانقاه[٥] بَكْتَمُر الساقي في يوم الأحد ثالث عشرين ذي الحجة، ووُلّي عِوضَه الشيخ زاده الدُّوقاتي. رحمه الله.

وتوفي الوزير شمس الدين أبو القاسم محمد بن محمد بن سَهْل بن أحمد بن سَهْل [الأَزْدِي][٦] الغَرْنَاطِيّ الأندلُسيّ بالقاهرة قافلاً من الحجّ.

---

(١) ورد في ص ٦٧ من هذا الجزء: «قديدار».

(٢) راجع خطط المقريزي: ٢/١٤٨.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن نهاية الأرب.

(٥) انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٣.

(٦) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

وتوفي الأمير سيف الدين كُجْكُن بن عبد الله الساقي الناصريّ في سادس صفر. وكان من خَواصّ الملك الناصر محمد وأكبر مماليكه.

وتُوفّي الشيخ الإمام الأديب ناصر الدين شافع بن عليّ بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكِنَانيّ ثم المصريّ سِبْط الشيخ مُحيي الدين بن عبد الظاهر. ومولده في سنة تسع وأربعين وستمائة. وكان يُباشر الإنشاء بمصر ودام على ذلك سنين إلى أن أصابه سهم في نَوْبة(١) حِمْص الكبرى سنة ثمانين وستمائة في صُدْغه فعَمِي منه، وبَقي ملازماً بيته إلى أن مات. وكان إماماً أديباً فاضلاً ناظماً ناثراً جَمَّاعاً للكتب، خَلَّف ثماني عشرة خِزانة كتب نفائس أدبيّة وغيرها. ومن شعره بعد عماه: [البسيط]

أَضْحَى وُجودِي برغْمِي في الوَرَى عَدَماً ... وليس لي فيهمُ وِرْدٌ ولا صَدَرُ
عَدِمتُ عيني وما لي فيهمُ أَثَرٌ ... فهل وجودٌ ولا عينٌ ولا أَثَرُ

وله أيضاً: [الخفيف]

قال لي من رأى صَبَاح مَشِيبي ... عن شِمالي ولِمَّتي ويَمِيني
أيّ شيء هذا فقلتُ مجيباً ... ليل شَكٍّ محاه صُبْحُ يَقِينِ

وله في شَبّابة(٢): [الخفيف]

سَلَبَتْنا شَبَّابةٌ بهواها ... كلّ ما يُنْسَبُ اللبيبُ إليهِ
كيف لا والمُحسِّن القولَ فيها ... آخذٌ أمرَها بكلتا يديهِ

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

(١) راجع حوادث سنة ٦٨٠هـ في الجزء السابع من هذا الكتاب.

(٢) الشبَّابة: آلة نفخ موسيقية متخذة من القصب المجوّف، ويعبر عنها بالمزمار العراقي؛ ويقال لها اليراع. (معجم متن اللغة).

سنة آثنتين وعشرين من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة.

فيها تُوُفّي الأمير شهاب الدين صمغار آبن الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشْقر في ثالث عشر المحرّم ـ وكان من جملة أمراء الطبلخانات بالديار المصرية ـ وأَنْعَم الملك الناصر بإقطاعه على بَهَادُر [بن أَوْلِيَا][1] بن قَرَمان. وكان صمغار المذكور بطلاً شجاعاً يخافه الملك الناصر، وفرِح بموته.

وتُوفّي الأمير علاء الدين عليّ[2] آبن الأمير قَطْلُوبَك الفَخْرِيّ أحد أمراء العشرات في سابع عشرين المحرّم، وأُنْعِم بإقطاعه على الزَّيْنِي[3] أمير حاجّ آبن الأمير طُقُزْدَمُر الحمويّ.

وتُوفّي الأمير سيف الدين مَنْكَلِي بُغَا السلاح دار في يوم الأحد سادس صفر ودُفِن خارج باب النصر من القاهرة. وكان أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، وأَنْعَم السلطان بإمرته على الأمير تَمُرْبُغَا السَّعْديّ. وكان مَنْكَلِي بُغَا المذكور كثير الأكل كثيرَ النكاح، وله فيهما حكايات عجيبة مُضْحِكة.

وتُوفّي قاضي القضاة بدِمَشْق عِزّ الدين أبو عبد الله محمد بن تَقِيّ الدين سليمان بن حَمْزة بن أحمد بن عمر آبن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قُدَامَة الحنبليّ الدِّمَشْقِيّ بها في يوم الأربعاء تاسع صفر. وكان ولي قضاء الحنابلة بدمشق بعد القاضي شرف الدين أبي محمد[4] عبد الله بن الحسن بن عبد الله عبد بن الغنيّ المَقْدِسِيّ إلى أن مات في هذا التاريخ. وكان عالماً فاضلاً مشكورَ السِّيرة.

---

(١) زيادة عما تقدم للمؤلف في الجزء الثامن.

(٢) في السلوك: «وتوفي أمير علي أخو قطلوبك».

(٣) أي أن لقبه زين الدين. وعلى هذا النحو في اختصار بعض الألقاب جرى اصطلاح كتاب العصر المملوكي، كأن يقال لعلاء الدين: العلائي، ولشمس الدين: الشمسي، ولمحيي الدين: المحيوي... إلخ.

(٤) في الأصل: «شرف الدين أبو عبد الله محمد» ،، أثبتناه عن السلوك والدرر الكامنة وشذرات الذهب.

وتُوفِّي الأمير قِجْلِيس بن عبد الله أمير سلاح في يوم الثلاثاء خامس عشر صفر، وأَنعم السلطان بإقطاعه وهو إِمْرةُ مائة على الأمير سَاطُلْمش الجَلاَلِي. وكان قجِلْيس المذكور من أعيان أمراء الديار المصرية وأماثلهم.

قلت: ولم يكن «أمير سلاح» تلك الأيام في رتبة أيّامنا هذه. وإنّما كان أمره أنه يَحْمِل سلاح السلطان ويُناوِلُه إيّاه في يوم الحرب وفي عيد النَّحْر، وكان يجلس حيث كانت منزلته[1]، وآستمرّ ذلك إلى أوائل سلطنة الملك الظاهر بَرْقُوق حسب ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى في محلّه.

وتوفّي الأمير سيف الدين طُرْجِي بن عبد الله الساقي أمير مجلس في يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الآخر. وكانت وظيفة أمير مجلس يوم ذاك أكبر من وظيفة أمير سلاح، وكان هو الذي يحكم على الجرايحية والحكماء وغيرهم.

وتوفّي الشيخ المُسْنِد المُعَمَّر بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن عمر بن حَسَّان بن أبي بكر بن عليّ الحنفيّ في يوم الثلاثاء خامس عشر صفر بالقاهرة، وهو آخر من حدَّث عن سِبْط[2] السِّلَفِيّ، وكان صار رُحْلةَ الناس في ذلك.

وتوفي الأمير سيف الدين بغجار[3] بن عبد الله الساقي أحد أمراء الطبلخاناه بديار مصر، وأَنْعَم الملك الناصر بإقطاعه على الأمير عمر بن أَرْغُون النائب.

وتوفّي الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير حُسام الدين طُرُنْطَاي المنصوريّ

(١) الذي ذكره ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) والقلقشندي (ت ٨٢١هـ) أن أمير سلاح كان من جملة الأمراء المقدمين في دولة الناصر محمد بن قلاوون، أي كان من أمراء المئين مقدمي الألوف؛ وهؤلاء كانوا يتولون الوظائف الكبرى في البلاط والدولة. وكان في مصر في دولة الناصر محمد بن قلاوون ومن جاء بعده إلى آخر دولة الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤ ــ ٧٧٨هـ) أربعة وعشرون مقدماً. ثم كان بعد ذلك ثمانية عشر أو عشرين. (التعريف بالمصطلح الشريف: ٩٣، ١١٣؛ وصبح الأعشى: ١٤/٤، ١٨).

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي اكرم مكي بن عبد الرحمن الطرابلسي الإسكندراني ــ راجع وفيات سنة ٦٥١هـ.

(٣) في الأصل: «بيقجا» وما أثبتناه عن السلوك.

في يوم الأربعاء ثامن شهر رجب، وهو أحد أمراء الألوف بالديار المصريّة. وكان أميراً شجاعاً كريماً وجيهاً في الدُّوَل.

وتُوفِّي الأمير الكبير أَرْغُون بن عبد الله الناصريّ نائب السلطنة الشريفة ثم نائب حلب، وبها مات في ليلة السبت ثامن عشر شهر ربيع الأوّل وقيل ربيع الآخر. وأصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة. اِشتراه وربّاه وأدّبه وتَبَنَّى به وأمره بملازمة الاشتغال، فآشتغل ودأب وبرع وكتب الخطّ المنسوب، وسَمِع صحيح البخارِيّ بقراءة الشيخ أَثِير الدِّين[1] أبي حَيَّان، وكتب بخطّه صحيح البخارِيّ، وبرع في الفقه وأصوله، وأُذِن له في الإفتاء والتدريس. قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ: قال لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس: كان أَرْغُون يَعْرِف مذهب أبي حنيفة ودقائقه ويَقْصُر فهمُه في الحساب إلى الغاية.

قلت: كان قصور فهمِه في الحساب إذ ليس هو بصَدَده؛ ولو صرف هِمَّتَه إلى ذلك لفهِمَه وعلِمه على أحسن وجه. اِنتهى. ورَقَّاه أستاذه الملك الناصر لمَّا رَأَى فيه مخايل النَّجابة، وجعله دواداراً بعد الأمير بِيبَرْس الدَّوادار، ثمّ ولَّاه نيابة السلطنة بديار مصر وجعل أمورها كلَّها إليه؛ فدام في نيابة السلطنة نحو ست عشرة سنة، ثم أخرجه لنيابة حَلَب. وقد ذكرنا سَبَب إخراجه لحلب في أصل هذه الترجمة. وتولى نيابة حلب بعد عَزْل الأمير أَلْطُنْبُغَا الصالحيّ، فباشر نيابتها نحو أربع سنين. وهو الذي أمر بحَفْر نهر الساجور[2]، وأجراه إلى حَلَب في سنة إحدى وثلاثين. وكان ليوم وصوله يوم مشهود. وفي هذا المعنى يقول الرئيس شرف الدين أبو عبد الله الحسين [بن سليمان][3] بن رَيَّان رحمه الله: [البسيط]

---

(١) انظر وفيات سنة ٧٤٥هـ في الجزء العاشر.

(٢) نهر الساجور: هو نهر أصله من عينتاب، ويجتمع إليه عيون من بلاد تلّ باشر، ثم ينتهي إلى الفرات ويصب فيه. والإشارة هنا إلى أن أرغون ساق الماء من نهر الساجور إلى نهر قويق. (انظر الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ١٣٦، ١٦٩).

(٣) زيادة عن الدرر الكامنة.

لَمَّا أَتَى نَهَر الساجورِ قلتُ له ماذا التأَخُّرُ من حينٍ إلى حينِ
فقال أَخَّرَنِي رَبِّي لِيجْعَلَنِي من بعض معروف سَيْفِ الدِّين أَرْغُون

وقال الشيخ بدر الدين الحسن [بن عمر بن الحسن][1] بن حبيب في المعنى أيضاً: [السريع]

قد أضحتِ[2] الشَّهْبَاءُ تُثْنِي على أَرْغُونَ في صبحٍ ودَيْجُورِ
من نَهَرِ الساجورِ أَجْرَى بها للناس بَحْراً غيرَ مَسْجُورِ

وقد آستوعبنا أمر أَرْغُون هذا في المنهل الصافي بأكثر من هذا، إذ هو محلّ الإطناب في التراجم.

وتوفّي تاج الدين إسحاق [بن عبد الكَرِيم][1]، وكان أوَّلاً يُدْعَى عبد الوهاب، ناظر الخاصّ الشريف في يوم الاثنين مستهلّ جُمادَى الآخرة. وكان أصله من أقباط مصر يَخْدُم في الدواوين، ثم صار ناظرَ الدولة، ثم باشر نَظَر الخاصّ بعد كَرِيم الدين الكبير، فباشر بسكون وحِشْمة وآنجماع عن الناس مع حسن سياسة إلى أن مات. وتَوَلى الخاص بعده آبنهُ شمس الدين موسى الذي وقع له مع النَّشْو ما وقع من العقوبات والمصادرات، ومدّ الله في عمره إلى أن رَأى نَكْبة النَّشو وقَتْلَه، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في محله من هذا الكتاب على سبيل الاختصار. وقد آستوعبنا أَمر موسى المذكور في المنهل الصافي بما فيه عجائب وغرائب، فلْيُنظَر هناك.

وتوفّي التاجر تاج الدين أبو بكر بن مُعِين الدين محمد بن الدَّمَامِينيّ رئيس تجّار الكارِم[3] في ثالث عشرين جُمادَى الآخرة، وقد قارب ثمانين سنة، وترك مائة ألف دينار عَيْناً.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) في الأصل: «أصبحت» وبها لا يستقيم الوزن الشعري.

(٣) تجار الكارم (أو الكارمية) هم فئة من التجار كانت بيدهم تجارة البهار والفلفل والقرنفل والعقاقير والبخور والأصباغ ونحوها مما يجلب من الهند والشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر. وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي، فنسبوا إلى =

قلت: ولعله يكون والد الدمامِينِيّة الشاعر والقاضي وغيرهما الآتي ذكرهما.

وتُوفّي ملك الغَرْب صاحب فاس [ومَرَّاكش][(١)] أبو سعيد عثمان بن يعقوب آبن عبد الحق في ذي الحجة، وقام من بعده آبنه السلطان أبو الحسن عليّ. وكانت مدَّة عثمان هذا على فاس وغيرها من بلاد الغرب إحدى وعشرين سنة.

وتوفّي الشيخ المُسْنِد شرف الدين أبو الحسين أحمد بن فخر الدين عبد المحسن بن الرِّفْعة بن أبي المجد العَدَوِيّ. وأبوه عبد المحسن إليه ينسب جامع[(٢)] آبن الرِّفْعَة بين مصر والقاهرة.

= أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى «الكارم». ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. وكان أولئك التجار يملكون أسطولاً تجارياً ضخماً نظموا رحلاته وجعلوا مقره الرئيسي في قوص. وكانوا يعدون القوافل بأنفسهم ويحمونها بجند وخيالة تعمل لحسابهم، وبذلك استطاعوا جني ثروات طائلة، إذ بلغت ثروة البعض منهم مليون دينار. وكانت المحطات الكبرى للتجارة الكارمية في عدن وتعز وزبيد، ومخازنهم التجارية في قوص. وقد زاد المماليك في نشاط التجارة الكارمية التي كانت تعتبر العماد الرئيسي للتجارة المملوكية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي في القرن الرابع عشر، إذ فرضوا الأمن في الحجاز كي لا يفرط أمراؤه بفرض الضرائب والمكوس على التجار أو الإساءة إليهم في مواسم الحج، كما سهرت السلطات المملوكية على فرض الأمن في موانىء البحر الأحمر لتحافظ على حياة التاجر الكارمي الذي يؤمن للدولة مدخولاً هاماً من الضرائب والمكوس. وأدت التجارة الكارمية خدمة جليلة للتجارة المملوكية بتأمينها السلع التي كان يطلبها التجار الأوروبيون، وبذلك جعلت من مصر محوراً للتجارة العالمية في ذلك الوقت وأمنت للسلاطين رصيداً هاماً من الأموال. وازدادت أهمية التجار الكارمية في أواخر القرن الرابع عشر، إذ تضخمت رؤوس أموالهم وتضاعفت ثرواتهم فأضحت لهم مكانة سياسية واجتماعية على قدر مكانتهم التجارية، وقاموا في بعض الأحيان بتسليف الدولة عندما كانت تفتقر إلى المال إبان الحروب أو لتأمين مشاريع داخلية. كما أنهم نظموا أنفسهم في نقابة احتكرت تجارة البهار وأقاموا عليها رئيساً يخضع له جميع التجار بما فيهم أكابرهم. ولا يصبح أحدهم رئيساً إلا بمنحة من السلطان المملوكي، وتلك المنحة كانت تتوقف على مدى ولاء التاجر للسلطان، ومقدار الخدمات التي كان يؤديها له، وعلى ما اكتسبه من مكانة تجارية عالمية. فالرئيس كان يحظى بمركز مرموق ليس في البلاط السلطاني فقط، وإنما في بلاطات ملوك وأمراء الحجاز واليمن والتكرور وغيرها. ومما ساعد على ازدهار التجارة الكارمية أنها كانت سلالية وراثية، خاصة عند آل الخروبي والكويك. فالتاجر منهم كان يدرب أولاده وبعض عبيده على الأساليب التجارية منذ الصغر، حتى إذا شبَّ استطاع إدارة تجارته بنجاح. (انظر الدولة المملوكية لخليل ضومط: ص ٢١٢ ــ ٢٢٣؛ والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٧٣).

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) انظر خطط المقريزي: ٢/٣٢٧.

وتوفّي الشيخ الإمام العلاّمة فخر الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان المَارِدِينِيّ الحنفي الشهير بالتُّرْكُمَانيّ في ليلة السبت حادي عشر رجب. وكان إماماً عالماً بارعاً مُفْتَناً، تصدَّر للإفتاء والتدريس سنين عديدة. وكان مُعظماً عند الملوك. دَرَّس بالمنصورية من القاهرة، وشرح الجامع[1] الكبير، وسَمع الكثير؛ وكان مقدماً على أقرانه، فصيحَ العبارة، عالماً باللغة والعربية، والمعاني والبيان، شيخ السادة الحنفية في زمانه. وهو والد قاضي القضاة علاء[2] الدين، والعَلامة تاج الدين أحمد[3]، وجَدّ جمال الدين عبد الله[4] بن عليّ، وعبد العزيز[4] بن عليّ. وتَخرَّج عليه خلائق كثيرة وآنتفع به الناس.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً. والله أعلم.

* * *

السنة الثالثة والعشرون من سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة.

فيها تُوفّي الأمير الوزير علاء الدين مُغْلَطَاي بن عبد الله الجَماليّ ــ كان يلقّب بخُرز[6] ــ عند نزوله من العقبة عائداً إلى الديار المصرية في يوم الأحد سابع عشر المحرّم، فُحمِل ميّتاً إلى القاهرة؛ ودُفِنَ بخانقاته[7] في يوم الخميس حادي عشرين

---

(١) هو الجامع الكبير في الفروع، للإمام أبي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ١٨٧هـ. وهذا الشرح يسمى شرح الماردينى، وهو كبير في عدة مجلدات. (كشف الظنون: ١/٥٦٧).

(٢) هو علاء الدين علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى التركماني المتوفى سنة ٧٥٠هـ.

(٣) توفي سنة ٧٤٤هـ.

(٤) توفي سنة ٧٦٩هـ.

(٥) توفي سنة ٧٤٩هـ.

(٦) ذكر المقريزي في خططه: ٢/٣٩٢ أن هذا اللفظ تركي ومعناه: الديك؛ وأن الوزير مغلطاي كان أمياً لا يعرف كتابة اسمه. وضبطه صاحب الدرر الكامنة بالعبارة: بضم الخاء المعجمة.

(٧) راجع ص ٧٧ من هذا الجزء، حاشية (٤).

المحرّم. وكان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة، وكان من خواصه وخاصّكِيَّته؛ ثم أَنعم عليه بإمْرَة، ثم نقله على إمْرة بهادر الإبراهيمي [نقيب المماليك][1] دفعةً واحدة، وندبه لمهمّاته، ثم ولّاه أُستاداراً فعَظُم أمرُه، ثم نقله إلى الوزارة وحكّمه في جميع المملكة، فحسُنت سيرتُه وساس الناسَ وأبطل مظالم. وكان جَوَاداً عاقلاً عارفاً حَشِماً يمَيل لفعل الخير. آنتفع به جماعةٌ كثيرة في ولايته، لأنه كان يأخذ على ولاية المباشرات[2] المال، فقصده الناس لذلك. وكان شأنه إذا ولّى أحداً وجاء مَنْ يزيد عليه عزله وولّى مَنْ زاد بعد أن يَعلم أن المعزولَ قد آسْتَوْفَى ما قام [له] به [من المال]، ومن لم يَسْتَوفِ ذلك لم يعزِله. ولم يُصادر أحداً في مدّة ولايته، وهذا من العجْب! ولا ظلم أحداً، بل كانت أيامه مشكورةً. وكان المُسْتَولِي عليه مجدُ الدين إبراهيم[3] بن لُفَيْتَة. وخَلّف الأمير مُغْلَطَاي المذكور عِدّةَ أولاد من زوجته بنت الأمير أسَنْدَمُر كُرْجِي نائب طَرَابُلُس. وإليه تُنْسَب المدرسةُ الجَمَاليّة بالقرب من درب مُلُوخِيا داخل القاهرة بالقرب من داره.

وتوفي الملك المؤيَّد عِمادِ الدين أبو الفداء إسماعيل صاحب حماة آبن الملك الأفضل عليّ آبن الملك المظفَّر محمود آبن الملك المنصور محمد آبن الملك المنصور عمر بن شاهِنْشَاه بن أَيُّوب الأَيُّوبـي في ثالث عشرين المحرّم. وتولّى حماة بعده آبنه الملك الأفضل، وقد تقدَّم ذكر قدومه على الملك الناصر وولايته لحماة بعد وفاة أبيه المؤيَّد هذا. اِنتهى. وكان مولد الملك المؤيَّد في جمادى الأولى سنة آثنتين وسبعين وستمائة، وحفِظ القرآن العزيز وعدَّة كتب، وبرع في الفقه والأصول

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) عبارة الأصل: «يأخذ على ولاية المباشرات المال على أيديهم، فقصدهم الناس لذلك» وقد عدلنا العبارة وزدنا ما بين الحاصرتين بعد مراجعة خطط المقريزي: ٣٩٢/٢ حيث توجد ترجمة وافية لهذا الوزير. وقد أشار المقريزي إلى تولي السلطان بنفسه الإشراف على الوارد والمنصرف يوماً بيوم من أموال الدولة، وذلك أنه لما ثبت له أن الموظفين والدواوين (أي الكتبة) يأكلون أموال الدولة ويحيلون على الوزير الأميّ وهو لا يدري، أمر السلطان «بكتابة أوراق في كل يوم تشتمل على أصل الحاصل، وما حمل في ذلك اليوم من البلاد والجهات وما صرف، وأنه لا يصرف لأحد شيء إلا بأمر السلطان وعلمه».

(٣) كان نصرانياً فأسلم، وتنقل في الخدم الديوانية إلى أن ولي نظر الدولة. توفي سنة ٧٣١هـ.

والعربية والتاريخ والأدب والطّبّ والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة مع الاعتقاد الصحيح. وكان جامعاً للفضائل، وصار من جملة أمراء دمشق، إلى أن خدَم الملك الناصر محمداً عند خروجه من الكَرَك في سلطنته الثالثة. فلما تَمّ أمره أنعم عليه بسلطنة حماة بعد الأمير أَسَنْدَمُر كُرْجِي ــ وقد تقدّم ذلك كله في صدر ترجمة الملك الناصر ــ وجعلَه صاحب حماة وسلطانَها. وقدِم على الناصر القاهرة غيرَ مَرَّة، وحجّ معه، وحَظِي عنده إلى الغاية، حتى إنَّ الملك الناصر رَسَم إلى نُوَّاب البلاد الشامية بأن يكتبوا له: «يُقَبِّل الأرض»، فصار تَنْكِز مع جلالة قَدْره يكتب له: «يُقَبِّل الأرض»، و«بالمَقَام الشريف العالي المَوْلَويّ السلطانِيّ العِمادِيّ المَلَكِيّ المؤيَّدِيّ». وفي العنوان: «صاحب حَماة». ويكتب السلطان الملك الناصر له: «أخوه محمد بن قلاوون، أعزّ الله أنصار المَقَام الشريف العالي السلطانِيّ المَلَكِيّ المؤيَّدِيّ العِمادِيّ» بلا مَوْلَوِيّ. وكان الملك المؤيّد مع هذه الفضائل عاقلاً متواضعاً جواداً. وكان للشعراء به سوق نافق. وهو ممدوح الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ؛ مدحه بغُرَر القصائد ثم رثاه بعد موته. ومن جملة مدائحه له: [الكامل]

أقسمتُ ما الملك المؤيَّد في الوَرَى ... إلّا الحقيقة والكرامُ مَجَازُ
هو كعبةٌ للفضل ما بين النَّدَى ... منها وبين الطالِبين حِجَازُ

ولما مات رثاه بالقصيدة المشهورة التي أوّلها: [البسيط]

ما للنَّدَى ما يُلَبِّي صوتَ داعيه ... أظنُّ أنّ ٱبن شاد[ي] قام ناعيه
ما للَّرجاء قد ٱشتدَّت مذاهبُهُ ... ما للزمان قد ٱسودَّتْ نَواحيه
ما لي أرَى المُلْكَ قد فُضَّتْ مواقِفُهُ ... ما لي أرى الوفدَ قد قاضتْ مَآقِيهِ
نَعَى المؤيَّدَ ناعيهِ فوا أسفا ... للغَيْث كيف غَدَتْ عنّا غَوادِيهِ
وَارَوْعَتَا لصَباحٍ من رَزِيَّتِهِ ... أظنُّ أنّ صباحَ الحَشْرِ ثانيهِ
واحسرتاهُ لنَظْمِي في مدائحهِ ... كيف ٱستحال لِنَظْمِي في مَرَاثيهِ
أَبْكِيه بالدُّرّ من دَمْعِي ومن كَلِمِي ... والبحرُ أحسنُ ما بالدُّرِّ أَبْكِيهِ
أُرْوِي بدَمْعِي ثَرَى مَلْكٍ له شِيَمٌ ... قد كان يَذْكُرها الصَّادِي فتُرْوِيهِ
أذِيل ماءَ جفوني بعده أَسَفا ... لماء وَجْهِي الذي قد كانَ يَحْمِيه

جَارٍ من الدَّمْعِ لا يَنْفَكُّ يُطْلِقُـهُ مَنْ كان يُطلِق بالإنعام جـاديهِ[١]
ومهجـة كلَّمـا فـاهتْ بِلَوْعَتِهـا قـالت رَزِيَّـة مـولاهـا لهـا: إيـهِ
ليتَ المؤيـدَ لا زادتْ عَـوارِفُـهُ فـزاد قلبـي المُعَنَّى من تَـلظِّيـهِ
[٢][ليتَ الحِمام حَبَا الأيامَ مَوْهِبةً فكـان يُفْنِي بني الـدنيـا ويُبْقِيـهِ]
ليتَ الأصاغر يُفْدَى الأكبرونَ بها فكانت الشُّهبُ في الآفاق تَفْـدِيه

والقصيدة أطول من هذا، تزيد على خمسين بيتاً. وله فيه غير ذلك. وقد تقدّم من ذكره في المنهل الصافي أشياء أُخَر لم نذكرها هنا، فلتنظر هناك. ومن شعر الملك المؤيّد في مليح آسمه حمزة: [البسيط]

إسمُ الـذي أنـا أهـواهُ وأعْشَقُـهُ ومَـنْ أعَـوِّذُ قلبـي مـن تَجَنِّيـه
تصحيفُه[٣] في فؤادي لم يزل أبداً وفـوق وَجْنَتِـه أيضـاً وفي فِيـهِ

وتُوفّي الشيخ الصالح المُعْتَقَد ياقوت بن عبد الله الحَبَشيّ الشاذِليّ، تلميذ الشيخ العارف بالله تعالى أبي العباس المُرْسِي، في ليلة الثامن عشر من جُمادَى الآخرة بثغر الإسكندرية وبها دُفِن. وكان شيخاً صالحاً مبارَكاً ذا هيبةٍ ووقار وسَمتٍ وصلاح، وله أحوال وكرامات. وقبره[٤] بالإسكندرية يُقصد للزيارة.

وتُوفّي الشيخ الصالح عبد العال، خليفة الشيخ أحمد البَدَوِيّ وخادمه، بقرية طنتتا[٥] بالغربية من أعمال القاهرة في ذي الحجة. فكان له شهرة بالصلاح، ويُقصد للزيارة والتبرك به؛ ودُفِن بالقرب من الشيخ أحمد البَدَوِيّ، الجميع في موضع واحد، غير أن كلّ مَدْفن في محلّ واحد على حِدته. وخلفاء مقام الشيخ أحمد البدوي من ذريَّة أخيه، لم يبلغنا من كراماته شيء.

---

(١) الجادي: السائل.
(٢) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن ديوانه.
(٣) المراد «حمرة» بالراء المهملة.
(٤) هذا القبر لا يزال موجوداً إلى اليوم داخل جامع سيدي ياقوت العرشي الذي بميدان المساجد بالإسكندرية. (محمد رمزي).
(٥) طنتتا: اسم لمدينة طنطا، قاعدة مديرية الغربية بمصر.

وتُوفّي القاضي الرئيس فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية في يوم الأحد سادس عشر شهر رجب. قال الشيخ صلاح الدين: «كان مُتَأهِّلاً عُمْرَه لما كان نَصْرَانِياً. ولمَّا أسلم حَكَى الشيخ فتح الدين بن سيد النـاس عن خالـه القاضي شـرف الدين بن زُنبـور قـال: [هـذا][1] آبن أختي، [أمضى][1] عمره متعبِّداً، لأننا لما كنـا نجتمـع على الشَّراب في ذلـك الدِّين [كان][1] يتركنا وينصرف، فنتفقَّده إذا طالت غَيْبَتُه فنجده واقفاً يصلِّي. ولما ألزموه بالإسلام هَمَّ بقتل نفسه بالسيف، وتغَيب أياماً. ثم أسلم وحَسُنَ إسلامُه إلى الغاية؛ ولم يقرب نَصْرانِياً بعد ذلك ولا آواه ولا آجتمـع به؛ وحَـجَّ غيرَ مَرَّة، وزار القُدْسَ غيرَ مَرَّة. وقيل إنه في آخر عمره كان يتصدَّق في كلّ شهر بثلاثة الآف درهم. وبَنَـى مساجدَ كثيرة بالقاهرة، وعَمَر أحواضاً كثيرةً في الطُّرُقات، وبَنَى بنابُلُس مدرسةً وبالرملة بِيمارِستاناً. قال: وأخبرني القاضي شهاب الدين بن فَضْل الله أنه كان حنفيّ المذهب، ثم قال: وكان فيه عصبيّة شديدةٌ لأصحابه؛ وآنتفـع به خَلْق كثيرٌ في الدولة الناصرية لوجاهته عند أُستاذه وإقدامه عليه. قال الصلاح: أمّا أنا فسمعت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يقول يوماً في خانقاه سِرْيَاقوس لجُندِيٍّ واقف بين يديه يطلب إقطاعاً: لا تُطَوِّل، والله لو أنك آبن قلاوون ما أعطاك القاضي فخر الدين خُبْزاً يعمل أكثر من ثلاثة الآف درهم. وقد ذكرنا من أحواله أكثرَ من هذا في المنهل الصافي.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين سُوتَايْ[2] صاحب ديار بكر بالمَوْصِل في هذه السنة وكان مَلِكاً جليلاً ذا رياسة ووقار، وعُمِّر طويلاً[3]، وكان من أجلّ ملوك ديار بكر.

---

(١) زيادة لانتظام السياق.

(٢) في السلوك: «سونتاي نوين».

(٣) ذكر في السلوك أنه مات عن نحو المائة سنة. قال: وحكم بعده علي بادشاه خال بوسعيد ــ وفي بعض الروايات أن الأمير سوتـاي كان حاكماً على ديار بكر منذ قيام أبـي سعيد على عرش إيلخانات فارس، وأن ابنه خاجي طوغان هو الذي تولى حكم ديار بكر من بعده، وليس علي بادشاه كما ذكر المقريزي (السلوك: ٢/٢/٢٥٥، وحاشية(١) في نفس الصفحة).

وتُوفّي شيخ القُرَّاء في زمانه برهان الدين إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الربعي الجَعْبَرِيّ في شهر رمضان. وكان من أعيان القُرَّاء في زمانه.

وتُوفّي شيخ القراءات أيضاً صَدْر الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدَّنْدَرِيّ[١] الشافعيّ في جُمادى الآخرة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين أُلْجَايْ بن عبد الله النَّاصري الدَّوَادَار. كان من مماليك الملك الناصر محمد، وجعله دواداراً صغيراً جندياً مع الأمير أَرْسلان الدَّوَادَار؛ فلما تُوفّي أَرْسلان آستقلَّ أُلْجَاي المذكور بالدَّوَادَارِيَّة الكبرى عِوَضَه على إِمْرَة عشرة مدَّة سنين، ثم أعطاه إِمْرَة طبلخاناه. قال الإمام خليل بن أَيْبَك في تاريخه: وأمّا آسمه في العَلَامة[٢] فما كتب أحد أحسن منه. وكان خبيراً عارفاً عَفِيفاً خيِّراً طويل الروح. وكان يحِبّ الفضلاء ويميل إليهم ويقضي حوائجهم وينامون عنده ويبحثون ويسمع كلامهم، ويتعاطى معرفة علوم كثيرة. ومع هذا كان لا بُدَّ في خَطِّه أن يُؤنِّث المذكَّر. وعَمَرَ له داراً[٣] على الشارع خارج بابي زويلة، غرم على بوّابتها مائةَ ألف درهم، فلم تستكمل حتّى مَرِض ونزل إليها من القلعة مريضاً، فأقام بها إلى أن مات. وولي الدَّوَادَاريّة من بعده الأمير صلاح الدين يوسف.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً. والله أعلم.

* * *

(١) في الأصل: «الدرندي». وما هنا من الدرر الكامنة.

(٢) العلامة: هي ما يكتبه السلطان بخطه على صورة اصطلاحية. وكان لكل سلطان علامة وتوقيع. ولعل صواب العبارة هنا: «وأما خطّه في العلامة... إلخ».

(٣) عرفت هذه الدار باسم الدار القردمية، نسبة إلى خوند عائشة خاتون بنت الملك الناصر المعروفة بالقردمية. وقد سكنت هذه الدار مدة طويلة بعد وفاة ألجاي الناصري (انظر خطط المقريزي: ٢/٦٧).

السنة الرابعة والعشرون من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة.

فيها توفي القاضي قُطْب الدين موسى بن أحمد بن الحسين ناظر جيش دِمَشْق ورئيسها، المعروف بآبن شيخ السَّلاَّمِيّة عن آثنتين وتسعين[1] سنة، وكان نبيلاً فاضلاً وفور الحُرْمة.

وتُوفّي قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحَمَوِيّ الشافعي في حادي عشر جُمادَى الأولى وهو معزولٌ بعد ما عَمِي. مولده بحماة في سنة تسع وثلاثين وستمائة، وهو والد قاضي قُضاة الديار المصريّة عِزّ الدين عبد العزيز بن جَمَاعة. وكان إماماً عالماً مصنِّفاً؛ أخذ النحو عن آبن مالك، وأفتى قديماً، وعُرِضت فتواه على الشيخ محيي الدين النَّوَوِيّ فآستحسن ما أجاب به. وتَوَلَّى قضاء القُدْس والخَطابة بها. ثم نُقِل إلى مصر فولي قضاءها بعد عَزْل تَقِيّ الدين آبن بنت الأعزّ في أوائل سنة تسعين وستمائة. ثم وقع له أمورٌ حكيناها في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي». ومن شعره: [مخلّع البسيط]

إرْضَ من الله ما يُقَدِّرُهُ ... أرادَ منك المُقَامَ أو نَقَلَكْ
وحيثما كنتَ ذا رفاهِيَةٍ ... فآسْكُنْ فخيرُ البلاد ما حَمَلَكْ

وتمَّمَ هذه الأبيات الحافظُ شهاب الدين أحمد بن حَجَر، فقال رحمه الله:

وحَسِّنِ الخُلْق واسْتَقِمْ فمتَى ... أسأتَ أَحْسِنْ ولاَ تُطِلْ أَمَلَكْ
مَنْ يَتَّقِ الله يُؤْتِهِ فَرَجاً ... وَمَنْ عصاهُ ولا يتوب هَلَكْ

قلت: والبيت الثاني من قول آبن جَمَاعة مأخوذٌ من قول المتنبّي، ولكن فاته الشَّنَب، وهو: [الطويل]

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. وفي الدرر الكامنة: «اثنتين وسبعين».

وكُلُّ آمْرِىءٍ يُبْدِي(١) الجَمِيلَ مُحَبَّبُ   وكُـلُّ مَكـانٍ يُنْبِتُ العِـزَّ طَيِّـبُ

وتـوفّي الشيـخ الإمام المؤرّخ الفقيـه شهاب الـدين أبو العبّـاس أحمد بن عبد الوهّاب بـن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة البَكْرِيّ النُّوَيْرِيّ الشافعيّ، صاحب التاريـخ المعروف «بتاريـخ النُّوَيْرِيّ»(٢) في يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان. كان فقيهاً فاضلاً مؤرِّخاً بارعاً، وله مشاركةٌ جيِّدة في علوم كثيرة، وكَتَب الخطَّ المنسوب. قيل إنه كَتَب صحيـحَ البُخاري ثماني مَرَّات، وكان يَبِيـع كلَّ نسخة من البُخاري بخطِّه بألف درهم، وكان يكتب في كل يوم ثلاث كَرَاريس، وتاريخه سَمّاه: «منتهى الأرب، في علم الأدب»(٢) في ثلاثين مجلداً. رأيته وآنتقيتُه ونقلتُ منه بعضَ شيء في هذا التاريـخ وغيره. ومات وهو من أبناء الخمسين. رحمه الله.

وتوفّي الأمير سيف الدين بَكْتَمُر بن عبد الله الرُّكْنِيّ الساقي الناصريّ بعد آبنه أحمد بثلاثة أيام في عاشر المحرّم وحُمل إلى نَخْل(٣) فدفِن بها، وآتُّهِمَ الملك الناصر أنّه آغتالهما بالسمّ. وقد تقدّم ذكر ذلك كله مفصلاً في ترجمة الملك الناصر، غير أننّا نذكره هنا تنبيهاً على ما تقدّم ذكره. كان أصل بَكْتَمُر من مماليك الملك المظفر بِيَبْرس الجَاشنَكِير، ثم آنتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، لعلَّه بالخدَم، فإنّ أستاذه المظفر بيبَرْس كان أَمَّرَه عشرة في أواخر دولته، ولولا [أنه] أعتقه ما أمَّره، فعلى هذا يكون عتيقَ المظفَّر. والله أعلم. ويُقَوِّي ما قلتُه ما سنذكره، وهو أن بَكْتَمُر هذا حِظَي عند الملك الناصر لجمال صورته وجعَله ساقياً. وكان غريباً

---

(١) الرواية المشهورة: «وكل امرىء يولى». وقال العميدي في الإبانة عن سرقات المتنبي: ٧٩ إن المتنبي أخذ هذا المعنى عن البحتري في قوله:

وأحـبُّ أقـطار الـبـلاد إلى الـفـتى   أرض يـنـال بهـا كـريـم المـطلب

وبنفس المعنى قال الخليع الأكبر:

وخـيـر بـلاد الله عـنـدي بـلدة   أنـال بهـا عـزاً وأحـوي بهـا حمـدا

(٢) هو كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» كما سمّاه مؤلفه.

(٣) نخل: موضـع على مسافة مرحلتين من المدينة في طريق الشام. (معجم البلدان). وقد تقدّم في ص ٨٣ من هذا الجزء أن بكتمر هذا حمل إلى عيون القصب فدفن بها. ـ والذي ورد في السلوك أن الابن حمل إلى نخل فدفن بها، وأن بكتمر حمل إلى عيون القصب فدفن بها.

في بيت السلطان: لأنه لم يكن له خُشْدَاش[١]، فكان هو وحده، وسائرُ الخاصكيّة حرباً عليه. وعظُمت مكانتُه عند السلطان حتى تجاوزت الحدَّ. قال الصلاح الصَّفَدِيّ: كان يقال: إنَّ السلطانَ وبَكْتَمُر لا يفترقان، إما أن يكون بكتمر عند السلطان، وإما أن يكون السلطان عند بَكْتَمُر. اِنتهى كلام الصَّفَدِيّ بآختصار.

قلت: ووقع لبَكْتَمُر هذا من العظمة والقرب من السلطان ما لَم يقَع لغيره من أبناء جنسه. وقد آستوعبنا أمره في «المنهل الصافي» مستوفى، حيث هو كتاب تراجم الأعيان، وليس لذكره هنا إلا الاختصار؛ إذ هذا الكتاب موضوع للإطناب في تراجم ملوك مصر لا غيُر، ومهما كان غير ذلك يكون على سبيل الاستطراد والضميمة لحوادث الملك المذكور لا غيرُ، فيكون الاختصار فيما عدا ملوك مصر أرشق، وإلا يطل الشرح في ذلك حتى تزيد عِدَّة هذا الكتاب على مائة مجلّد وأكثر. وقد سُقنا أيضاً من ذكر بَكْتَمُر في أصل ترجمة الملك الناصر قطعة جيِّدةً فيها كفاية في هذا الكتاب، فلتنظر هناك.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وثماني أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة والعشرون من سلطنة الملك الناصر الثالثة على مصر

وهي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة.

فيها توفّي الأمير سيف الدين أَلْمَاس بن عبد الله الناصريّ حاجب الحُجَّاب بالديار المصريّة في محبسه خَنْقاً في ليلة ثاني عشر صفر، وحُمِل من الغد حتّى دُفِن بجامعه[٢] بالشارع خارج بابي زويلة. وكان من مماليك الناصر محمد، اِشتراه

(١) خشداش: معرب اللفظ الفارسي «خواجا تاش» أي الزميل في الخدمة. والخشداشية أو الخجداشية أو الخواجداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر هم الأمراء والأجناد الذين نشأوا مماليك عند سيّد واحد، فجمعت بينهم رابطة الزمالة القديمة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٢٠).

(٢) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء، حاشية (٨).

ورقّاه وَأمّره وجعلَه جَاشْنَكِيَره، ثم ولاّه الحجوبيّة، فصار في محلّ النيابة لشغور مَنْصِب النيابة(١) في أيامه؛ فكان أكابرُ الأمراء يركبون في خدمته، ويجلِس في باب القلعة وتَقِف الحُجّاب في خدمته. ولا زالَ مقرَّباً عند السلطان حتّى قَبَض عليه لأمور بلغَتْه عنه: منها، أنه كان آتّفق مع بَكْتَمُر الساقي على قتل السلطان، ومنها محبَّتُه لصبيٍّ من أولاد الحُسَيْنيّة وتهتُّكه بسببه، وغير ذلك. ولمّا حَبَسه السلطان مَنَعه الطعامَ والشرابَ ثلاثة أيام ثم خنَقه. وقد تقدّم ذكره في أصل ترجمة الملِك الناصر بعد عَوْده من الحجاز نبذة أخرى يعرف منها أحواله. وكان أُلْمَاس غُتْمِياً لا يعرف بالعربيّة شيئاً. وكان كريماً ويتباخَل خوفاً من الملك الناصر. ولمّا مات وجد له أشياء كثيرة.

وتُوفّي الأميرُ عَلَم الدين سليمان بن مُهَنا بن عيسى ملِك العرب وأمير آل فضل في خامس عشرين ربيع الأوّل، وتَوَلّى الإمْرَة بعده سيْف بن فضْل [بن عيسى آبنُ مهنّا](٢).

وتُوفّي السلطان الملك الظاهر أَسَد الدِّين عبد الله آبن الملك المنصور نجم الدين أيُّوب آبن الملك المظفَّر يوسف بن عمر [بن عليّ](٣) بن رسول ،مُملِّك اليَمَن، بعد ما قَبَض عليه الملكُ المجاهدُ بقلعة دُمْلُوَه(٤)، وصار الظاهر هذا يركب في خدمة المجاهد، ثم سجنه المجاهد مدّةَ شهرين وخَنَقه بقلعة تَعِزّ.

وتُوفّي قاضي حماة نجم الدين عمر بن محمد بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد المعروف بآبن العَدِيم الحَلَبِي الأصل الحنِفيّ عن خمس وأربعين سنة، وهو من بيت علم ورياسة وفضل.

---

(١) شغر هذا المنصب بعد موت الأمير أرغون.

(٢) زيادة عن الدرر الكامنة ومسالك الأبصار.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) راجع ص٧٠ من هذا الجزء، حاشية(٣). وقد يقال أيضاً: الدملوءة. (انظر صفة جزيرة العرب: ١٣٥، حاشية: ٤).

وتوفّي الأميرُ طُغاي تَمُر بن عبد الله [العُمَرِيّ][١] الناصريّ أحد مماليك الملك الناصر وزوج آبنته في ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر ربيع الأوّل. وكان من أجّل مماليك الناصر وأمرائه وأحد خواصه.

وتوفّي الأمير سُوسُون[٢] بن عبد الله الناصريّ أحد مُقَدَّمِي الألوف بديار مصر وأخو الأمير قَوْصُون في ليلة الجمعة رابع عشر جُمادَى الأولى.

وتُوفّي الشيخ الإمام العالم الحافظ ذو الفنون فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد [بن أحمد][١] بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس اليعْمُريّ الإشْبِيلِيّ في شعبان. كان إماماً حافظاً مصنِّفاً، صنَّف السِّيرة النبويّة وسَماّه «كتاب عيون الأثر[٣]، في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر»، ومختصر ذلك سَمَّاه «نور العيون»، وكتاب «تحصيل الإصابة، في تفضيل الصحابة» و«النَّفح الشَّذِي، في شرح جامع التِّرْمِذِي» وكتاب «بُشْرَى اللبيب، بذكْرَى الحبيب». وكان له نظمٌ ونثر علاّمة فهيماً حافظاً مُتْقِناً. ومن شعره قصيدته التي أوّلها: [الكامل]

عَهْدِي بـه والبَيْنُ ليس يَـرُوعُـهُ ... صَبـاً بَـراهُ نحُـولُـه ودُمـوعُـهُ
لا تـطلبـوا في الحُبِّ ثـأْرَ مُتَيَّمٍ ... فالموتُ من شرْعِ الغَرام شُرُوعهُ
عن ساكن الوادِي ــ سَقَتْهُ مَدَامِعِي ــ ... حَدِّثْ حَديثـاً طابَ لي مَسْمُـوعُهُ
أَفْدِي الذي عَنَتِ البُدُورُ لوَجْهِـهِ ... إذْ حَلّ معنَى الحُسنِ فيه جَميعُهُ
البَـدْرُ من كَلَفٍ بـه كَلَفٌ[٤] بـه ... والغُصنُ من عَطْفٍ عليه خُضُوعُهُ
لـلّهِ حَلْوِيُّ الـمَـراشِفِ والـلَّمَى ... حُلْوُ الحـديثِ ظَـرِيفُـه مَـطْبُـوعُـه
دارتْ رَحِيقُ لحِـاَظِـهِ فَلَنَـا بهـا ... سَكَـرٌ يَجِـلُّ عن المُـدَام صَنِيعُـهُ
يَجْنِي فـأضْمِـرُ عَتْبَـهُ فـإذا بَـدَا ... فجمـالُـه ممّـا جَنَـاه شَفِيعُـهُ

وتُوفِّي الأميرُ قَرَطَاي بن عبد الله الأشرفيّ نائب طرابلُس، وقد جاوز ستين سنة

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «صوصون».

(٣) في الأصل: «عيون السير..» والتصحيح من شذرات الذهب والدرر الكامنة وكشف الظنون.

(٤) الكَلَف هنا شيء يكون في الوجه كالسمسم، أو هو السواد.

في ثامن عشرين صفر؛ وكان معَظَّماً عند الملك، أَمَّرَه وولَّاه نيابةَ طرابلُس إلى أن مات بها.

وتُوفّي الأمير سيف الدين بَلَبَان بن عبد الله المعروف بطُرْنَا نائب صَفَد في حادي عشرين ربيع الأوّل. وكان أميراً شجاعاً مقْداماً.

وتُوفّي قاضي القضاة جمال الدين أبو الربيع سليمان آبن الخطيب مجد الدين عمر بن عثمان الأَذْرَعِي الشافعي المعروف بالزُّرَعِيّ، في سادس صفر بالقاهرة وهو قاضي العسكر بها. وكان فقيهاً عالماً.

وتُوفّي الأمير سيف الدين خاص ترك بن عبد الله الناصريّ أحد مُقَدَّمي الألوف بالديار المصريّة في شهر رجب بِدمَشْق؛ وكان من خواصّ مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وتُوفّي الشيخ مجد الدين حرمي بن قاسم بن يوسف العامِريّ الفاقُوسِيّ[١] الفقيه الشافعيّ في ذي الحجّة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان وثماني أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة السادسة والعشرون من سلطنة الملك الناصر الثالثة على مصر

وهي سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

فيها تُوفّي الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله الخازن والي القاهرة وهو معزول في يوم السبت ثامن جُمادَى الآخرة عن نحو تسعين سنة. وأصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، وترقّى حتى صار خازِناً ثم شادّ الدواوين؛ ثم ولي الكَشْفَ بالبَهْنَسا بالوجه القبلي، ثمّ ولي القاهرة وشَدّ الجهات وأقام عدّة سنين. وكان حَسَن

---

(١) نسبة إلى بلدة فاقوس بمديرية الشرقية بمصر.

السِّيرة، وإليه يُنْسَب حِكرُ[١] الخازن خارج القاهرة على بركة الفِيل، وتُربته بالقرب من قبة الإمام الشافعيّ بالقرافة.

وتُوفّي الأمير صلاح الدين طَرْخَان آبن الأمير بدر الدين بَيَسَرِي بسجنه بالإسكندرية في جُمادى الأولى بَعد ما أقام بالسجن أربع عشرة سنة.

وتُوفّي الشيخ الإمام الحافظ المؤرخ قطب الدين أبو عليّ عبد الكريم بن عبد النُّور بن مُنير الحَلبيّ ثم المصريّ الحنفيّ. ومولده في سنة أربع وستين وستمائة. وكان بارعاً في فنون، صاحبَ مصنفات، منها «شرحه لشطر صحيح البخاري»، و«تاريخ مصر» في عِدّة مجلدات، بيَّضَ أوائلَه ولم أقِف عليه إلى الآن، وخَرَّج لنفسه أربعين تُسَاعِيّات. وهو آبنُ أخت الشيخ نصر المَنْبِجِيّ، وبخاله كان يُعرف وآنتفع بصحبته.

وتُوفّي الشيخ الإمام المُجَوِّد العلاّمة محمد بن بَكْتُوت الظاهِريّ القَلَنْدَري الحنفيّ بطرابُلُس في خامس عشر ربيع الأوّل، وكان كاتباً مُجَوِّداً. ذَكَر أنّه كتب على ابن الوحيد[٢]. وكان يَضَع المِحبرةَ على يده اليسرى والمُجَلَّدَة في يده من كتاب الكَشَّاف للزَّمَخْشَرِيّ ويكتب منه ما شاء وهو يُغَنِّي فلا يغْلَط. وكان أوّلاً خَصِيصاً عند الملك المؤيَّد صاحب حماة، وأقام عنده مدّة ثم طَرَدَه عنه.

وتوفي الشيخ الواعظ شمس الدين الحسين بن أسد بن المبارك بن الأثير بمصر في جُمادَى الآخرة. وكان فقيهاً يعِظ الناس وعليه قابليّة.

وتوفّي القاضي زَيْن الدِّين عبد الكافي بن ضياء الدين عليّ بن تَمَّام الأنصاريّ الْخَزْرَجيّ السُّبْكيّ بالمحلّة [الكبرى][٣] وهو على قضائها. وكان فقيهاً بارعاً.

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/١٣٥، وتعليقات محمد رمزي على النجوم: ٩/٣٠٥، حاشية(٤).

(٢) تقدمت وفاته سنة ٧١١هـ. وفي الدرر الكامنة: «كتب على ابن خطيب بعلبك» الذي سيذكر المؤلف وفاته بعد قليل.

(٣) زيادة عن السلوك. والمحلة الكبرى قاعدة مركز المحلة الكبرى بمديرية الغربية بمصر. وكان يوجد قديماً بمصر نحو ستين قرية باسم «محلة» تتميز كل قرية منها بلقب تعرف به أو بنسبة تعرف بها، وقد تغير أسماء بعضها فأصبح عددها الآن ٣١ قرية كلها مضافة إلى مميز لها باسم محلة كذا، ما عدا المحلة هذه فيقال لها المحلة بغير إضافة، حتى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هي. (محمد رمزي).

وتُوفّي الشَّيخ بهاء الدين محمود آبن الخطيب محيي الدين محمد بن عبد الرحيم بن عبد الوهّاب بن عليّ بن أحمد بن عقيل السُّلَمِيّ شيخ الكُتّاب في زمانه، المعروف بآبن خطيب بَعْلَبَكّ بدِمَشْق في شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يحرر. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة السابعة والعشرون من سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة على مصر

وهي سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

فيها توفّي القَانُ بو سعيد ابن القان محمد خَرْبَنْدَا ابن القان أَرْغُون ابن القان أَبْغَا ابن القان الطاغيةُ هُولاَكُو ملك التَّتار وصاحب العراق والجزيرة وأذْرَبيجانَ وخُرَاسانَ والروم وأطراف ممالك ما وراء النهر في شهر ربيع الآخر، وقد أناف على ثلاثين سنة. وكانت دولته عشرين سنة، لأنّ جلوسه على تخت الملك كان في أوّل جُمادى الأولى سنة سبعَ عشرةَ وسبعمائة بمدينة السلطانية[1]، وعمره إحدى عشرة سنة. وبو سعيد آسم غير كُنْية (بضم الباء ثانية الحروف وسكون الواو). وسعيد معروف لا حاجة لتعريفه، ومن الناس من يقول بو صعيد (بالصاد المهملة). وكان بو سعيد المذكور مَلِكاً جليلاً مُهاباً كريماً عاقلاً، ولديه فضيلة، ويكتب الخط المنسوب، ويُجِيد ضرب العود والمُوسِيقى، وصنّف في ذلك قِطَعاً جيِّدةً في أنغام غريبة من مذاهب النَّغَم. وكان مشكور السِّيرة؛ أبطل في سلطنته عدّة مكوس، وأراق الخمور من بلاده ومنع الناس من شربها، وهدم الكنائس، وورّث ذوي الأرحام؛ فإنه كان حنفيّاً، وهو آخر[2] ملوك التتار من بني جِنْكِزْخان، ولم يقم للتتار بعد موته قائمة إلى يومنا هذا.

---

(١) راجع ص ١٧٠ من هذا الجزء، حاشية(١).

(٢) وقد اتهمت زوجته بغداد خاتون ابنة جوبان بأنها هي التي دسّت السّم له انتقاماً منه لمقتل أبيها وإخوتها، =

وتوفّي الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الأشْرَفيّ المعروف بنائب الكَرَك محبوساً بثغر الإسكندرية في يوم الأحد سابع جمادى الأولى. وأصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، وأضافه قلاوون إلى ولده الأشرف خليل وجعله أستاداره فعُرِف بالأشرفيّ، وآستمرّ بخدمة الملك الأشرف إلى أن تسلطن، أمَّره ثم ولّاه نيابة الكَرَك. قيل: إنه ما وُلِّي نيابة الكرك إلا في سلطنة الملك الناصر الثانية، وهو الأقوى. وقد مرّ من ذكر آقوش هذا أشياء كثيرة في ترجمة المُظَفَّر بِيبَرْس، وعند قدوم الملك الناصر إلى الكرك لمّا خلع نفسه وغير ذلك. وكان آقوش أميراً جليلاً معظّماً، وكان يقوم له الملك الناصر لمّا يدخل عليه وهو جالس على تخت الملك أمام الخدم. وطالت أيامه في السعادة، وله مآثر كثيرة. وهو صاحب الجامع الذي بآخر الحُسَيْنيّة بالقرب من كوم الرِّيش، وهو إلى الآن عامر وما حوله خراب.

وتوفّي الأمير أَيْتَمُش بن عبد الله المحمديّ نائب صَفَد في ليلة الجمعة سادس عشرين ذي الحجة. وكان من مماليك الملك الناصر محمد ومن خواصه، وهو أحد من كان ينذُبه الناصر وهو بالكرك لمهماته؛ ولمّا تسلطن أمَّره، ثم ولّاه نيابة صَفَد وغيرها إلى أن مات. وكان أميراً عارفاً كاتباً فاضلاً عاقلاً مدبّراً متواضعاً كريماً.

وتوفّي الأمير سيف الدين إينَاق[١] بن عبد الله الناصريّ أحد مُقَدَّمي الألوف في ثامن عشرين شعبان، وكان أيضاً من خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن أكابر مماليكه.

وتوفّي شيخ الكتّاب عماد الدين محمد بن العفيف محمد بن الحسن الأنصاريّ الشافعيّ المعروف بآبن العفيف، صاحب الخط المنسوب. كتب عدّة مصاحف بخطه. وكان إماماً في معرفة الخط، وعنده فضائل، وله نظم ونثر وخُطَب؛

= ولأ: أثار كوامن حقدها وغيرتها بعد أن تزوج من ابنة أخيها «دمشق خواجة» التي كانت تسمى دلشاد خاتون. وأبو سعيد كان آخر سلاطين الإيلخانيين الأقوياء، وتولى بعده على التوالي ثمانية من الأمراء الضعفاء، ذلك أن أبا سعيد لم ينجب أولاداً ذكوراً، وكان غازان خان أثناء توليه العرش قد تخلص من أمراء أسرة هولاكو إما بقتلهم وإما بتجريدهم من امتيازاتهم. (انظر مؤرخ المغول الكبير: ص ١٩٧ ـ ١٩٨).

(١) في السلوك: «ألِناق».

تصدّى للكتابة مدّة طويلة، وٱنتفع به عامة الناس. وكان صالحاً ديّناً خيِّراً فقيهاً حسن الأخلاق. مات بالقاهرة ودُفِن بالقرافة وله إحدى وثمانون سنة.

وتوفّي القاضي عماد الدين إسماعيل بن محمد بن الصاحب فتح الدين عبد الله ابن محمد القَيْسَرانيّ كاتب حلب في ذي القعدة.

وتوفّي الشيخ تَقِيّ الدين سليمان بن موسى بن بَهْرَام السَّمْهُودِيّ[1] الفقيه الشافعيّ الفَرَضيّ[2] العروضيّ الأديب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وسبع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً. والوفاء يوم النوروز.

* * *

السنة الثامنة والعشرون من سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة على مصر

وهي سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

فيها توفِّي الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيرِيّ المنصوري أحد أمراء الألوف بالديار المصرية في يوم الثلاثاء أوّل شهر رجب بالقاهرة. وأصله من مماليك الخَطِير الروميّ والد أمير مسعود، ثم ٱنتقل إلى ملك المنصور قلاوون، فرقّاه حتى صار من أجلّ الأمراء البُرْجِيّة. ثم ترقّى في الدولة الناصريّة وولي الأستادارية. ثم وقع له أمور، وقبض عليه السلطان الملك الناصر محمد في سلطنته الثالثة، ثم أطلقه وأنعم عليه بإمرة مائة وتَقْدِمة [ألف] وزيادة إمرة عشرين فارساً؛ وصار معظّماً عند الناصر، ويجلس رأسَ الميسرة، وبقي أكبر أمراء المشورة. وكان لا يلبس قَبَاء مُطَرَّزاً ولا يدع عنده أحداً يلبس ذلك. وكان أحمر الوجه منوَّرَ الشيبة كريماً جِدّاً واسع النَّفْس على الطعام. حكي أن أستاداره قال له يوماً: «يا خَوَنْد، هذا السُّكّر الذي يعمل في الطعام ما يضرّ أن نعمله غير مكرر»؟ فقال: «لا، فإنه يبقى في نفسي أنه غير مكرر

(١) نسبة إلى «سمهود» من قرى الصعيد الأعلى بمصر.

(٢) أي العارف بالفرائض.

فلا تطيب». ولمّا مات خلّف ولدين أميرين: أمير عليّ وأمير محمد. وهو من الأمراء المشهورين بالشجاعة والدين والكرم، وهو الذي عمَر الجامع برَمْلة بولاق على شاطىء النيل والرَّبْع المشهور، وغرم عليه جملةً مستكثرة؛ فلمّا تم أكله البحر ورماه، فأصلحه وأعاده في حياته. وقد تقدّم ذكر بنائه لهذا الجامع في أصل ترجمة الملك الناصر، وسبب مشتراه لموضع الجامع المذكور وتاريخ بنائه.

وتوفّي الأمير سيف الدين أزْبَك بن عبد الله الحَمَويّ في يوم الأربعاء خامس عشرين شعبان على مدينة آياس[1]، وقد بلغ مائة سنة، فحمل إلى حماة ودُفِن بها. وكان مُهاباً كثير العطاء، طالت أيّامه في الإمرة والسعادة. وهو ممن تأمّر في دولة الملك الظاهر بيبَرْس البُنْدُقْداريّ، رحمه الله.

وتوفّي الشيخ المعتقد الصالح محمد بن عبد الله بن المجد إبراهيم المرشديّ، صاحب الأحوال والكرامات والمكاشفات بناحية مُنْية مُرْشِد[2] في ثامن شهر رمضان. وكان للناس فيه آعتقاد حسن، ويُقْصَد للزيارة.

وتوفّي الشيخ قطب الدين إبراهيم بن محمد بن عليّ بن مُطَهَّر بن نوفل الثعلبيّ[3] الأدفويّ في يوم عرفة بأدفو. وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً ناظماً ناثراً.

وتوفّي الشيخ المحدّث تقيّ الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد بن أحمد اليُونينيّ البعلبكيّ الحنبليّ. ومولده سنة سبع وستين وستمائة؛ ذكره الحافظ أبو عبد الله الذهبيّ في معجمه وأثنى عليه.

وتوفّي الشيخ ناصر الدين محمد آبن الشيخ المعتقَد إبراهيم بن مِعْضاد الجعَبْرَيّ الواعظ بالقاهرة في يوم الاثنين رابع عشرين المحرّم. وكان يعظ الناس، وجلس مكان والده الشيخ إبراهيم الجعبريّ، وكان لوعظه رونق؛ وهو من بيت صلاح ووعظ.

---

(١) آياس: بلدة على ساحل قيليقية وعلى الشاطىء الغربي لخليج إسكندرونة، إلى الشرق من نهر جيحان. (دائرة المعارف الإسلامية: ١/١١٥).

(٢) منية مرشد: هي اليوم إحدى قرى مركز فوه بمديرية الغربية بمصر. (محمد رمزي).

(٣) في السلوك: «التغلبي».

وتوفِّي المُسْنِدُ المعَّمر مُسند الديار المصرية شرف الدين يحيى بن يوسف المَقْدِسيّ المعروف بآبن المصريّ بالقاهرة عن نيِّف وتسعين[١] سنة.

وتوفِّي الشيخ كمال الدين أبو الحسن[٢] عليّ [بن الحسن بن عليّ][٣] الحُوَيْزانِيّ[٤] شيخ خانقاه سعيد السُّعداء في صفر بالقاهرة. وكانت لديه فضيلة، وعنده صلاح وخير.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وثماني عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة التاسعة والعشرون من سلطنة الملك الناصر الثالثة على مصر

وهي سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة.

فيها توفِّي قاضي قُضاة دِمَشْقَ شهاب الدين محمد آبن المجد عبد الله بن الحسين بن عليّ الإِرْبِلِيُّ الزرزاريّ[٥] الشافعيّ، وقع عن بغلته فلزم الفراش أسبوعاً ومات في جمادى الأولى بدِمَشْق. ومولده سنة آثنتين وستين وستمائة. وكان بارعاً في الفقه والفروع والشروط، وأفتى ودرّس وكتب الطِّبَاق وسمع الكثير، ووُلِّي قضاء دِمَشْق بعد القاضي جمال الدين بن جُمْلة، وعُزل بالقاضي جلال الدين القَزْوينيّ. ولمّا تولّى القاضي شهاب الدين بن القيسرانيّ كتابة سّر دِمَشق توجّه القاضي شهاب الدين هذا إليه لتهنئته، فنفرت به البغلة في الطريق فوقع فشُجّ دماغه، فحُمِل في مِحَفّة إلى بيته ومات بعد أسبوع. ولمّا وقع عن بغلته قال فيه الشيخ شمس الدين محمد بن الخيّاط الدمشقيّ رحمه الله: [السريع]

---

(١) في السلوك: «عن نيِّف وسبعين سنة».

(٢) في السلوك: «أبو الحسين».

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) هذه النسبة إلى حويزان باليمن. (معجم البلدان).

(٥) في الأصل: «الزيادي». وما أثبتناه عن الدرر الكامنة.

بَغْلَةُ قاضينا إذا زُلزِلَتْ كانتْ له من فوقها الواقعه
تكاثُرُ ألهاه من عُجْبِهِ حتى غدَا مُلْقىً على القارعه
فأظهرتْ زوجتُه عندها تَضَايُقاً بالرحمة الواسعه

وتوفي الشيخ الإمام العلّامة النحويّ ركن الدين محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل المعروف بٱبن القَوْبَع[١] القرشيّ التونسيّ المالكيّ النحويّ، صاحب الفنون الكثيرة بالقاهرة عن أربع وسبعين سنة.

وتوفّي شيخ الإسلام شرف الدين هبة الله ٱبن قاضي حماة نجم الدين عبد الرحيم بن أبي الطاهر إبراهيم بن المسلم بن هبة الله بن حسّان بن محمد بن منصور بن أحمد الشافعيّ الجُهَني المعروف بابن البارِزِيّ قاضي حماة في نصف ذي القعدة. ومولده في خامس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة. وكان إماماً علّامة في الفقه والأصول والنحو واللغة؛ وأفتى ودرّس سنين، وٱنتفع الطلبة به، وتخرّج به خلائق؛ وحكم بحماة دهراً، ثم ترك الحكم وذهب بصره. وصنّف كتباً كثيرة، وحجّ مرّات، وحدّث بأماكن. ولمّا مات غلّقت [أبواب][٢] حماة لمشهده. ومن مصنفّاته: تفسيران[٣]، و«كتاب بديع القرآن»، و«وشرح الشاطبية»، و«الشرعة في [القراءات] السبعة» و«كتاب الناسخ والمنسوخ»، و«كتاب مختصر جامع الأصول»، مجلدين، و«الوفا في شرح [أحاديث][٤] المصطفى»، و«الأحكام على أبواب التنبيه». و«غريب الحديث»، و«شرح الحاوي[٥] في الفقه» أربع مجلدات، و«مختصر التنبيه في الفقه»، و«الزبدة في الفقه»، والمناسك، [وكتاب في] العروض، وغير ذلك.

---

(١) في الدرر الكامنة، نقلاً عن بعض المغاربة، أن القوبع طائر.

(٢) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٣) ذكر صاحب الأعلام: ٧٣/٨ أن له تفسيراً واحداً هو «البستان في تفسير القرآن»، وأن هذا التفسير ذكره الداودي في طبقات المفسرين باسم «روضات الجنان».

(٤) زيادة عن شذرات الذهب.

(٥) هو كتاب «إظهار الفتاوي من أسرار الحاوي» في فقه الشافعية. وله كتاب آخر في الفقه اسمه «تيسير الفتاوي في تحرير الحاوي» (الأعلام: ٧٣/٨).

وتوفي القاضي الرئيس محيي الدين يحيى بن فضل الله بن مُجَلِّي العُمَرِيّ القرشيّ كاتب السّر الشريف بالشام أوّلاً ثم بمصر آخراً؛ وهو أخو القاضي شرف الدين عبد الوهاب، وأخو القاضي بدر الدين محمد، ووالد القاضي العلّامة شهاب الدين أحمد، وبدر الدين محمد، وعلاء الدين عليّ، وجدّ القاضي بدر الدين محمد بن عليّ آخر مَنْ ولي من بني فضل الله كتابة السّر بديار مصر الآتي ذكره في محله إن شاء الله تعالى. قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيْبَك: «لم أر في عمري مَنْ كتبَ النسخ وخرَّج التخاريج والحواشي أحلى وأظرَف ولا ألطف منه؛ بل الشيخ فتح الدين بن سيد الناس معه والقاضي جمال الدين إبراهيم آبن شيخنا شهاب الدين محمود؛ فإن هؤلاء الثلاثة غاية في حسن الكتابة. لكن القاضي محيي الدين هذا رَعِشت يده وآرتجّت كتابته أخيراً». قال: «ولم أر عمري مَنْ نال سعادته في مثل أولاده وأملاكه ووظائفه وعمره. وكان السلطان قد بالغ أخيراً في آحترامه وتعظيمه، وكتبَ له في أيام الأمير سيف الدين أُلْجَايْ الداودار توقيعاً بالجناب العالي يقبِّل الأرض؛ وآستعفى من ذلك وكشطها وقال: ما يصلُح لمتعمم أن يُعَدَّى به «المجلس العالي»». اِنتهى كلام الشيخ صلاح الدين.

وتوفِّي قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن إبراهيم بن جُمْلة الدمشقيّ الشافعيّ قاضي قضاة دمشق بها. وكان فقيهاً بارعاً؛ ولي قضاء دمشق إلى أن عُزِل بقاضي القضاة شهاب الدين بن المجد.

وتوفي الأمير سيف الدين طُغْجِي بن عبد الله المنصوريّ في الحبس. وكان من أعيان الأمراء البُرْجية معدوداً من الشجعان.

وتوفّي الأمير سيف الدين صلديه[1] بن عبد الله كاشف الوجه القبليّ؛ وكان من الظَّلَمة؛ مهّد البلاد في ولايته.

وتوفّي الأمير سيف الدين آقُول بن عبد الله المنصوريّ ثم الناصريّ الحاجب بديار مصر. وكان من أعيان الأمراء.

---

(١) في الدرر الكامنة: «صلداي». وأثبته محقق السلوك برسم: «ظُلُظَيْه».

وتوفّي الأديب شهاب الدين أحمد بن يوسف بن هلال الصَّفَديّ الطبيب، ومولده في سنة إحدى وستين وستمائة. كان من جملة أطبّاء السلطان، وكان بارعاً في الطب، وله قدرة على وضع المُشَجّرات(١)، ويبرز أمداح الناس في أشكال أطيار وعمائر وأشجار وعُقد وأخياط وغير ذلك، وله نظم ونثر. ومن شعره ما يُكْتَب على سيف: [الكامل]

أنا أبيضٌ كم جئتُ يوماً أسودا ... فأعدتُه بالنصر يوماً أبيضا

ذَكَرٌ إذا ما استُلّ يوم كريهةٍ ... جعل الذكور من الأعادي حُيَّضا

أختالُ ما بين المنايا والمُنَى ... وأجول في وَسْط القضايا والقضا

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وعشرون إصبعاً. وكان الوفاء(٢) يوم النوروز. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الثلاثون من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر.

وهي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة.

فيها توفّي خطيب القُدْس زين الدين عبد الرحيم(٣) ابن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جَمَاعَةَ الشافعيّ الحمويّ الأصل المعروف بابن جماعةَ.

وتوفِّي الأمير سيف الدين بَهادُر بن عبد الله المُعِزِّيّ الناصريّ أحد أمراء الألوف

(١) المشجّرات من التصاوير: ما كان على هيئة الشجر.

(٢) قال المقريزي في السلوك: ٢/٢/٤٥٦ «وفيها توقفت زيادة النيل عندما قرب الوفاء، ثم نقص؛ فارتفع سعر الغلال حتى بلغ القمح عشرين درهماً الأردب. ثم تراجع النيل ووفّى ستة عشر ذراعاً، بعدما زاد ثلاثة أيام متوالية أربعة أذرع ونصف ذراع. وتلفت بسبب ذلك غلال كثيرة كانت في الأجران؛ فإنه زاد زيادة متتابعة على حين غفلة. وكانت سنة شديدة، اتفق فيها من الأمطار والفأر والمصادرات وغير ذلك عدة محن.»

(٣) في الأصل: «عبد الرحمن». وما أثبتناه عن السلوك والدرر الكامنة والشذرات.

بالديار المصرية في ليلة الجمعة تاسع شعبان. وكان أميراً جليلاً معظّماً في دولة أستاذه؛ بلغت تركته مائة ألف دينار، أخذها النَّشْو ناظر الخاصّ.

وتوفّي قاضي القضاة العّلامة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم القَزْوِينيّ الشافعيّ بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة. وكان ولي قضاء مصر والشام؛ وكان عالماً بارعاً مفتنّاً في علوم كثيرة؛ وله مصنَّفات في عدّة فنون. وكان مولده بالموصل في سنة ست(١) وستين وستمائة.

وتوفّي الشيخ الإمام الحافظ المؤرخ علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البِرْزَاليّ الشافعي بخُلَيْص(٢)، وهو محُرْم في رابع ذي الحجة عن أربع وسبعين سنة. وبِرْزالة: قبيلة(٣) قليلة جدّاً. وكان أبوه شهاب الدين محمد من كبار عدول دمشق. وأما جدّ أبيه محمد بن يوسف فهو الإمام الحافظ زكيّ الدين الرحّال محدِّث الشام أحد الحفّاظ المشهورين. وقد تقدّم ذكره. اِنتهى. وكان الحافظ علم الدين هذا محدِّثاً حافظاً فاضلاً؛ سمع الكثير ورحل إلى البلاد وحصَّل ودأب وسمع خلائق كثيرة، تزيد عِدّتهم على ألفي شيخ، وحدّث وخرّج وأفاد وأفتى وصنّف تاريخاً(٤) على السنين.

وتوفّي الشيخ الأديب أبو المعالي زين الدين خَضِر بن إبراهيم بن عمر بن محمد بن يحيى الرفّاء الخَفَاجِيّ المصريّ عن تسع وسبعين سنة. ومن شعره في ساق: [البسيط]

لله ساقٍ له رِدْفٌ فُتِنتُ به ... لمّا تبدَّى بساقٍ منه برّاقِ
فلا تَسَلْ فيه عن وَجْدِي وعن وَلَهِي ... فأصلُ ما بِيَ من رِدْفٍ ومن ساقِ

(١) في الأصل: «سنة ستين وستمائة» وما أثبتناه عن السلوك والدرر الكامنة.
(٢) راجع ص ٥١، حاشية (١).
(٣) هي قبيلة من البربر. (الأعلام: ٥/١٨٢).
(٤) كتابه في التاريخ جعله صلة لتاريخ أبي شامة، وبلغ به إلى سنة ٧٣٨هـ. وفي مذكرات الميمني ذكر مخطوطة من الجزأين الأول والثاني من كتابه في التاريخ باسم «المقتفي لتاريخ أبي شامة» من سنة ٦٦٥ إلى ٦٩٨هـ، كتبت سنة ٧٢١هـ وعليها خط مصنفها علم الدين البرزالي، في خزانة أحمد الثالث بطوبقبو سراي باستنبول، رقم ٢٩٥١. (المرجع السابق).

قلتُ: وأحسن من هذا قول القِيراطيّ[١]: [مجزوء الرجز]

وأَغْيَدٍ يسقي الطِّلَا بديعِ حُسْنٍ قد بَهَرْ
في كفِّه شمسٌ فما له لرائيه قَمَرْ

وأحسنُ منهما قول القائل في هذا المعنى: [السريع]

قد زَمْزَم[٢] الساقي الذي لم يزل يُدير للأحباب كأس المُدَام
وقد فَهِمْناه وهِمْنَا به بأحسن ما زَمْزَم وَسْطَ المقام

وتوفِّي الشيخ جمال الدين أحمد بن هبة الله بن المَكِينِ الإسنائي[٣] الفقيه الشافعيّ بإسنا، وقد جاوز السبعين سنة في شوّال.

وتوفِّي الأمير علاء الدين علي ابن أمير حاجب والي مصر وأحد الأمراء العشرات وهو معزول؛ وكان عنده فضيلة؛ وعُنِي بجمع القصائد النبويّة، حتى كمل عنده منها خمسة وسبعون مجلداً.

وتوفِّي قاضي القضاة فخر الدين أبو عمرو عثمان بن عليّ بن عثمان بن عليّ بن عثمان بن إسماعيل بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب بن عليّ بن هبة الله بن ناجية الشافعيّ المعروف بآبن خطيب جِبْرِين[٤] بالقاهرة بالمدرسة المنصورية ليلة السبت السابع والعشرين من المحرّم ودُفِن بمقابر الصوفيّة. ومولده في العشر الأخير من شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وستين وستمائة بالحسنية ظاهر القاهرة. وكان بارعاً في الفقه والأصول والنحو والأدب والحديث والقراءات؛ وتولّى قضاء حلب سنة ست وثلاثين وسبعمائة فتُكُلِّم فيه، فطلبه الملك الناصر وطلب ولده، فروّعهما الحضور قدّامه

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد، برهان الدين الشهير بالقيراطي. توفي سنة ٧٨١هـ. (الدرر الكامنة).
(٢) زمزم: تكلّف الكلام عند الأكل وهو مطبق فاه لا يعمل لساناً ولا شفة. وأصل الزمزمة: كلام المجوس عند الأكل، أو تراطنهم على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لساناً ولا شفة، لكنه صوت يديرونه في خياشيمهم وحلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض.
(٣) نسبة إلى إسنا بالصعيد الأعلى بمصر.
(٤) جبرين: من قرى حلب.

لكلام أغلظه لهما، فنزلا مرعوبين ومرِضا بالبِيمارِستان المنصوريّ، فمات ولده قبله، وتوفّي هو بعده بيوم أو يومين. وكان عالماً، وله عدّة مصنّفات. شرح الشامل[١] الصغير، وشرح التعجيز[٢]، و[شرح][٣] مختصر آبن الحاجب [في الأصول][٣] و[شرح][٣] البديع لابن الساعاتي [في الأصول][٣]. وقد آستوعبنا ترجمته في المنهل الصافي بأوسع من هذا.

وتوفّي الأمير الفقيه علاء الدين أبو الحسن عليّ بن بَلَبان بن عبد الله الفارِسيّ الحنفيّ بمنزله على شاطىء النيل في تاسع شوّال. ومولده في سنة خمس وسبعين وستمائة. كان إماماً فقيهاً بارعاً محدِّثاً. أفتى ودرّس وحصّل من الكتب جملةً مستكثرة، وصنّف عدّة مصنّفات، ورتّب[٤] التقاسيم والأنواع [في الحديث] لابن حِبّان[٥]، ورتّب الطبراني ترتيباً جيّداً إلى الغاية، وألف سيرة لطيفة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكتاباً في المناسك جامعاً لفروع كثيرة في المذهب.

وتوفِّي القاضي فخر الدين محمد بن بهاء الدين عبد الله بن أحمد المعروف بابن الحِلّي بالقُدْس الشريف. وكان رئيساً، ولي نظر جيش دمشق عدّة سنين.

وتوفِّي علاء الدين عليّ بن هلال الدولة بقَلْعة شَيْزَر بعد ما ولي بالقاهرة عدّة وظائف.

وتوفي الأمير سيف الدين بِيلِيك بن عبد الله المُحْسِنيّ بطَرَابُلُس. وكان من جملة أمرائها[٦].

أمر النيل في هذه السنة:

---

(١) الشامل في فروع الشافعية، لأبـي نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ الشافعي المتوفى سنة ٤٧٧هـ. (كشف الظنون).

(٢) في كشف الظنون: «تصحيح التعجيز». والتعجيز في مختصر الوجيز، في فروع الشافعية، لابن يونس الموصلي الشافعي المتوفى سنة ٦٧١هـ.

(٣) زيادة عن الأعلام: ٤/ ٢١٠.

(٤) وسماه «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان».

(٥) تقدّمت وفاته سنة ٣٥٤هـ.

(٦) عبارة السلوك: «بدر الدين بيليك... بعدما كان والي القاهرة».

الماء القديم أربع أذرع وخمس عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وعشر أصابع. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الحادية والثلاثون من سلطنة الملك الناصر الثالثة على مصر

وهي سنة أربعين وسبعمائة.

فيها توفّي الخليفة أمير المؤمنين المستكفي بالله أبو الربيع سليمان آبن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العبّاس أحمد بن الحسن بن أبي بكر الهاشمي العباسيّ بمدينة قُوص في خامس شعبان عن ست وخمسين سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً. وكانت خلافته تسعاً وثلاثين سنة وشهرين وثلاثة عشر يوماً. وكان حَشِماً كريماً فاضلاً. كان أخرجه الملك الناصر إلى قوص لِمَا كان في نفسه منه لِمَا كان منه في القيام بنُصرة الملك المظفر بِيْبَرس الجَاشْنَكِير، وتولّى الخلافة من بعده ولده أبو العباس أحمد ولُقِّب بالحاكم على لقب جَدّه بعهد منه إليه. وكان الناصر منع الحاكم من الخلافة ووَلى غيره، حَسَبَ ما ذكرناه في ترجمة الملك الناصر، فلم يتم له ذلك وولّى الحاكم هذا.

وتوفّي الأمير شمس الدين آق سُنْقُر بن عبد الله شادّ العمائر، المنسوبة إليه قنطرة سُنْقُر على الخليج خارج القاهرة، والجامع بسُوَيقة السبَّاعين[1] على البِركة الناصرية فيما بين القاهرة ومصر. وكانت وفاته بدِمَشْق.

وتوفِّي الأمير علاء الدين عليّ بن حسن المَرْوانيّ والي القاهرة في ثاني عشرين رجب بعد ما قاسى أمراضاً شنيعة مدّة سنة. وكان ظالماً غشوماً سفّاكاً للدماء؛ اقترح في أيام ولايته عقوبات مهولة؛ منها أنه كان يُنْعَل الرجل في رجليه بالحديد كما تُنعل

(١) كانت سويقة السبّاعين تشمل قديماً حارة السباعين الحالية، وتشمل أيضاً الطريق المعروفة اليوم بشارع سويقة السبّاعين بقسم السيدة زينب بالقاهرة. وجامع آق سنقر لا يزال موجوداً، ويعرف اليوم بجامع أبو طبل بحارة السقّايين. (محمد رمزي).

الخيل، ومنها تعليق الرجل بيديه وتعلّق مقايرات[1] العلاج في رجليه فتنخلع أعضاؤه فيموت. وقتَل خلقاً كثيراً من الكتّاب وغيرهم في أيام النَّشْو. ولمّا حُمِلت جنازته وقف عالَمٌ كثير لرجمه، فركب الوالي وآبن صابر المُقَدّم حتّى طردوهم ومنعوهم ودفنوه.

وتوفّي شرف الدين عبد الوهاب آبن التاج فضل الله المعروف بالنَّشْو ناظر الخاص الشريف تحت العقوبة في يوم الأربعاء ثاني شهر ربيع الآخر. وقد تقدم التعريف بأحواله وكيفية قتله والقبض عليه في ترجمة الملك الناصر هذه مفّصلاً مستوفىً. كان هو وأبوه وإخوته يخدُمون الأمير بَكْتَمُر الحاجب، ثم خدم النَّشْو هذا عند الأمير أَيْدُغْمُش أمير آخُور. فلما جمع السلطان في بعض الأيام كتّاب الأمراء رأى النَّشْو وهو واقف وراء الجماعة وهو شابّ نصرانّي طويل حلو الوجه، فآستدعاه وقال له: «إيش آسمك؟» قال: «النَّشْو». فقال السلطان: «أنا أجعلك نَشْوِي»، ورتّبه مستوفياً؛ وأقبلت سعادته، فأرضاه فيما ندبه إليه وملأ عينه؛ وآستمر على ذلك حتى آستسلمه الأمير بَكْتَمُر الساقي وسلّم إليه ديوان سيِّدي آنُوك آبن الملك الناصر إلى أن توفِّي القاضي فخر الدين ناظر الجيش، فنقل الملكُ الناصر شمسَ الدين موسى ناظرَ الخاصّ إلى نظر الجيش عِوَضَه، ووِلّي النشو هذا نظر الخاصّ على ما بيده من ديوان آبن السلطان. ووقع له ما حكيناه في ترجمة الملك الناصر كل شيء في محّله. قال الصلاح الصَّفَديّ: ولمّا كان في الاستيفاء، وهو نصرانيّ، كانت أخلاقه حسنة وفيه بِشْرٌ وطلاقةُ وجه وتَسَرُّعٌ لقضاء حوائج الناس؛ وكان الناس يحبُّونه. فلمّا تولّى الخاصّ، وكثر الطلب عليه، وزاد في الإنعامات والعمائر، وبالغ في أثمان المماليك، وزوّج بناته وآحتاج إلى الكُلَف العظيمة، ساءت أخلاق النَّشْو وأنكر من يعرِفه، وفتح أبواب المصادرات. اِنتهى كلام الصفديّ بآختصار.

---

(١) جاء في حاشية السلوك: ٢/٢/٤٢٢ «لعل المقصود بلفظ المقايرات آنية فيها القار المغلي، توضع في يد الواقع تحت العقوبة للتعذيب؛ أو لعل المراد بها ما يسمى في مصر باسم المقاور ــ والجمع مقوّرة ــ أي الآلة من الحديد تستعمل لتقوير الفاكهة أو الخضار قبل طبخها؛ وعلى هذا الفرض الثاني تكون المقايرات أداة للتعذيب بدفع أطرافها بين اللحم والأظافر». قلت: والظاهر من قوله «فتنخلع أعضاؤه» أن هذه الآلة كانت تستعمل لشدّ الأعضاء بطريقة السحب فتنخلع المفاصل أي تزول من غير بينونة.

وتوفّي الشيخ مجد الدين أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز السَّنْكَلُونيّ[١] الشافعيّ في شهر ربيع الأول؛ وكان فقيهاً فاضلاً. شرح التنبيه في الفقه، وتولّى مشيخة خانقاه الملك المظّفر بيبرس، ودرّس وأفتى.

وتوفّي الأمير ركن الدين بِيَبْرس بن عبد الله الأوحديّ المنصوريّ والي قلعة الجبل في شهر ربيع الأول.

وتوفِّي الأمير سيف الدين أَيْدَمُر بن عبد الله الدَّوَادار بدِمَشْق. وكان أميراً جليلاً خيِّراً ديِّناً.

وتوفِّي الأمير سيف الدين بَهَادُر بن عبد الله البَدْريّ الناصريّ نائب الكَرَك، بعد ما عُزِل عن الكرك ونُفِي إلى طَرابُلُس فمات بها.

وتوفِّي شيخ الشيوخ بخانقاه سِرْيَاقُوس العلّامة مجد الدين أبو حامد موسى بن أحمد بن محمود الأَقْصَرائي الحنفيّ في شهر ربيع الآخر. وكان إماماً فقيهاً بارعاً مفتياً.

وتوفِّي الشيخ جمال الدين عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد بن إبراهيم التبريزي الحَرّانيّ الشافعيّ. كان فقيهاً عالماً أديباً شاعراً. ومن شعره [دوبيت]:

وَجْدِي وتَصَبُّري قليلٌ وكثيرْ والقلبُ ومَدْمعِي طليقٌ وأسيرْ
والكونُ وحسنكمُ جليلٌ وحقيرْ والعبدُ وأنتمّ غنيٌّ وفقيرْ

وتوفِّي الأمير ركن الدين بِيَبْرس الرُّكْنيّ كاشف الوجه البحري ونائب الإسكندرية. وكان أصله من مماليك الملك المظّفر بيبرس الجَاشْنَكِير. رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) في السلوك وشذرات الذهب: «الزنكلوني». والنسبة إلى «زنكلون» وهي قرية قرب بلدة القنيات بمديرية الشرقية بمصر.

الماء القديم أربع أذرع وخمس أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثماني[١] أصابع.

* * *

السنة الثانية والثلاثون من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة على مصر

وهي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وهي التي مات فيها الملك الناصر حَسَبَ ما تقدّم ذكره.

فيها (أعني سنة إحدى وأربعين) توفّي الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير بدر الدين جَنْكَلِي بن البَابَا في يوم الرابع والعشرين من رجب. وكان من أعيان الأمراء، وكان فقيهاً أديباً شاعراً.

وتوفّي الوزير الصاحب أمين الدين أمين الملك أبو سعيد عبد الله بن تاج الرِّياسة بن الغَنّام تحت العقوبة مخنوقاً في يوم الجمعة رابع جمادى الأولى؛ ووَزَر ثلاث مرّات بالديار المصريّة، وباشر نظر الدولة وآستيفاء[٢] الصحبة، وخدم في بيت السلطان من الأيام الأشرفيّة، وتنقّل في عِدّة خِدَم بمصر ودِمَشْق وطَرابُلُس نصرانيّا ومسلما. ولمّا أسلم حسُن إسلامه وتجنّب النصارى؛ وكان رضيَّ الخُلُق.

وتوفّي العّلامة افتخار الدين جابر بن محمد بن محمد الخُوَارَزْميّ الحنفيّ شيخ الجاولية[٣] بالكَبْش خارجَ القاهرة في يوم الخميس سادس عشر المحرّم؛ وكان إماماً عالما بارعاً في النحو واللغة شاعراً أديباً مُفَوَّهاً.

وتوفّي القاضي عِزّ الدين عبد الرحيم بن نور الدين عليّ بن الحسن بن

---

(١) في السلوك: «وتسع عشرة إصبعاً».

(٢) صاحب هذه الوظيفة يسمى مستوفي الصحبة. وهو يشارك الوزير، ويوصي بإلزام الكتّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلفات، وتقدير المساحات وتمييز قيم بعضها على بعض، ومستجدّ الجرائد، وما يقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباس وغير ذلك. (صبح الأعشى: ١١/٩٤).

(٣) أي الخانقاه الجاولية، نسبة إلى الأمير علم الدين سنجر الجاولي. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢١.

محمد بن عبد العزيز بن محمد بن الفُرَات أحد نواب الحكم[١] الحنفيّة في ليلة الجمعة ثاني عشرين ذي الحجة، وكان فقيهاً محدثاً.

وتوفِّي الأمير الكبير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوريّ ببلاد مَرَاغة، وقد أقطعه إيّاها بو سعيد بن خَرْبَنْدَا ملك التتار، [وكان موته][٢] بمرض الإسهال. وقد أعيا الملكَ الناصر قتلهُ، وبعث إليه كثيراً من الفِدَاوية[٣] بحيث قُتِل بسببه نحو مائة وأربعة وعشرين فداويّاً ممن كان يتوجّه لقتله فيُمسَك ويُقْتَل. فلما بلـغ السلطانَ موتُه قال: «والله ما كنت أشتهي موته إلاّ من تحت سيفي، وأكون قد قدَرت عليه، [ولكنّ الأجل حصين][٢]».

قلت: وقد مرّ ذكر موت قَرَاسُنْقُر قبل هذا التاريـخ[٤]. ولكن الظاهر لي أن الأصّح المذكور هنا الآن من قرائن ظهرت.

وتوفّي الأمير سيف الدين ابن الحاج قُطُز بن عبد الله الظاهريّ أحد أمراء الطَّبلَخاناه بالديار المصرية؛ وهو آخر مَنْ بقي من مماليك الظاهر بِيْبَرس البُنْـدُقْداريّ من الأمراء.

وتوفِّي الشيـخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن يوسف المزِّيّ الشافعيّ أخو الحافظ جمال الدين المِزّي لأبيه في يوم الثلاثاء ثالث شهر رمضان.

---

(١) أي كان أحد نوّاب قاضي قضاة الحنفية. وقد كان لكل قاضي قضاة أعوان ينوبون عنه بمصر والقاهرة يسمون نواب الحكم أو النواب من الحكام. وكان لكل قاضي قضاة أن يستنيب من يشاء ولكن بأمر السلطان. وقد حاول أحد السلاطين أن يحدد عدد النواب بثلاثة لكل قاضي قضاة، إلا أنه لكثرة اختصاصاتهم لم يتقيدوا بهذا العدد، حتى بلـغ عددهم في القاهرة وحدهـا مائة وستة وثمانين. وقد كان أغلب النواب في عهد الأيوبيين وفي أوائل حكم المماليك من الشافعية، وأقلهم من المذاهب الأخرى، لأن قاضي القضاة الشافعي هو الذي كان يعينهم جميعاً. فلما عين القضاة الأربعة أصبـح لكل قاضي قضاة أن يعين نوابه من مذهبه. (نظم دولة سلاطين المماليك: ١/ ٩٩).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) راجـع ص ١٣٦ من هذا الجزء، حاشية (١). ــ وانظر أيضاً السلوك: ٢/٢/٥٥٤ ــ ٥٥٨، وفيه تفصيلات وافية عن عدة محاولات قام بها الملك الناصر محمد بن قلاوون، مستغلاً علاقاته بالفداوية من الإسماعيلية، لاغتيال قراسنقر هذا وعدد من عمال بغداد من قبل المغول.

(٤) راجـع وفيات سنة ٧٢٨هـ في هذا الجزء.

وتوفّي الشيخ المعَتقد عِزّ الدين عبد المؤمن بن قُطْب الدين أبي طالب عبد الرحمن بن محمد بن الكمال أبي القاسم عمر بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن المعروف بابن العَجَميّ الحلبيّ الشافعيّ بمصر. كان تزهّد بعد الرياسة، وحج ماشياً من دِمَشْق، وجاور بمكة. وكان لا يقبل لأحد شيئاً، بل كان يقتات من وقف أبيه بحَلَب؛ وكان له مكارمُ وصدقات وشعر جيّد.

وتوفّي الأمير سيف الدين تنكِز بن عبد الله الحُسَاميّ الناصريّ نائب الشام. كان أصله من مماليك الملك المنصور حُسَام الدين لاجين. فلمّا قُتِل لاجين صار من خاصّكيّة الناصر، وشهِد معه وقعة وادي الخَازِنْدَار ثم وقعة شَقْحَب، ثم توجّه مع الناصر إلى الكَرَك. فلما تسلطن الملك الناصر ثالث مرة رقّاه حتى ولّاه نيابة الشام، فطالت مدّته إلى أن قبَض عليه السلطان الملك الناصر في هذه السنة، وقتله بثغر الإسكندرية. وقد مرَّ من ذكر تَنْكِز في ترجمة الملك الناصر الثالثة ما فيه كفاية عن الإعادة هنا؛ لأنّ غالب ترجمة الملك الناصر وأفعاله كانت مختلفة مع أفعال تَنْكِز لكثرة قدومه إلى القاهرة وخصوصيّته عند الناصر من أوّل ترجمته إلى آخرها إلى حين قَبَض عليه وحبَسه. كل ذلك ذكرناه مفّصلاً في اليوم والشهر، وما وُجِد له من الأموال والأملاك. كلّ ذلك في أواخر ترجمة الملك الناصر. ولمّا وَلِي الأمير أَلْطُنْبُغا الصالحيّ نيابة الشام بعد تَنْكِز قال الشيخ صلاح الدين الصفديّ في تَنْكِز المذكور أبياتاً منها: [الطويل]

ألا هل لُيَيْلات تَقَضَّتْ على الحِمَى ... تعودُ بوَعْدٍ للسرور مُنَجَّزِ
لَيَالٍ إذا رام المُبَالغُ وَصْفَهَا ... يُشَبِّهُهَا حُسْناً بأيام تَنْكِزِ

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وإحدى عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ستَ عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

ملحق رقم(١)

نص المرسوم الذي أصدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م بشأن أحوال أهل الذمة في عصره.

. . .فلما كان في يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر، جلس السلطان على العادة، وحضر الأمراء وغيرهم إلى الخدمة، فخاطب السلطان أكابر الأمراء في هذا الأمر وقال: قد قررت على النصارى مضاعفة الجزية، فيؤخذ منهم جزيتان. وأمر أن ينادي في المدينتين أن يلبسوا الثياب الزرق مضافة إلى العمائم، وأن يشدوا الزنانير فوق ثيابهم، وأن يميزوا إذا دخلوا الحمام بجلجل يجعلونه في أعناقهم، وأن لا يستخدموا في الدواوين السلطانية ولا في دواوين الأمراء ولا في الأعمال والبرور. فنودي بذلك، وبرزت الأمثلة الشريفة السلطانية به، وقرئت على المنابر بالمدينتين، ونفذت إلى العملين، وتضمن المثال المجهز منها إلى الوجه القبلي الذي قريء على منابر المدن ما مثاله بعد البسملة:

«الحمد لله مظهر هذا الدين المحمدي على كل دين، والمؤيد بنا الإسلام وأهله، ومحلّ بناء المشركين، الذي قهر بتأييدنا جميع الأعداء، وحقن بعفونا وحلمنا دماء الكافرين. نحمده على ما أولانا من فضله العميم وذخره المبين ونشكره شكراً نستزيد به من كربه، وسيجزي الله الشاكرين؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة باليقين، ونشهد أن سيّد البشر محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين وخاتم الأنبياء الذين أرسلهم إلى العالمين، وأن عيسى ابن مريم عبده ورسوله الذي بشّر ببعثه وآمن برسالته قبل ظهور دينه المبين؛ صلى الله عليه وعلى آله، خصوصاً على مؤيد شرعه أول خلفاء المسلمين، وعلى من فتح البلاد، وضرب الجزية على أهل الكتاب في كل ناد، وأعلن بالبادين[1]، وعلى من جهز جيش العسرة وثوقاً بضمان سيد المرسلين، وعلى ممزق جموع الكفر وجامع شمل المؤمنين، صلاة دائمة باقية مثمرة إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

وأما بعد فإن الله تعالى لما أقامنا لنصر الإسلام وأهله، وصرفنا في عقد كل أمر وحلّه، وأيدنا بنصره، وعصمنا بحبله، لم نزل نعلي كلمة الإيمان، ونظهر شعائر الإسلام في كل مكان، ونقف عند الأوامر الشرعية لتكون كلمةُ الذين كفروا السُّفْلَى وكلمةُ الله هي العُلْيَا.

وكان جماعة من مفسدي النصارى قد تعدوا وطمعوا، وتمادوا في المخالفة إلى ما تقتضي بعض العهود، وبغوا ومكروا مكراً كباراً، فأدخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً؛ وتعرضوا

(١) كذا في الأصل.

الرمي بنار أطفأها الله بفضله، ومكروا مكراً سيئاً(ولا يَحيقُ المكرُ السيِّىءُ إلا بأَهْلِهِ)؛ اقتصى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف في كل قضية، ولنجدِد عليهم العهود العمرية، وأن نقرر على من شمله عفونا ممن ضعف منهم الجزية ما تكون به أنفسهم تحت سيوفنا مرتهنة، ونضرب عليهم في لباسهم وحرماتهم الذلة والمسكنة. فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصر، لا زال ناصر الدين بجنوده، مظهر دين الحنيفية على الدين كله، أن تستقرّ الجزية على سائر النصارى بالوجه القبلي ضعف ما عليهم الآن، ويؤخذ من كل نصراني جاليتان: المستقرة أولاً واحدة، والزيادة نظير ذلك للخاص الشريف مهما كان مستقراً بسائر النواحي بالوجه القبلي في الاقطاع، حسب ما قررت في الروك المبارك الناصري، يكون للمقطعين، والزيادة الثانية المضاعفة الآن تكون للخاص الشريف. وأن تلبس سائر النصارى عمائم زرقاً وجباباً زرقاً، ويشدّوا الزنّار في أوساطهم؛ وأن لا يستخدم أحد من النصارى في جهة من الجهات الديوانية والأشغال السلطانية؛ وكذلك لا يستخدم أحد من الأمراء أحداً من النصارى عنده، وأن يبطلوا جميعهم من الجهات التي كانوا يخدمون بها. والحذر ثم الحذر من أن أحداً منهم يخرج عما رسمنا به، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قبالة ذلك، ولا تنفعه بعد ذلك فدية ولا جزية. وتحسم مادة فسادهم، وينكشف بذلك ما أظهروه من سوء اعتمادهم؛ فليثبت حكم هذا المرسوم الشريف، وليدخل تحت أمره المطاع كل قوي وضعيف. وليستقر ضرب هذه الجزية استقراراً بلا زوال، مستمراً بدوام الليالي والأيام، باقية بدوام الأعوام والسنين، مخلدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. فإنها حسنة ساقها الله تعالى لدولتنا الشريفة، ومثوبة وذخيرة صالحة لم تزل في صحائفنا الطاهرة مكتوبة، ومعدلة يسّرها الله تعالى على يدينا في الآفاق، وأجراً يكون ثوابه عند الله باق. وسبيل كل واقف عليه، والياً ونائباً، وحاضراً وغائباً، وناهياً وآمراً، وشاهداً وناظراً، ومأموراً وأميراً، وكبيراً وصغيراً الانتهاء عند هذا التحذير، فيبادرون إلى امتثال هذا المرسوم الشريف، ويسمعون ويسارعون إلى العمل بما فيه، وينفذونه، ويقفون عند حكمه ويمتثلونه (فَمَنْ بدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ) والله تعالى يُعلي منار الإسلام، ويزيده قوة وإظهاراً، ويجعل الدائرة على أعداد الدين، ولا يذر على الأرض من الكافرين ديّاراً. بعد الخط الشريف أعلاه حجّة بمقتضاه. وكتب في سابع عشرين جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة حسب الأمر الشريف».

ولما برز هذا المثال وغيره من الأمثلة لم ينفذ حكمها، ولا طولب نصراني بزيادة. ومنع النصارى من المباشرات أياماً قلائل، وأسلم بعض كتّاب الأمراء؛ وذلك أن كريم الدين الناظر أنهى إلى السلطان أن جماعة منهم في الأشغال السلطانية، ومتى صرفوا قبل انتهاء السنة فسدت الأحوال وتعطلت المصالح. وسأل أن يستمروا بقية هذه السنة، وينفصلوا بعد رفع الحساب، فوافقه السلطان على ذلك.

(السلوك: ٢/٣/٩٥٩، منقول من النوري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٧-٨).

ملحق رقم(٢)

مدارس وجوامع من منشآت عصر الناصر محمد بن قلاوون لم يذكرها أبو المحاسن في هذا الكتاب.

ويرجع الفضل في اكتشاف هذه المنشآت إلى العلامة المؤرخ محمد رمزي، وقد ألحقها في الجزء التاسع من النجوم الزاهرة ــ طبعة دار الكتب المصرية، ص ٣٣١ ــ ٣٣٣.

(١) مسجد الأمير بكتوت الخازندار: يُعرف اليوم بجامع البلك ببولاق، اعتماداً على الرخامة التي أخرجتها إدارة حفظ الآثار العربية من بين أنقاض هذا الجامع الخرب، ونقش على تلك الرخامة إنشاء الأمير بكتوت لمسجده في سنة ٧٠٩هـ. وقد ذكر محمد رمزي ذلك في الحاشية(٥) ص ٢١٩ من الجزء التاسع من النجوم الزاهرة. وبعد طبع هذه الحاشية تصادف أن اطلع العلامة على كتاب وقف رضوان بك الفقاري المحرر في ٨ ربيع الأول سنة ١٠٥٣هـ، فعلم منه أن وقف الأمير بكتوت كان واقعاً خارج باب زويلة بالخضريين على يسار السالك طالباً سوق أسفل الربع الظاهري (تحت الربع). وقد زال هذا المسجد خارج باب زويلة.

(٢) المدرسة القراسنقريّة: أنشأها الأمير قراسنقر المنصوري نائب السلطنة سنة٧٠٠هـ (خطط المقريزي: ٣٨٨/٢). ومكانها اليوم مدرسة الجمالية الابتدائية بشارع الجمالية بقسم الجمالية.

(٣) المدرسة السعدية. أنشأها الأمير شمس الدين سنقر السعدي نقيب المماليك السلطانية في سنة ٧١٥هـ (المقريزي ص ٣٩٧ج ٢). ولا تزال قائمة إلى اليوم بشارع السيوفية؛ وكانت مستعملة أخيراً تكية للمولوية بقسم الخليفة.

(٤) المدرسة المهمندارية. أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المهمندار ونقيب الجيوش في سنة ٧٢٥هـ (المقريزي ص ٣٩٩ج ٢). ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع المهمندار بشارع التبانة بقسم الدرب الأحمر.

(٥) المدرسة الملكية. أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصري في سنة ٧١٩هـ، كما هو ثابت بالنقش على بابها، وذكرها المقريزي في خططه (ص ٣٩٢ج ٢). ولا تزال قائمة إلى اليوم بآسم جامع الجوكندار بشارع أم الغلام بقسم الجمالية بالقاهرة. وتسميه العامة زاوية حالومة، وهو رجل مغربي طالت خدمته لهذا المسجد فعرف به.

(٦) جامع آبن غازي. أنشأه نجم الدين بن غازي دلال المماليك في سنة ٧٤١هـ (المقريزي ص ٣١٣ج ٢). ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ نصر بشارع درب نصر ببولاق.

(٧) جامع أبن صارم. أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق. ذكره المقريزي

(ص ٣٢٥ج ٢)، ولم يذكر تاريخ إنشائه، ولكن إبراهيم بن مغلطاي ذكره في منشآت عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون. ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ عطية بدرب نصر ببولاق.

(٨) جامع الشيخ مسعود. ذكره المقريَزي في خططه عند الكلام على سويقة العياطين (ص ١٠٧ج ٢) فقال: إن الذي أنشأه هو الشيخ مسعود بن محمد بن سالم العياط في سنة ٧٢٨هـ. ولا يزال هذا المسجد قائماً إلى اليوم باسم جامع الشيخ مسعود بعطفة الشيخ مسعود بدرب الأقماعية بقسم باب الشعرية.

(٩) جامع فلك الدين فلك شاه. يستفاد مما هو منقوش في لوح من الرخام مثبت بأعلى محراب هذا المسجد أن الذي أنشأه هو الأمير فلك الدين شاه بن دادا البغدادي في سنة ٧٢٠هـ ومن هذا التاريخ يتبين أنه من منشآت عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون. ولا يزال هذا الجامع موجوداً، ويعرف بجامع الجنيد بشارع الدرب الجديد بقسم السيدة زينب، وينسب إلى الشيخ علي الجنيد المدفون فيه.

ملحق رقم(٣)

روك نيابة طرابلس ونواحيها سنة ٧١٧هـ/١٢١٧م لضبط شؤون طائفة النصيرية، ووصف أحوال هذه الطائفة في تلك السنة.

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة رسم السلطان بروك المملكة الطرابلسية وما أضيف إليها من الأعمال والقلاع والحصون والثغور؛ فكشفت النواحي، ونصب لتحرير ذلك وإتقانه القاضي شرف الدين يعقوب ناظر المملكة الحلبية؛ فحضر إلى طرابلس حسب الأمر الشريف، وانتصب لتحرير ذلك، وفي خدمته جماعة من الكتاب؛ ولم يعتمد فيه على ناظر المملكة الطرابلسية شرف الدين يعقوب الحموي. ولما تكامل ذلك حضر القاضي شرف الدين يعقوب ناظر المملكة الحلبية ومعه المكتوب إلى الأبواب السلطانية. وجلس القاضي فخر الدين ناظر الجيوش ومن معه من المباشرين، وانتصبوا لقسمة الاقطاعات، وتقرير الخواص، وإفراد جهات القلاع والحصون، وكُلَف المملكة؛ فكمل ذلك في شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة. وتوفر بسبب هذا الروك ما أقيم عليه ستة أمراء أصحاب طبلخاناه، وثلاثة أمراء أصحاب عشرات، وخمسون نفراً من البحرية والحلقة.

ورسم بإبطال جهة الأفراح والسجون وغير ذلك بالمملكة الطرابلسية، فأبطلت؛ وجملة ذلك نحو مائة ألف درهم وعشرة الآف درهم في كل سنة. ورُسم أن يُبنى بقرى النصيرية في كل قرية مسجد، ويُفرد من أراضي القرية رزقة برسم المسجد، وتُمنع النصيرية من الخطاب، ومعناه أن الصبي إذا بلغ الحلم، وأُنِس منه الرشد، يتطاول إلى المخاطبة، ويتوسل إلى أبيه وقرايبه في ذلك

مدة. فيجمعون له مجتمعاً يجتمع فيه أربعون من أكابرهم، ويذبح هو أو وليه رأس بقر وثلاثة أرؤس من الغنم، ويفتح لهم خابية من الخمر، فيأكلون ويشربون. فإذا خالطهم الشراب أخذ كل واحد منهم يحكي حكاية عمن خوطب وباح بما خوطب به: أنه قطعت يده، أو عمي، أو سقط من شاهق فمات، أو ابتلي بعاهة؛ كل ذلك تحريضاً للمخاطب على كتمان ما يودع إليه من المذهب. فإذا استوثق منه تقدم إليه المعلم، فحلّفه أربعين يميناً على كتمان ما يوجب إليه، ثم يوضح له الخطاب، وكيفيته على ما تقل[1] ما له علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن محمد بن عبد الله كان حجاباً عليه بواسطة جبريل، ويسمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيد.

ويرفع [المعلم] عن المخاطب التكليف ويعرّف أن لا صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج إلا إلى مكان يزعمون أن فيه ضريح علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن الروح الإلهي الذي كان فيه شغل في واحد، وأنه الآن في هذا العصر في رجل يسميه المخاطب للمخاطَب، ويعرفه بأن يقف عند ما يأمره به وينهاه عنه، ويحل له، ويحرم عليه. ثم يعرّفه أن لا غل من جنابة، ويأخذ عليه العهد أن لا ينصح مسلماً في أكل ولا شرب، ولا يسايره ولا يعامله؛ ويعرفه أن مال المسلمين حِلٌ له إن استطاع. ولهم سلام بينهم، يعرف بعضهم بعضاً به عند المصافحة والمكالمة له.

وأخبرني من أثق به في هذه السنة أن الذي تزعم النصيريَّة أن الروح الإلهي حلّ به رجل أسمه شرف، وهو رئيس قرية سلفتو[2] من عمل صهيون. ومن ظريف ما بلغني عن شرف هذا أن بعض أهل تلك الناحية مرض، فجاءه ولد المريض، وسأله أن يعافي أباه، فوعده بذلك، وأن أباه لا يموت في هذه المرضة. فاشتد به الوجع، فعاوده؛ فأجابه بمثل ذلك. ثم مات المريض، فجاءه ابنه، وقال له: «لا أدعك حتى تعيده حياً كما وعدتني». فقال له شرف: «دع هذا، فإن الدولة ظالمة، ولا تفتح هذا الباب، فإنه يؤدي إلى إلزامنا بإحياء من أرادوا إحياءه، فمن يموت». وأخبرني المخبر أن شرف هذا المذكور، فيه كرم نفس وخدمة لمن يرد عليه من الأضياف وغيرهم.

ولما رسم بإبطال ما كرناه، وبناء المساجد بقرى النصيرية، كُتب مرسوم شريف سلطاني من إنشاء القاضي كمال الدين ابن الأمير مضمونه[3]:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل الدين المحمدي في أيامنا الشريفة قائماً على أثبت عماد، واصطفانا لإشادة أركانه وتنفيذ أحكامه من بين العباد، وسهل علينا من إظهار شعائره ما رام من كان قبلنا تسهيله فكان عليه صعب الانقياد، وادخر لنا من أجور نصره أجل ما يدّخر ليوم يفتقر فيه لصالح الاستعداد.

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) أورد القلقشندي (صبح الأعشى، ج ١٣ ــ ص ٣٠ ــ ٣٦) نص أجزاء من هذا المرسوم.

نحمده على نعم بلغت من إقامة منار الحق المراد، وأخمدت نار الباطل بمظافرتنا ولولاها لكانت شديدة الاتّقاد، ونكست رؤوس الفحشاء فعادت على استيحاء إلى مستنها أقبح معاد. ونشكره على أن سطر في صحائفنا من غرر السير ما تبقى بهجته ليوم المعاد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يجدها العبد يوم يقوم الأشهاد، وتسري أنوار هديها في البرايا فلا تزال آخذة في الازدياد، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله بالإنذار ليوم التناد، والإعذار إلى من قامت عليه الحجة بشهادة الملكين فأوضح له سبيل الرشاد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من ردّ أهل الردة إلى الدين القويم أحسن ترداد، ومنهم من عمّم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سائر العباد والبلاد، ومنهم من بذل ماله للمجاهدين ونفسه في الجهاد، ومنهم من دافع عن الحق فلا برح في جدال عنه وفي جلاد، صلاة تهدي إلى السداد، وتقوّم المعوجَّ وتثقف الميّاد، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن الله تعالى منذ ملكنا أمور خلقه، وبسط قدرتنا في التصرف في عبادة والمطالبة بحقه، وفوض إلينا القيام بنصرة دينه، وفهّمنا أنه تعالى قبض قبل خلق الخلائق قبضتين، فرغّبنا أن نكون من قبضة يمينه. وألقى إلينا مقاليد الممالك، وأقام [الحجّة] علينا بتمكين البسطة[1] وعدم التشاقق في ذلك. ومهد لنا من الأمر ما على غيرنا توعّر، وأعدّ لنا من النصر ما أجرانا فيه على عوايد لطفه، لا عن مرح في الأرض، ولا عن خدّ مصعَّر. ألهمنا إعلاء كلمة الإسلام، وإعزاز الحلال وإذلال الحرام، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن لا نختار على الدار الآخرة دار الدنيا، وأن ندور مع الحق حيث دار، ونرغب عن هذه الدار، بما أعده الله [للإنسان] من حياته في تلك الدار، فلم يزل يقيم للدين شعاراً، ويصفّي المنكر ويُعلن في النصيحة لله ورسوله ويُسِرُّ إسراراً، ويتتبع أثر منكر يعفّيه، وممطول بحقه يوفّيه، ويعلم [حق] قربة يشيّده، ومخذولاً استظهر عليه الباطل يؤيده، وذا كُرْبة يفرجها، وغريبة فحشاء استطردت بين أزراد الخيل نخرجها، وميتة سيئة تستعظم النفوس زوالها، فيجعلها هباء منثوراً، وجملة عظيمة أسست على غير التقوى مبانيها فيحطمها كرمنا إذ الجزاء عنها موفوراً.

فاستقصينا ذلك في ممالكنا الشريفة مملكة مملكة، واستطردنا في إبطال كل فاحشة موبقة مهلكة، فعفّينا من ذلك بالديار المصرية ما شاع خبره، وظهر بين الأنام أثره، وطبقت محاسنه الآفاق، ولهجت به السنة الرعايا والرقاق، من مكوس أبطلناها، وجهات سوء عطّلناها، ومظالم رددناها إلى أهلها، وظَلَمة زجرناها عن ظلمها وغيها، وبواقٍ سامحنا بها وسمحنا، وطلبات خفّفنا عن العباد تركها وأرحنا، ومعروف أقمنا دعائمه، وبيوت لله عز وجل أثرنا منها كل نائبة. ثم بَثّثْنا ذلك في سائر الممالك الشامية المحروسة، وجنينا النصر من شجرات العدل التي هي بيد يقظتنا مغروسة.

ولما اتصل بعلومنا الشريفة أن بالمملكة الطرابلسية آثار سوء ليست في غيرها، ومواطن فسق لا يقدر غيرنا على دفع ضررها وضيرها، ومظان آثام يجد الشيطان فيها مجالاً فسيحاً، وقرى لا يوجد

(١) كذا في الأصل.

بها مَن [كان] مقبولاً، ولا مَن [كان] دينه صحيحاً، وخموراً يُتظاهر بها، ويتصل سبب الكبائر بسببها، وتشاع في الخلائق مُجهراً، وتباع على رؤوس الأشهاد فلا يوجد لهذا المنكرَ منكِرا، ويحتجّ في ذلك بمقرّرات سحت لا تُجدي نفعاً، وتبقى بين يدي آخذها كأنها حية تسعى.

ومما أنهي إلينا أن بها حانة عبّر عنها بالأفراح، قد تطاير شررها وتفاقم ضررها؛ وجُوهِر فيها بالمعاصي. وآذنت لولا حلم الله وإمهالِه بزلزلة الصيّاصي، وغدت لأولي الأهوية مجمعاً، ولذوي الفساد مربعاً ومرتعاً، يتظاهر فيها بما أمر بستره من القاذورات، ويؤتى ما يجب تجنّبه من المحذورات، ويسترسل في الانشراح فيها إلى ما يؤدي إلى غضب الجبار، وتتهافت النفوس بها كالفراش على الاقتحام في النار. ومنها أن السجون إذا سجن بها أحد يجمع عليه بين السجن وبين الطلب، وإذا أفرج عنه ولو في يومه انقلب إلى أهله من الخسارة أسوأ منقلب، فهو لا يجد سروراً بِفَرَجه، ولا يجد عقبى مخرجه.

ومنها أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سكانها يعرفون بالنصيرية، لم يلج الإسلام لهم قلباً، ولا خالط لهم لُبّاً، ولا أظهروا له بينهم شعاراً، ولا أقاموا له مناراً، بل يخالفون أحكامه ويجهلون حلاله وحرامه، ويخلطون ذبائحهم بذبائح المسلمين، ومقابرهم بمقابر أهل الدين. وكان ذلك مما يجب ردعهم عنه شرعاً، ورجوعهم فيه إلى سواء السبيل أصلاً وفرعاً.

فعند ذلك رغبنا أن نفعل في هذه الأمور ما يبقى ذكره مفخرة على ممر الأيام، وتدوم بهجته بدوام دولة الإسلام، ونمحو به في أيامنا الشريفة ما كان على غيرها عاراً، ونسترجع للحق من الباطل ثوباً طالما كان لديه معاراً، ونثبت في سبق دولتنا الشريفة عوارف لا تزال مع الزمن تذكر، ويتلو على الأسماع قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري، لا زال بالمعروف آمراً، وعن المنكر زاجراً، ولامتثال أوامر الله مسارعاً ومبادراً، أن يبطل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتي ذكره، وهو:

جهات الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجاً عما لعله يستقر من ضمان الفرح الحر؛ وتقديرها سبعون ألف درهم.

السجون بالمملكة الطرابلسية خارجاً عن سجن طرابلس، بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدم التاريخ؛ وتقديرها عشرة الآف درهم.

سجن الأقصاب المحدث ما بين أقصاب الديوان المعمور التي كان فلاحو الكورة بطرابلس يعملون بها، ثم أعفوا عن العمل؛ وقرر عليهم في السنة تقدير ألفي درهم أقصاباً. أقصاب الأمراء، بحكم أن بعض الأمراء كانت لهم جهات تزرع الأقصاب، وقرروا على بقية فلاحيهم العمل بها، أو القيام بنظير أجرة العمل؛ وتقدير ذلك ثلاثة الآف درهم. عفاية النيابة بكورة طرابلس وأنفة

والبثرون[١] وما معه، بحكم أن الذاكرين كانوا يبيتون على المراكز بالبحر، فلما سدّت المراكز بالعساكر المنصورة، قرّر على كل نفر في السنة ستة دراهم؛ وتقدير ذلك عشرة الآف درهم.

حق الديوان بصهيون وبلاطنس عمن كان يعاني خصبها؛ وتقدير متحصل ذلك ثلاثة الآف درهم.

هبة البيادر بنواحي الكهف، مستجدة مما كان يُستأدى عن كل فدان ثلاثة دراهم؛ وتقدير متحصله ألف درهم.

ضمان المستغل بطرابلس، مما كان أولاً بديوان النيابة بالفتوحات، ثم استقر في الديوان المعمور في شهور سنة ست عشرة وسبعمائة؛ وتقديره أربعة الآف درهم. ما استجد في اقطاعات بعض الأمراء على الفلاحين، ما لم تجربه عادة من حق حشيش وملح وضيافة؛ وتقديره ستة الآف درهم.

فليبطل ذلك على مر الأزمنة والدهور، إبطالاً باقياً إلى يوم النشور، لا يطلب ولا يستأدى، ولا يبلغ الشيطان في بقائه مراداً. وليقرأ مرسومنا هذا على المنابر ويشاع، ويستجلب لنا به الأدعية الصالحة فإنها نعم المتاع.

وأما النصيرية فليعمر في بلادهم بكل قرية مسجد، وليطلق له من أرض القرية المذكورة قطعة أرض تقوم به وبمن يكون فيه للقيام بمصالحه على حسب الكفاية، بحيث يستنيب الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي الزعيمي الكافلي الممهدي المشيدي الذخري الشهابي نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والحصون المحروسة، ضاعف الله نعمته، من جهته من يثق إليه لإفراد الأراضي المذكورة، وتحديدها وتسليمها لائمة المساجد المذكورة، وفصلها عن أراضي المقطعين. ويعمل بذلك أوراق، ويخلد بالديوان المعمور حتى لا يبقى لأحد من المقطعين فيها كلام، وينادي في المقطعين وأهل البلاد المذكورة بصورة ما رسمنا به في ذلك.

وكذلك رسمنا أيضاً بمنع النصيرية المذكورين من الخطاب، وأن لا يمكنوا بعد مرسومنا هذا من الخطاب جملة كافية، وتؤخذ الشهادة على أكابرهم ومشايخ قراهم بأن لا يعود أحد إلى التظاهر بالخطاب، ومن تظاهر قوبل أشد مقابلة.

فلتعتمد مراسمنا الشريفة ولا يعدل عن شيء منها. ولتجر المملكة الطرابلسية مجرى بقية الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات، وتعفية آثار الفواحش وإقامة شعار الدين القويم (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فإنما إثْمُهُ عَلَى الذِينَ يُبَدِّلونَهُ، إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله عز وجل. كتب في السابع من شوال سنة

(١) كذا في الأصل الذي نقلنا عنه. وهي البترون.

سبع عشرة وسبعمائة، حسب المرسوم الشريف، والحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كبيراً.

هذا ما تضمنه المرسوم السلطاني، ومنه نقلتُ.

وقد كانت كتبت فتيا في أمر النصيرية، وتضمنت اعتقادهم وما هم عليه، وأجاب عن ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية. وقد رأينا أن نذكر نص الفتيا والجواب في هذا الموضع، لما في ذلك بيان ما تعتقده هذه الطائفة الملعونة. والذي كتب هذه الفتيا التي تذكر شهاب الدين أحمد بن محمود بن مري الشافعي، ونسختها بعد البسملة[1]...

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، وأعانهم على إظهار الحق المبين وإهمال شغب المبطلين، في النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسخ الأرواح، وقدم العالم، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار، في غير الحياة الدنيا، وبأن الصلوات الخمس عبارة عن خمسة أشياء، وهي: علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة. فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يجزيهم عن الغسل من الجنابة، والوضوء وبقية شروط الصلوات وواجباتها، وبأن الصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلاً وثلاثين امرأة، يعدّونهم في كتبهم، ويضيق هذا الموضع عن إيرادهم، وبأن إلههم الذي خلق السموات والأرض هو علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فهو عندهم الإله في السماء والإمام في الأرض، وكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذه الناسوت على رأيهم، أنه يؤنس خلقه وعبيده ويعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه، وبأن النُصيري عندهم لا يصير نصيرياً مؤمناً يجالسونه ويشربون معه الخمر ويطلعونه على أسرارهم ويزوّجونه من نسائهم حتى يخاطبه معلّمه. وحقيقة الخطاب عندهم أن يحلّفوه على كتمان دينه ومعرفة شيخه وأكابر أهل مذهبه، وعلى أن لا ينصح مسلماً ولا غيره إلا من كان من أهل دينه، وعلى أن يعرف ربه وإمامه بظهوره في أكواره وأدواره. فيعرف انتقال الاسم والمعنى في كل حين وزمان؛ فالاسم عندهم في أول الناس آدم، والمعنى شيث؛ والاسم هو يعقوب والمعنى يوسف. ويستدلون على هذه الصورة ــ كما يزعمون ــ بما في القرآن العزيز حكاية عن يعقوب ويوسف عليهما السلام، فيقولون أما يعقوب فإنه كان الاسم فما قدر أن يتعدى منزلته، فقال: (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)، وأما يوسف فإنه كان المعنى المطلوب، فقال: (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)، فلم يعلق الأمر بغيره، لأنه علم أنه هو الإله المتصرف. ويجعلون موسى هو الاسم، ويوشع هو المعنى؛ ويقولون: يوشع ردَّت له الشمس لما أمرها، فأطاعت أمره، وهل تردّ الشمس إلا لربها؟ ويجعلون سليمان هو الاسم، وآصف هو المعنى؛ ويقولون سليمان عجز عن إحضار عرش بلقيس، وقدر عليه آصف، لأن سليمان كان الصورة، وآصف كان المعنى القادر المقتدر. وقد قال قائلهم: هابيل، سام، يوسف، يوشع، آصف، شمعون الصفا، مريم. ويعدون الأنبياء والمرسلين واحداً

---

(١) وردت هذه الفتوى في مجموعة فتاوى ابن تيمية، ج ٤، ص ٢٠٩ ــ ٢١٦. طبعة القاهرة، سنة ١٣٢٩هـ.

واحداً على هذا النمط إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون محمد هو الاسم، وعلي هو المعنى؛ ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا هذا. فمن حقيقة الخطاب والدين عندهم أن يُعلم أن عليًا هو الرب، وأن محمداً هو الحجاب، وأن سليمان هو الباب؛ وأنشدنا بعض أكابر درسهم وفضلائهم لنفسه، في شهور سنة سبعمائة، فقال:

أشهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين
ولا طريق إلا سليمان ذو القوة المتين

ويقولون: إن ذلك على هذا الترتيب لم يزل ولا يزال، وكذلك الخمسة الأيتام[1] والاثني عشر نقيباً، وأسماؤهم مشهورة عندهم، في كتبهم الخبيثة، فإنهم لا يزالون يَظْهَرون مع الرب والحجاب والباب في كل كور ودور أبداً سرمداً على الدوام والاستمرار. ويقولون: إن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويليه في رتبة الإبليسية أبو بكر، ثم عثمان، رضي الله عنهم أجمعين، وشرّفهم وأعلا رتبتهم على أقوال الملحدين وانتحال أنواع الغالين والمفسدين، فلا يزالون موجودين في كل وقت دائماً حسبما ذكر من الترتيب. ولمذاهبهم الفاسدة شعب وتفاصيل، ترجع إلى هذه الأصول المذكورة.

وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من بلاد الشام، فهم معروفون مشهورون، يتظاهرون بهذا المذهب. وقد حقق أحوالهم كل من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم، ومن عامة المسلمين أيضاً في هذا الزمان، لأن أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء الفرنج على البلاد الساحلية. فلما صارت [هذه البلاد الساحلية] بلاد الإسلام انكشف حالهم، وظهر ضلالهم، والابتلاء بهم كثير جداً. فهل يجوز للمسلمين أن يزوجوهم، أو يُتزوج منهم، أو يحل أكل ذبائحهم، والحالة هذه أم لا؟ وما حكم الجبن المعمول من أنفحة ذبيحتهم؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟ وهل يجوز استخدامهم في ثغور المسلمين، وتسليمها إليهم؛ أو يجب على ولي الأمر قطعهم، واستخدام غيرهم من المسلمين الأكفاء، وإذا استخدمهم وقطعهم أو لم يقطعهم هل يجوز له صرف أموال بيت المال عليهم؟ وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة وأموالهم في حلال أم لا؟ وإذا جاهدهم ولي الأمر أيده الله تعالى، بإبطال باطلهم وقطعهم من حصون المسلمين، وتحذير أهل الإسلام من مناكحتهم، وأكل ذبائحهم، وأمرهم بالصوم والصلاة، ومنعهم من إظهار دينهم الباطل، وهم يلونه من الكفار، هل ذلك أفضل وأكثر أجراً من التصدّي والترصد لقتال التتار في بلادهم، وهجم بلاد سيس، وديار الفرنج على أهلها؟ أم هذا أفضل؟ وهل يعد مجاهد النصيرية المذكورين مرابطاً، ويكون أجره كأجر المرابط في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الفرنج، أم هذا أكثر أجراً؟ وهل يجب على من عرف المذكورين ومذاهبهم أن يشهر أمرهم، ويساعد على إبطال باطلهم وإظهار الإسلام بينهم، فلعل الله تعالى أن يهدي بعضهم إلى الإسلام،

---

(١) كذا في الأصل.

وأن يجعل من ذريتهم وأولادهم ناساً مسلمين بعد خروجهم من ذلك الكفر العظيم؟ أم يجوز التغافل والإهمال؟ وما قدر أجر المجتهد على ذلك، والمجاهد فيه، والمرابط له، والغارم عليه؟.

وليبسطوا القول في ذلك مثابين مأجورين، إن شاء الله تعالى إنه على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فأجاب الشيخ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني عن هذه الفتيا: الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية، هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل أكفر من كثير من المشركين. وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار الترك والفرنج وغيرهم؛ فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيّع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المسلمين قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ولا بملّة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند المسلمين يتناولونه على أمور يفترونها، يدّعون أنها علم الباطن من جنس ما ذكره السائل، ومن غير هذا الجنس. وأنهم ليس لهم حدّ محدود مما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله وآياته، وتحريف كلام الله ورسوله عن مواضعه. ومقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طرائق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها، من جنس ما ذكره السائل، من جنس قولهم إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، والصيام المفروض كتم أسرارهم، وحج البيت العتيق زيارة شيوخهم، وأن «يد أبي لهب» هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأن النبأ العظيم والإمام المبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة، وكتب مصنفة. فإذا كانت لهم مُكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود فبقي عندهم مدة. وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يحصي عدده إلا الله، وصنفوا كتباً كثيرة بها ما ذكره السائل وغيره. وصنف علماء المسلمين كتباً في كشف أسرارهم، وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة، والإلحاد الذي هم فيه أكبر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام؛ وما ذكره السائل في وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء في وصفهم.

ومن المعلوم عندهم أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين. ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى النصارى على ثغور المسلمين، فإن ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين حتى جزيرة قبرس — يسر الله فتحها — من حين فتحها المسلمون في ولاية أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتحها معاوية بن أبي سفيان، ولم تزل تحت حكم المسلمين إلى أثناء المائة الرابعة، فإن هؤلاء المحاربين لله ورسوله كثروا بالسواحل

وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره؛ فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد، وصلاح الدين وأتباعهما، وفتحوا السواحل من النصارى ممن كان بها منهم، وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنهم[1] كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى؛ فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد. ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية.

ثم إن التتار ما دخلوا ديار الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك الأمصار إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن منجِّم هولاكو الذي كان وزيره وهو النصير الطوسي كان وزيراً لهم، وهو الذي أمرهم بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين، تارة يسمون الملاحدة، وتارة يسمون القرامطة، وتارة يسمون الباطنية، وتارة يسمون الإسماعيلية، وتارة يسمون النصيرية، وتارة يسمون الخُرَّمية، وتارة يسمون المحمِّرة. وهذه الأسماء منها ما يعمّهم، ومنها ما يخص بعض أصنافهم، كما أن الإسلام والإيمان يعم المسلمين. ولبعضهم اسم يخصه، إما لنسب، وإما لمذهب، وإما لبلد، وإما لغير ذلك. وشرح مقاصدهم يطول، كما قال بعض العلماء فيهم: ظاهرُ مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض ــ وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بشيء من الأنبياء المرسلين، لا نوح، ولا إبراهيم، ولا موسى، ولا عيسى، ولا محمد صلوات الله عليهم، ولا بشيء من الكتب المنزلة، لا التوراة، ولا الإنجيل، ولا القرآن، ولا يقرّون بأن للعالم خالقاً خلقه، ولا بأن له ديناً أمر به، ولا أن له داراً يجزي الناس على أعمالهم غير هذه الدار. وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين والإلهيين، وتارة يبنونه على قول الفلاسفة وقول المجوس الذين يعبدون التوراة، ويضمون إلى ذلك الرفض، ويحتجون لذلك من كلام النبوات، إما بقول مكذوب ينقلونه كما ينقلون عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «أول ما خلق الله العقل»، والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث؛ ولفظه: «أول ما خلق الله تعالى العقل، قال له: أقبل فأقبل، فقال له أدبر فأدبر»، فيحرفون لفظه، ويقولون: «أول ما خلق الله العقل»، ليوافق قول المتفلسفة اتباع أرسطون، أول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل. وإما بلفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيحرفونه عن مواضعه، كما يصنع أصحاب رسائل إخوان الصفا ونحوهم، فإنهم أئمتهم. وقد دخل كثير من باطلهم على كثير من المسلمين، وراح عليهم حتى صار ذلك في كتب طوائف من المنتسبين إلى العلم والدين، فإن كانوا لا يوافقونهم على أصول الدعوة الهادية، وهي درجات متعددة. ويسمون البهاية[1] البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم ومضمون الفلاح الأكبر، جحد الخالق تعالى والاستهزاء به، ويمن يقرّ به

---

(١) الضمير هنا عائد على الفاطميين ودولتهم في مصر.

(١) كذا في الأصل.

حتى يكتب أحدهم اسم الله في أسفل رجله. وفيه أيضاً جحد شرائعه ودينه، وما جاء به الأنبياء ودعوى أنهم كانوا من جنسهم طالبين الرياسة. فمنهم من أحسن في طلبها، ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل. ويجعلون محمداً وموسى من القسم الأول، ويجعلون المسيح من القسم الثاني. وفيه من الاستهزاء بالصلاة والزكاة والصوم والحج وتحليل نكاح ذوي المحارم وسائر الفواحش ما يطول شرحه.

ولهم إشارات ومخاطبات يعرف بها بعضهم بعضاً، وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين التي يكون فيها أهل الإيمان، فقد يخفون على من لا يعرفهم. وأما [إن] كثروا فإنه يعرفهم عامة الناس فضلاً عن خاصتهم. وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا يجوز مناكحتهم، ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم.

وأما الجبن المعمول بأنفحتهم، ففيه قولان مشهوران للعلماء. كسائر أنفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس وذبيحة الفرنج الذين يقال عنهم: إنهم لا يذكّون الذبائح. فمذهب أبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين أنه يحل هذا الجبن، لأن أنفحة الميتة طاهرة على هذا القول، لأن الأنفحة لا تموت بموت البهيمة، وملاقاة الوعاء النجس في الباطن لا ينجس. ومذهب مالك والشافعي، وأحمد في الرواية الأخرى، أن هذا الجبن نجس، لأن الأنفحة عند هؤلاء نجسة، لأن لبن أنفحتها عندهم نجس، ومن لا تؤكل ذبيحته فذبيحته كالميتة، وكل من أصحاب القولين يحتج بآثار ينقلها عن أصحابه. فأصحاب القول الأول نقلوا أنهم أكلوا جبن المجوس، وأصحاب القول الثاني نقلوا أنهم إنما أكلوا ما كانوا يظنون أنه من جبن النصارى؛ فهذه مسألة اجتهاد، للمقلد أن يقلد من يفتي بأحد القولين.

وأما أوانيهم وملابسهم فكأواني المجوس وملابس المجوس، على ما عرف من مذاهب الأئمة. والصحيح في ذلك أن أوانيهم لا تستعمل إلا بعد غسلها، فإن ذبائحهم ميتة، فلا بد أن يصيب أوانيهم المستعملة ما يطبخونه من ذبائحهم، فتنجس بذلك. فأما الآنية التي لا يغلب على الظن وصول النجاسة إليها فتستعمل من غير غسل، كآنية اللبن التي لا يضعون فيها طبيخهم ويغسلونها قبل وضع اللبن فيها، وقد توضأ عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية؛ فما شُك في نجاسته لم يحكم بنجاسته بالشك.

ولا يجوز دفنهم بين مقابر المسلمين، ولا يُصلَّى على من مات منهم، فإن الله تعالى نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين كعبد الله بن أبي ونحوه. وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والصيام والجهاد مع المسلمين، ولا يظهرون مقالة تخالف دين المسلمين، لكن يسرّون ذلك فقال الله تعالى (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنهُم مَاتَ أَبَدًا، وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُون)، فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق ويظهرون الكفر والإلحاد.

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة

من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغشّ الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شرّ من المخامر الذي يكون في العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض، إما مع أمير المعسكر وإما مع العدو، وهؤلاء لهم غرض مع الملّة ونبيها، ودينها وملوكها، وعلمائها، وعامتها وخاصتها؛ وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته ويجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المعاملة، ولا يتركون في ثغر ولا في غير ثغر؛ وضررهم في الثغور أشد، وأن يستخدموا بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام، وعلى النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم؛ بل إذا كان وليّ الأمر لا يستخدم من يغشه وإن كان مسلماً، فكيف يستخدم من يغشه ويغش المسلمين كلهم؛ ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر على الاستبدال بهم وجب عليه ذلك. وأما إذا استخدموا وعملوا العمل المشروط عليهم فلهم إما المسمّى وإما أجرة المثل، لأنهم عوقدوا على ذلك؛ فإن كان العقد صحيحاً وجب المسمىٌّ، وإن كان فاسداً وجب أجرة المثل. وإن لم يكن استخدامهم من جنس الإجارة فهو من جنس الجعالة الجائزة، لكن هؤلاء لا يجوز استخدامهم، فالعقد عقد فاسد فلا يستحقون إلا قيمة عملهم. فإن لم يكونوا عملوا عملاً له قيمة فلا شيء لهم. لكن دماءهم مُباحة وكذلك أموالهم إذا لم يكن لهم وَرَثَةٌ من المسلمين. وإن كان لهم ورثة من المسلمين فقد يقال: إنهم بمنزلة المرتدين، والمرتدّ هل يكون ماله لورثته المسلمين؟ فيه نزاع مشهور. وقد يقال: إنهم بمنزلة المنافقين، والمنافقون يرثهم ورثتهم المسلمون في أصح القولين؛ لكن هؤلاء المسؤول عنهم لا يكاد يكون لهم وارث من المسلمين. وإذا أظهروا التوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء. فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقرّ مالهم عليهم، ومن لم يقبلها ورثهم من جنسهم، فإن مالهم يكون فيئاً لبيت المال، لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة، إذ أصل مذهبهم التقيَّة وكتمان أمرهم، وفيهم من يُعرف ومن قد لا يعرف؛ فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم ولا يتركون مجتمعين، ولا يمكنون من حمل السلاح، وأن يكونوا من المقاتلة، ويلزموا بشرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين معلميهم؛ فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة لما ظهروا على أهل الردّة وجاؤوا إليه، قال لهم الصديق: «اختاروا مني إما الحرب الملجئة، وإما السلم المخزية». قالوا: «يا خليفة رسول الله! هذه الحرب الملجئة قد عرفناها، فما السلم المخزية؟» قال: «تروں قتلانا ولا نرى قتلاكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ونقسّم ما أصبنا من أموالكم، وتردّون ما أصبتم من أموالنا، وننزع منكم الحلقة والسلاح، وتمنعون من ركوب الخيل، وتتركون تتبعون أذناب الإبل حتى يُريَ الله خليفةَ رسوله والمؤمنين أمراً يعذرونكم به». فوافقه الصحابة في ذلك إلا في تضمين قتلى المسلمين، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «هؤلاء قتلوا في سبيل الله، وأجورهم على الله» ـ يعني هم شهداء، فلادية لهم ـ فاتفقوا على قول عمر في ذلك. وهذا الذي اتفق الصحابة عليه هو مذهب أئمة العلماء، والذي تنازعوا فيه تنازع فيه العلماء؛ فذهب أكثرهم أن من قتله المرتدون المجتمعون المحاربون لا يضمن، كما اتفقوا عليه آخراً.

وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين، ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى هو القول الأول. فهذا الذي فعله الصحابة فأولئك المرتدون بعد عودهم إلى الإسلام يفعل من أظهر الإسلام، والتهمة ظاهرة فيه، فيمنع من يكون من أهل الخيل والسلاح والدروع التي يلبسها المقاتلة، فلا يترك في الجند من يكون يهودياً ولا نصرانياً، ويكرمون الإسلام حتى يظهر ما يفعلونه من خير وشر؛ ومن كان من أئمة ضلالهم وأظهر التوبة أخرج عنهم، وسير إلى بلاد المسلمين الذين ليس لهم بها ظهور، فإما أن يهديه الله تعالى، وإما أن يموت على نفاقه من غير مضرة المسلمين.

ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات؛ وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد الإسلام، وينبغي أن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين وحفظ رأس المال مقدم على الربح. وأيضاً فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك، بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين، فأهل الكتاب ضررهم في الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب، فلا يحلّ لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم بل يفشيها ويظهرها، ليعرف المسلمون حقيقة حالهم. ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند والمستجدين، ولا يحل أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل تعالى؛ وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (يَأَيهاَ النَّبِـي جَاهِدِ الكُفارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ). وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين، والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان، له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ فإن المقصود بالفصل الأول هو هدايتهم، كما قال الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ). قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس — تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم في الإسلام. فالمقصود بالجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهداية العباد لمصالح المعاش والعباد، بحسب الإمكان. فمن هداه الله منهم سعد في الدنيا، ومن لم يهتد كف ضرره عن غيره. ومعلوم أن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أفضل الأعمال، كما قال صلى الله عليه وسلم: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى». وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله». وقال صلى الله عليه وسلم: «رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً مجاهداً جرى عليه عمله وأجري عليه رزقه من الجنة وأمن الفتن». والجهاد أفضل من الحجّ والعمرة، كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتم سِقَايَةَ الحَاجِّ وعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرَام كَمَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وجَاهَدَ في سَبِيلِ اللهِ، لا يَسْتَوونَ عِنْدَ اللهِ، واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمِينَ. الَّذينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ بأَمْوَالهِمْ وأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ، وأُولئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ برَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيْهَا نعِيمٌ مُقِيمٌ خَالدِينَ فيها أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.



المصادر والمراجـع

الجزء التاسـع من النجوم الزاهرة

١ ــ الإبانة عن سرقات المتنبي، لمحمد بن أحمد العميدي ــ تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي ــ دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦١.

٢ ــ الأعلام، لخير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.

٣ ــ أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي ــ دار التعارف، بيروت ١٩٨٦.

٤ ــ البداية والنهاية، لابن كثير ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

٥ ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ــ سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرفين الألمانية، فيسبادن، ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣.

٦ ــ تاريخ ابن الفرات. (ج ٧ـ٩) تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ــ الجامعة الأميركية، بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢.

٧ ــ تاريخ الخلفاء، للسيوطي ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٩.

٨ ــ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان، دار المعارف بمصر ١٩٧٩.

٩ ــ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٤.

١٠ ــ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري ــ تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١ ــ جامع التواريخ، لرشيد الدين فضل الله الهمذاني ــ المجلد الثاني، الجزء الأول ــ راجعه وقدم له يحيى الخشّاب ــ ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ــ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٦٠.

١٢ ــ الجوهر الثمين، لابن دقماق ــ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥.

١٣ ــ حسن التوسل إلى صناعة الترسّل، لشهاب الدين الحلبي ــ تحقيق أكرم عثمان يوسف ــ وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠.

١٤ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، للسيـوطي ـ مطبعـة إدارة الوطن، القـاهرة ١٢٩٩هـ.
١٥ ـ الخطط التوفيقية الجديدة، لعلي باشا مبارك ـ الهيئة المصرية العامة، القاهرة. ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.
١٦ ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) ـ دار صادر، بيروت.
١٧ ـ الدارس في تاريـخ المدارس، للنعيمي ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
١٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ـ إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس ـ إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
١٩ ـ دراسات في التاريـخ الإسلامي، لجمال الدين الشيّال ـ دار الثقافة، بيروت ١٩٦٤.
٢٠ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ القاهرة ١٩٦٧.
٢١ ـ الدر المنتخب في تاريـخ مملكـة حلب، لابن الشحنة ـ دار الكتاب العربـي، دمشق ١٩٨٤.
٢٢ ـ الدولة المملوكية، لأنطوان ضومط ـ دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠.
٢٣ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري ـ تحقيق إحسان عباس ـ مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤.
٢٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ـ (ج ١-٢) تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨ ـ (ج ٢-٤) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢.
٢٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦ ـ صبـح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي ـ المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣؛ ودار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
٢٧ ـ صفة جزيرة العرب.
٢٨ ـ الفقيه المعذب (ابن تيمية) لعبد الرحمن الشرقاوي ـ سلسلة كتاب اليوم، العدد ٢٤٤، سنة ١٩٨٥.
٢٩ ـ فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبـي ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر، بيروت.
٣٠ ـ في التراث العربـي، لمصطفى جواد ـ وزارة الإعلام العراقية، بغداد ١٩٧٥.
٣١ ـ قوانين الدواوين، لابن مماتي ـ تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.
٣٢ ـ كشف الظنون عـن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ـ دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
٣٣ ـ كنز الدرر وجامـع الغرر، لابن أيبك الدواداري ـ (ج ٧) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢.
٣٤ ـ المجتمـع المصري في عصر سلاطين المماليك، لسعيد عبد الفتاح عاشور ـ دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩.

٣٥ ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري ــ تحقيق دوروتيا كرافولسكي ــ المركز الإسلامي للجوت، بيروت ١٩٨٥ ــ ١٩٨٦ (ظهر منه قسمان: الأول يتعلق بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، والثاني عن دولة المماليك الأولى).
٣٦ ــ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، لياقوت الحموي ــ تحقيق وستنفيلد، جوتنجن ١٨٤٦.
٣٧ ــ معجم البلدان، لياقوت الحموي ــ دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
٣٨ ــ معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا ــ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
٣٩ ــ المعجم الوسيط ــ إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
٤٠ ــ الملابس المملوكية، لماير ــ ترجمة صالح الشيتي، القاهرة.
٤١ ــ ملحق دوزي: Supplement aux Dictionnaires arabes-2vols. Paris-Leyden 1927.
٤٢ ــ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة.
٤٣ ــ المؤرخ ابن تغري بردي (مجموعة أبحاث) الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤.
٤٤ ــ مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني، لفؤاد عبد المعطي الصياد ــ دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
٤٥ ــ الموسوعة العربية اليسرة ــ بإشراف شفيق غربال ــ القاهرة ١٩٦٥.
٤٦ ــ الموسوعة الفلسطينية ــ إعداد هيئة الموسوعة الفلسطينية: أحمد المرعشلي، عبد الهادي هاشم، أنيس صايغ ــ دمشق ١٩٨٤.
٤٧ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي ــ (طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر ــ وطبعة دار الكتب المصرية).
٤٨ ــ نظم دولة سلاطين المماليك، لعبد المنعم ماجد ــ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧.
٤٩ ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري ــ دار الكتب المصرية ١٩٥٥.
٥٠ ــ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي ــ دار الكتب العلمية، بيروت.

فهرس المحتويات

ملاحق